طبعة جديدة منقحة ومزيدة

الحرب العالمية الأولى

عرض مُصَوَّر

أعَدَّهُ وحَقّقَهُ على أوثق المصادر

عمر الديراوي

دار العلم للملايين

الحرب العالمية الأولى

عرض مصوّر

أعدّه وحقّقه على أوثق المصادر

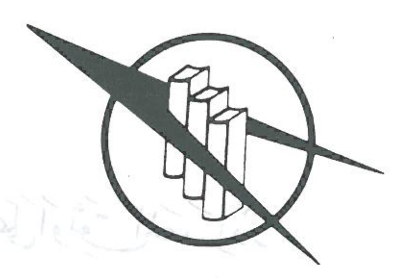
عمر الدّيراوي

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان



الطبعة السادسة عشرة

تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٩

مقدمة

ما أعمق الغور الذي نفذت إليه الحرب العالمية الأولى ولا تزال في ضمير الإنسان الحديث. لقد أعادت تشكيل النسق السياسي الذي كانت عليه أوروبا وقسمٌ كبير من آسيا، هو بلادنا العربية، من قبل. ولا تزال ذكرياتها الأليمة تنتصب واقفة في كل قرية ومدينة من الدول التي جرى فيها القتال، من ضفاف نهر «المارن» إلى «كوت العمارة» و«سكة حديد الحجاز»، حتى بعد أن مضى على انصرامها زمن طويل. إن أبناء الجيل الماضي لا يزالون يتذكرون آلامها القاسية ومرارتها المفجعة، وجوع «سفر برلك» ومآسيه التي لم تتلاش من وعيهم بعد.

وكل حدث تاريخي أو فترة عصيبة يزوّد الناس بكتب جديدة، وهذا ما دفعني لأن أبحث الحرب العالمية الأولى، حيث وددت أن يقرأها الناس في صور، وباستشراف تاريخي حيّ. لذلك عمدت إلى غربلة ما وقع بين يديّ من مصادر وزوّدته بما تسنى لي من صور، راجياً أن ألقي ظلاً ولو محدوداً، على هذه الحرب الفاجعة.

لقد حاولت أن أشرح السبب الذي نشب من جرائه ذلك الصراع المرير، وقصدت بخاصة أن أثبّت في أذهان القراء الكرام ذلك التناقض الظاهري.. في أن الرجال الذين انغمسوا في الحرب كانوا مندفعين بحماس إلى اصطلاء نارها بالمشاركة فيها، مع أنهم يكرهونها من أعماقهم.

كانت كل دولة تحارب في الظاهر للدفاع عن نفسها وحماية استقلالها، لكنها

تطمح أيضاً، وفي نفس الوقت، إلى مغانم يثيبها عليها نشاطها الحربي!

أما ساسة أوروبا و«الباب العالي» فقد طغت عليهم الحوادث وأذهلهم عظمها. وحتى القادة العسكريون من «فون مولتكه» مروراً بـ«كتشنر» و«جوفر» حتى «جمال باشا» لم يتماسكوا بدورهم، إذ أطار واقع الحرب صوابهم، وأفشل ما كانوا يرسمونه لأنفسهم من مفاهيم ومضامين. . كانوا يعتقدون أن «الكم» من حيث السوْق والتعبئة هو السر الذي يكمن في ثناياه النصر. وطبقوا ذلك على أوسع نطاق قدروه. غير أنه سرعان ما تبين لهم أن « الهيدرا»[1] التي استثاروها طفقت تتعدى نطاق قدرتهم في السيطرة عليها وتوجيهها. وحينئذ صدق المثل: «وانقلب السحر على الساحر».

وقتذاك تعثر الساسة والجنرالات عاجزين قبالة التنين الذي جهزوه. فبدوا أشبه ما يكونون إلى بحارة في سفينة دفتها مخلوعة ولا لوحة للقيادة فيها، وتتقاذفهم أمواج عاصفة صاخبة، فلا يدرون أي سبيل يسلكون. كان الفنار معدوماً والبحر هائجاً، فمن هو «نوح» الجديد؟

إنه الجندي المجهول، ذلك المخلوق الذي مزقته أنياب الحرب، فتلاشى في واقع الحياة ولم يخلِّف إلا خطوطاً سوداء في لوائح الضحايا، وأرقاماً تقلّ أو تكثر في خسائر الحرب. لكني أحاول الآن بعثه من جديد، وعن طريق الصور هذه المرة.

لقد كانت الحرب على الدوام تدفع إلى الاختراع. ولست بمعرض الدفاع عن أن عنصر الشر هو الذي يتغلب في المخترعات أثناءها. ولكني أقصر إشارتي فقط على القول: إن فن التصوير الفوتوغرافي جاء أحد المخترعات الخيِّرة فيها. فقد تخطى هذا الفن دور الطفولة أثناء «حرب القرم»، ثم عقبت، «حرب البوير» في جنوب إفريقيا، فتم تأريخها حية بفضل «الكاميرا». وكلتا الحربين طواهما سجل التاريخ منذ زمن ولم تخلّفا أثراً يذكر. أما الحرب العالمية الأولى فما زالت حديثة العهد نوعاً، كما أن آثارها ما زالت قائمة حتى الآن[2]. وفي أيامها كانت «الكاميرا» قد ترعرعت وصلب عودها، فغدت قادرة على تصوير دقائق حياة كل رجل تقريباً. إنها تعرض صور الساسة والجنرالات في كل مكان، في العرض العسكري، وفي الحياة المدنية. كما تبيّن

(١) الحية ذات الرؤوس الكثيرة في الميثولوجيا الإغريقية.

(٢) وما إنشاء شطرنج من الملكيات والجمهوريات العربية عقب الحرب، ثم قضية فلسطين وما خلفته من نكبات إلا من الآثار غير الحميدة لتلك الحرب.

آلات الدمار التي استعملها قادة الجيوش بعد أن زوّدهم بها ساسة بلدانهم. والعدسة تنتقل من موقع إلى موقع: من خنادق الجبهة الأمامية حيث المدافع تجرها البغال، إلى ورشات مصانع الذخيرة حيث ينصبّ عرق العمّال المخدوعين في المحافظة على شرف ملك حقير أو قيصر طاغية أو سلطان مأفون. ومن الأرياف المخرّبة في «الصرب» والضيع المهجورة في «بلجيكا»، إلى صفوف المواطنين أمام مراكز توزيع المؤن بالبطاقة في «باريس»، وصرعى الجوع في «غزة» والأم التي أكلت لحم ابنتها في «جونيه».

هنا تبدو الطاقات البشرية التي أهدرت، والرجال الذين قاتلوا، وقاسوا مصائب الحرب، وتشظى الرصاص في أجسادهم، ثم ماتوا وهيل عليهم التراب أو غُرزت على بقايا عظامهم النصب، حين لم يعثر رفاقهم على جثث يدفنونها. ان العدسة رفيقة هؤلاء، تفضح خفايا أوضاعهم الفظيعة، وتروي معاني النكبة والأسى في ملامح وجوههم وهم يُحتضرون. إنها خرساء، لكنها تنطق بحشرجات نفوسهم قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة وسط الوحل في الخنادق. فشكراً «للكاميرا» ومن أحسن الإفادة منها.

بفضلها يمكننا أن نعيش الحرب العالمية الأولى من جديد، لا أن نقرأ عنها فحسب. ذلك أن الصورة تترجم إلى كل لغة وتنطق دون حروف.

والواقع أنني استعنت أول الأمر بعدد وافر من الصور، بيد أني رأيت الأفضل أن أقوم بعملية الانتقاء، وما أعسرها من عملية!

كان هناك بعض الصور التي نشرت من قبل مراتٍ، ولكنها مع ذلك تفرض نفسها، فآثرت ضمها إلى هذه المجموعة. وكان هناك صور لم تُنشر إلا مرة واحدة أو اثنتين فاضطررت إلى ايراد أوفاها معنى وأشملها هدفاً.

ولم أحاول أن أجعل الكتاب «تأريخاً» للحرب، بقدر ما كان همي أن أعرضها عرضاً. ولهذا، تجاوزت الخوض في أسباب تلك الحرب ونتائجها. ولم أعمد إلى التفصيل في شرح المواقع الحربية بل اقتصرت على إيضاح الخطط العامة التي تبنّاها القادة العسكريون فيها. ذلك أن «نفسية» الحرب، إذا جاز التعبير، هي التي أهدف إلى تصويرها من هذا العرض. أما «دراسة الحرب» فإن لها كليات عسكرية ومؤلفات معينة يستطيع أن يرجع إليها من يهمه الأمر.

ولقد حاولت أن أجد في الحرب عبرة. . . آملاً أن يتعظ بها الجيل الجديد بعد

أن اكتوى الجيل السابق بنار حربين عالميتين، ليست «جريمة «ناغازاكي» إلا شاهداً على «وحشية» الثانية منهما.

إن الحرب لعنة، وأشد منها نكراً أن ندعو لها. . أما السلام فنعمة وبركة، فما أنبل الداعين إليه.

ع.د.

الفصل الأول

١٩١٤

في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩٠٠ تزوج الإرشيدوق فرانز فرديناند «Archduke Franz Ferdinand» من الكونتيسة صوفي شوتيك «Countess Sophie Chotek»، وكانت حفلة الزواج كئيبة يغمرها الغَمّ والكدر. كان العريس ولي عهد إمبراطورية آل هابسبورغ - يأتي ترتيبه الثاني لارتقاء العرش، فيكون إمبراطور النمسا، وملك هنغاريا، وصاحب ألقاب كثيرة أخرى. أما عروسه صوفي فكانت مجرد كونتيسة، لا تحوز من مراتب الشرف ما يجعلها أهلاً للاقتران بسليل أسرة هابسبورغ الرفيعة. إلا أن فرديناند (الرجل) كان قد وقع في غرام صوفي (المرأة)، وهو مصمّم على الزواج منها باصقاً على شرف أسرته المزيف. فاضطر في سبيل ذلك إلى التخلّي عن كافة الحقوق الإمبراطورية التي يتمتع بها أبناؤه فيما لو تزوج زواجاً تسمح به تقاليد الأسرة. كذلك لم تغْـدُ صوفي أرشيدوقة ذات سمو امبراطوري. . مما جعل الكثير من أفراد الأسر المالكة في أوروبا يتطيّرون من هذا الزواج، ويرون فيه نذير شؤم على أسرة هابسبورغ نفسها.

ولم يطرق خلد أي من هؤلاء المتشائمين أن فرانز فرديناند كان يحدّد يوم وفاته حين عيّن تاريخ زواجه ذاته. كان هذا مغيّباً في بطن التاريخ، وأنّى للناس أن يقدّروا ما تنطوي عليه الغيوب! وأبعدُ من ذلك عن كل تنبؤ وتقدير أن أحداً لم يتكهن بهلاك بضعة ملايين من البشر تُزهق أرواحهم من جراء اغتيال أرشيدوق عاثر الحظ.

إن يوم الزواج هذا هو الذي أشعل فتيل الحرب العالمية الأولى.



فرانز فرديناند مع أسرته

كان فرانز فرديناند رجلاً قاسياً عنيداً يتصف بالوحشية شأن الكثير من أفراد الأسر المالكة، فهو لا يطيق أن يعارضه أحد، وغير مهيأ للحياة في عصر ديمقراطي السّمة. كان ملكاً شرقياً يظن أن «حق الملك الإلّهي» السخيف هو الذي لا يزال بيضة القبّان. وكان له حسنة واحدة: لقد أحب زوجه وأخلص لها.

ولشدّ ما كان يضايقه ويسبب له الحنق والانزعاج أن يراها محرومة من مشاركته امتيازات منصبه، حتى إنها لا يحق لها أن تجلس إلى جانبه في أية حفلة رسمية أو مناسبة عامة. فماذا يفعل؟ كان هناك مهرب واحد للزوج المحب من هذه القيود. وهو منفذ يستطيع فيه الأرشيدوق أن يتمتع بمجده كما تشاركه صوفي في ذلك المجد. إنه اللقب العسكري، وامتيازات ذلك اللقب. فالإرشيدوق يحمل رتبة «فيلدمارشال»،

كما أنه «المفتش العام» للجيش النمساوي ـ الهنغاري المشترك. ولزوجته أن تتمتع بما يمنحها إياه هذا المركز من حقوق، حين يكون قرينها منتدباً بصفته العسكرية.

على هذا الأساس قرر الأرشيدوق أن يقوم بجولة تفتيشية على الجيش في البوسنة Bosnia، سنة ١٩١٤. ففي عاصمة تلك المقاطعة، سراجيفو، يستطيع «المفتش العام» أن يركب عربة مكشوفة وقرينته إلى جانبه. وفي الثامن والعشرين من حزيران، أي عيد زواجهما بالتحديد. وهكذا.. بدافعٍ من الحبّ المغرور، سار الأرشيدوق إلى منيّته!

كانت مقاطعة البوسنة وشقيقتها مقاطعة هيرسوجوفينا Hercegovina أحدث الممتلكات التي استحوذ عليها آل هابسبورغ، نتيجة لضعف الاستعمار التركي. إذ ظلّتا طوال عهد الاتراك مسرحاً للانتفاضات القومية المتكررة والثورات التي ما تلبث أن تخمد حتى تشب من جديد. أما في سنة ١٨٧٨ فقد خضعتا لإشراف جيش النمسا ـ المجر، ثم تمّ ضمّهما إلى آل هابسبورغ سنة ١٩٠٨. ولما كان سكان هاتين المقاطعتين من السلاف الجنوبيين، والصرب، والكرواتيين ـ لم يرق للكثير منهم، والشبان على وجه الخصوص، أن يتم إلحاقهم بحوزة النمسا عوضاً عن السماح لهم بالانضمام إلى صربيا، دولتهم القومية. لقد شعروا أن إمبراطور النمسا ملكاً دعيّاً فيهم، وما أسهل على مثله أن يهمل بلده بل يخون!

وكان الشبان الوطنيون من هؤلاء يأتمرون فيما بينهم، بل ويقومون بمحاولات (فاشلة) لاغتيال الضباط النمساويين وكبار أفراد آل هابسبورغ على وجه الخصوص. وحين أذيع نبأ زيارة الأرشيدوق المقبلة للمنطقة، اجتمع نفر من تلامذة المدارس الثانوية وقرروا أن يطلقوا عليه الرصاص. وقد لقوا تشجيعاً على ذلك من جمعية صربيّة كانت تعمل في الخفاء، كما زوّدتهم الجمعية ببعض الأسلحة الخفيفة لهذا الغرض.

كان رئيس تلك الجمعية رجلاً غامضاً اسمه آبيس Apis. وكان قد فكر طويلاً في تحرير قوميته ووجد أن العنف هو السبيل الوحيد فتبناه. لذا نراه أعدّ مؤامرات مختلفة من قبل، لكنها فشلت جميعاً. أما هذه المرة فقد حالفه النجاح، وتم تنفيذ خطته كما شاء. لقد نجح آخر الأمر.

ففي ٢٨ حزيران سار موكب الأرشيدوق وزوجته عبر الشارع الرئيسي في سراجيفو.

ونفذ الطلاب الوطنيون خطتهم. أما واحد منهم فقد خانته الشجاعة فعجز عن أن يسحب مسدسه من جيبه، وأما الثاني فقد أشفق على زوجة الأرشيدوق ووبخه ضميره، فامتنع عن أن يكون السبب في موتها، وأما الثالث فقد طوّح برُمّانة يدوية على العربة المكشوفة التي تُقلّ الأرشيدوق وزوجته ـ لكن ذراعه لم تتوتر انذاك، فقصّرت القنبلة عن إصابة الهدف.

ومع أن المحاولة قد فشلت، إلا أنها تعبير عن كراهية الصربيين لرجلٍ من أسرة مالكة تحكم الصرب وما هي منهم. بل إنها أسرة مالكة قد وفدت على البلاد، فصار مشروعاً في أعين الناس أن يتم التخلّص من كل فرد منها.

ولم يتأثر الارشيدوق بتلك المحاولة الذي اعتبرها صبيانية، بل تابع طريقه إلى قاعة الاستقبال المخصصة له في قلب المدينة. لكن زوجته رُوّعت من ذلك. لقد فسدت زينتها!!

واعتبر الأرشيدوق إلقاء القنبلة إهانة كبيرة لشخصه، فقرر أن يغادر المدينة. لكنه لم يبلّغ سائق عربته، فسار هذا في منعطف غير مقصود حيث أوقف العربة، وعاد بها إلى الخلف. وفي ذلك المنعطف أبصر جـفريلو برنسيب Gavrilo Princip، وهو أحد التلامذة، العربة الرسمية أمامه، فاستثاره ذلك ولم يتمالك قواه العقلية، فقفز إليها، وصرع الأرشيدوق بطلقة واحدة. ثم صوّب رصاصة أخرى مهدِّداً المرافق الذي كان يجلس في المقعد الأمامي، كما جرح زوجة الأرشيدوق في المقعد الخلفي من العربة برصاصة أخرى. وقد ماتت الكونتيسة في الحال من أثر ذلك.

على هذه الصورة تم الاغتيال في سراجيفو.

كانت تلك الفعلة في نظر إمبراطورية النمسا أكثر من جريمة. كانت تحدّياً لمركز الإمبراطورية كصاحبة السيادة في مقاطعة بوسنة، بل تحدياً صارخاً لمركز الامبراطورية كدولة عظمى ـ ذلك المركز الذي كان قد أخذ يتدهور في بضع السنوات الأخيرة. وكان ساستها ملزمين بأن يطلبوا تفسيراً مقنعاً للحادث. أما في نظر الوطنيين في الصرب، فهو مفخرة عظيمة: أما تم التخلص من الأسرة المالكة الممقوتة! أوَليس هذا تعبيراً عن قرب التخلص من سيد تلك الأسرة نفسها، ثم من سيطرتها أيضاً!!

فلماذا تحول ذلك إلى حرب عالمية لاهبة؟ هل كان هناك دولة تترقب عذراً كي تشعل نيران حرب ما، وقد واتتها الفرصة في تلك السنة؟ أم أن تلك الدولة (وألمانيا

هي المعنية هنا) كانت قد قررت مسبقاً تسعير حرب واسعة في حزيران سنة ١٩١٤؟

هناك بعض المؤرخين يجزمون بذلك، ويرتأون أن قناة كييل Kiel، الواقعة في شمال ألمانيا، كان قد تم توسيعها حديثاً. وأنه تمّ لهذا الغرض بالذات. كما يؤيدون رأيهم في أن الجيش الألماني في ذلك الحين كان في أوج عظمته، فهو لا يطيق السماح بأن تلحق به جيوش بقية الدول الأوروبية خلال بضع سنين، وبخاصة جيشا روسيا وفرنسا. إنه يريد أن يضرب ضربته قبل أن يفيق منافسوه من غفلتهم.

هذا من حيث وجهة النظر العسكرية. أما من وجهة نظر الواقع، فهو أن فرنسا وبريطانيا (وروسيا القيصرية) كانتا قد استحوذتا على رقاع واسعة من الأرض جعلتاها خاضعة لاستعمارهما، والصناعيون والرأسماليون الألمان يرون أن لهم الحق في نهش بعض الفرائس أيضاً. وساعدتهم دكتاتورية قيصرهم في ذلك. فهم يحاولون تحقيق آمالهم في نهب الشعوب الأخرى، شأن جيرانهم إلى الغرب منهم.

وهناك مؤرخون آخرون يرون أن حد الاحتمال للتناقضات الملازمة بين الدول الأوروبية كان قد انهار، إذ ازداد التوتر بين تلك القوى، فبلغ حداً كان سينفجر في



الشرطة والأهالي يلقون القبض على «جفريلو برنسيب» قاتل الأرشيدوق في سراجيفو.

ذلك العام نفسه (١٩١٤) بطريقة أو أخرى. وهم يرون أن اندلاع الحرب العالمية الأولى كان نتيجة محتومة، وإن لم تكن متوقعة آنذاك، لانفجار ذلك التوتر.

ومن الطبيعي أن يكون هنالك توتر حين تواجه خمس دول الواحدة منها الأخرى على الدوام، والجميع منها يود صيانة سيادته القومية ويرنو إلى التوسع على حساب الآخرين، أو ما يعتبرونه حسابهم. لكن الواقع أن هذا التوتر كان في تلك الفترة أخف حدة مما كان عليه قبلها. فبريطانيا وألمانيا كانتا في فترة وئام، إذ تم إخفات حدة المنافسة في قوة الأسطول البحرية بينهما عقب الاتفاق الذي عقدتاه بصدد خط حديد بغداد، وفيما يتعلق باقتسام المستعمرات البرتغالية في المستقبل.

وحتى فرنسا - المقهورة الذليلة سنة ١٨٧٠ - كانت تسير نحو نسيان الماضي والتصادق مع ألمانيا. ففي نيسان من عام ١٩١٤ جرت انتخابات عامة في فرنسا، أعادت أكثريةً مسالمة تتألف من الراديكاليين والاشتراكيين إلى مقاعد النواب في مجلس الأمة.

ومقابل ذلك كان رجال الصناعة الألمان على أشد الاقتناع، وبحق، من أن ألمانيا ستغدو أقوى دولة في أوروبا عن طريق الازدهار الاقتصادي وحده، عما قريب. فهي في غير حاجة إلى أية حرب لبلوغ ذلك المستوى. وبذلك نسوا أو تناسوا في الظاهر أن التناقضات بين مطامح الدول الاستعمارية (ودولتهم منها) لا تتحمل فترة سلام طويلة. وأن الحرب هي السبيل الوحيد الذي تؤدي إليه تلك التناقضات عندما تحتدم.

أضف إلى ما سبق أن الكثير من المواطنين الإنكليز والفرنسيين كانوا لا يزالون ينظرون بالريبة إلى روسيا والهلع من قوتها العددية ومطامح قياصرتها، أكثر مما يخشون ألمانيا ونياتها التوسعية. وكان الكثير من المفكرين المسموعي الكلمة يتكهنون بقيام اتحاد أوروبي غربي يجمع فرنسا إلى ألمانيا إلى بريطانيا للوقوف أمام العملاق الروسي المتوثب.

إلا أن نظرة عميقة وجدية إلى الموضوع كانت كفيلة بإثبات خيالية تلك الآمال. فبريطانيا لن تقبل الانغماس في مجرى تيار الأحداث السياسية في أوروبا ما لم تكن مصالحها مضمونة في مستعمراتها ضد مطامح القوى الأوروبية ذاتها. وألمانيا وفرنسا لن تسمحا لبريطانيا بالاحتفاظ بجميع تلك المستعمرات الشاسعة، بينما الأولى منها تبغي لها حصة في الاستعمار.



غليوم الثاني

وأيًّا كانت الحال فقد كانت الريح تهب لصالح ألمانيا، كل شيء يسير في الطريق التي تشتهيها، فما الداعي لألمانيا هذه أن تفسد ريحها وتمزق القلوع بالحرب؟

إن الناس لا يستسيغون تقبل بعض الحقائق. هذه طبيعتهم. ومن هذه الحقائق: أن الأحداث الضخمة تبدأ شرارة صغيرة لا يأبه بها أحد. وكذلك تراهم ينفرون من ربط حدث جسيم بسبب تافه، فيأخذون يفتشون عن سبب كبير يليق بمقام جسامة الحدث. وهذا ما وقع في حال الحرب العالمية الأولى. إذ سرعان ما أقنعوا أنفسهم بعد نشوبها بأن هنالك، لا ريب، أسباباً خطيرة أدت إلى هذه الفاجعة. ولكنهم حين تفحصوا القضية حقاً لم يعثروا على تلك الأسباب، فتمحلوا لها أسباباً حسب أهوائهم.

أما الواقع التاريخي الذي ظل يجبههم على الدوام، فهو أنه لم يكن هنالك أحد يريد الحرب عن عزم وتصميم. كانت ألمانيا وفرنسا وروسيا وبريطانيا والنمسا جميعاً عازفة عن استثارة غول، قد تعجز عن التخلص منه بعد إيقاظه. وكان هذا ما قدّره



الإمبراطور فرانسوا جوزيف إمبراطور النمسا والمجر

ساسة تلك الدول. غير أن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر. لقد أخطأ الساسة الكبار، وجاء خطأهم كبيراً مثلهم أيضاً.

كانوا قد حذقوا استعمال الخداع والمناورات في فض مشاكلهم، بل إنهم ربما لجأوا إلى التهديد بالقوة المسلحة أحياناً، ولكن دون عزم على تنفيذ ذلك التهديد. وكان ذلك كافياً لحل كل مشكلة يقع عليها الخلاف. أما في هذه المرة فقد أخطأوا التقدير حقاً، وسارت الريح بما لا يشتهي الربابنة، إذ اندلعت الحرب فعلاً. لقد

تعطّل الكابح الذي اعتادوا استعماله، فوقعوا هم أنفسهم سجناء سلاحهم السياسي ذاته.

وكانت حشود الجيوش هي التي قادت الناس إلى الاقتتال بحكم عظم تأثيرها على شؤون السياسة في دولها.

* * *

كان حكام إمبراطورية النمسا والمجر قد لاقوا متاعب كثيرة في صربيا من قبل. فقرروا هذه المرة أن لا يتقلص نفوذهم عنها أو يرهبوها. والتفتوا نحو حليفتهم ألمانيا ينشدون موافقتها على خطتهم هذه، فوافاهم القبول بها وتحبيذها في الخامس من تموز حين طمأنهم إمبراطور ألمانيا وليم الثاني، ومستشاره بتمان Bethmann، إلى أن بلاده ستسندهم إذا حاولت روسيا تأييد جانب الصرب. كما نصحهم بأن يتخذوا موقفاً صلباً للغاية تجاه صربيا. لكن هذا ما كان يعني القرار بالحرب. فقد سبق أن كفى مجرد التهديد لإعادة النفوذ والتوصل إلى نجاح سلمي في مثل هذه الظروف من قبل، وكان الألمان يعتقدون أنه سيكفي هذه المرة أيضاً. إنهم لم يأخذوا المسألة بعين الجد أبداً. فها هو القيصر الألماني يذهب في رحلة بحرية للنزهة في مياه النرويج. وحتى مولتكه Moltke، رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية، لم يشعره أحد بضرورة قطع إجازته التي صادفت آنذاك! إن أحداً لم يخطر بباله أن تكون الحرب في المنعطف التالي من الطريق.. ومع هذا فقد قرعت البابَ، بل دكته دكاً.

إذلال صربيا

وقد تراخى النمساويون أول أمرهم، شأنهم في ذلك شأن كل عمل يأتونه ثم يفطنون إلى خطأهم بعد فوات الأوان. وتمهلوا ريثما يتأكدون من وجود علاقة وثيقة بين اغتيال الأرشيدوق وبين تشجيع حكومة صربيا على ذلك، أو مساندته، أو تدبير مؤامرة الاغتيال ذاتها. لكنهم لم يجدوا ما يشير إلى ذلك. ولم يجد غيرهم شيئاً من هذا القبيل فيما بعد. إلا أنهم، مهما كان الحال، وجهوا في ٢٣ تموز إنذاراً إلى صربيا بنيّة إذلالها.

قبول الإنذار

وبعد يومين من تلقيه (٢٥ تموز) قبلت الحكومة الصربية ذلك الإنذار بعد تحفظات كافية من طرفها. وهكذا حفظت لإمبراطورية النمسا والمجر شيئاً من الكرامة واعترفت بنفوذ آل هابسبورغ في بلادها. إلا

أن هذا لم يرض حكام الإمبراطورية. فانقطعت العلاقات الدبلوماسية بين الحكومتين في الحال.. ثم عقبها إعلان الحرب في اليوم التالي.

ولم تكن هذه حرباً فعلية في الواقع، بل كانت أقرب ما تكون إلى مناورة دبلوماسية على درجة بالغة من الصرامة. ولم يكن النمساويون قادرين على مباشرة الحرب الفعلية إلا بعد أسابيع طويلة من التأهب والاستعداد.



٢٩ تموز (يوليو) ١٩١٤ في فيينا
الإمبراطور في طريقه إلى ضاحية فيينا لاجتماع بأركان القيادة هناك

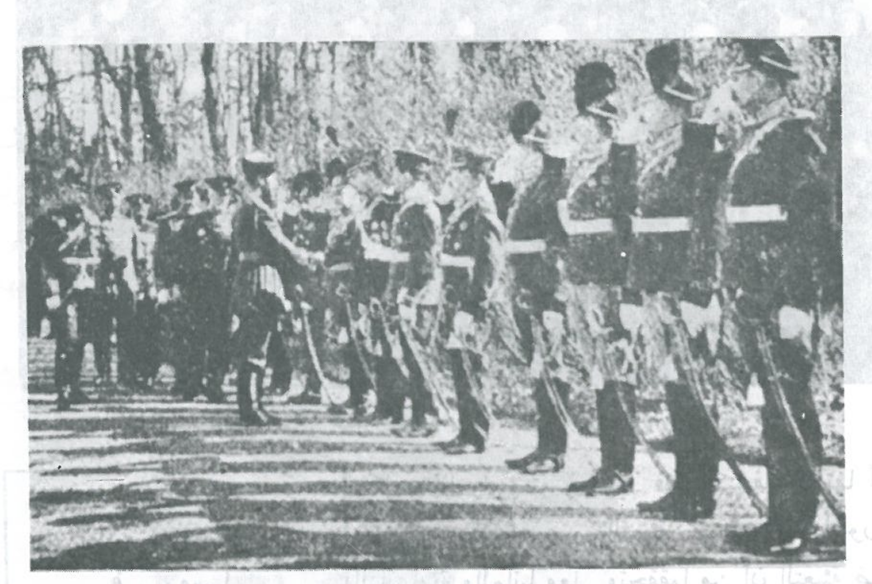
موقف روسيا

وأزف دور روسيا الآن.

كانت هذه راعية الدول السلافية في البلقان وحاميتها، كما تزعم. وهي لا تسمح بإذلال صربيا بحال من الأحوال. هذا علاوة على اعتبار آخر ذي قدر أعظم من الناحية العملية، وهو تهديد منافذ روسيا نفسها إلى البحر المتوسط فيما إذا سيطرت ألمانيا والنمسا على البلقان، حيث تصبح مضايق البحر الأسود في تلك الحال خاضعة لتحكمهما.. وهذا أشد ما تخشاه روسيا، لأن معظم تجارتها مع العالم الخارجي يسلك تلك الطريق. إذن فحتى في حال روسيا، كان دخولها الحرب ينطلق من دافع ضمان سلامتها وبقائها، لا بفعل شهوة الاستحواذ وانسياقاً وراء المطامع المأمولة.

المقابلة بالمثل لا الحرب

كان الروس يودون الإجابة على إجراء النمسا بإجراء مقابل، ومن قبيل رد التحدي لا أكثر. لم يكونوا يتوقعون أن يفلت السهم من قوسه، فينقلب ما قصدوه مظاهرة عسكرية إلى منطلق حرب تلفح الملايين.



٣٠ تموز (يوليو) ١٩١٤ في بطرسبرج
القيصر يستعرض ضباط حامية المدينة قبل اجتماعه بأركان القيادة

السكك الحديدية

وفي هذا الحين تدخّل في الأمر عامل على قدر كبير من الأهمية من الناحية الاستراتيجية. إذ كانت جميع الدول الأوروبية قد أنشأت جيوشاً ضخمة من المجندين الإجباريين فيها. وكانت الخطط المرسومة لسوق هؤلاء المجندين وتعبئة الملايين منهم تستند إلى الخطوط الحديدية[1] في بلدانهم. لكن لوائح السكك الحديدية ومواقيت قطرها لا يمكن أن ترتجل أو تعدل حسب الطلب. فحين يتم تحميل الشاحنة الحديدية لا بد من أن تظل عجلاتها تدور حتى تنتهي إلى هدفها المحدد. وإذا كان يمكن أن تُحثّ الخيل وهي تخوض نهراً

(1) ينطبق ذلك على نشاط الدول الغربية في بناء الطرق المعبدة والسكك أحياناً والمطارات في منطقة الشرق الأدنى والأوسط في الوقت الحاضر.

يعترضها في الطريق، فإن ذلك متعذر في حال العربات الحديدية. وانطلاقاً من هذه الحقيقة كان النمساويون قد اكتشفوا أنه إذا كان بمقدورهم التعبئة ضد صربيا فإنه يتعذر عليهم آنذاك أن يقوموا بالتعبئة ضد روسيا. ولهذا حددوا لعمليتهم وقتاً معيناً.



رجال القبضة الحديدية، قيصر ألمانيا وليم الثاني (غليوم) مع جنرالات حربه

ضرورات الاستراتيجية في روسيا

ومثل هذا واجهت روسيا. فقد اكتشف قادتها أن بلادهم عاجزة عن التعبئة ضد الإمبراطورية النمساوية وألمانيا معاً. وتحققوا من أن التعبئة ضد النمسا معناها إبقاء حدود بلادهم الغربية غير محمية في وجه الجيوش الألمانية الجرارة. إذن، كانت التعبئة العامة لا بقصد الحرب - وإنما بقصد المحافظة على مركزهم في الصراع السياسي - هي السبيل الوحيد أمامهم. وفي يوم ٣٠ تموز قرروا سلوك هذا السبيل. إنهم لم يكونوا يريدون الحرب، وحتى، لم يخططوا على أساسها. وكل ما كانوا يهدفون إليه من إعلان التعبئة هو إظهار أنهم قادرون على التهديد بالحرب ما دام النمساويون قد فعلوا ذلك. وهكذا كانت الخدعة من طرف واحد تتكوّم فوق الخدعة من الطرف الآخر.

خطة الهجوم هي الرابحة

وهنا أيضاً تدخل العامل الإستراتيجي المهم، وأدى إلى نتيجة فاجعة وحاسمة. فقد كانت جميع القيادات العسكرية في أوروبا تعتقد أن اتخاذ خطة الهجوم هو الوسيلة الفعالة الوحيدة في الحرب

الحديثة، ولذا فإن الهجوم أساسي حتى في خطة الدفاع نفسها. وكانت جميعها مخطئة في ذلك تماماً. فقد كان عليها أن تعي الدرس الذي بينته حركات الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥، وحربُ البلقان سنة ١٩١٢ - ١٩١٣، وحتى الحرب الأهلية الأمريكية قبل ذلك التاريخ بنصف قرن، والذي كان مجمله أن جانب الدفاع هو الذي أخذ يتقوى على حساب نظرية الهجوم في الحروب الثلاث. إلا أن أيًّا من المسؤولين في تلك القيادات لم يفطن إلى ذلك.

المانيا ضد جبهتين منذ سنة ١٨٩٢

كان كل رئيس هيئة أركان حرب منهم يمتلك جيشاً بناه على أساس الهجوم، إلا واحداً من هؤلاء. لم تصدق القيادة العامة الألمانية أن بمقدورها الحصول على نصر حاسم فيما لو حاربت بكل قواها على جبهتين: ضد فرنسا وروسيا في الوقت ذاته. ولهذا نرى تلك القيادة قد رسمت خططها



القيصر نيقولاي الثاني

منذ سنة ١٨٩٢، على أساس أن تركّز ثقلها ضد فرنسا فتصرعها أولاً ثم تنقلب إلى روسيا بعد ذلك، وبخاصة أن روسيا تحتاج وقتاً أطول قبل أن تدور العجلة البطيئة للتعبئة فيها.

هل التعبئة تعني الحرب؟

وكثيراً ما قيل في سنة ١٩١٤ إن «التعبئة تعني الحرب» كما إنه كثيراً ما كرر رجال الحرب هذا القول فيما بعد. لكنه كان غير صحيح ألبتة فيما يتعلق بالحرب العالمية الأولى. فقد كان بوسع جميع الدول الأوروبية، إلا واحدة منها، أن تعبىء جيوشها بينا يظل الساسة فيها قادرين على حل مشاكلهم عن طريق التفاوض والدبلوماسية، مبقين جيوش دولهم المعبأة داخل الحدود القومية لبلادهم. أما المانيا فقد دعمت التعبئة بالحرب، فكان الأمر بالتعبئة العامة عند قادتها إنما يعني تحرك الجيوش إلى ساحة القتال.

ميت يفرض القتال!

وبهذا المعنى يكون شليفن Schlieffen الذي احتل المنصب الأعلى في القيادة الالمانية ما بين ١٨٩٢ و١٩٠٦ هو صانع حرب ١٩١٤، على الرغم من تسوّس عظامه في لحده قبل ذلك بزمن طويل. إن «التعبئة تعني الحرب» هي فكرته هو. وإن يده هي التي امتدت من لحده فضغطت الزناد سنة ١٩١٤.

الوطن في خطر!

على هذا الأساس كان إعلان روسيا التعبئة العامة في أراضيها هو الذي قلب برنامج ألمانيا: فإن لم يفعل الألمان شيئاً، فقدوا ميزة التفوق المتوفرة في جيشهم على خصومه، وكان عليهم حينذاك أن يضطروا إلى القتال على جبهتين لا واحدة. وهذا ما كانوا يخشونه ولا يؤمّنون ضمان انتصارهم إن وقع. لقد كان لهم إذنْ، أن يختاروا بين أمرين: إما إيقاف التعبئة في روسيا على الفور، أو مباشرة الحرب على الفور أيضاً. وقد وجه المستشار الألماني بتمان إلى الجنرال مولتكه في الحادي والثلاثين من تموز سؤالاً خطيراً. لقد قال: «هل الوطن في خطر؟» فأجابه مولتكه: «نعم». وكانت تلك اللحظة هي الحاسمة في اتخاذ القرار! فأرسلت ألمانيا إلى روسيا إنذاراً نهائياً بوجوب الإقلاع عن تعبئة جيوشها

خلال ١٢ ساعة. ورفض الروس الإنذار. فأعلنت ألمانيا الحرب عليهم. وبعد ذلك بيومين اثنين، وانطلاقاً من خطط مسبقة، أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا.

ووقعت الحرب!

هكذا نشبت الحرب العالمية الأولى، فرضتها على ساسة أوروبا لوائح سكة الحديد! وكان ذلك ذروة يبلغها عصر السكك الحديدية، ودون أن ينتظر بلوغها أحد.

خطة شليفن

ولم يكن شليفن من قبره قد قرر أن الحرب يجب أن تكسَب في الغرب، فحسب، بل إنه رسم الكيفية التي يتم بها ذلك الكسب أيضاً. وكان جماع خطته يقوم على إنه: ما دام الحد الفاصل بين ألمانيا وفرنسا قصير المدى، وقد أُحكِم تحصينه في كلٍ من الطرفين، فإن النصر في محاولة اقتحام ذلك الخط، غير مضمون. وحتى لو أمكن ضمانه، فإنه لن يتأتى في وقت قصير. إذن فمن الأصوب عدم توجيه القوة الألمانية الضاربة إلى هذه المنطقة. أما إلى الشمال من ذلك الحد، فتقوم مملكة بلجيكا، وتشكل أراضيها قمعاً يمكن أن تنصبّ عبره الجيوش الألمانية، ثم تلتف من وراء الجيوش الفرنسية، فتحيط بها وتغرقها بالنار، إذ يكون الفرنسيون آنذاك بين طرفي كماشة قاسية.



استعراض بعض الفرق الروسية في بتروغراد صبيحة رفض الإنذار الألماني

عبرة التاريخ

ولقد أطلق شليفن على هذه الخطة اسم «كنّي»، وحفظتها أرشيفات غرفة القيادة الألمانية، السرية، بهذا الاسم.

ويبدو أن شيلفن الداهية لم يذكر من التاريخ القديم أن «هنيبعل» بطل «كني» ضد الرومان، كان هو الخاسر آخر الأمر. نعم، إن عملاق قرطاجة قد سحق الكتائب الرومانية في تلك المعركة.. ولكن روما قهرته فيما بعد. وهذا ما تم في حال خطة شليفن.



ملصق بريطاني يدعو الشعب إلى الانضمام إلى الجيش،
ويسأل الله أن ينقذ الملك!

دعونا نحتل بلادكم!

لم يكن لدى القيادة الألمانية غير ما رسم شليفن. ولهذا سارعت ألمانيا إلى تنفيذه. فطلبت الحكومة الألمانية من الحكومة البلجيكية أن تسمح لجيوشها بعبور البلاد. وكان طبيعياً أن ترفض بلجيكا هذا الطلب. فاكتسحها الألمان. وهنا تحركت بريطانيا خشية ازدياد نفوذ ألمانيا في أوروبا، ومن ثم منافستها على استعمار آسيا وإفريقيا بحجة إعادة تقسيم المستعمرات.. لكن الحكومة البريطانية قامت بدعاية محلية واسعة زاعمة أن حرصها على حياد بلجيكا هو ما يدفعها إلى الدخول في الحرب.

والحق أن البريطانيين كانوا لا يودون التورط في ما سموه «بلقان جديدة»، بل إنهم كانوا كارهين حتى لفكرة مساعدة فرنسا ضد عدوها العنيف، لكنهم (وأعني الشعب) حين اعتدى الألمان على بلجيكا، وجدوا أن من الخير إبعاد الشر عن جزيرتهم ذاتها، فاجتمعت كلمة النواب في البرلمان على ضرورة إعلان الحرب مباشرة على ألمانيا. وهكذا دخلت بريطانيا الحرب بوحدة وطنية قلّ أن توفر لها مثلها من قبل.



إنهم فرحون أمام مكاتب التجنيد.. لقد ظنوا الحرب نزهة. فهل صدق ظن هؤلاء البريطانيين؟!

إمبراطورية نخرة

كانت إمبراطورية النمسا والمجر أبطأ من غيرها كثيراً في السير نحو الحرب. فمع أنها هي التي أثارت الزوبعة، إلا أنها كانت آخر من ينغمس فيها. فبعد ضغط وإلحاح من ألمانيا فقد أعلنت الحرب على روسيا في ٦ آب. واجتاحت جيوشها الدانوب لغزو صربيا في ١١ منه، حيث رافقها الحظ التاعس؛ إذ لم يمض أكثر من شهرين على ذلك الغزو حتى طرد الصربيون جيوش الإمبراطورية خارج بلادهم. بل إنهم غزوا جنوب المجر أيضاً. وحتى بريطانيا وفرنسا، تلكأتا في إعلان الحرب على الإمبراطورية، فلم تفعلا ذلك قبل ١٠ آب.

قرار تركيا

وكان هناك قرار سري قد اتخذ آنذاك. ففي ٣ آب كانت الدولة العثمانية قد عقدت حلفاً مع ألمانيا، مع أن الأتراك كانوا يترددون في تنفيذ ذلك الارتباط.

هستيريا الحرب

كان المجندون يسارعون إلى وحداتهم، في عرض أوروبا وطولها. وكانت القطارات حاملات الجنود تقرقع على قضبانها إلى حيث تقتضي الخطط المرسومة. إن الجماهير تتظاهر بحماس في كل عاصمة وتنفجر صائحة «إلى باريس» أو «إلى برلين». والبرلمانات تصوّت بالإجماع تقريباً على هذا القرار وذاك. يا لها من هستيريا تدفع إلى الموت!

ففي بريطانيا مثلاً، كان عدد ضئيل من النواب هم الذين استنكفوا عن التصويت لصالح الحكومة يوم ٦ آب.

وفي فرنسا أُدخل الاشتراكيون الوزارة لأول مرة باسم «المحافظة على الوحدة المقدسة».

ومثل ذلك تم في ألمانيا. فبعد أن عارضت أقلية من الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان، الحربَ في اجتماع الحزب المخصص لمناقشة القضية، خضعت تلك الأقلية لمبدأ حتمية النظام في الحزب، وصوتت لصالح الحرب، في الريخستاغ. وقد سُر القيصر وليم الثاني من تصرف الاشتراكيين الموما إليه، وقال:

«لست أرى الآن احزاباً في ألمانيا، فالجميع ألمان، وأبناء ألمانيا فقط».



فرح الباريسيون ورقصوا في الشوارع ابتهاجاً بإعلان الحرب

وفي النمسا لم يكلف الإمبراطور نفسه عناء استشارة البرلمان أصلاً. أليس هو ملكاً مطلقاً، إذن فلا رأي للشعب!

وفي المجر نالت الحرب من الحكومة إجماعاً مطلقاً.

أما في صربيا، فإن الاشتراكيين فيها صوتوا ضد الحرب، لكن بلادهم كانت مدافِعة لا مهاجمة، فلا خيار لها أبداً.

التزييف باسم الكيان

ودون النظر إلى الاجتماع الذي نالته فكرة الحرب في كل مكان تقريباً، فإن أياً من أعضاء البرلمانات ورؤساء الدول ما كان يفكر في الحرب حباً في العدوان. كانت كل دولة جازمة الاعتقاد (أمام شعبها) في أنها تدافع عن كيانها نفسه، حتى مع ان المحافظة على ذلك الكيان تتم عن طريق هدم كيان دولة أخرى بعد غزوها!

جيل غر

لم تكن قد نشبت حرب بين القوى الأوروبية الكبرى منذ حرب السبعين ١٨٧٠ (بين المانيا وفرنسا)، وكان الجيل السائد في سنة ١٩١٤ جيلاً لم يكتو بنار الحرب، ولم يعرف ويلاتها. فكان الجميع يتصورونها عرضاً عسكَرياً منسقاً، وطويلاً طويلاً، وكله بهجة واعتزاز. أما معاركها فقد رسموها في أذهانهم معارك عظيمة قرأوا أوصافاً لها في التاريخ، وتصوروا أنها لن تلبث أن تبدأ حتى تنتهي، ويتم النصر فيعود الجنود يحملون أكاليل الظفر والفخار. كانوا كلهم شبه مؤكدين للنصر، فمن ينهزم إذن!!

على هذه الصورة الساذجة كانت حشود لندن وباريس وبرلين تتخيل الحرب. كان الكثير من الأفراد يتوقعون أن يعودوا إلى اهلهم مع عيد الميلاد من العام نفسه.. انها شهور قليلة، يطلقون فيها الرصاص ثم تنتهي الرحلة!!

لمَ احارب؟

ولم يحاول أي من هؤلاء أن يتساءل: «لمَ أحارب؟»، كانوا جميعاً يعرفون ذلك. أليس «الوطن»، أو «فرنسا» أو «الأم روسيا»! لكن هذا لا ينطبق على البريطانيين. إذ أنهم وهم يشعرون بالحماية في جزيرتهم خلف مدافع الأسطول الحارسة، ذهبوا إلى الحرب لسبب واضح لديهم هو ما زعمته حكومتهم: حياد بلجيكا واستقلالها المغصوب. وهكذا، كان الساسة البريطانيون يغلفون نواياهم أول الأمر بنزعة مثالية. فقالوا: «من حربنا هذه نسعى إلى إنهاء الحروب» كي «يكون العالم بسلام فتزدهر فيه الديمقراطية». لم يكونوا إذن، يقنعون بالنصر، وإنما زعموا أنهم ينشدون عالماً أفضل!

وسرعان ما انتقلت هذه اللمسات المثالية إلى بلدان أخرى فرددتها. وهكذا اخترعها البريطانيون، ثم خدعوا انفسهم بها، وأوقعتهم في حيرة مربكة.

نوعية القادة

كانت جميع دول القارة قد عبأت ملايين الرجال. وقد بلغ الذين اشتركوا في القتال ٦ ملايين، كانوا إما مجندين جدداً، أو مواطنين قد سرحوا من خدمتهم الاجبارية منذ عهد قريب، فأحيلوا إلى الاحتياط. وكان قادة هذه الجيوش كباراً في السن يعرفون الحرب في دراساتهم على الخرائط، أو

تقارير المناورات القليلة التي أجروها. وكان القواد العامون: جوفر في فرنسا، ومولتكه في المانيا، وكونراد في النمسا والمجر، والغراندوق نيقولا في روسيا ـ رجالاً يدينون بمناصبهم إلى ضربة حظ سياسية مساعفة أو المحسوبية، أكثر من جدارتهم بتلك المناصب. أما جُماع فلسفتهم العسكرية فهو ان: القائد الأدهى هو الأصعب إثارة، أي ذلك الذي يحتفظ بأعصابه هادئة فلا يهتز مهما ارتفع رقم القتلى والجرحى والمشوهين من جنوده وهم ينفذون أوامره.

إن القليل من هؤلاء قد سبق لهم أن سمعوا طلقة واحدة من حرب، وظلوا الآن على معلوماتهم نفسها، فكان الواحد منهم يقبع في مقر الرئاسة قصياً وراء خطوط القتال، ويظل يزوق خرائطه بخط مستقيم من هنا وآخر أعوج من هناك. كانوا يصرخون أوامرهم في سماعة التليفون، بينما يحيط بالواحد منهم مجموعة من الضباط الطواويس.



البغال تجر المدافع.. وهي طبعاً في حاجة إلى علف.. وهذه مشكلة

التناقض في الحركة

كان الجنرالات البريطانيون قد شهدوا حرباً حقيقية في «حرب البوير»، ولكن ما شهدوه كان حربَ مسافات شاسعة، وضد عدوٍ لا يُرى. ولهذا كانوا في حقيقتهم ضباط جنودٍ خيالة. وكانت الخيول في الحرب العالمية الأولى في كل مكان: لم يكن جيش واحد يتمتع بمواصلات

ميكانيكية. كان هناك بضع سيارات يستعملها الجنرالات وضباط القيادة إذا ما تنازلوا عن مقاعد سروجهم. أما الجنود المشاة، فكانوا يخبطون الأرض فتهترىء اخامصهم، بعد أن يحطهم القطار عند آخر الخط. ومن هنا نشأ أوج التناقض في الحرب، فالرجال سريعاً ما يُقذَفون إلى المعركة، لكنهم ما ابطأهم حين يصلون! لم تكن الجيوش تستطيع الحركة بأسرع مما كان يفعل جنود نابليون أو حتى فيالق الرومان الغابرة، حين ينشب القتال. بل انهم لم يكونوا يتحركون بسرعة مثلها، إذ ان الامدادات كانت تصل إلى النقطة المهددة من خط المعركة حتى قبل أن يستطيع المشاة اختراق ذلك الخط. فالقطارات الحديدية أسرع من القدمين، وإلى هذا يرجع أن الدفاع كان أقوى من الهجوم، طوال الحرب العالمية الأولى. فالدفاع مُمَكْنَنٌ، بخلاف الهجوم.

علف البغال أولاً

كانت المؤن والمدافع تجرها الخيول. فكان كل جيش يضطر إلى حمل كمية من العلف لبغاله أكبر من كمية الذخيرة له أو الجراية لافراده. وكان توفير المؤن من البلاد الأم أمراً ضرورياً لجيشها، فهذه القطعان الهائلة من الجنود لا يمكن تموينها من البلاد التي يقاتلون على أرضها. ومن هذا كان الحجم البالغ الذي قدره الجنرالات ضرورياً لكسب الحرب هو الذي جعل من المستحيل على الجيوش أن تكسب، بل بالأحرى ان تتحرك.

شهر واحد فيه حرب

لقد كان هناك حرب حركة حقيقية لشهر واحد فقط، هو الشهر الأول، قبل أن يخفت الاندفاع في قلوب الجنود، ثم تلت ذلك أربع سنوات من الجمود الاجباري. وكان الجميع يتوقع أن تكون الحملة الحاسمة في الميدان الغربي، لكن أياً منهم لم يأخذ قراراً بذلك. أما القرارات التي اتخذوها فكانت ضد الحصول على نصر سريع... كانوا يتوقعون استمرار الحرب إلى ما لا نهاية.

أما مفتاح هذه الحملة الغربية فهو تقدم الألمان عبر بلجيكا. والغريب أن الفرنسيين يعلمون بهذه الخطة منذ زمن طويل، لكنهم لم يحتاطوا لوقوعها حقيقة.. ويعود ذلك إلى أنهم ما كانوا يصدقون أن في مقدور الألمان تشكيل فرق حربية من جنود الاحتياط وحدهم، ولهذا بخسوا القوة الحربية الألمانية في تقديرهم بنسبة

الثلث. وكان الفرنسيون يقدّرون ان بوسعهم مواجهة الألمان بشكل أو آخر، حتى لو شكلوا هذه الفرق، إذ أنهم سيضربون الجناح الألماني من جبال «آردن» اثناء عبور الألمان لبلجيكا، كما أنهم سيقومون بهجوم مركز عليهم في «اللورين». والهجوم هو الكاسب على الدوام، حسب المفهوم العسكري السائد آنذاك. هذا هو الجواب الذي كان الفرنسيون يقدمونه ويعللون أنفسهم بنجاحه.

الهجوم والنكبة

وقد حدث هذا الهجوم فعلاً في ١٤ آب، وكان فاجعة. إذ عانت الجيوش الفرنسية من الخسائر في الأرواح، ودفعت ثمناً باهظاً، لم تدفع أسوأ منه حتى في الهجوم التعس المشهور في« فردان ». لقد نكبوا بزهرة جيشهم، وخيرة ضباطهم، وأكثر فرقهم حماسة للقتال. وكان ذلك خسارة لم يعوضوها فيما بعد أبداً.

لقد انشطرت القوات الفرنسية المهاجِمة واعتراها الذهول من شدة صمود التحصينات الالمانية العتيدة، فارتد الجنود إلى الوراء في غير نظام، لأنهم لم يتلقوا أي تدريب على الحرب الدفاعية أثناء التقهقر. إلا أن هذا الانهزام كان خيراً وبركة عند جنرالهم جوفر، إذ أنه الآن، وقد أخفقت خططه الهجومية، وجد من بقايا جيوشه ما يوجهه إلى الجناح الأيسر فيكسب به معركة المارن، على غير أمل في ذلك من جانبه، وربما دون كفاءة حربية جديرة بالتنويه.



الألمان في أحد المقاصف البلجيكية بعد احتلال البلاد

باز وقطاة

لم يلق الالمان ما يعوقهم أو يعكر خواطرهم أثناء زحفهم عبر الأراضي البلجيكية، فقد كان جلياً أن البلجيكيين ليسوا نداً للرهوط الألمانية المنقضة على بلادهم بعنجهية الآريّ القديم وشراسته...

والواقع أن الألمان لم يجدوا هناك أية مقاومة، فزاد ذلك من سرعتهم في الحركة، وجعل الحرب، حتى في هذه المرحلة المبكرة منها، تعتمد عامل الحركة على أنه عامل فعال في تكتيكها.

والحقيقة أن شليفن، حين رسم خطته هذه، كان يفترض عدم وجود مقاومة أو عدو في بلجيكا. ومع انه ليس من حسنات القائد أن ينطلق من هذا الافتراض حين يباشر رسم خطة كاملة لجيش ما، فإن خطة شليفن وجدت لها تبريراً كافياً الآن.

التسليم والموت

كان الفرنسيون بعيدين في جبهة أخرى، يسرعون إلى مسلخ نصبه لهم الألمان على شكل تحصينات صامدة وقوية أقاموها على جبهة اللورين. وكان الجيش البلجيكي الضئيل قد آثر السلامة فانسحب من طريق زحف الألمان، وعزل نفسه في قلعة انتورب. وكان المأمول أن تصمد لييج بضعة أسابيع. إلا أن لدندورف، الذي لم يكن جنرالاً عاملاً بعد، قد بخر ذلك الأمل، إذ كفى الألمان مؤونة احتلال المدينة بأن رافق بنفسه شرذمة من الجند، وقاد سيارته إلى بوابتها الرئيسية مطالباً أهلها وحاميتها بالتسليم. وحين رفض البلجيكيون ذلك دكت مدافع الهاوتزر النمساوية قلعة المدينة وتناثر حطامها في الهواء.

الدفاع اليائس

ولم يستطع البلجيكيون أن يفعلوا أكثر من نسف الخطوط الحديدية. وكان لهذا العمل الدفاعي الوحيد أثر كبير على الألمان. فقد انقطع تدفق التموينات الألمانية إلى جنودهم من جراء ذلك، كما اضطر وصول الامدادات العسكرية إلى الإبطاء.

الجندي المرهق

كان المشاة الألمان يتقدمون راجلين، وكان تقدمهم يتم بسرعة بالغة. فالجيش الأول بقيادة كـلـوك Kluck، والذي كان على محيط دائرة خط الهجوم الالماني من جهة العدو، كان يقطع ثلاثين ميلاً في

اليوم الواحد. ولهذه السرعة ثمن، وكان على الألمان أن يدفعوه. فقد كان الجندي الألماني ينهكه التعب ويكاد يشله الارهاق قبل أن يرى جندياً معادياً يقاتله. وهذا ما زين للفرنسيين محاولة اختراق الجبهة الألمانية والنفوذ إلى داخلها، فتقدموا عبر الآردن. لكن الألمان كانوا قد حسبوا حساب هذه الحركة، فجعلوا يكثفون جناحيهم أثناء زحفهم قدماً.



سيدا ألمانيا
هندنبرغ ولندندورف

الفرنسيون في الشرك

حتى إذا ما اصطدم بهم الفرنسيون، صعقهم الألمان وحطموا أقوى جيوشهم بعد أن شطروها. وحين اخفق الهجوم الفرنسي - ولم يكن هؤلاء يتقنون الدفاع - لم يجدوا مناصاً من التقهقر. ذلك هو النقيض الطبيعي الذي يفرض نفسه في الحال. وهكذا دحرهم تكتيكهم نفسه، وخلق في جيوشهم الفوضى والاضطراب أكثر مما فعل ذلك الألمان.

التراجع

في هذه الفترة كانت جيوش الجناح الأيسر الفرنسية معلقة في الهواء، فقد تراجعت على قوس عميق إلى مواقع غرب نهر «موز». وإلى الشمال من ذلك الموقع، في بلجيكا، كان الألمان قد تخطوه، وخلفوه وراءهم. وهكذا صار على الجبهة الفرنسية أن تتمدد وتطول على صورة لم تكن تتوقعها. وحين دخل البريطانيون الحرب، كان هؤلاء يتصورون أنهم سيكونون أحراراً في تقرير الاستراتيجية التي سيسيرون على أساسها. وكانت حملتهم الصغيرة، مع أنها لا تتجاوز المئة ألف رجل، قادرة على أن تنتقل حيث يشاء لها واضعو الخطط في لندن، والفضل في ذلك للبحرية الملكية.

عظام.. لكنهم جهلة

وفي ٥ آب انعقد مجلس الحرب البريطاني برئاسة أسكويث، رئيس الوزراء، وكان جميع الجنرالات القادة حاضرين. وناقش الجميع كيف يساعدون بلجيكا.

هل يقتضي ذلك أن يذهب الاسطول البريطاني إلى انتورب؟

أو يوجه ضربته إلى المانيا في عقر دارها بأن ينزل الجنود في شلزويج؟

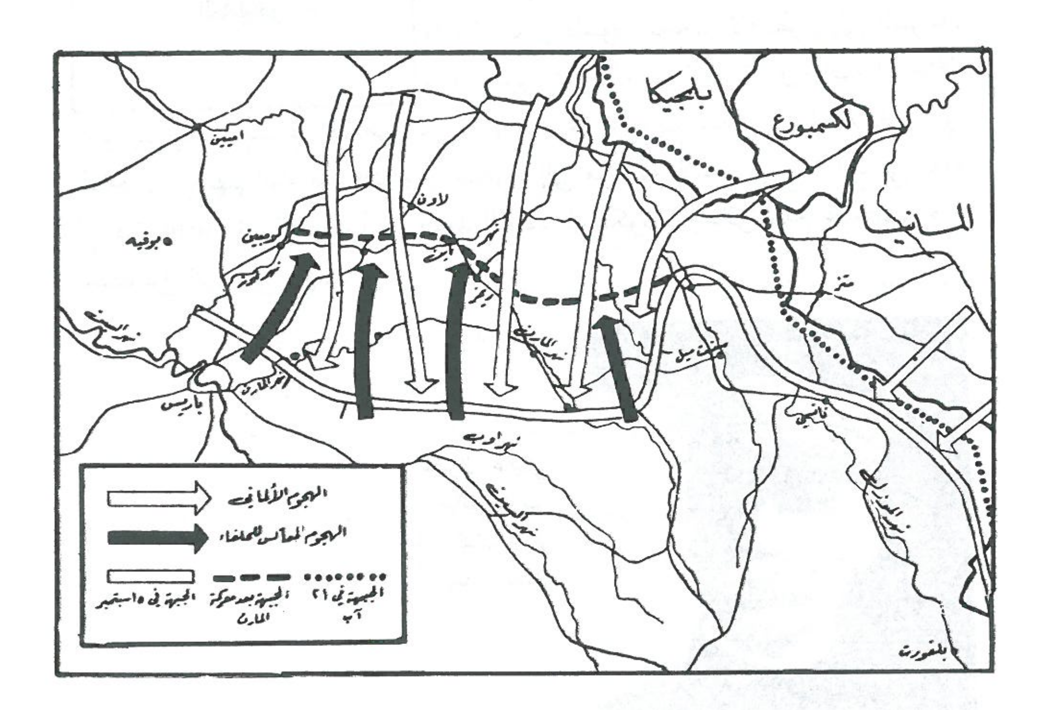
وفي ذلك الاجتماع اطلع السير هنري ولسون من مكتب الحرب، الرجال العظام على خطة جعلتهم يبدون جهلة صغاراً. لقد أبلغهم أن الحملة البريطانية مهما كانت صغيرة، لا تستطيع أن تتحرك إلا حسب خطة مرسومة ومواقيت معينة. ولم تكن هنالك خطة من هذا النوع إلا واحدة كانت قد أعدت منذ سنة ١٩١١، وجوهرها أنه ينبغي وضع الأسطول البريطاني على ميسرة الفرنسيين.

وكان لا مناص من أن يعترض البعض ان هذه الخطة لن تساعد بلجيكا البتة ـ «وهي البلد الذي دخلنا الحرب لإنجاده» ـ لكنه كان: «إما أن نتبع هذه الخطة أو لا نفعل شيئاً». وهكذا وافق مجلس الحرب، ثم من بعده الوزارة، على ذلك غير راضين. وهكذا أيضاً، فقدت السياسة البريطانية حريتها في الحركة منذ البداية، وأنزل الأسطول البريطاني حيث ظهر في الجبهة الغربية.

شكراً للخطط السرية التي وضعها رجال التكتيك العسكريون قبل وقوع الحرب بثلاث سنوات.

الاصطدام مع البريطانيين

كانت القوات البريطانية في مراكزها المقررة في ٢٠ من آب، وهي تجهل أن الالمان على مقربة منها. فتقدمت بخطى متعثرة إلى الأمام حتى وصلت «منز» الشهيرة بالمناجم في ٢٢ آب. وهناك دهشت أعين الألمان حين وقعت عليها. وفي ٢٣ آب هاجم طابوران من الألمان سريتين من الجنود البريطانيين، فصمد هؤلاء ومنعوهم من احتلال مواقعهم. وكانت نار البنادق البريطانية محكمة التنظيم والتسديد (١٥ طلقة، سريعاً، دائرياً، في الدقيقة) حتى ان الألمان ظنوها صادرة عن مدافع «ماشين غان». والحق ان مدفعين سريعي الطلقات فقط كانا مع كل سرية بريطانية. وكانت موقعة منز لا تزيد عن كونها مناوشة صغيرة لا تربو عن بعض الاصطدامات في حرب البوير، هذا إذا قسناها بميزان المعارك الحقيقية الهائلة التي تلت فيما بعد. إلا أنها كانت المعركة الأولى التي يخوضها جند انجليز، والتي ظهرت فيها عوامل حسن الحظ غير المتوقع فعملت لصالحهم.



خريطة معركة المارن وتطوراتها

زهو فارغ

والحقيقة ان هذه المناوشة، والتي أوجد لها العسكريون اسم «ملائكة منز» هي ما يتكرم رجال القيادة الكبار في بريطانيا من عسكريين وسياسيين، فيباركونها ويعتزون بها. فالسير «جون فرنش» القائد الأعلى البريطاني قد سر غاية السرور بالنتيجة، ولذلك قرر الصمود والاشتباك مع العدو المهاجم في اليوم التالي. لكنه اكتشف موقفه الشديد الحرج أثناء تلك الليلة، إذ تحقق لديه أن الجيش الفرنسي كان متقهقراً بسرعة من على يمينه، بينما لم تكن هنالك أية قوات حليفة على يساره. وهذا يضطر الجيش الانجليزي على أن يتقهقر بطبيعة الحال، وإلا كان من السهل على القوات الالمانية الزاحفة أن تسحقه سحقاً.

التقهقر

وكان التقهقر هو ما فعله البريطانيون. لقد أخذوا يرتدون من خط القتال يوماً بعد يوم. وكان الجهد والعناء الذي قاسوه، بحكم الاضطرار إلى السرعة، شاقاً عسيراً على الجنود المشاة. وبخاصة أن هؤلاء كانوا يتراجعون بسرعة تضاهي سرعة الألمان في زحفهم قدماً، (٣٠ ميلاً في اليوم الواحد). لكنهم أثناء هذا التراجع اضطروا إلى مواجهة الألمان في ٢٦ آب في موقع لي كاتو Le Cateau. وهنا أيضاً صمد الجنود المنهكون، وأعاقوا تقدم عدوهم، حتى استطاعوا الزوغان منهم.





الجنرال غالياني
حاكم باريس
الذي كان جوفر
يعتبره فاشلاً

هدنة وتحفز

وبعد ذلك حدثت مفاجأة في تاريخ الحروب. فقد لبث الجيشان في مواقعهما طوال عشرة أيام. كان القادة لا شك يتأهبون ويريحون جنودهم وينظمون تموينهم واتصالاتهم بشأن الامدادات، لكن الجنود كانوا يدعون ربهم أن تطول مدة الهدنة غير المنتظرة هذه، علّهم يستطيعون خلع أحذيتهم دون أن تنسلخ جلود أخامصهم.

في هذا الوقت كانت فرق الـ ب. ا. ف البريطانية تلازم الجيش الفرنسي كميمنة له، وكان الفرنسيون يتراجعون على خط مستقيم إلى الجنوب، فسحبوا معهم البريطانيين إلى الجنوب أيضاً. وغدا هؤلاء بعيدين عن خطوط تموينهم الواقعة في الغرب. وكان هذا الانجرار قوياً إلى درجة أن البريطانيين أوغلوا في الجنوب في انسحابهم بما جاوز سرعة تراجع الفرنسيين. لقد كانوا يهربون من الجحيم!

أما الألمان في هذه الأثناء فكانوا قد ناوشوا البريطانيين قليلاً من باب الممازحة ذات الدهاء، وسمحوا لهم بالتراجع جنوباً، في الوقت الذي كانوا هم يتجهون مباشرة إلى الغرب، ثم ينعطفون إلى الجنوب الغربي. وهكذا كانت القوات المتحاربة تتحرك وكأنها تبتعد كل منها عن الأخرى بسرعة جنونية. وهذا ما جعل السير جون فرنش يقترح على القيادة في لندن أن يسحب جنوده أصلاً من الميدان بكامله. وبخاصة أنه لاحظ نسبة الاصابات الهائلة بين جنوده ـ مع أنها كانت ضئيلة تافهة إذا قورنت بالمجازر التي حدثت في السنوات التالية ـ فآثر أن يتقهقر منسحباً إلى ميناء «سان ترير» الفرنسي على المحيط الأطلسي، لينظم صفوفه ويملأ شواغر مرتباته هناك.

وكان عنيداً في رأيه، فلم يهجر فكرته إلا حين طار كتشنر، وزير الدولة لشؤون الحرب آنذاك، إلى باريس في حلة الماريشال العسكري وأمره مواجهةً بالبقاء حيث هو.

هرب!

وقد هرب أعضاء الحكومة الفرنسية وأعضاء البرلمان من باريس إلى بوردو، إذ أن باريس عند ذاك كانت في «منطقة العمليات الحربية» للقوى الوشيكة الاصطدام.



السير «جون فرنش» قائد الفيالق البريطانية في فرنسا يتمرن على «إلى الوراء ـ در» مضطراً إلى الانسحاب بعد اصطدامه بجحافل الألمان في «منز»

باريس هي العقبة

وفي الحين الذي كان فيه الألمان يجتاحون فرنسا متنقلين بقواتهم من اتجاه إلى آخر في شمالها وشرقها، بان لعيون الخبراء العسكريين ذلك الخطأ الفاضح في الخطة التي كان شليفن قد رسمها من قبل. إنه العقبة.. باريس نفسها، فإذا اجتاز جيش كلوك، وهو أقصى ميمنة الجيش الألماني، باريس واتجه إلى الغرب ـ برزت فجوة واسعة بينه وبين جيش رفيقه «بولو» الألماني، الذي كانت قواته تشكل جيش إسنادٍ لكلوك، وتليه في القرب من خط الميدان. أما اذا اتجه إلى الشرق من باريس، فإن جناحه يغدو عرضة لهجوم مركز وسهلٍ على خطوطه.

والحق أن شليفن كان قد قدّر الخطأ في هذا الموقف لكنه أخفق في أن يضع له علاجاً ناجعاً إذا وقع.

الآن كان الألمان عاجزين عن المجيء بقوات إضافية تسمح لخطوطهم أن تضم مدينة باريس، إذ أن امتداد تلك الخطوط كان قد بلغ أقصى مداه. ولهذا كان تقدم كلوك متناوباً، فهو يتقدم تجاه باريس مرة، ويتأخر عنها أخرى. لكنه أخيراً قرر الاتجاه

إلى الشرق من باريس على أمل أن يطوق الجيوش الفرنسية قبل أن تستطيع حامية باريس المحصورة أن تفك الكماشة. ووافق مولتكه على هذه الخطة من مركز قيادته القصية خلف خط الميدان، فغدت في مجال التطبيق.

جوفر وغالياني

في هذه الفترة كان الفرنسيون يحاولون استعادة مركزهم المشطور، وقد أبدى جوفر قدرة عجيبة على تحمل النكبة والاحتفاظ بالهدوء، معاً. فلم تفته أي من وجبتيه الرسميتين كل يوم. وكان يسخو في ذلك ويدقق في طريقة طهو الطعام فيهما! وقد عزل من مرؤوسيه من الجنرالات يميناً وشمالاً، ودون أي اهتمام بهم. وكانت فكرته الاستراتيجية الوحيدة هي: نظل نتراجع على عرض الجبهة بكاملها، ونكدس القوات في ميسرتنا حتى نصل نقطة يواتينا فيها الظرف للهجوم المركّز الصاعق على قلب الجيش الألماني. لكن هذا الرأي لم يكن مما يوافق عليه غالياني، حاكم باريس العسكري.. لقد كان لديه فكرة أخرى: فهو ينظر إلى الأمور من زاوية باريس، ولهذا لاحظ الجناحَ الألماني المكشوف وغير المعزز.

وعلى النقيض من رغبة جوفر في مجابهة الألمان والتصدي لتقدمهم، كان حاكم باريس يرى من الأفضل أن يتم جرهم إلى التوغل في فرنسا، ومن ثم الانقضاض على مؤخرتهم من باريس. وحين بعث جوفر بعض القوات إلى باريس لتطويل خطوطه، أرسلهم غالياني إلى الشمال ليكونوا خلف خطوط الألمان.

التناقض ثم الاخفاق

وفي ٥ أيلول قطع الألمان نهر المارن. وعندئذٍ انفجرت خطتا جوفر وغالياني. لقد ظهر التناقض بينهما. فكان غالياني يأمل في «إغلاق عنق الكيس» خلف الألمان، بينما كان جوفر «يضرب في قاع ذلك الكيس»، أي انه في الواقع يسعى لإبعاد الألمان من الوقوع في «فخ» غالياني المنصوب. وقد أخفقت خطتا جوفر وغالياني معاً، إذ أن كلوك، أثناء زحفه شرقاً، علم بأنباء الاستعدادات التي كان يجمّعها غالياني لضرب جناحه الأيمن، فغير وجهة سيره واتجه من جديد إلى الغرب. وكان المنتظر أن يتعقبه غالياني من باريس فيسير إلى الشمال الشرقي، لكن جوفر كان قد أبقى قوات غالياني دائماً في حاجة إلى الرجال.

وإلى الشرق الأبعد كان جيش بولو الألماني قد صمد لهجوم جوفر المباشر، إلا أن فجوة واسعة أصبحت الآن بين جيش بولو وجيش كلوك.

لا عدو؟

وأخيراً تم إقناع السير جون فرنش أن يتوقف عن التراجع، إذ نجح في ذلك جوفر نفسه. وحين تقدم البريطانيون لم يجدوا عدواً قبالتهم. كان هناك ثقب.. فراغ. أما على ميمنتهم وميسرتهم فكانت الجيوش الفرنسية تقاتل بضراوة واستبسال.

والواقع أنه لم تحدث إصابات في الجيش البريطاني في موقعة المارن. فقد كانوا يسيرون في خط قتال فارغ، وان كانوا لا يعُون هذه الحقيقة والحسنة أيضاً. ولهذا كان تقدمهم أقرب إلى التسلل الذي يقومون به ببطء وحذر. كانوا يقطعون ثمانية أميال لا غير في اليوم الواحد. وأين هذا من الـ ٣٠ ميلاً التي اعتادوا هرولتها أثناء تقهقرهم!

وليس من الصواب أن يعزى ذلك البطء إلى الجنود. نعم انهم كانوا مرهقين بالفعل، لكن غلاظة حسّ القيادة وعجزها عن تفهم الموقف الجديد هو السبب المباشر. فقد كان المسؤولون فيها عمياً، تُرهبهم المغامرة ويتهربون منها. وأكثر من ذلك أن الخيالة البريطانيين كانوا متخلّفين زهاء ٤٠ ميلاً عن الجنود المشاة!

اين اسرى الحرب؟

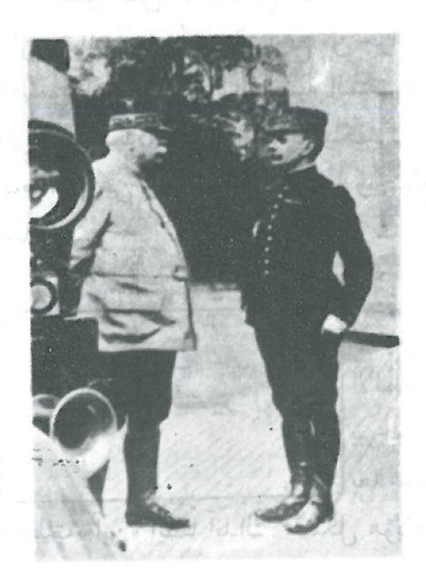
وفي القيادة الألمانية القصية خلف خطوط القتال، كان مولتكه قلقاً من جراء الموقف الجديد. انه لم يسبق له أن اطمأن إلى حملة جيوشه هذه وظل يسأل: ـ اين هم أسرى الحرب؟ أين هي المدافع التي وقعت في أيدينا؟ وكان هناك القليل من ذلك.

موقف جيش كلوك

كانت أجهزة اللاسلكي لا تزال في أول تطويرها آنذاك. وكان تليفون الميدان يعمل بصورة غير حسنة حين تكون المسافة أكثر من مائتي ميل. وفي ٨ أيلول بعث مولتكه أحد ضباط أركان القيادة، واسمه الميجر هنتش، ليطلع بنفسه على الحال الراهنة. فوجد هذا المندوبُ جيش «بولو» في



الجنرال فولكنهاين ـ ألمانيا



الجنرال جوفر والجنرال فوش ـ فرنسا



الجنرال كتشنر ـ بريطانيا



الجنرال ليمان ـ بلجيكا

غاية القلق على ما يحتمَل أن يحدث لجناحه الأيمن المكشوف، وافهمه القائد أنه على وشك أن يبدأ في التراجع من جراء ذلك. وفي اليوم التالي وجد أن كلوك يستطيع الصمود أمام الجيوش الفرنسية المتقدمة من باريس، لكنه عاجز عن حماية مقدمته. وفي كل مكان شرع الألمان ينكفئون. وطفق الضباط الكبار في جيوش الحلفاء يتحدثون عن زحفهم إلى المانيا واجتياح حدودها خلال شهر واحد، بل بعد ثلاثة أسابيع!

تقدم قصير

استمر تقدم الحلفاء ٥ أيام. وفي ١٤ أيلول وصل الألمان إلى آين Aisne. وهناك هدهم التعب فلم يبرحوا ذلك المكان. وكانت بعض القوات الفارة بعد سقوط موبيج Maubeuge في يد الفرنسيين قد وصلت «آين» أيضاً آنذاك. فشكل هؤلاء لرفاقهم المتقهقرين نوعاً من المدد الذي لم تُستنزف عروقه بعد.

بدعة الخنادق

وفي آينْ Aisne هذه، حط المشاة الألمان أثقالهم، واحتفروا شبه أقنية في الأرض نصبوا رشاشاتهم فيها. وكان ذلك مما أذهل الحلفاء! فقد كان المعروف في الحرب الكلاسيكية أن يولي المهزوم الادبار فلا يلوي على شيء. أما الآن فها هم الألمان المتراجعون يقفون في حرب دفاعية.. إنهم لا يهاجمون ولا يتراجعون! وقد تردد قواد جيوش الحلفاء أول الأمر.. هل يستمرون في هجومهم، أم كيف يتصرفون! لكنهم أخيراً اضطروا إلى التوقف مرغمين. إذ كان يكفي جندي واحد يستحكم خلف رشاشه، وتحميه بضع لبنات أو كدرات من التراب لأن يعيق جمهوراً بأكمله زاحفاً عليه.

الحرب الطويلة الأمد

والآن بدأت حرب الخنادق. فقد حسّن الألمان، ثم الحلفاء من بعدُ، تلك القنوات التافهة التي احتفروها أول الأمر حتى غدا الخندق ركناً من أركان الحرب البرية منذ آينْ Aisne هذه. وإذ ذاك انتهت سرعة الحركة ومفاجأة الانتقال، بمجرد أن نقر الجنود لأنفسهم حفرات، في الرمل أو التراب.

سرعة الرشاش جمدت الحرب!

الآن غدا من العسير زحزحة صاحب الخندق من موقعه إلا بهجوم صاعق مزوَّد بامدادات غزيرة تتوفر في وقت قصير. وكلا العاملين غير متوفر في سنوات الحرب العالمية الأولى. كما أن أياً من الجيشين المتحاربين لن يغفل فيسمح لعدوه بأن يتقوّى بينا يظل هو دون ذلك. والآن أبرز ظهور المدفع الرشاش شدة التناقض بين حركة القطارات السريعة في ايصال الجنود إلى مكان الجبهة، وبين حركة الجنود البطيئة حين يبلغون الميدان. والحق أنه لم تكن هناك حركة البتة، فقد ظل الجنود ثابتين في خنادقهم. وغدت الخطوط المتقابلة كثيفة العدد، وشديدة التماسك. وكان جنرالات الفريقين ينظرون إلى خنادق بعضهم بعين ملؤها العجز عن اقتحامها، وعدم القدرة على وعي واقعها.

سباق الى البحر!

هكذا ظلوا يحدّقون في الخنادق طيلة ٤ سنوات تقريباً.

والحقّ أن لمعركة المارن مغزى خاصاً، فقد كانت خاتمة حرب الحركة.. كان خطّا القتال معلّقين في الهواء يتأرجحان بعيداً إلى الشمال من «آينْ». وكان كلا الجانبين المتحاربين يحاول عطف جناحه ليسبق الآخر. وهذا ما أُطلق عليه في الاصطلاح العسكري آنذاك: «سباق إلى البحر». وفي هذا الاصطلاح نوع من المغالطة. ذلك أن السباق لم يكن يستهدف الوصول إلى البحر، بل الالتقاء مع الجناح الأبعد من الجيش نفسه. أما حين يصل الألمان أو الحلفاء البحر، فإن معنى ذلك فشل من يفعل. وقد أدرك الجنرالات الألمان حقيقة هذا الموقف قبل أن يعيها جوفر، حيث ظل يحلم بهجوم جباهي مركز.

فولكنهاين

وفي ١٤ أيلول، وهو نفس اليوم الذي ترسّخت فيه خطوط الجبهة لكلا الطرفين، نحّى وليم الثاني جنراله مولتكه من منصبه، وعيّن فولكنهاين، وزير الحرب والجنرال الأقدر، بدلاً منه. وعلى الفور شرع فولكنهاين في تطبيق خطة مثل خطة شليفن، وضعها هو، ولكن على نطاق ضيق. كان الألمان آنذاك يعانون نقصاً في قوات الميدان. وكانت القوات الممكن استدعاؤها هي تلك المشتغلة بحصار أنتورب في بلجيكا. لكن جوفر كما هي عادته،

لم ينتهز فرصة ذلك النقص لدى عدوه. . إنه اخفق في تقدير الموقف بصورة واعية. ولهذا رفض أن يبعث بأية مساعدة للجيش البلجيكي المحاصَر. . فقد كان يحتقر البلجيكيين.

ومثلُ مسلك جوفر الفرنسي كان مسلك كتشنر البريطاني أيضاً. . لقد نظر إلى الوضع من نفس الزاوية، فتكونت لديه نفس الفكرة.

تشرشل والأسطول والفشل

لكن هذا لم يُقنع ونستون تشرشل، الذي لم يكتفِ بالاشراف على الاميرالية، فسارع لسدّ الفراغ الموجود. لقد ارسل ٣٠٠٠ بحار إلى انتورب، وجعلهم تحت قيادته الشخصية. ولما لم تكن هذه المساعدة كافية فقد سقطت انتورب في ١٠ تشرين الأول، وأُدخل الناجون من البحارة الانجليز إلى هولندا.

مصارف المياه

ومع أن الحملة قد فشلت إلا أن الدفاع عن انتورب أنجز خدمات كبيرة: لقد أعاق «سباق الألمان إلى البحر» حينما كانت الطريق لا تزال مفتوحة أمامهم. أما الآن، فحتى جوفر كان قد أخذ يسوق جيوشه نحو الشمال. وأما الجيش البلجيكي الذي أخلى انتورب، فقد أبقى الألمان محصورين في شريط ساحلي ضيق، وذلك بأن فتح مصارف المياه وقنوات التصريف في المنطقة، فغمرت المياه الأرض، وجعلت من المتعذر على الألمان أن ينفذوا إلى داخل البلاد. ولهذا دفعوا ثمناً باهظاً حين اضطروا إلى التقدم فيما بعد.

قائد متقلب

وفي ١٥ تشرين الأول تحرك الألمان باتجاه ايبر Ypres هادفين إلى تطويق جناح العدو. وفي تلك اللحظة بالذات كانت القوة البريطانية تصل ايبر هذه، هادفة إلى تطويق العدو أيضاً. لقد اصطدمت خطتا الهجوم المتعاديتان، بعامل الصدفة لا التقدير. كان الألمان هم الجانب الأقوى، بينا لم يكـن البريطانيون الجانب الأضعف مَن حيث عدد الجنود فحسب، وإنما الأضعف من حيث القيادة أيضاً. لقد كان على رأسهم السير جون فرنش. وكان هذا القائد كثير التقلّب غير مستقر الرأي، فهو مستبشر متفائل حيناً، ثم متشائم يتخذ

قرارات الحركة في ميدانه على أساس ذلك، حيناً آخر. ولقد تمكن الألمان من اختراق الخط البريطاني في موقع واحد. وكما كان يحدث عادة في تلك الأيام، توافدت الامدادات، بفضل سكة الحديد بأسرع مما كان في مقدور جنرالات المهاجمين أن يتقدم مشاتهم. وللمرة الثانية تراصّ خط الجبهة واستقر حيث هو.

نكبة ايبر

إن هذا الطَرْقَ المتبادل بين القوتين، مع أنه أُطلق عليه اسم «معركة ايبر الأولى»، قد ابتعد كثيراً عن أسلوب الحرب التقليدية من قبل. كانت الجبهة الضيقة المحصّنة تُغذّى بمزيد من الرجال الجدد كل يوم، وكان هناك تقتيل كثير فيهم. . ولكن دون فائدة ولا نتيجة. وكانت خسائر فرق الـب. ا. ف. البريطانية في معركة «ايبر» افدح من خسائرهم في الحملة السابقة، إذ تمزّق الجيش البريطاني، ولم يتخلّف منه إلا كوادر صغيرة قد تقوم بمهمة تدريب حشود الجيوش الضخمة التي اشتركت في الحرب من بعد.

ترسخ خط القتال

الآن كانت الجبهة الغربية قد ارتسمت من سويسرا إلى البحر. وكان توقّع الحصول على حرب حاسمة وسريعة قد خاب الأمل فيه وثبت خطأه. لكن هذه الحملة المندفعة تركت أثراً، وهو أنه: مع أن الألمان قد فشلوا في تطويق الجيش الفرنسي ومن ثم محقه، إلا أنهم فازوا ببلجيكا كلها علاوة على المنطقة الصناعية والغنية من فرنسا ذاتها. لقد خسر الفرنسيون معظم موارد الفحم عندهم وجميع حقول مناجم الحديد، وقدراً كبيراً من صناعتهم الثقيلة. كل ذلك حازه الألمان. وأغربُ من ذلك نجاحُ الألمان ذاته! فقد كانوا ينتقلون سيراً على الأقدام في زحفهم الدائري الطويل، بينا ظل في مُكنة الفرنسيين أن ينقلوا امدادات جيوشهم عن طريق القطار. وكانوا يبعثون تلك الامدادات بغباوة، وبعد فوات الأوان، لأن جوفر لم يكن يعي الفرصة الاستراتيجية المواتية له إذ ذاك. وهكذا غدا جوفر، القائدُ الذي ضيّع شمال فرنسا من يده بحكم عناده فيما بعدُ، وفي سنة ١٩١٦ على الخصوص،المارشال الفرنسي الأول الذي ابنته أرض فرنسا منذ سقوط نابليون الثالث.

هذه هي أحاجي الحرب!!

الجبهة الشرقية

كان قد سبق أن حدثت بعض الاشتباكات، وخيبات الأمل، في الجبهة الشرقية أيضاً. وهنا كان يؤمل أن تكتسح المحدلة الروسية كل شيء قدّامها. اما بالفعل فإن الروس لم يكونوا قد قاموا إلا بالقليل جداً من الاستعدادات لغزو ألمانيا. لقد جهّزوا بعض الشيء لمجرد معاونة حلفائهم في الغرب، لا أكثر. فكان هناك جيشان روسيان يتقدمان داخل حدود بروسيا الشرقية، حيث لم يكن إلا القليل من جنود الألمان. لكن هذا التقدم كان خبطاً عشوائياً، ودون خطة مرسومة أو هدف معين منشود.

قائد وظله

وقد اقترح القائد الألماني بريتفتز Prittwitz، الذي استشعر الخوف، على حكومته أن يتراجع إلى وراء نهر الفستولا. وجاء جواب مولتكه سريعاً على هذا الاقتراح. لقد عزله على التوّ، واستبدل به لدندورف، الرجل الذي سيتسلم قيادة الأركان الألمانية بعد قليل. إلا أن عقبة روتينية برزت في الطريق، وهي أن رتبة لدندورف العسكرية لم تكن تسمح له بتولي القيادة العليا. فماذا يفعل مولتكه؟ لقد فتش اضابير الجنرالات الألمان المتقاعدين، ومن هذه الجداول وقع اختياره على هندنبرغ ليكون قائداً أعلى يحتمي لدندورف بظل رتبته الرفيعة.

وقد التقى الرجلان، القائد الأعلى الاسمي، وظلُّه، لأول مرة في حياتهما في محطة سكة الحديد في هانوفر. وكان هندنبرغ في ذلك اللقاء قد حشر نفسه في حلّة جنرال عتيقة، لم تعد أزرارها كفؤاً لحبس كرشه المندلقة.

هوفمان وتاننبرج

وحين وصلا بروسيا الشرقية، وجدا أن أحد ضباط أركان بريتفتز المعزول، واسمه هوفمان، قد أعاد الأمور إلى نصابها. فهو قد ملأ الفجوة الكبيرة ما بين الجيشين الروسيين اللذين تفصلهما بحيرات مازوريان، الواحد منهما عن الآخر، كما توصل إلى التقاط شيفرة الاتصال الروسية، لأن هؤلاء كانوا يستعملون الالقاء الجهوري بدلاً من اشارات اللاسلكي المتعبة، حين يصدرون أوامرهم أو يتسلمون تقاريرهم.

وقد سحب هوفمان الجيش الألماني من قبالة الجيش الروسي الأول في الشمال.. وتراجع من حيث ساق جيشه إلى الجنوب. وهناك طوّق هوفمان الجيش الروسي الثاني ومزقه شر تمزيق، حتى بلغ الأسرى الذين وقعوا في قبضته تسعين ألفاً. ومن جراء تحطيم هذا الجيش، عمت الفوضى في الجيش الآخر وولى متراجعاً.

هذه هي معركة تاننبرج Tannenberg في ٢٩ آب. وهي ذات نتيجة بالغة الأهمية، فبفضلها تم طرد القوات الأجنبية من أرض المانيا، حيث بقي ذلك الحال طوال سنوات الحرب.



سوق تأثرت بالحرب. إنها في مدينة «أورتلسبرغ» بعد مجزرة تاننبرج، واندحار الروس

الروس لا النمسا

وإلى الجنوب، في غاليسيا، كانت هناك جموع هائلة من القوات النمساوية والأخرى الروسية تتصارع بشكل فوضوي. هنا كانت سكة حديد غرب أوروبا تبلغ نهاية امتدادها. فبدلاً من الاستفادة من السكك كانت الجيوش تزحف ماشية عبر هذه الأراضي الشاسعة، وكل منها يفتش عن

العدو الذي جاء ليقاتله. كانت جيوش الطرفين فقيرة من حيث تسليحها ـ هذا إذا حسبنا المعايير الأوروبية الحديثة في التسليح ـ وكانت تتخبط في سيرها فيجتاز الواحد منها خطوط خصمه، وقد يطوقه، ليطوّقه الآخر بدوره، ويغدو كلاهما بعيدين عن مقريهما الرئيسيين. وقد عانى الجيشان اصابات باهظة، بل هُدّدا أكثر من مرة بالفناء التام. وفي نهاية الحرب الفوضى هذه خرج الروس منتصرين بعامل التفوق في العدد، لا أي عامل آخر غيره. فلم تحن نهاية شهر تشرين الأول حتى كان النمساويون قد خسروا غاليسيا، وكانت الفرق الروسية قد وصلت إلى جبال الكربات. وهناك توقف الروس، إذ صدّهم عن التقدم وصول جنرال ألماني وكتائب ألمانية.

ترسخ خط القتال في الشرق

وفي الشرق أيضاً تم رسم جبهة ثانية حينذاك. لكن خط الجبهة هذه لم يكن راسخاً متماسكاً كزميله في الغرب. فقد كانت خنادق هذا الخط غزيرة الرجال. وكانت الأبقار ترعى والفلاحون يحرثون أراضيهم بين الخنادق في خطي القتال. وكان بوسع أي من الطرفين إذا أعد هجوماً وفّر له مدداً كافياً من الجنود أن يزحزح خصمه من مواقعه ويتقدم مسافة ٥٠ ميلاً إلى ما وراء تلك المواقع. لكنه، وحتى لو فعل ذلك، فإنه لن يستمر في تعقب الجيش المنهزم، إذ أن الحماس للقتال سيتلاشى بفعل ارهاق المشاة المتقدمين، نتيجة لانعدام السكك الحديدية هناك.

أما المدافعون في تلك الحال فإنهم سرعان ما يركّزون اقدامهم حين تصلهم مؤنهم، فيترسخ خطهم ويغدو حصيناً صامداً من جديد.

الجيش الأعرج

والواقع أن دوام الخط الشرقي على هذه الصورة كان أداة ارباك شديد للألمان. نعم، إن أرض بلادهم نفسها لم تكن مهددة بالغزو، ولكنه كان عليهم تجميد قدر كبير من قواتهم لتقوية جيش الامبراطورية النمساوية الأعرج. إذن ها قد تحققت أسوأ مخاوفهم: إذ أصبح عليهم أن يحاربوا على جبهتين. لكنهم تحملوا القيام بعبء ما كان غيرهم يعتبره مستحيلاً، فقد صمدوا في كلتا الجبهتين بنجاح كبير طوال ما ظلوا يتخذون جانب الدفاع. بل لقد توفر لديهم قوات احتياطية صلحت لخوض معارك في ميادين القتال الأخرى.

وهكذا تحققوا من أن خطة شليفن لم تعد ضرورية الآن.

معارك غير حاسمة

في هذه الفترة من الحرب كانت المعارك تنشب في الميدان الغربي والشرقي. ولكنها كانت معارك غير حاسمة، مجرد صمود. وكذلك في البحر، ظل الموقف غير محسوم، مع أنه لم تقم هنالك معارك بحرية. وهذا الركود في حد ذاته كان حسماً. لقد قضى الألمان سنوات وهم يُعدون لاشتباك بحري يتحدّون فيه السيادة البريطانية على البحار، لكنهم حين وقعت الحرب اخفقوا في ذلك. فقد ظل أسطول البحار العالية قابعاً في مرافئه بكل عناد. ولم تقع لذلك «ارمجدو» أو المعركة الكلية، التي تنبأ عن حدوثها الأميرال جاكي، وحدد لها شهر ايلول من سنة ١٩١٤.

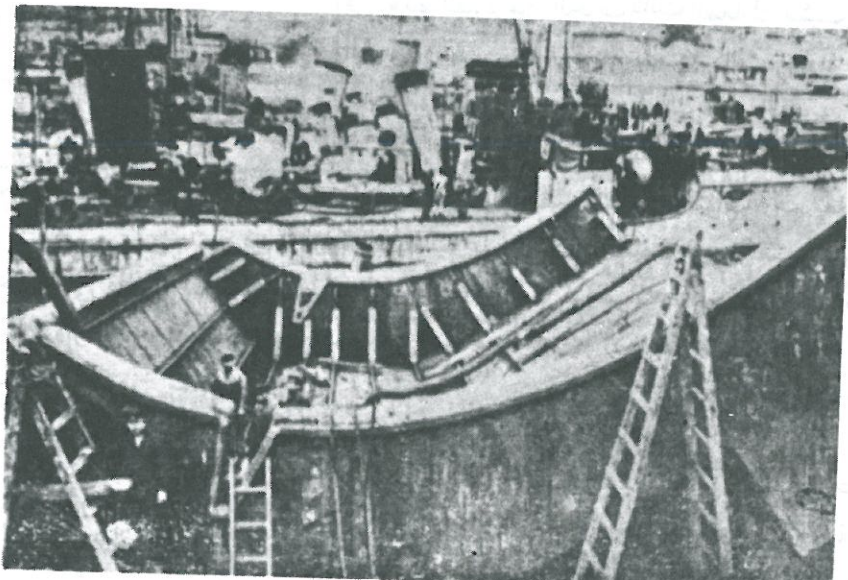
غوبين وبرزلاو

هذا علاوة عن أن الألمان الذين عجزوا عن الاستفادة من سفن القتال، قد غفلوا عن بناء سفن إغارة على الأسطول التجاري لخصومهم. وقد صدف أن كانت لهم مدمرتان في عرض البحر المتوسط حين نشبت الحرب، فاستطاعت هاتان المدمرتان أن تتملصا حتى بلغتا القسطنطينية، وهناك اجبرت مدافعهما تركيا على الانحياز إلى جانب المحور ودخول الحرب. وهاتان المدمرتان هما «غوبين» و«برزلاو». وكان هنالك مدمرة ثالثة اسمها «إمدين» في المحيط الهندي، استطاعت ازعاج السفن التجارية البريطانية، حتى انها شغلت ٧٨ سفينة بمراقبتها ومحاولة العثور عليها قبل أن تغرقها المدمرة الاسترالية «سيدني».

فون شبي

أما القوة البحرية الألمانية الفعالة فكانت قطعة بحرية غادرت المياه الصينية تحت امرة «فون شبي» وعبرت المحيط الهادي. وفي أول تشرين الثاني اصطدمت بتشكيلة بحرية بريطانية أخف منها وزناً فأغرقت مدمرتين، دون أن يخسر الألمان شيئاً على الاطلاق.

وفي هذه الأثناء كان تشرشل وفيشر ـ الذي أعيد إلى عمله كمسؤول عن البحرية العسكرية ـ قد أرسلا مدمرتين إلى جنوب المحيط الأطلسي. واندفع فون شبي في استخفافه بالبحرية الملكية، فأغري بتدمير المحطة اللاسلكية القائمة في جزائر فولكلاند، ولم يكن يدري أن المدمرات البريطانية كانت تتزود بالفحم آنئذ من هناك.



المدمرة غوبين في الحوض الجاف لترميمها
لقد أجبرت «غوبين» الدولة العثمانية أن تعلن الحرب على الحلفاء،
لكن لغماً أصابها، اضطرها إلى الكف عن الترميم حتى سهل على «سيدني» أن تغرقها

نكبة بحرية لألمانيا

وفي ٨ كانون الأول كان دوره لتلقي الهزيمة، فقد غرقت ٤ سفن من تشكيلته المؤلفة من خمس. أما اليتيمة الناجية فقد طال عمرها حتى شهر آذار فقط ثم لقيت مصيرها مثل اخواتها. ومن بعد هذه الموقعة تربعت بريطانيا على عرش أمواج المحيط، بالنسبة إلى السفن الظاهرة على السطح.

وكان واضعو الخطط من اميرالات البحر البريطانيين قبل الحرب العالمية الأولى قد خططوا لمعاركهم على أساس الاعتماد على السفن الضخمة ذات المدافع الكبيرة الجبارة، ولم يأخذوا في اعتبارهم الأسلحة البحرية الصغيرة، أو الموضعية المفعول، كالألغام، والغواصات، والتوربيد. وكان الألمان على تسليح أفضل من بريطانيا في هذا المجال. وإلى الأسلحة الصغيرة هذه، لا السفن الكبيرة، يعزى وقوع الخسائر الفادحة التي عاناها الأسطول البريطاني. فـ «أبو قير» و«هوغ» و«كريسي»، قد أغرقتها غواصة بمفردها في ٢٢ أيلول. وفي ٢٧ تشرين الأول أغرق لغم ألماني السفينة «أوديشص»، التي بلغ من حنق الاميرالية البريطانية لفقدانها ان كتمت الخبر حتى نهاية الحرب.

انذار مزيف وهلع كبير

وأدهى من عدم الاهتمام بالأسلحة البحرية الصغيرة في نظر البريطانيين، استخفافهم بقدرتها على التخريب حين يستعملها العدو. وانطلاقاً من هذا الاستخفاف أبقت الاميرالية البريطانية قواعد الأسطول غير محمية، بل مكشوفة لهجوم غواصات العدو. وقد وقع ما يدعو إلى الضحك من جراء ذلك. ففي تشرين الثاني، ونتيجة لإنذار (ثبت زيفه) تبعثر الأسطول البريطاني خارجاً من قواعده، فاتجه إلى اسكتلندا أول الأمر ثم التجأ إلى غربي إيرلندا. وقد بلغ من هلعه أن قِطعه لم تعد إلى بحر الشمال إلا في أواسط سنة ١٩١٥!

وكان في هذا التغيب ما اطمع الألمان، وجرّأهم، فقصفوا الساحل البريطاني بمدافعهم مرتين، وقتلوا بعض المدنيين، وحطموا زجاج النوافذ في سكاربرو، كما هدموا «وتبي أبي» وهو دير معروف.

وحين أعادوا الكرة مرة ثالثة داهمتهم المدمرات البريطانية فدفعوا ثمن جرأتهم. ولم يعد الألمان إلى عمليتهم هذه لمدة طويلة. فظلت الجزر البريطانية أمينة من الغزو.

لكن كل هذا كان طفيفاً. نعم، إن الأسطول الألماني قد تم تدميره في البحر، دون معركة كبيرة، غير أن حرب الأسلحة البحرية كانت لما تتكشف خطورتها بعد. وكان هنالك القليل جداً من الاميرالات البريطانيين الذين يفطنون إلى ذلك.

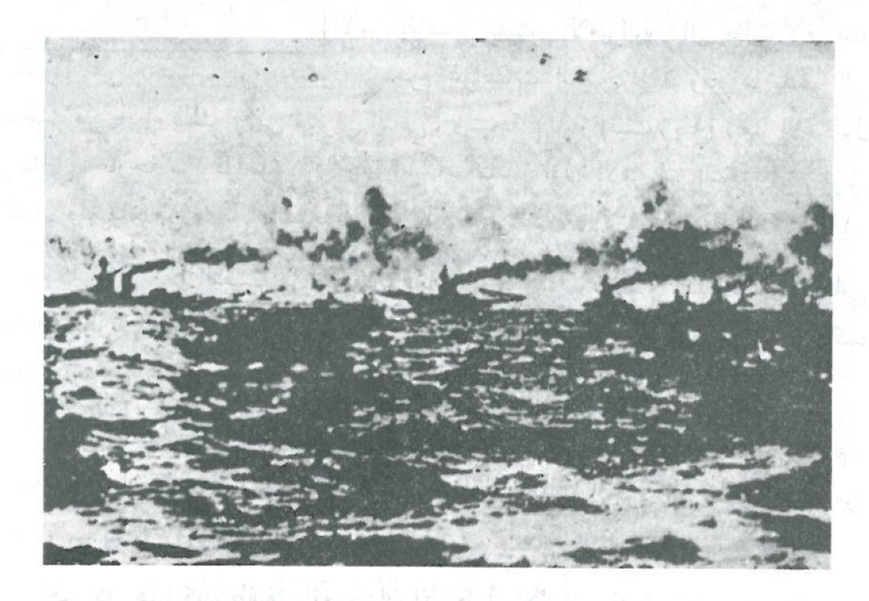
الغواصات

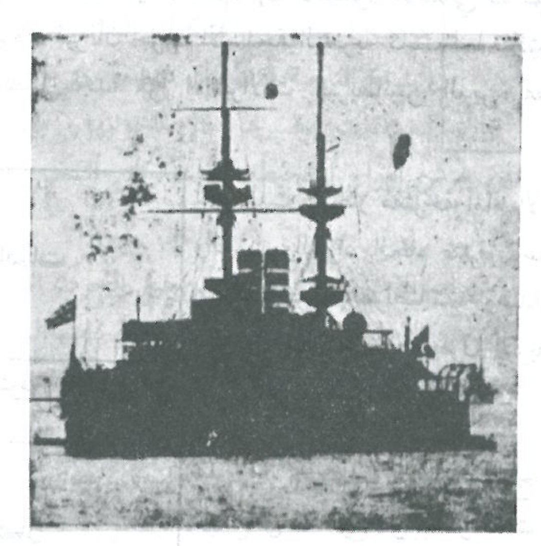
لقد ظلت البحار مفتوحة أمام الأسطول البريطاني، والمؤن والمواد الخام تتدفق على موانئه إلى أن ابتدأت حرب الغواصات، وعندئذ هدد الخطر كل شيء. فهل يقف الأسطول البريطاني وأمراء البحر البريطانيون مكتوفي الأيدي! طبعاً، كلا. لكن، ما الحيلة؟

الحصار

لقد وقع البريطانيون على سلاح جديد. نعم، إنه كان أقل خطراً من الغواصات الألمانية، ولكن فعاليته حين يدهم هدفه كانت أشد فتكاً، واستعملته البحرية البريطانية. غير أن هذا لم يكف بدوره، ولهذا لجأت بريطانيا إلى سلاحها البحري التقليدي، سلاح الحصار. ونحن نذكر

توجع نابوليون من الحصار القاري الذي فرض عليه فأنهكه حتى وهو في أوج مجده وقوته العسكرية. فلماذا لا يتذوق طعمه غليوم وجنرالاته؟!





بعد انتصار بريطانيا في المعارك البحرية، وإغراق المدمرات الألمانية القادمة من الشرق الأقصى، أصبح الأسطول البريطاني حاكم البحار

كيف يتم الحصار!؟

كان هنالك فرق الآن في تطبيق هذا السلاح. فبينما كان في مقدور بريطانيا أن ترسل قطع أسطولها حتى إلى مياه الموانىء الفرنسية قبل قرن من هذه الحرب، غدا ذلك مستحيلاً الآن. لقد كان هناك ألغام، وهنالك طوربيدات.. وأكثر من هذا وذاك خطراً، هنالك غواصات، وقنابل تنطلق من الأعماق. فماذا تفعل اميرالية البحر البريطانية؟ إن الحصار يجب أن يتم، لكن طريقه لا مناص من أن تكون مغايرة لما كانت عليه في عهد نابليون.

وهكذا وجدت بريطانيا نفسها تخترع حصاراً بحرياً، يتم من بُعد. وذلك بسحب السفن التي ترفع أعلاماً حيادية إلى مرافىء خاضعة لبريطانيا، حيث يقام بتفتيشها. أما السفن الألمانية نفسها فجزاؤها المصادرة إن استسلمت والاغراق إن ركبت رأسها وآثرت المقاومة.

هذه قرصنة دولية

إلا أن تفتيش السفن الحيادية بعد قطرها من عرض البحر، أو من المياه الدولية، ليس إجراء تستسيغه دولها، كما أنه مخالف للقانون البحري الدولي، فكيف تتخلص بريطانيا من الوقوع في المآزق؟ لقد فوضت قناصلها وسفراءها في الأقطار الأخرى أن يمنحوا السفن التي تشحن من أقطار يمثلون بريطانيا فيها، وثائق، تشهد بعدم حمل تلك السفن مواد قد ينتفع بها العدو في مجهوده الحربي. وفي هذا افتئات على حقوق الدول الأخرى، لأنه أقرب ما يكون إلى نوع جديد من القرصنة الدولية. لذلك جأرت الدول المحايدة بالاحتجاج، فكان جواب بريطانيا: إن الحرب تقتضي ذلك.

نجاح الحصار

وقد ضايق ذلك الحصار ألمانيا مضايقة شديدة. وكان مما ساعد في تضييق الخناق على اقتصادها أن الألمان قد ظلوا غافلين في خططهم التي رسموها قبل الحرب عن امكانية انقطاع المواد الخام التي يحتاجها المجهود العسكري عندهم. لقد قدروا أنه سيظل بمقدورهم شراء السلع من الأسواق الخارجية الحرة. واعتماداً على هذا التقدير الخاطىء رفض الجنرال مولتكه غزو هولندا، على اعتبار أن منفذاً حراً سيتوفر للتجارة البحرية الألمانية في تلك الحال.

وكان من جراء هذه الغلطة أن وقع مولتكه ومجهوده الحربي، والاقتصاد الألماني العام، الآن، في ورطة يعسر انتشاله منها. فالواقع أن تلك الورطة شكلت سبباً مباشراً وقوياً في انهزام غليوم وجنرالاته في حرب «عالمية».

لماذا هي « عالمية؟ »

قد يتساءل البعض عما دفع المؤرخين إلى اطلاق اسم «الحرب العالمية الأولى» على هذه الحرب، مبرراً تساؤله بأن معظم الوقائع الحربية الفعلية والحاسمة على الخصوص، إنما روَت أرض أوروبا بدماء المشتركين فيها. هذا دون اغفال شريط ضيق حول قناة السويس بين افريقيا وآسيا، ومع ذكر الجبهة العربية في جزيرة العرب والهلال الخصيب. نعم، قد يثار هذا التساؤل، لكننا لو أمعنا النظر في هذه الحرب، لوجدنا أن الأشخاص المشتركين فيها لم يكونوا مقصورين على أوروبا أو أي قارة واحدة أخرى. والمهم في تسمية الحروب هم «المشتركون في نشاطاتها».

جنود من المستعمرات

كانت الامبراطورية البريطانية تعلم حق العلم أن الجنود البريطانيين من سكان الجزر وحدها ليسوا نداً من حيث العدد في البداية، ولا في ضمان الامداد فيما بعد، لمقابلة الجحافل الألمانية. ولذلك عملت على إشراك متطوعين وجنود من مختلف مستعمراتها ـ توفيراً للمواطنين الإنكليز وبحكم أن «أثمان» ابناء المستعمرات أدنى سعراً. . كانت هنالك فرق من الهند، وأخرى من استراليا، وثالثة من كندا ونيوزيلندا. . وغيرهم من افريقيا. .

ومثل هذا الخليط ضمت الجيوش الفرنسية. . وإن كان معظمها من السنغال وعرب شمال افريقيا.

ومع أن الكثير من فرق المستعمرات، والتي تم تشكيلها لغرض الحرب، لم يشترك في القتال، إلا أنه قام بمهمات عسكرية جليلة على كل حال. فالهنود مثلاً هم الذين حفظوا منابع الزيت في الخليج الفارسي، وطردوا الأتراك من العراق. والاستراليون هم الذين حفظوا النفوذ البريطاني في مصر. . وكان أهلها يميلون إلى مساعدة الأتراك بحكم أنهم مسلمون، وبحكم كراهيتهم للسيطرة البريطانية والاستئثار بإدارة السودان.



جرحى الهنود في المستشفى
جلبتهم وأمثالهم بريطانيا من مستعمراتها
ليدافعوا عن استعمارها لبلادهم!

حرب في افريقيا

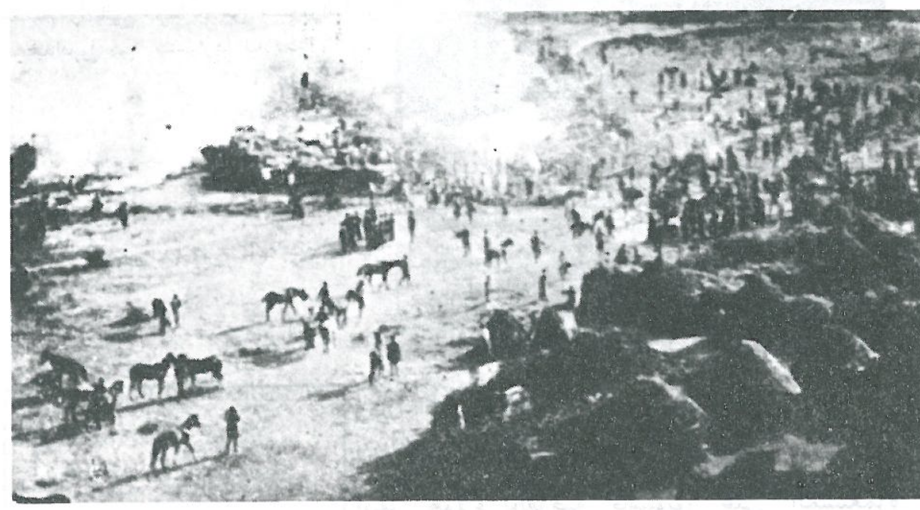
وكان المستوطنون في جنوب افريقيا شركاء في الحرب أيضاً، ولكن على طريقتهم الخاصة. فقد انتهز هؤلاء الفرصة فاستولوا على المستعمرة الألمانية المجاورة لهم. وذلك بعد إخضاع ثورة قام بها البوير، الذين كانوا حاقدين من أيام حرب البوير الرئيسية من قبل. وبعد سقوط جنوب غرب افريقيا (المستعمرة الألمانية) تم الاستيلاء بصورة أو أخرى على بقية المستعمرات الألمانية في القارة. ولم يكن ذلك طمعاً في مركز استراتيجي لتلك المستعمرات بقدر ما كان، بيدقاً للمساومة مع ألمانيا فيما إذا اجريت المفاوضات بعد نهاية الحرب. كما أنه قد تم سيراً على نهج تقليدي سبق أن اتبعته بريطانيا في حروبها السابقة، ومفاده أن بريطانيا العظمى يجب أنْ تنال مغنماً وتوسعاً في رقعة مستعمراتها فيما وراء البحار في كل حرب تنتصر فيها.

افليست الحرب هي «عالمية» و«أولى» بحق، بعد كل هذا!!

حرب في أقصى آسيا

ولم يكف كل ما سبق، فحتى اليابان انتهزت الفرصة، وساهمت بطريقة ملتوية في الحرب أيضاً. لقد دخلت اليابان الحرب كحليفة لبريطانيا لكن، ماذا فعلت؟ طردت النفوذ الألماني من شانتونج في

الصين، وفرضت نفوذها مكانه. غير أن هذا مطمح ضئيل القدر. فهل ترضى بلاد «الإلّه الشمس» بأن لا تتعداه؟ كلا. لقد باشرت منذ ذلك الحين، وبصورة أو أخرى، عملية جبارة ما كان أوخم عاقبتها على «الميكادو». باشرت الاستحواذ على شبه القارة الصينية لصالحها هي. ومن جراء ذلك تحولت الجزر اليابانية إلى امبراطورية عملاقة، داعبها الغرور فخاضت الحرب العالمية الثانية فيما بعد، وإلى أن جثت على ركبتيها.



إنها قرية إفريقية تحترق!
لقد اشعلت «حضارة أوروبا» البيضاء النار في مساكن الأفريقيين «الملونين»!
فقد كانت القرية من مستعمرة «الكاميرون» التي استولى عليها الإنكليز

الدنيا الجديدة

وهنالك قوة كبرى ظلت أغلب الوقت منعزلة تفضل الانطواء على نفسها. وإنما نعني بهذه القوة الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية. والواقع أن سكان هذه البلاد، وهم خليط عجيب من شتى أمم الأرض، وإن كانت ثقافة أوروبا هي السائدة بينهم، قد آثروا عدم التدخل في الشؤون الأوروبية. ربما انهم تذكروا أجدادهم الهاربين بحريتهم الدينية، وربما انهم وجدوا أنفسهم في بحبوحة من الأرض البكر والخير الذي لم يُستثمر بعد. وربما انهم خشوا أن تدخّلهم في شؤون أوروبا سيجر أوروبا بعد الحرب إلى التدخل في شؤونهم. كان مونرو، رئيس جمهوريتهم منذ قرن تقريباً قد وضع أسس سياسة الانطواء هذه، فلم يود خلفاؤه أن يقوّضوها. (لكنهم شوّهوها حين تعرت الولايات المتحدة وغدت دولة تنشد التوسع فيما بعد).

وكان هناك الجالية الايرلندية.. وهذه لا تود مساعدة بريطانيا في صراعها بأية صورة من الصور. كانت هذه الجالية تحقد على بريطانيا لأنها ترفض منح الاستقلال لجزيرتهم وكانت ترغب، إذا استطاعت، في أن تكبّد بريطانيا كل خسارة، جزاءً لها على استعمار ايرلندا.

ومثل هذه الجالية كان المهاجرون الألمان..



بعض أفراد المهاجرين الألمان إلى أمريكا يتظاهرون في نيويورك للضغط على «وودرو ولسون» كي يظل على الحياد

طبيعة عناصر السكان في الولايات المتحدة

أما طبقة أصحاب المصانع والأثرياء من مختلف الجاليات، فكان همها أن تبيع المتقاتلين أسلحة وذخيرة. إنها كانت تحصر اهتمامها في جني الأرباح، دون أي اعتبار للجرائم المرتكبة، أو الدم المسفوح.

أما العمال، فلم تكن الحرب من مصلحتهم في أيما يوم من الأيام. فعليهم يقع العبء الأكبر من وقود المدافع. ومنهم تشبع أسماك المحيط عند الغرق.

كل هذه العوامل، فرضت نفسها على وودرو ولسون، رئيس الجمهورية آنذاك، فقدّر لنفسه مركز وسيط مصلح، أكثر من «خصم مساهم» في النصر أو الهزيمة.

وساطة ولسون

ولكن هل يتوسط ولسون، والحرب ما زالت في بواكيرها، والخصوم ما زالوا أقوياء؟ كلا، فلا نفع للولايات المتحدة في تلك الحال. كما أن القوي يكون في العادة صلب الرأس لا يقبل الوساطة. إذن، فإن من خير أمريكا أن تُنهَك قوى أوروبا قاطبة، ومن ثم تعمد الولايات المتحدة إلى فرض شروط كريمة للصلح. فإن تمّ ذلك فإن الولايات المتحدة تضمن دوام سلم عام شامل على الأرض. وهذه نزعة مثالية راودت ولسون، وإن كان قد جهل استحالة تنفيذها.

وبعد كل هذه النشاطات، في مختلف القارات، هل يمكن أن لا تكون حرب الـ ١٩١٤ «عالمية» حقاً!

* * *

ولنعد الآن إلى مساق الحرب نفسها.

في أواخر سنة ١٩١٤ كانت نوعية الحرب الدائرة قد تقررت. لقد اتخذت لها إطاراً متميزاً عن كل حرب سابقة. إذ اتضح أنها لم تعد حرب نصر حاسم سريع، ولا قتال بضعة أسابيع أو شهور. كلا. لقد ظهر لكل قائد عسكري في أي هيئة أركان مشتركة في الحرب أنه يواجه حرباً طويلة الأمد، لا نصر فيها: فالخنادق لا تتزحزح، وكل هجوم مباشر عليها مكتوب له الفشل.

بعض مشاكل الحرب الاجتماعية

وهنا كانت الطامة. فالحقيقة الأخيرة لم تكن قد أُخذت في الحسبان، حيث لم يكن راسمو الخطط السابقون تكهنوا بهذا التحوّل. فما العمل!

إن ملايين من الرجال قد جرى تجنيدهم في مختلف القارات، ثم دُعوا إلى مباشرة التدريب، وأجبروا على التخلّي عن أعمالهم المدنية. وهكذا، وبشكل قسري اضطر الاقتصاد في الدول المتحاربة أن يغدو اقتصاداً عسكرياً.

وحين تم حل هذه المشكلة بصورة اعتباطية، برزت مشكلة أخرى. فقد كانت

خريطة معركة المارن وتطوراتها



الجنرال غالياني

هذه الحرب، ككل حرب على نطاق واسع، تقذف إلى الخطوط الخلفية شيئين اثنين من صنف البشر: أولهما حطام من يتحملون مشاق الطريق قبل أن يموتوا، وثانيهما فئات من المشوّهين وذوي العاهات التي تقعدهم عن العمل.

وهؤلاء جميعاً يحتاجون إلى من يسدّ مسدّهم في الجبهة، وفي الانتاج.

وإذا أضفنا إلى هؤلاء، أولئك الذين دفنهم ميدان المعركة أو أكلتهم الوحوش، وجدنا أن النقص في خطوط القتال والمجهود المدني كان دائماً يحتاج إلى تعويض. فمن أين يتم ذلك؟

لقد ظل البالغون يُستدعون إلى الالتحاق بالجيش طالما توفر منهم، بيد أن هؤلاء سرعان ما نزح مددهم، فماكينة الحرب تلوك القتلى.

الصبيان

حينئذ تحول النظر إلى الصبيان، وطُلب اليهم الانخراط في الجيوش مرة باسم «الدفاع عن شرف الوطن!» وثانية بدعوى «ضرورة الإخلاص» للملك والتاج.

وبمثل هؤلاء ظلت الجيوش المتحاربة يتضخم عددها بأمداد جديدة حتى عام ١٩١٦، ثم أخذت جميعاً اما في الثبوت مع تدني مستوى العمر، أو الانكماش التدريجي المحتوم.

التفوق العددي في ألمانيا

وكان جانب ألمانيا أمنع من جانب فرنسا فيما يتعلق بهذا الخصوص. ذلك أن عدد سكان فرنسا أقل من ألمانيا، ونسبة مواليد فرنسا شبه ثابتة إن لم تكن أميل إلى النقصان، بخلاف الحال في ألمانيا. وهذا ما جعل الامداد تتوفر لدى ألمانيا حتى سنة ١٩١٨ تقريباً.

قطعان روسيا وأحوالهم

فإذا انتقلنا إلى روسيا، وجدنا بحراً خضماً من البشر، موجاً متلاطماً من الفلاحين والقوزاق وشعوباً عدة. وقد يعترض معترض فيقول: ولمَ كان هؤلاء يقبلون أن تسوقهم عصا القيصر السحرية إلى المسالخ؟ والجواب.. إن القوة أولاً والجهل ثانياً هو ما كان يسوقهم.

وهذان هما عصا القيصر (وكل قيصر أو ملك متحكّم) ذاتها.

لقد كانت حالتهم الاجتماعية أقرب إلى اقنان الاقطاع في القرون الوسطى، وكانت بلادهم نهباً موزعاً بين استثمارات أوروبا الغربية بدولها الكبيرة الثلاث. أما الكنيسة فهي، شيمتها على الدوام، حليفة طبيعية مع القيصر في ارهاق الشعب وابقائه ذليلاً مستسلماً لأوامر البطاركة والمطارنة والقساوسة.

نعم، كانت هنالك طبقة مثقفة ضئيلة في روسيا آنذاك، وكان هنالك شبه منظمة (الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي) تحاول توعية الروس على واقعهم، ولكن.. انى لهذه القوى الضئيلة أن تزيل طبقات من الجهل المطبِق والخضوع المتوارث منذ عصور وعصور!!

إذن كان لروسيا قطعان من المجندين، ولكن، أين لهم بالسلاح؟



الصبيان يدعون إلى الحرب بدلاً من ذهابهم إلى المدارس.. جريمة من؟

قوة الصناعة هي عماد الجيش

إن الجندي لا يقاتل بيديه، والسلاح لا يتوفر إلا عن طريقين: شراؤه أو صناعته. وليس في روسيا نهضة صناعية تكفي لتزويد جحافلها بما تحتاجه من سلاح، كما أن اقتصادها الأقرب إلى الانهيار لا يتحمّل دفع نفقات الشراء. فماذا يُنتظر؟ الوقوعُ فريسة سهلة بين يدي الجزارين من جنرالات الألمان.

وكان هذا بعينه ما أوضحه الغراندوق نيقولا، القائد الأعلى للجيوش الروسية، في اتصالاته مع رؤساء هيئات أركان الحرب لحلفائه. لقد ابلغهم منذ ١٩١٤ أن جيوشه عاجزة تمام العجز عن القيام بتنفيذ أية خطة هجومية واسعة. بيد أنهم.. ماذا كان بوسعهم أن يفعلوا له؟

وعلى هذا الأساس تكون روسيا قد عانت من النقص أيضاً، ليس في موارد رجالها وإنما في تسليحهم. أضف إلى هذا نقصاً آخر فظيعاً. فكما ذكرنا سابقاً، كان واضعو الخطط الروسية، شأن غيرهم، لم يخططوا لحرب طويلة الأمد. لقد وضعوا خططهم على أساس الحصول على نصر حاسم أو هزيمة ماحقة، وسريعاً في كلتا الحالتين، وبأسلحتهم المتوفرة آنذاك.

إلا أنه بدا واضحاً الآن أن تلك الجيوش تفرض تسليحها من جديد وبشَره عظيم.

تسليح جديد

وكان هذا عاماً في الجيوش المتحاربة، وبخاصة أنها تضخمت إلى أحجام لم تكن مقدّرة لها من قبل، كما أن الحرب أصبحت حرباً طويلة. هذا علاوة على أن شراهة وحش الحرب لالتهام الذخيرة كانت فظيعة جدًّا.

استهلاك العتاد

والحق أن الحرب العالمية الأولى استنفدت من الذخيرة أكثر مما فعلت الحرب العالمية الثانية، على الرغم من تطور الرشاشات والأسلحة الخفيفة السريعة الطلقات، وعلى الرغم من استعمال السلاح الجوي على نطاق واسع جداً.

فالحرب الثانية اعتمدت على الماكينات، سواء في الدبابات أو الدروع أو الطائرات، أما الحرب الأولى، فكان جلّ اعتمادها على البندقية التي يحملها جندي المشاة. وما أكثر ما كان هذا يتسلّى باطلاق خراطيشه في وجه الرياح!

ليموتوا فتزداد ثروتنا..

وقد نتج عن حاجة الجبهات إلى العتاد أن أقيمت مصانع الذخيرة في مختلف أنحاء أوروبا. وطبيعي أن أصحاب الرأسمال هم الذين أقاموها طمعاً في ازدياد ثروتهم، فكان من مصلحتهم، بالتالي، أن تطول الحرب ويستهلك الجنود ما تشتريه حكوماتهم.. وبكلمة أخرى: لقد صار من سياسة هؤلاء ترويج صناعة الموت والمتاجرة بالأرواح.

اقتصاد عسكري وويلاته!

على الصورة الآنفة الذكر جرى تحويل اقتصاد أوروبا إلى اقتصاد عسكري. لقد شبّت صناعات جديدة، وظهر إلى الوجود نظام يوائم ذلك. فالعمال أقنعوا بالمعروف، أو أجبروا - بالتهديد بالحبس أو الوصم بالخيانة العظمى - بأن يتحولوا إلى آلاتٍ في المجهود الحربي. لقد طُلب إليهم أن يتناسوا مستوى حياتهم العادية في أيام السلم، وأن يغفلوا تماماً عن طموحهم إلى رفع ذلك المستوى، إلى حين. والموظفون الحكوميون شُغّلوا خضوعاً لتعليمات الانضباط الرسمي ومجالس التأديب التي يعقبها قطع أرزاقهم إذا عاندوا. والفلاحون، في البلدان التي يؤخذ رأيهم فيها، اصبحوا مضطرين للعمل والقبول بتسعيرة الدولة. كل هذا لتزيد أرباح الرأسماليين وتتضخم!

لكن في هذا الميدان بعض التمييز. فقد كان لفرنسا نوع من التقليد الموروث من أيام نابليون.. ولهذا سرعان ما سارت عجلة الاقتصاد العسكري في البلاد. أما في ألمانيا، فلم يكن الأمر على مثل هذا القدر من السهولة. وأية ويلات قاساها الشعب الألماني في أثناء ذلك!!

رذينو

وأخيراً، تم الفرج على يد والتر رذينو W.Rathenau، فهو الذي أوصى بالنظام الجديد. أما من هو رذينو هذا، فهو رأسمالي كبير من أصل يهودي، كان وزيراً للمالية في ألمانيا أيام الحرب.

ويرى بعض المعلّقين على شؤون الاقتصاد في الحرب العالمية الأولى أنه يعود إلى رذينو الفضل في تيسير امكانية القيام بحرب، على ألمانيا منذ البداية. ويزعمون أنه لولاه لما كان في مقدور غليوم أن يحارب.

الأحوال الاجتماعية تتأثر

لم تكتف الحرب بإبراز قضايا عسكرية واستراتيجية، واقتصادية، بالغة الأهمية، وإنما انتقلت إلى الميدان الاجتماعي أيضاً. فمنها خُلقت مسألة رِفه الجنود وعمال المجهود الحربي، والمشتغلين في معامل الذخيرة، وفي أثنائها واجهت الحكومات مشاكل تموين عائلات الغائبين في الميدان، والتعويض عن المشوّهين العائدين، ودهاليز الانحرافات الخلقية الشنيعة. وأهم من ذلك كله، واجهت الحكومات مشاكل «الاثراء» و«جني الأرباح الفاحشة».

وأية مبالغ ضخمة كدّسها الاحتكاريون وكبار التجار! كانت الأسعار دائماً على كفّ عفريت. وكانت الأيدي التي تتحكم فيها سريعة التقلّب واسعة الفُرجات ما بين أصابعها.. أما الناس العاديون، الشعب، فلم يكن لهم إلا عدم الرضا، ثم التذمر الصريح.. وأخيراً، الثورة نفسَها فيما بعد. كما حدث في بعض دول أوروبا.

كان ناهب الأرباح بقبعته العالية، وسيجاره في فمه، وبيده قدح من الشمبانيا هو الشعار الذي اتخذته دعاية المتذمرين رمزاً لها وحجة في يدها.

والواقع أنه لم تعمد أي من الدول المتحاربة إلى الانفاق على حربها من أموال الضرائب التي يدفعها الشعب. على العكس من ذلك، فإن بعض هذه الدول، بما في ذلك ألمانيا نفسها، عمدت إلى تخفيض الضرائب العامة ظانّةً هذا الاجراء كفيلاً بامتصاص النقمة الشعبية وتخفيف حدة التذمر في بلادها.

إذن من أين سيأتي دفع نفقات الحرب؟

قروض وطنية

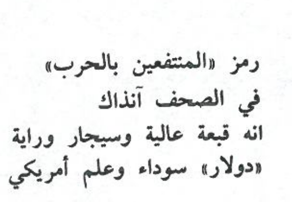
كل دولة كانت ترى أن التعويضات التي ستتقاضاها من غريمتها المهزومة كفيلة بسدّ ذلك العجز. أما أثناء الحرب، فإن اللجوء إلى القروض الوطنية كفيل بذلك. ومن هذا القبيل أنه كان في برلين تمثال خشبي ضخم لهندنبرغ، ومثله في مختلف قصبات البلاد، **يحق** لمن يساهم بإقراض

الحكومة الألمانية قدراً من المال أن يدق فيه مسماراً. وما أكثر ما دُقت في رأس هندنبرغ المسامير!



والتر رذينو
وزير مالية المانيا إبان الحرب.
رأسمالي من أصل يهودي..
وتاجر حربٍ أصيل.





رمز «المتنفعين بالحرب» في الصحف آنذاك
انه قبعة عالية وسيجار وراية «دولار» سوداء وعلم أمريكي

«العمل... كالعادة»

وإذا كانت فرنسا قد حوّلت اقتصادها المدني إلى آخر عسكري بسهولة، وألمانيا قد واجهت بعض الصعوبات أثناء تلك العملية، فإن الحال يختلف عنه في بريطانيا. ذلك أن ما كان على الشعب البريطاني أن يواجهه آنئذٍ كان عسيراً. فالبريطانيون قد ألفوا العيش في جو من نظام المغامرة الحر. وليست «الدولة» موجودة أو لا تكاد توجد، إلا للمحافظة على الأمن والنظام. ما كان هناك تجنيد إجباري أو خدمة علَم، ولم يتوفر للشعب خبرة بالحروب في بلاد أجنبية. فالجيش النظامي هو الموكّل بهذه المهمة: الأسطول يحرس البحار، والقوات المحاربة تجتاز إلى البر الفرنسي فتقوم بالقتال، ثم تعود إلى وطنها. ان ونستون تشرشل هو الذي رفع شعار «العمل.. كالعادة». وهذا الشعار نفسه، ما سخِر منه صاحب حانوتٍ حين احترق مخزونه من البضاعة فعلّق على باب دكانه يافطةً عليها: «العمل... كالعادة».

كتشنر

هكذا كان جو الحياة في بريطانيا قبل الحرب وحتى في بواكيرها: لكنه قد تغيّر الآن... وبكلمة من رجل واحد، فمن هو هذا الرجل؟ انه كتشنر، الذي كان يعتبر أقدر جنرال عسكري تتحرك قدماه على أرض بريطانيا. لقد سبق له أن أخضع السودان، وكسب النصر في جنوب إفريقيا. فلماذا لا يكسب النصر في فرنسا الآن!

لقد قضى كتشنر أربعين عاماً فيما وراء البحار خارج بريطانيا. وكان آخر منصب عهد إليه أن يكون حاكماً على مصر، يسيّر خديويّها «أراجوزاً» فيها.

وإذن، فما هو وجه نفوذه الهائل على الشؤون في بريطانيا في تلك الحال؟

كلمة حاسمة

كان ذلك المغترب لأربعة عقود قد جاء بريطانيا زائراً يوم إعلان الحرب. إنها مجرد مصادفة، لكن المصادفة كانت عجيبة للغاية. فقد وجد كتشنر حكومة حزب الأحرار تتأرجح، وأراد رئيس ذلك الحزب أن يدعم مركز حكومته، فتعلّق بكتشنر وعيّنه وزيراً لشؤون الحرب، متخيّلاً أن الرجل سيكون سهل القياد، يسيّره حسب مشيئته. لكن كتشنر لم ير هذا الرأي في

صاحبه. ففي الاجتماع الأول لمجلس الوزراء، والذي حضره كتشنر، صُعِق الجميع حين ألقى وزير الحرب كلمته الحاسمة. لقد قال: «إن هذه الحرب ستطول.. وإلى ثلاث سنوات أو أربع على أقل تقدير». ولم يسأله أي من الوزراء حجته، بل اكتفوا بأنه رجل حرب خبير، وذو مجد عسكري ضخم. ولربما أنهم لم يقدّروا الآفاق التي تذهب إليها عبارته، لأول وهلة. لكنهم سريعاً ما خبروها.

وقد يتساءل المرء عن تلك العبقرية الفذّة التي تمتع بها كتشنر، وما دام أنه استطاع تحديد دوام الحرب، حتى منذ بدايتها. الواقع أن كتشنر لم يعطِ رأيه عن دراسة شاملة مستقصية، ولا بعد اطلاع دقيق على تقارير الاستخبارات العسكرية ـ هذا مع أن تلك الاستخبارات كانت مخالفة له في الرأي ـ كما أنه لم يكن قد فطن إلى تغيّر نوعية الحرب بعد، وإنما قدّم ذلك الرأي اعتباطاً.

وفي تفسير صوابية هذا الاعتباط يقول لويد جورج عن كتشنر:



هندنبرغ، وأحد المتبرعين
انه يدق مسماراً في التمثال الخشبي

الومض الخاطف

«إن هذا الرجل له ومضة من وحي أو إلهام. فقد تتّقد في رأسه فكرة ثم تومض على شكل عبارة، لا يدري من أين أتته الفكرة، ولا يدرك خطورة العبارة. ومع هذا يتصرف بموجبها.

إنه كالفنار للسفن، فقد يلمع في أعلاه نور كلّه نجاة وبركة، حين يكون الظلام حالكاً وأفق البحر أسود، ثم سرعان ما يخبو النور فيطبِق الظلام من جديد.

لكن السفينة التي لمحت النور لن تغفل أن تتجه صوبه فتأمن الغرق».

* * *

كتشنر والتجنيد

في تلك الأيام كانت الوزارة البريطانية غير متحمسة لمبدأ التجنيد، فما هي الحيلة التي سيلجأ إليها كتشنر؟

جنود نهاية الاسبوع

لقد لجأ أول الأمر إلى قبول المتطوعين. ومن هؤلاء كان في بريطانيا ١١ فرقة نصفهم من الخيّالة، ومعظمهم من أبناء المستعمرات. لكن، أتُرى الجنود الصالحين للخدمة في الهند، وجلّ همهم هناك أن يستضعفوا المسالمين، سيكونون أكفاء للصمود في وجه الفيالق الألمانية!!

عن هؤلاء كان كتشنر يصرّح بأنهم «جنود نهاية الاسبوع»، مشيراً إلى أنهم يهتمون بالمتعة في أيام الآحاد أكثر من اهتمامهم بالتدريب أو القيام بمناورات فعلية.

إذن، لم يبق لدى كتشنر إلا أن يؤسس جيشاً جديداً. وهذا ما فعله حقاً، فقد بدأ في انشاء «جيش كتشنر».

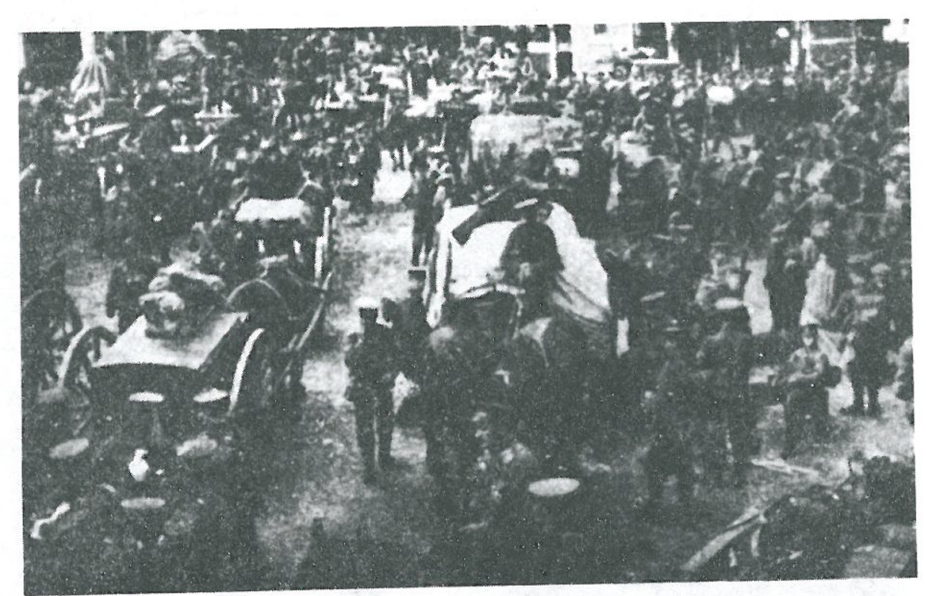
دعاية رخيصة لكن ناجحة

ومن الطريف أن نشير إلى الطريقة التي سلكها هذا الجنرال في الدعاية لجيشه الجديد. لقد كلّف المطبعة الرسمية أن تطبع ملايين النسخ من صورة كبيرة حتى العنق، تمدُّ اصبعها مشيرةً إلى كل بريطاني، قائلةً له:

«أيها البريطانيون.. انه يطلبكم. انخرطوا في جيش الوطن، وليحفظ الله الملكَ».

هذه الصورة ذات الشاربين المرعبين كانت تُطل من الشرفات، والنوافذ، وعلى الجدران في كل مكان يجتمع الناس فيه.

وكان كتشنر يتوقع الحصول على مئة ألف متطوع خلال الشهور الستة الأولى من تنفيذ برنامجه. لكنه بهذا الاعتبار كان مخطئاً، وبخاصة إذا علمنا أن أعلى رقم كان الجنرال ينشده هو نصف مليون. وهو الرقم الذي قدّر كتشنر أن المصانع المتوفرة لديه قد تستطيع تجهيزه وتسليحه.



كانت الحرب العالمية الأولى حرب خيول، وهذه مشاكل النقل التي واجهتها القوات الانكليزية في فرنسا تبعاً لذلك

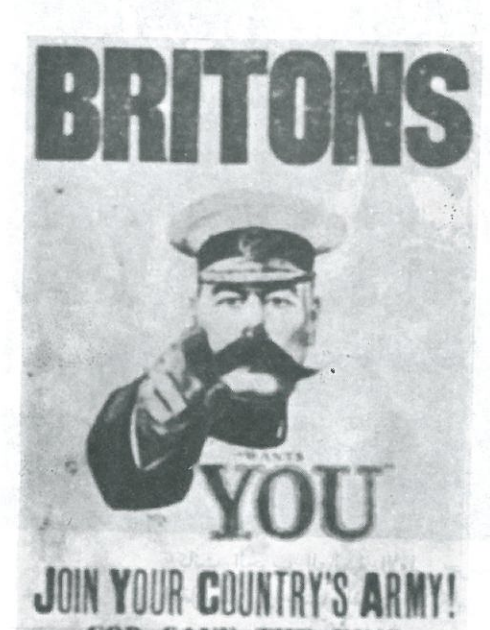
جنون الحرب

لكن الحماسة اجتاحت بريطانيا آنذاك، فلَم يكد ينقضي الشهر الأول حتى ارتفع رقم المسجّلين في مراكز التطوع إلى نصف مليون. وبدا أن السعيد السعيد من المتقدمين للتطوع هو الذي نال طلبه الموافقة. فما السر في ذلك؟

كان المنخرطون الجدد في سلك الجندية قد رسموا للحرب صورة مرحة أقرب

إلى نزهة أو «مشوار». وحتى حينما عادت الجثث والمشوّهون من الجبهة ظل الاقبال على التطوع عظيماً. فطوال ثمانية عشر شهراً عقب ذلك، ظلت قوائم التطوع تطفح بمئة ألف رجل كل شهر! ولو حسبنا المجموع على أساس هذه الوتيرة لحصلنا على رقم ثلاثة ملايين. والحق، أن هذا العدد الهائل من الناس البريطانيين هم الذين مارسوا الحرب بصورة أو أخرى.

وفي أول الأمر أغرق سيل التطوع كلاً من الحكومة البريطانية ومكتب الحرب في وزارة الدفاع. ماذا يستطيعون أن يفعلوا بهذا العدد؟ بيد أنه.. لقد وُجدت المشكلة، فصار لزاماً عليهم أن يواجهوها. ومن الطبيعي أن الرجال الأقوياء هم الذين يتقدمون أولاً، أي أنهم أول من يتلقون التدريب العسكري ويغادرون الوطن. فمن هم هؤلاء؟!



«أيها البريطانيون:
انخرطوا في جيش الوطن،
هكذا يطلب الملك»

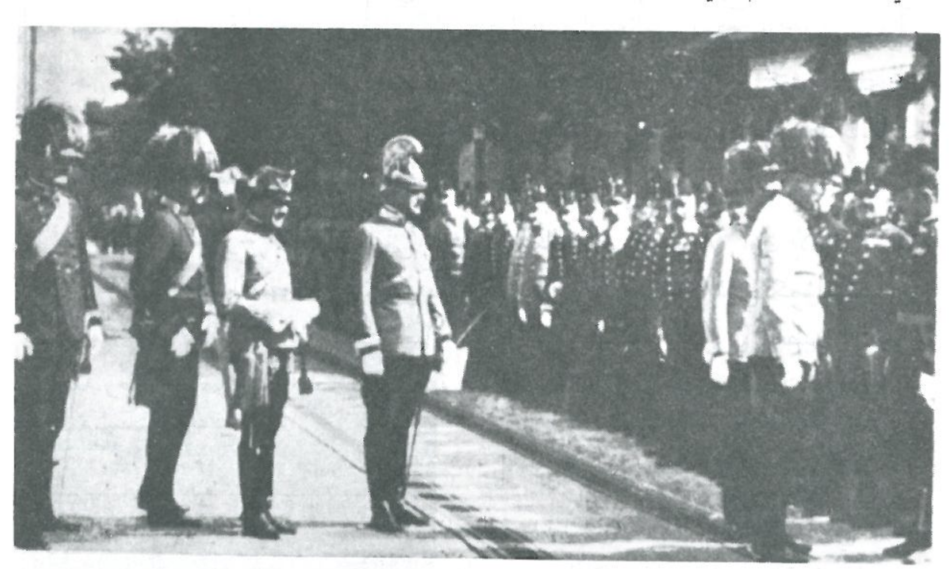
وقود الحروب

إنهم عمال المناجم والفلاحون. هؤلاء هم ذوو العضلات الصلبة والقدرة على احتمال المشقّات. هذا من ناحية. أما من ناحية أخرى، فهم الذين يودون تغيير واقعهم الذي كثيراً ما يكون تعساً؛ وبهذه الرغبة يغدون أكثر اقداماً على المغامرة. أضف إلى ما سبق أن الروح الوطنية

متوفرة لديهم، على الدوام، وفي مساق التاريخ، أكثر من غيرهم. لقد ظل ابناء عامة الشعب على الدوام وقوداً يحرقه القادة والحاكمون.. منذ أيام «الخالدين» في «فارس»، إلى الحرس «الامبراطوري» أيام «يوليوس قيصر» وحتى عهد «نابليون» و«قياصرة روسيا» وفرانز فرديناند في النمسا. وها هم الآن يقومون بدورهم نفسه في الحرب العالمية الأولى.

ولما كان هؤلاء هم الأكثرية الساحقة من كل شعب، فإن أي حرب تقوم، تكون على حسابهم هم. ولكن.. من أين تأتي الحكومة لأعدادهم الهائلة بالتجهيزات الضرورية والسلاح؟

كان هنالك عدد صغير من معسكرات التدريب مبعثرة في البلاد. فاكتظت بالخلق منذ الأسابيع الأولى لافتتاحها. فأين يعسكر طوفان المتطوعين الآخرين؟ طوال سنة ١٩١٤ و١٩١٥ ظل المتطوعون يعيشون في خيام من الخيش. وما أحلى الحياة في هذه الخيام في شتاء بريطانيا، بل في أمطارها طوال العام!



فرانز فرديناند يفتش الجنود في موستار قبل اغتياله. وبعد اغتياله نشبت الحرب!

تجهيزات مضحكة

أما من حيث تجهيزهم، فقد ظلوا يتدربون في ملابسهم المدنية لعدم تيسّر التجهيزات العسكرية لهم طوال عامين. كانت بنادقهم عصيّاً غليظة ذات مسامير مدقوقة في رؤوسها، وكانت أحذيتهم

مهترئة، إذا لم نقل: ان الحفاء كان غير قليل الانتشار فيما بينهم.. وإنها لمهزلة ما بعدها مهزلة، أن أولئك المسلحين بالعصيّ والمزوّقين بسراويل مختلفة الألوان ـ كانوا في تأهب دائم، خشية أن يصدر الأمر فجأة لإلحاقهم بالجبهة!

وإذا كانت استثارة الروح الوطنية قد عبأت لكتشنر لوائحه في شهر واحد عوضاً عن ستة، فإنها لم تنسَ أن تخلق له ولجنرالاته مشاكل كثيرة. فمن طبيعة هذه الروح أنها سريعة الاشتعال قصيرة العمر ما لم يغذّها الوقود. فما هو هذا الوقود في حال الحرب؟ هو الانتصارات الصغيرة المتلاحقة، أو النصر السريع الكبير.

لكن أياً من هذه لم يتحقق. لذا كان على الساسة البريطانيين أن يجوبوا البلاد، متخذين من مقدرتهم في الخطابة واستثارة المشاعر وسيلةً يثبّتون بها جوّ الحرب وأفكارها في نفسيات المواطنين.

الثعلب!!

وفي هذا الميدان كان لويد جورج صاحب القدح المعلّى. فقد ظل يعارض في إعلان الحرب ويسوق حججاً وجيهة تؤيده في نظرته، حتى اللحظة الأخيرة. أما وقد تم اعلان الحرب فقد انقلب حماسه ضد الحرب إلى حماسة في سبيل كسبها.

قبِل لويد جورج الاشراف على الشؤون المالية في الحكومة، أول الأمر. ثم ما عتم أن ظهر على المنصة العامة بين الشعب في ١٩ تشرين الثاني كمؤيد مندفع للحكومة. وكان هذا الرجل ديماغوجيًّا. فبينما ظل الساسة الآخرون يخطبون الناس في لغة رصينة ترصّعها عبارات دبلوماسية متحفظة، كان لويد جورج يسفّ في عباراته إلى درجة السِّباب.

مفلس يتاجر بالوطنية بالتقسيط

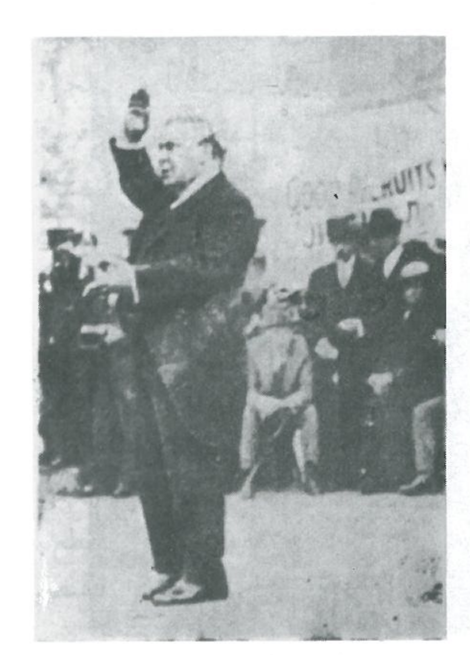
وما دمنا قد تحدثنا عن الخطابة وحملاتها في تلك الأيام، فليس من اللائق أن نغفل رجلاً طريفاً حقاً في هذا المضمار. انه هُراشيلو بتوملي. وهو رجل سبق أن أعلن إفلاسه وخسر اعتباره المدني قبل الحرب. إلا أنه الآن أعيد ممثلاً للشعب! (تريبون). وكان ذرب اللسان، ماهراً في الضرب على أوتار التأثر العاطفي، يستغل الدين حيناً، والوطنية حيناً آخر. وقد صنّف خُطبه حسب ما يأمل في الحصول عليه من أموال المتبرعين.

فهو يخطب عن ضرورة الاخلاص للوطن، إذا كان المبلغ الذي يأمله أقل من ١٠٠ جنيه ، ويكون خطابه فاتراً قليلاً. أما إذا ارتفع المبلغ فإن حرارة الخطاب ترتفع أيضاً. حينذاك يدخل «المسيح»، «أمير السلام» حلبة المعركة: فيرضى «الأب» عمن يدفع لفرض «السلام الدائم المقبل»، ويباركه «الابن» لأنه يساعد «حامي المسيحية»، ملكَ بريطانيا.

أما إذا زاد المبلغ عن ٢٠٠ جنيه، فعندئذ يغدو المستمعون، ما أقربهم من قدم المسيح وقاعدة صليبه!

التبرع بسرقة التبرع

والواقع أن هُراشيلو جمع تبرعات ضخمة للحكومة، كما جلب متطوعين عديدين. ومن الطبيعي أنه لم ينسَ أن يهتم بشؤون نفسه أيضاً. كان يزعم أن الناس يتبرعون حباً في المسيح، فما يمنع هُراشيلو أن يتبرع بأخذ بعض تبرعاتهم لجيبه الخاص! لقد جمع ٧٨ ألف جنيه، انفقها على الشمبانيا وخيول السباق، والنساء..



«هراشيلو بتلومي» يخطب في الناس داعياً إلى التبرع للجيش والإسراع في التجنيد.. ومن هذا سرق «الوطني الغيور» ٧٨ ألف جنيه!

سلخانة وبعوضة ومجد!

بمثل هذه الوسائل وغيرها تم ابقاء الحماسة في نفوس الناس في بريطانيا على أشد درجة من الاستثارة. ومثل ذلك كان الحال في فرنسا وألمانيا أيضاً. وفي كل مكان كان الرجال يُخدعون عن طريق العواطف النبيلة المغلّفة، حتى إذا ما تخدّروا ولانت قناتُهم، دفع بهم القادة والسياسيون إلى سلخانات كتبوا على نواصيها لفظة «التضحية». هذه السلخانات هي التي يطلق عليها المؤرخون اسم «معارك الحرب العالمية الأولى». والحق أن روبرت بروك كان يتكلم بلسان جيل بريطاني كامل حين قال: «حمداً لله، لقد آثرنا بساعته». إلا أنه مات بعد ذلك ببضعة أيام. لقد لدغته بعوضة فقضت على مجده كله.

وكان الجهل عاملاً مساعداً في إبقاء جذوة الحماس هذه. هكذا شاء جنرالات الحرب: فكانت الجرائد تخرج خالية من أخبار الجبهة، وإذا ما سُمح لها بالاشارة إلى ذلك تم بعد غربلته في منخل الرقيب وثقوبه الدقيقة. أما المراسلون الحربيون فقد ظل الاقتراب من منطقة العمليات العسكرية محرماً عليهم.



يجمعون «شلن» الملك، من كل رجل، إعانة للجيوش الإنكليزية المحاربة

التعمية عن الواقع

وهكذا، لم يدر البريطانيون أن جيشهم يتقهقر من أمام العدو خشية أن يفترسه التطويق. ولم يدر الفرنسيون أن جيوشهم قد انشطرت، بل سُحقت عندما اصطدمت بالقوة الغازية، وان بلادهم قد خسرت معركة الحدود، فأراضيهم تئن تحت أحذية مهاجميها. ومثل هؤلاء كان الألمان، فقد أخفي عنهم أن خطة شليفن قد اخفقت ولم تأت بالنصر السريع المرتقَب. أما من حيث قطعان الروس فإن القيصر وقيادته ما كانوا يعتقدون أن من حقهم أن يعرفوا شيئاً عن أبنائهم في الجبهة.

لكن الأخبار لا بد أن تفتضح آخر الأمر. وقد تسربت كل هذه الشذرات بالتدريج، فلم تفعل أكثر من زيادة الجنون والحماقة في المواطنين. صار البريطانيون يتحرقون لمحو وصمة التراجع الاضطراري على جيشهم، والفرنسيون يلتهبون للأخذ بالثأر، والروس تسوقهم الكنيسة والجوع وفرسان القوزاق الموتورون.

صحافة الخيال

ولما كانت الصحف مصدراً غير كافٍ لأخبار الحرب، فقد خلق ذوو الخيال الخصب مصدراً آخر. لقد راجت الشائعات. ومن ذلك أن إشاعة ظهرت في بريطانيا تقول: إن مليوناً من الجنود الروس قد نزلوا إلى البر في «أبردين»، وهم في طريقهم إلى الجبهة الغربية في فرنسا لسحق الألمان هناك. أما لماذا كان هؤلاء الجنود روساً، فلأنهم حلفاء أولاً، ولأن عدد رعايا القيصر يسمح برفع الرقم إلى مليون. وأما لماذا نزلوا في أبردين، وليس في لندن، أو أي مرفأ آخر قريب على فرنسا، فلكي تبعد الشقة فيصعب التكذيب.

وكان المرء يجد فرداً أو آخر ممن شاهدوا هذا المليون الوهمي، إذا سار في الشارع. فهذا يصف معاطفهم الطويلة، وآخر يرسم بأصابعه «قلابقهم»، وثالث يحلف بأن قريبة له جاءت من أبردين قد خطبها أحد ضباطهم!

ومن هذا القبيل ذلك الجبل الأسطوري الذي أشيع عن وحشية الألمان في أراضي البلجيك وفرنسا المحتلة. فقد زُعم أن أيدي الأطفال الصغار كانت تقطع، ونهود الراهبات تُبتر من أصولها. أما هتك الأعراض والتفظيع مع النساء فقصص مختلَقة، حدّث عنها ولا حرج.

وإليك مثلاً عن قصة حقيقية كيف حُورّت آخر الأمر.

الجرسية المباركة والخوري الأصلع

من الطبيعي أن يكون في القرية كنيسة، وأن يكون للكنيسة جرسيّة، وفي الجرسيّة جرس. وهو في العادة وسيلة من وسائل الإعلام في القرى، إذ يُدَق كلما حدث ما يوجب ذلك، سواء كان وفاةً أو اكليلاً.

وغزو الألمان لقرية بلجيكية أهم عند أهل تلك القرية من أية جنازة أو عقد إكليل. وهكذا دق أحد القرويين جرس الكنيسة في قريته حين شاهد الألمان يتقدمون صوبها.

إن هذا خبر عادي، ظل يحدث منذ القرون الوسطى حتى يوم الناس هذا. لكنه في حال قدوم الألمان، وخضوعاً لموجة الشائعات في الحرب الكبرى تغيّر إلى ما يلي:

في أول الأمر صار ينطوي تحته أن الألمان قيّدوا الخوري وكمّموا فمه، واستعملوا رأسه الصلعاء بدلاً من «طابوش الجرس». ثم أصبحت «العناية الالهية» هي التي دقّت الجرس للتحذير من «الوحوش» الزاحفين.

وهكذا صارت «دقة الجرس» معجزةً من معجزات الرب!!

فمن كان يُبدع هذه الشائعات؟

إنه خيال الصحفيين أولاً، ثم تحبيذ مكاتب الاستخبارات المحلية ثانياً. فالصحفيون لا يجدون مادة لحقول صحفهم، لذا يملأونها بهذا الهراء. ومكاتب الاستخبارات لا تمانع في نعت جيش العدو بكل مقبحة ونقيصة.

وزاد في نجاح هذه الشائعات وتصديق الناس لها أن العوامل النفسية كانت مساعدة جداً. فالبريطانيون والفرنسيون والألمان ورعايا الامبراطورية النمساوية والروس.. كل هؤلاء قد فشلوا في تحقيق ما قدّره لهم ساستهم وجنرالاتهم. وهم جميعاً لا يقبلون فشلهم كحقيقة واقعة، فهم لم يكونوا يتصورونه البتّة. إذن، فلا بد من اختراع معاذير وتبريرات.

سيقان الراهبات المشعرة

ووقع الاختيار على قضية التجسس.. صار الناس يشكّون أن كل غريب هو جاسوس للأعداء. لم يعودوا يثقون بأنفسهم. لكنهم كثيراً ما تساءلوا: ما هي البؤرات التي يمكن للخيانة أن تعشّش فيها؟ انها المناصب الكبيرة طبعاً، ثم المجتمعات المغلقة. وخير المجتمعات المغلقة هي

الأديرة للرهبان والراهبات، ومناصب العسكريين. أما المجال العسكري، فالمدنيون لا يجرؤون على اتهامه، وإلا نالوا جزاء «المحكمة العسكرية». وأما الأديرة فقد وقعت ضحية لم تجد من يدافع عن سمعتها.

ففي بريطانيا مثلاً، صار الناس يقولون: ان جواسيس الألمان منبثون بين الراهبات، وعليهم ملابسهنّ، وما عليك حين تشك في راهبة إلا أن تكشف عن ساقيها حتى الفخذين. فإذا وجدت الشعر الأشقر يغطيهما، فالقِ عليها القبض.. إنها جاسوس.

وفي فرنسا كانت كل عربة من عربات سكة الحديد تزيّنها يافطة كبيرة مكتوب عليها «أذُن العدو تسمع»، فأدى ذلك إلى موجة عارمة من الارتياب في كل غريب، بل في كثير من المواطنين أنفسهم. فها هم الاثرياء البريطانيون الذين اتخذوا لهم ملاعب ممهدة للتنس تدور حولهم الشائعات. فالريفيون يعتبرون أن تلك المساحات قد أقيمت تحضيراً لمدافع الألمان كي تتركز فيها لتقصف لندن. ولهذا فهم يرون أن على الحكومة أن لا تسهّل هذه العملية، بأن تخرّب أرضية تلك الساحات. هذا، كما أن عليها أن تُبعد الألمان المقيمين في بريطانيا، لأن هؤلاء حتماً أعوان لبني وطنهم المهاجمين.

وخضوعاً لذلك نقلت الحكومة بالفعل ارهاطاً من خدم المطاعم وعمال المزارع الألمان إلى جزيرة مان.



جواسيس ينقلون في عربة برسيم

رعاع لندن

لكن الأمر لم يقتصر على التسفير والحجز، فقد سارع رعاع لندن والعواصم الأخرى في البلاد، إلى نهب المتاجر والحوانيت التي يمتلكها الألمان. ولما فرغوا من هذه «المأثرة الجليلة!» التفتوا إلى المتاجر الأخرى، فطفقوا ينهبون كل مخزن يبدو اسم صاحبه غريباً على أسماعهم. وما أكثر متاجر الفرنسيين والاسكندنافيين التي تحولت إلى انقاض!!

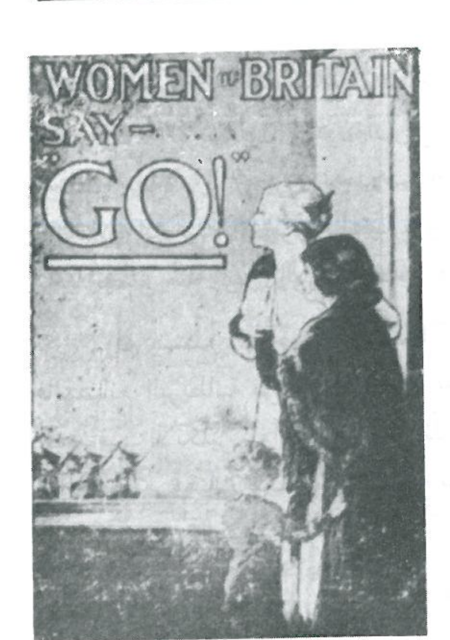
مثل هذا تم في فرنسا بالنسبة للغرباء المقيمين فيها. وكذلك في ألمانيا، وفي روسيا، وذلك بخلاف الامبراطورية النمساوية حيث حوفظ هناك على قدر أكبر من عوائد المدنية المهذبة.



الجنود الألمان يولدون الكهرباء بواسطة دراجة

شارات الجبن

وفي لندن كانت النساء يتظاهرن في الشوارع وهن يحملن شارات بيضاء يوزعنها على من يجدن لا يزالون في الملابس المدنية. وهذه الشارات هي علامة على الجبن والتخلي عن الواجب. وبطبيعة الحال لم يتعففن عن سلب الأغراض والأمتعة من منازل الألمان أو متاجرهم. أما الداعي لكل ذلك فهو شعور عام بقرب المجاعة والأزمة في توفير الحاجيات. وكان هذا الشعور سائداً مما أدى إلى شبه تفتيش دوري على مخازن اللحوم والغلال، تقوم به جماعات غير مسؤولة.



«يا نساء بريطانيا، قلن للشباب:
اذهبوا إلى الحرب»،
ومعنى ذلك:
اذهبوا إلى الموت..

زحوف اللاجئين

وكان اللاجئون عنصراً جديداً يزيد في الفوضى والاضطراب. ففي عرض أوروبا كانت الجموع البشرية تزحف من أمام الجيوش المتقدّمة. وكنت ترى مدداً من الناس لا ينقطع، على جوانب الطرق، وأمام العائلة عربة يجرّها بغل أو حصان، وفي بطن الكارّة ألحفة وبطانيات وطناجر وحطام من أثاث.

وكانت هذه الأسر النازحة قلمّا تتخطى حدود بلدها ذاته.. وإنما تستقر في موضع آخر غير موطنها الأصلي، فيه، فيكون أفرادها والحال هذه غرباء، لا أجانب.

لاجئو بلجيكا

بيد أن هذا لا ينطبق على البلجيكيين، إذ لم يبق لهم وطن بعد أن احتله الألمان بكامله. فصار النازحون منهم يقفون على شاطىء البحر طالبين الفرج، شاخصين إلى سفينة تنقلهم إلى بريطانيا.

إن مئة ألف بلجيكي قدموا إلى بريطانيا في تلك الفترة، حظي معظمهم باستقبال مشبع بروح الود والعطف أول الأمر. غير أن الحال تغير سريعاً، فالبلجيكيون يُلقون تبعة تعاستهم على عاتق بريطانيا التي لم تحمِ بلادهم بصورة أكثر فعّالية،

والبريطانيون يعتبرونهم سبباً قد جرّهم إلى ورطة كبيرة.

وكان البريطانيون يظنون أن كل بلجيكي هو بطل.. ألم يقاتل الألمان؟ فلما اختلطوا بهؤلاء النازحين، وجدوهم أناساً عاديين، فيهم الوطني المتحمس ورجل اللامبالاة العربيد. فشعروا بالخيبة، وبهتت ألوان الصورة التي سبق أن رسموها في مخيّلاتهم، مما أدى إلى مناكفات كثيرة بين الفريقين.

ولم يستطع النازحون أن يكيّفوا أنفسهم حسب ما تقتضيه وضعيتهم الجديدة.. فالمصانع البريطانية من طراز يختلف عن مصانعهم، وعمالهم يتقزّزون من مرؤوسية المشرفين الانكليز. وأخيراً.. تم نقلهم إلى نورتمبرلند، حيث أعطيت لهم مدينة خاصة بهم. وهناك شكّلوا شبه حكومة مدينية بلجيكية: نظموا بوليسهم الخاص وأقاموا البنايات على نسقهم المتميز بهم، وحتى البيرة جعلوها بلجيكية صِرفاً.

* * *

في الحرب نزعة إلى التوحيد المحلي

على الرغم من الصورة القاتمة التي كانت عليها أوروبا (كما رسمنا) في هذه الأثناء، ظل هنالك حماسة للحرب. فالعِداءات خفتَ صوتُها، سواء في البلد الواحد بين فئات شعبه وأحزابه السياسية، أو بين بلدين مختلفين يقفان الآن تجاه عدوٍ مشترك. لم يعد هناك اضرابات مدمّرة تنهك الاقتصاد في أوروبا. في بريطانيا أوقف «المسحوقون» حملتهم في سبيل إنصافهم عن طريق العنف. وفي فرنسا، كان «المستقبليون» الذين طالما أقلقوا راحة البلاد بمطاليبهم، مبتهجين يصفّقون لهدير المدافع. وحتى القوميات التي طال عهد تذمّرها من مضطهديها كفّت عن التذمر وأجّلته. فالايرلنديون أقبلوا على التطوع بحماس، والكرواتيون قاتلوا إخوانهم الصربيين بضراوة، وفي خدمة الامبراطورية النمساوية - مع أن الكرواتيين والصربيين جميعاً من السلاف الجنوبيين. والتشيك الذين استسلموا للجيش الروسي، فعلوا ذلك كرهاً منهم في الحرب، لا بفعل المشاعر القومية كـ «سلافيين». والثوريون الاشتراكيون في روسيا، وهم من كانوا قد نذروا أنفسهم لمعارضة الحرب، غدوا الآن من دعاتها ومن أشد المتحمسين للفوز فيها.

وحتى النواب البولشفيك في مجلس الدوما القيصري في بطرسبرج، أعلنوا أنهم سيؤازرون الحرب ما ظلت حرباً شريفة غايتها الدفاع عن أرض الأجداد. لكن هذا لم يجنّبهم النفي والتشريد في قفار سيبريا بعد إعلانهم السابق بفترة قصيرة.

لينين يعارض الحرب

وفي هذه الأثناء كان هنالك شخص ظل ضد الحرب منذ بدايتها حتى النهاية. إنه لينين. فقد ظل هذا المشرّد الروسي في منفاه بسويسرا يعلن معارضته للحرب. لكن المعارضة اللفظية لم تكن ذات جدوى، ولينين لا يستطيع غير ذلك. ولهذا انصرف الرجل إلى الاشتغال بتأليف كتابه «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية»، معظم الوقت.

برنارد شو والحقيقة

وإذا كان لينين قد ظل خفيض الصوت، فإن «برنارد شو» لم يقنع بذلك. إذ هزّت روايته «الحقيقة حول الحرب» الجزر البريطانية هزاً عنيفاً. ففي هذا الكتيّب خرج برنارد شو صارخاً «بأن حياد بلجيكا وعدم احترامه ليس إلا مبرراً مختلقاً لإعلان الحرب. أما السبب الكامن فعلاً، فهو الصراع مع منافس خطير للأسد البريطاني العجوز». كما أشار إلى «أن هذه الفرصة هي ربيع بريطانيا الأخير».

الساسة وثقة شعوبهم

والغريب بالفعل أن أياً من الساسة الذين انغمسوا في الحرب وأساؤوا التصرف إبّانها لم يفقد ثقة شعبه نتيجة لتلك المساوىء. إن «أسكويث» و«فيفياني» و«بتمان» ظلوا أبطالاً وطنيين. وحتى «برشولد» الغبي لم يجرِ التخلص منه كوزير خارجية للامبراطورية النمساوية - المجريّة إلا في أوائل سنة ١٩١٥، حين تقدم رئيس وزارة المجر المسيو «تسيزا» شخصياً ليضغط في سبيل طرده على الامبراطور.

إنك غبي يا سيدي!

ومن الطريف ما حدث بين رئيس الوزارة ووزير الخارجية، فقد قال رئيس الوزارة: «إنك غبي وسأعمل على طردك. سأحدّث الامبراطور بصدد ذلك». فكان جواب برشولد: «أبلغه ذلك، فقد سبق أن قلت له بنفسي مثلما تقول، ولكنه لم يفعل. لقد حدثته عن غبائي كل يوم». ونجح الضغط، فأُبعد ذلك الوزير الغبي.



رئيس وزراء المجر يفكر في مصير بلاده
إنه هو الذي «طرد» برشولد وزير خارجية النمسا من منصبه

الجنرالات الخائبون

ومثل هؤلاء الساسة كان الجنرالات: لم يفقد أي منهم منصبه وشعبيته لاخفاقه في الحصول على نصر كان يمنّي مواطنيه بنيله. نعم إن غليوم قد صرف «مولتكه» من الخدمة واستعاض عنه بـ «فولكنهاين»، ولكن هذا لم يكن رجل مجتمع.. فلم يؤثر وجوده على شعبية مولتكه السابقة. فسنّى ذلك لهندنبرغ أن يرث تلك الشعبية.

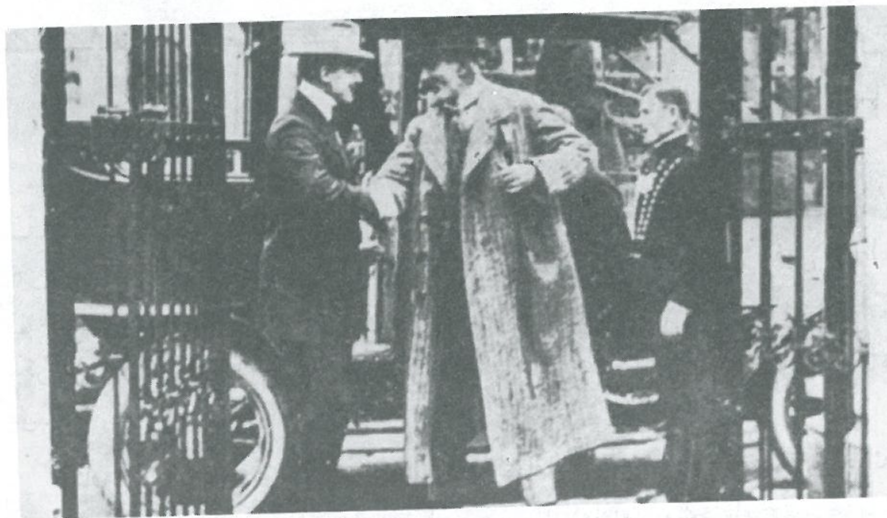
كذلك جوفر، ظل هو الحاكم المطلق على خط الجبهة للحلفاء: ظل يحتل مركزاً سامقاً، وكأن غباءه في عدم انتهاز الفرصة حين تراجع الألمان، وسامٌ رفيع يتقلده. كان الفرنسيون والحلفاء على السواء ينظرون إليه كعبقرية فذّة نادراً ما يجود بمثلها التاريخ. هذا مع أن غالياني كان أبعد نظراً فيما يتعلق بالدفاع عن باريس والانقضاض على مؤخرة الألمان منها.

وكتشنر بدوره، كان يتمتع بثقة البريطانيين العظيمة.. حتى زملاؤه في الوزارة أذهلتهم شخصيته أول الأمر فلم يناقشوا آراءه. لكنه سرعان ما تبيّن لهم أن تاريخه

الطويل في مصر والهند هو الذي كان يستغلّه الرجل، لا القدرة العسكرية.

وأدهى من ذلك وأمرّ، أن السير جون فرنش أيضاً ظلت مقدرته على «التراجع» من أمام الألمان تلقى تبزيراً كافياً.

ومجمل القول.. كان الناس في أوروبا يعتقدون أن كسب الحرب ما زال ممكناً. وكانوا يناقشون القضية على الوجه التالي: «نعم، إن نصراً سريعاً لم يتحقق في سنة ١٩١٤، وذلك لضخامة القوى الألمانية المعادية، لكن هذا سيتم في سنة ١٩١٥. ان حملةً ضخمة حسنة التجهيز لا بد أن تتفوق على الألمان فتنتصر الجيوش الحْليفة». وعكس ذلك يفترض الألمان.



النمساوي الغبي والألماني الطيب القلب!!
برشولد العجوز، ومستشار ألمانيا بتمان، الشاب

«مبدأ التفوق في الكم»

وهكذا.. كان «الكم» هو العامل الحاسم في المعركة، في نظرهم. وما دام الحال كذلك، فلمَ لا يزيدون رهوط جيوشهم!؟ إذن، عليهم بالتطوّع.

لكن الانطلاق من فكرة «الكم» هذه، أثّر على نوع التدريب العسكري الذي يجب القيام به. فالتدريب في هذه الحال يجب أن يعتمد على اتقان استعمال السلاح الأبيض. لهذا نجد شعار «حراب ـ ركّب» هو الايعاز الغالب على تدريب متطوعي الحلفاء في هذه الفترة.

حراب... ركّب

و«حراب ـ ركّب» هذه: تعني «العودة إلى مبدأ الهجوم» لا «الدفاع». ومن ذلك نخرج بأن الجنرالات كانوا منطقيين تماماً ومنسجمين مع مبادئهم حين أهملوا العناية بالأسلحة الدفاعية كـ «الماشين ـ غان» واعتبروها سلاحاً غير مرغوب فيه. ولو سلكوا خلاف هذه الطريق لكان معنى ذلك أنهم يقولون:

«لقد حاولنا النصر عن طريق الهجوم ففشلنا، فنحن نحاوله الآن عن طريق الدفاع». وهل هذا ممكن أو مقبول في نظر «آلهة الحرب»!!

* * *

علام نتقاتل!

يقولون: «بعد السكرة تأتي الفكرة». لكن هذا لم ينطبق على الحرب العالمية، بل علىٰ جنرالاتها بشكل خاص.

فقد انتهت شهور عام ١٩١٤، وخلّفت قتلى وجرحى ومشوهين، ولاجئين وقرى ومدناً مدمّرة.. وها هو عام ١٩١٥.. فهل تساءل أي من الجنرالات قائلاً: «علامَ نتقاتل؟». كلا. لقد بدأ الجميع الحرب، وهم في سكرتهم؛ وانقضى العام الأول وأطل الثاني، وهم لا يزالون فيها. ان احداً منهم لم يُفِق.

كان الألمان قد بدأوا الحرب ليكسبوا، والحلفاء يحاربون دفعاً للهزيمة. بيد أنه لم تكن هناك أهداف محددة، فالألمان يكسبون «ماذا»؟ والحلفاء «أي هزيمة يدفعون»؟. نعم، كان الفرنسيون يأملون استعادة الالزاس واللورين، ولكن: هل تسوى الالزاس واللورين تلك القرابين التي دفعتها فرنسا في الحرب؟

الانتصار هدف لذاته

والبريطانيون.. كانوا يختبئون وراء دعواهم في تحرير بلجيكا. لكنْ هذا قد يبدو سبباً للحرب، لا مبرراً كافياً لاستمرارها. إذن، لماذا استمرت الحرب؟؟ ذلك أن «الانتصار» نفسه أصبح «هدفاً» أي ان الحرب قد استعبدت مشيئة القائمين بها. انه جنون «الكبرياء القومية».

وإذا كانت الحرب قد خلقت هذا الجنون، فإنها خلقت أشياء أخرى من

شاكلته. وأول هذه المواليد تغيّر العلاقات الدولية.

فألمانيا مثلاً، ظلت تعتبر روسيا عدوها الأول منذ القديم، كما تعتبر بريطانيا وفرنسا لا أكثر من منافستين اقتصاديتين، ترضى منهما ببضع مستعمرات في إفريقيا أو غيرها. ان المانيًا واحداً ما كان يفكر في الاستحواذ على بلجيكا أو سلخ شمال وشرقي فرنسا من حكومة باريس، من قبل.



الجنود الكنديون في وضع «جنود! حراب ـ ركب» وذلك قبل تسلقهم القمة لتطهيرها من العدو

الألمان واستعمار الشعوب الأخرى

أما الآن فقد تغير ذلك. لقد أصبح الألمان يطمعون فعلاً في مد نفوذهم إلى الشرق. وتراءت لهم صور سكة حديد برلين ـ بغداد ذهبية مشرقة. وصاروا يخططون حدوداً جديدة لنفوذ ألمانيا.. ويوسعون تلك الحدود حتى خليج العجم، بل ربما قفز بعضهم إلى الهند.

وكذلك الحال تجاه فرنسا، فإن لها مستعمرات غنية في شمال إفريقيا.. فما المانع أن يدرس ابناء مراكش الألمانية بدلاً من الفرنسية، ومثلهم الجزائريون، وأهل تونس؟

كان هذا هو رأي ملقّني السياسة للصحف والشباب.. وهو ينطبق مع نظرات كبار رجال الصناعة أيضاً. ولهذا نجد هؤلاء يشجّعونه ويحاولون تطبيقه.

تصنيف العدو من جديد

وهنا تبرز حقيقة جديدة هي المولود الذي تكلمنا عنه. فقد أصبحت فرنسا وبريطانيا هما العدو الأول لألمانيا. أما روسيا فقد غدت ألمانيا تقنع منها أن تدعها وشأنها. لكن روسيا لن ترضى بذلك، فهي تريد التعويض لا شك. إذن، لماذا لا يتم الصلح معها على أساس إعطائها مغنماً على حساب النمسا أو تركيا..

وهذا ما فكر فيه أولو الشأن في ألمانيا.

ثم ان التحليل الألماني تعدى هذا الحد. فحتى فرنسا ـ مع أن جيشها البري هو العقبة الكبرى في الجبهة الغربية ـ يمكن إجبارها على حل أساسه المصالحة. ان قهرها ليس مستحيلاً على كل حال. بل إنه غير عسير أبداً لولا بريطانيا وأموالها، وأسطولها وجيشها البري أيضاً.

إذن، فالعدو الأول لألمانيا إنما هو بريطانيا بالذات، فها هي لندن قد أخذت تتدخل في شؤون أوروبا، تحاول منع اتحادها بزعامة ألمانيا في دولة ضخمة قوية.

بريطانيا العدو الأول

وهنا تدخل عامل «الحقد» والكراهية. لقد تغذّى الألمان بكره بريطانيا؛ وصار قادتهم ينتظرون اليوم الذي تحل فيه اللعنة على هذا العدو اللدود.. صاروا يتمنون للجزر البريطانية أن تدمرها الأمواج أو

يبتلعها المحيط. وما دام المحيط لن يفعل ذلك كما يبدو، فعلى ألمانيا أن تقوم بالمهمة.. عليها أن تكون سبباً في انهيار الأمبراطورية البريطانية مهما كان الثمن.

هذا هو الشعور الذي ساد أوساط الحرب الألمانية آنذاك.

ومن الطبيعي أن يكون هناك شعور مناظر له على الجانب الآخر من بحر الشمال. فالبريطانيون الذين يعيشون في بحبوحة من خيرات مستعمراتهم لن يسرّهم فقدان أمبراطوريتهم وأسواقها. وملك بريطانيا و«امبراطور الهند» لن يظل هانىء البال إذا كان قريبه غليوم يطمع في طريق الهند. وهكذا تحوّلت الحرب إلى نوع من المباراة الثنائية بين المانيا وبريطانيا.

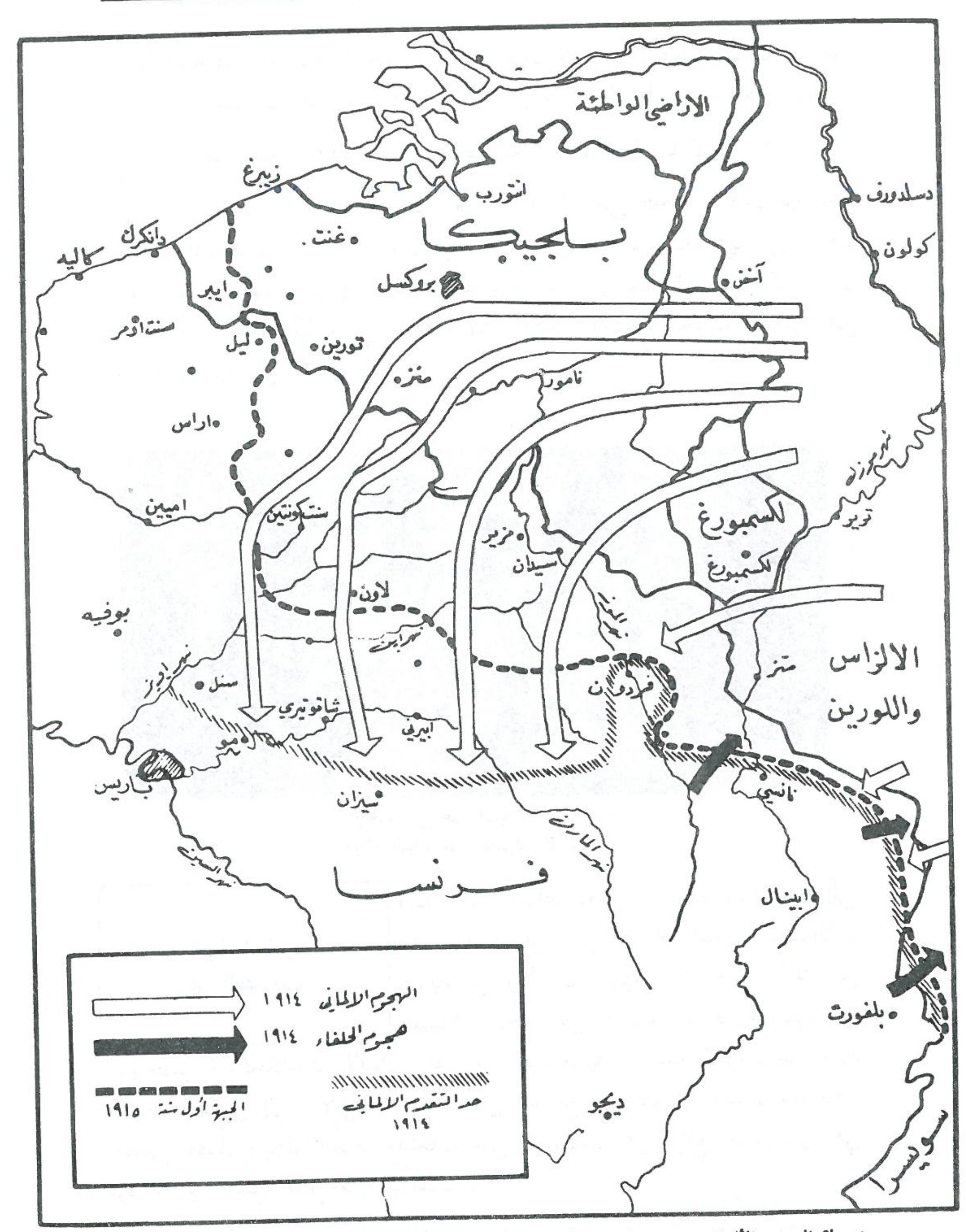


الإخوة في عيد الميلاد سنة ١٩١٥
هؤلاء ضباط من الجيوش المتحاربة

أخوّة البشر رغم الحروب

وإذا كانت المشاعر العدائية المتبادلة قد احتدّت إلى هذا القدر في رؤوس الساسة والجنرالات البريطانيين والألمان، فإنها كانت خلاف ذلك بين الضباط والجنود في الجبهة، وبخاصة الفرنسيين المواجهين لاستحكامات الألمان. ففي يوم عيد الميلاد، تقدم كثيرون من جنود وضباط الطرفين إلى «الأرض الحرام» بين المواقع، وتبادلوا السجاير، وصافحوا بعضهم بعضاً، وتبادلوا الطُرَف والنكات على رؤسائهم. وفي مواقع أخرى تباروا في كرة القدم. ومثل هذا فعل البريطانيون.

لكن الأوامر التي تلقّاها هؤلاء من قياداتهم كانت تتضمن التوبيخ الشديد..



خريطة الهجوم الألماني وهجوم الحلفاء المعاكس سنة ١٩١٤، والموقف الحربي حتى أول سنة ١٩١٥

الفصل الثاني

١٩١٥

لقد صدق لويد جورج حين قال عن كتشنر «إن لهذا الرجل ومضة من عبقرية»، ففي الثاني من كانون الثاني سنة ١٩١٥ يبدو أن تلك العبقرية هبطت عليه، إذ كتب إلى السير جون فرنش، قائد الحملة البريطانية في فرنسا ما يلي:

نحن عاجزون

«أرى أنه يتوجب علينا الآن أن نعترف بأن الجيش الفرنسي عاجز عن اختراق خطوط الجبهة الألمانية المقابلة، كما أنه حتى لو اخترقها، عاجز عن أن يفتح فيها صدعاً كافياً لاتخاذه نقطة ارتكاز فعّالة في إجبار الألمان على التراجع. ومعنى هذا، أنه من الواجب الاعتراف بأن الجبهة الألمانية في شمال شرق فرنسا قلعة لا يمكن أخذها بالقوة، كما لا يمكن زحزحتها. إذن، فإن أي هجوم نقوم به لن يكون الحاسم في الحرب».

وهذا بالفعل ما كان يقتضيه الموقف.

كانت النظرية السائدة في الحرب آنذاك تقول بأن العدو يجب أن يهاجَم في أقوى نقطة لديه. فإذا ما سقطت هذه، تم النصر النهائي فيما بعد. وكانت أقوى النقاط، لدى الحلفاء والألمان على السواء، هي قوات الطرفين المتقابلة في شمال شرق فرنسا. اضف إلى ذلك، أن القيادة الفرنسية كانت ترى الأرض الفرنسية محتلة فيصاب جنرالاتها بالدّوار. إنهم يودون صيانة شرفهم العسكري بحفظ شرف مواطنيهم القومي. ولربما كان بعضهم يفطن إلى ضرورة تغيير استراتيجية الحرب نفسها، بعد أن ثبت فشل نظرية «الهجوم»، ولكن.. هل ستبقى الحكومة الفرنسية نفسها إذا قررت، بتحبيذ من الجنرالات، الأخذ بنظرية «الدفاع»؟

هذا ما كان الجنرالات العقلاء لا يجرؤون على الاجابة عليه.

إن خللاً قد طرأ على «نظرية الهجوم» في سنة ١٩١٤، لكن، أين من يعي هذه النقطة حقاً! إن قوة الاستمرار قوة عنيفة.. وبحكمها ظل الفرنسيون يُنزلون «نظرية الهجوم» منزلة الحقيقة المسلّم بها.

كتشنر وطموحه إلى القيادة

ومهما كان الحال، فقد جر الفرنسيون حلفاءهم البريطانيين معهم. كانت القوات البريطانية المحاربة جيشاً مستقلاً، من حيث الاعتبار الرسمي. أما في الواقع التطبيقي فهي ضمن نفوذ جوفر، وتسير حسب توجيهاته. لقد راع كتشنر صغرُ المساهمة البريطانية بالرجال في الميدان فعوّض عن

ذلك التقصير بأن ظل مخلصاً أميناً، أقرب إلى الخضوع الكليّ لآراء جوفر ومصلحة فرنسا. هذا علاوة عن أنه كان ينتظر ذلك اليوم الذي يغدو فيه الجيش البريطاني المحارب أقوى الجيوش الحليفة، ويطمح إلى أن يكون هو شخصياً، القائدَ الأعلى لقوات الحلفاء حينذاك.

لا قيادة موحدة

ولم يكن هنالك مشاورات رسمية بين حكومات الحلفاء. فكان على السير جون فرنش أن يعرف خطط جوفر عن طريق ضابط الارتباط البريطاني الموجود في مركز القيادة. وكان جوفر يخفي خططه عن الروس، والغراندوق يخفي خططه عن جوفر، إذا كانت لديه خطط ما. ولم يكن الوزراء المدنيون يجرؤون على تحدي الجنرالات، ولا انتقادهم. وسبب ذلك، أن الوزراء لن يجدوا من يلجأون إليه طلباً للنصيحة العسكرية فيما لو انتقدوا. أما الجنرالات، وبالرغم من احتقار الواحد منهم لزملائه، وعدم ثقته بحلفائه في

اللورد كتشنر مع مرافقه السير وليم روبرتسون الذي قيد سلطات كتشنر فيما بعد

المعركة، فقد كانوا يسيرون على خطة واحدة تجاه المدنيين. إنهم يُبقون وزاراتهم جاهلة تماماً بالموقف، بفعل صمتهم المطبق.

هذا علاوة، على أن توجيه النقد للقادة العسكريين في أمة تباشر الحرب، ربما كان خطيراً للغاية.. إذ أنه قد يؤدي إلى زعزعة الوحدة الوطنية في البلاد. وخوفاً من هذا، وبحكم صمت الجنرالات، وقف الساسة المدنيون تجاه الشعب وهم لا يجدون إلا «امتداح القادة»، والتعبير عن «الثقة بقدراتهم»، حلاً للموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه.

لكن هذا الموقف لم يدم.. إن للفرنسيين تقليداً عريقاً في انتقاد جنرالاتهم. ولهذا قام بعض أعضاء الوزارة التي تشكلت بعد أيام قليلة من إعلان الحرب، بانتقاد الجنرالات بصوت مسموع. إلا أن الشعور الشعبي اخفت هذا الصوت.. فأرضُ فرنسا تئن من الاحتلال.

نقد الجنرالات

وبخلاف ذلك كانت الحال في بريطانيا. فالجزيرة أمينة بحراسة الأسطول، والشعب قد دفع ثمناً باهظاً من دمائه في عام ١٩١٤. ولهذا ارتفع صوت الوزراء. وكان مما ساعد المنتقدين، ذلك الوضعُ الذي لا يبشر بقرب الفوز أو الخسارة في الحرب. ومن هنا قويت حجة لويد جورج ونستون تشرشل حين لم يحتجّا على الطريقة التي تتم بها الحرب في فرنسا، فحسب، بل تساءلا: هل الحرب في فرنسا ضرورية من أساسها؟ وكان تساؤلهما خطيراً للغاية.

كانا يريدان أن يقاتلا جناح ألمانيا، وهمّهما أن يجدا منفذاً خلفياً يضربان منه.. فأين هو هذا المنفذ؟

منفذ خلفي ومعضلة

كانت ألمانيا تقاتل في جبهتين: شرقية ضد روسيا، وغربية في فرنسا. أما الغربية فلا أمل في النصر السريع فيها. إذن، تبقى الجبهة الشرقية، فعلى بريطانيا أن تساعد روسيا. بيد أنه: كيف يمكن الاتصال بالجبهة الروسية؟ لا طريق لذلك في الوقت الحاضر. نعم، هناك سلانيك، والدردنيل، وشمال شرق ايطاليا، ولكن هذه جميعاً موصدة في وجه بريطانيا. بل إن ألمانيا أعظم نفوذاً لدى أهل هذه المواقع. إذن، أين يقع حل المعضلة؟

هذا ما جعل الساسة البريطانيين يصرخون في وجه القادة العسكريين قائلين: «إنكم لن تكسبوا الحرب بأساليبكم هذه»، فيجيبهم القادة صارخين أيضاً: «ولن تكسبوها أنتم في أي مكان آخر». وكلاهما صادق.



الموت يصالح بين المتحاربين..
الجنود الفرنسيون والألمان هنا لا يتقاتلون!!

قوة برية أو بحرية

وعلاوة على هذا الاختلاف الكبير بين الطائفتين، كان هنالك تعارض جذري في وجهة النظر إلى الحرب ذاتها. فالقادة يقولون: «إذا اردنا قهر ألمانيا ذات ملايين الجنود، علينا أن نقابل ملايينها بمثلهم لتغدو بريطانيا قوة برية ضخمة».

أما الساسة فيقولون: «كانت بريطانيا على الدوام، دولة ذات جيش بري محدود العدد، وقوة بحرية نشيطة فعالة. وعليها الآن أن لا تخرج عن تقليدها الحربي القديم الذي ثبت نجاحه في تاريخها الطويل». إذن، كان الساسة يريدون أن ينتصروا عن طريق البحر، وباستعمال الأسطول. إلا أنه: أين يمكن استخدام الأسطول؟ هذا ما كان الساسة يفتشون عنه كي يحصلوا على «ربحٍ عن طريق المناورة، وبأقل عدد ممكن من الرجال، وأرخص كلفة من الخسارة».

الخطط الجانبية

من هذه النظرة نبعت جميع «الخطط الجانبية» التي تم تجريبها في الحرب العالمية الأولى. وكانت جميعها تحاول تجنب مواجهة: «الملايين تقهرها الملايين». ولما كانت من وضع ساسةٍ لا خبرة لهم بالشؤون العسكرية، فقد جاءت أقرب إلى محاولات «الهواة» منها إلى الخطط الجدية. اضف إلى ذلك أنها نُفِّذت في ظروف غير مواتية، وبموافقة غير مشجعة من العسكريين، مما جعلهم ينظرون إليها نظرة هامشية، ولا يُقدمون عليها إلا حين لا يجدون نشاطاً لهم في خطة الهجوم الرئيسي. ولهذا نجد تصريف الأمر في هذه الخطط فوضى.

اخطاء حملة سلانيك

خذ مثلاً حملة سلانيك. لم تجر حسابات بالسفن الضرورية لحمل الجنود إلى البحر المتوسط، ولم يدرِ السياسيون الذين نصحوا بها أن سلسلة جبلية تقع خلف سلانيك حتى يكاد يستحيل الانزال البحري في تلك المنطقة. ومثل هذا، قل عن حملة الدردنيل، وغاليبولي ذات الصخور الشديدة الانحدار.

دافع باطني.. تقابله شكوك

وهناك دافع باطني تشترك فيه جميع «الخطط الجانبية» التي قامت بها بريطانيا، ولا يمكن فضحه حتى لحلفائها. فقد تمت حملات هذه الخطط كلها خارج حدود أوروبا، وبريطانيا أولاً وأخيراً دولة تنشد التوسع خارج القارة، فيهمها أن توطد مركزها هناك. إذ أنه حتى لو تم النصر على ألمانيا، فإن روسيا وفرنسا هما اللتان ستجنيان الفائدة، فعليهما إذن أن تدفعا ثمن ما ترجوان!

لكن هذه الأفكار هي عينها ما ساورت فرنسا الشكوكُ بصدده. وكان لسان حال الفرنسيين يقول: «ها هم البريطانيون يجمعون الأسلاب في آسيا بثمن رخيص، بينما تنزف دماؤنا غزيرة في الجبهة الغربية». والردّ الوحيد من جانب بريطانيا لإزالة هذه الشكوك هو أن ترسل أكثر فأكثر من قواتها البرية، وأن تجعل هذه القوات عنيدة جداً في القتال. ولكن ما معنى ذلك؟

معناه أن الخطط الجانبية التي كان يُقصد منها أن تخفّف خسائر بريطانيا في

فرنسا، أصبحت الآن تدفع بالجيوش البريطانية في فم الغول الألماني هناك، وأن العناد في القتال أصبح شبه انتحار متعمّد. كل ذلك لإرضاء فرنسا الحليفة وستراً لسوء النية بين حليفين..

* * *

حصافة الألمان عسكرياً

إذا أدرنا النظر نحو الموقف الألماني سنة ١٩١٥ وجدناه أكثر معقولية من نظيره لدن خصومه الحلفاء. فقد تصرفت القيادة الألمانية في هذا العام بتعقل وفطنة. وإذا كانت خطة شليفن قد أوقعتها في ورطة كبيرة من قبل، وإذا كان قد ثبت فشلها في بواكير ١٩١٥، فإن ما تضمنته من آراء عن ضرورة التخلي عن نظرية الهجوم، أحياناً، قد جنّبت الألمان حماقات كثيرة. لقد أقرّ فولكنهاين أن جبهة الحلفاء في الغرب لا يمكن قهرها، ولذلك اعتمد الحربَ الدفاعية في تلك الجبهة واستدار نحو روسيا ليصفيَ حسابه مع الغراندوق هناك. والواقع أنه لم يكن له خيار في ذلك، إذ كان النمساويون قد عجزوا عن الصمود في وجه جيش روسي - حتى مع أنه انقطع عنه الإمداد - فكان الألمان مضطرين إلى استلام تلك الجبهة لانقاذهم.

أيهما يتم سحقه أولاً؟

أما ما كان يهدفه الألمان من قتال روسيا، فيكاد يكون غير واضح. من المعلقين العسكريين من يقول: كان فولكنهاين لا يطمح إلى قهر روسيا واذلالها بقدر طموحه إلى ابعادها عن الساحة، علّ الحلفاء الغربيين يقتنعون بضرورة المساومة على إنهاء الحرب بشروط عادلة لمصلحة المانيا. ومنهم من يقول: «إن فولكنهاين كان يهدف إلى سحق روسيا سحقاً تاماً كي يتفرغ للجبهة الغربية فيوفر لها كل قواه.. ثم يضحي بكل ثمن يستطيعه إلى أن يسحق فرنسا أيضاً، وأخيراً يصفي حسابه مع بريطانيا».

ولكن الرأي الأول هو الأصوب، كما يبدو. إذ أن ما يُجمِع عليه من كتبوا عن فولكنهاين هو اعتباره القائد العسكري الوحيد الذي أدرك أن الحصول على نصر حاسم في الحرب، أمر غير ممكن.

ومثله أيضاً كان المستشار بتمان. إلا أن المستشار لم يجرؤ أن يعلن رأيه خشية

أن يُثبط عزيمة الجيوش المشتبكة في الميدان. وإنما كان ينتظر مرتقباً الظرفَ المواتي الذي يقنع الناسَ في بلاده وبلاد خصومها برأيه هو.

وبسبب من هذا، ألمحت الحكومة الألمانية إلى قيصر روسيا نيقولا الثاني أنها تود عقد الصلح معه على أساس «الموقف الراهن» آنذاك، لكن القيصر لم يستجب لذلك. لقد ظل مخلصاً لحلفائه الفرنسيين بكل العناد الذي يبديه رجل ضعيف.

هذا، علاوة عن أنه كان يخشى أن يتزعزع مركزه في بلده إذا ما قبل بما هو أقل من النصر الحاسم. إذ ربما أدى عدم حصوله على ذلك إلى كونه مضطراً لمنح شعبه دستوراً، أو قيام ذلك الشعب بثورة تطيح بالعرش من أساسه.

وهكذا أصبح موقف روسيا عجيباً: فهي لا تستطيع حتماً أن تكسب الحرب، كما أنها لا تستطيع أن تتخلى عنها. كل هذا اكراماً لرأس القيصر!!

* * *

كان هناك وسيلة أخرى لتحريك الموقف الراكد في الحرب. وهي إما اختراع أساليب حربية جديدة، أو أسلحة جديدة. وفي كلتا الناحيتين ساهم الجنرالات مساهمة ضئيلة جداً. لقد ظل تفكيرهم محصوراً في «يجب أن تُفتح فرجةٌ في صفوف العدو بفضل القصف المركّز، بالمدفعية والبنادق». ومعنى ذلك: «قدِّموا لنا أكواماً أكبر وأكبر من الذخيرة الحية».. وهذا ما كانت تحمله تقاريرهم الحربية على الدوام. كان يغيب عنهم أن شدة القصف بالمدفعية الثقيلة تجعل الأرض على هيئة تزيد عسر التقدم فيها. وذلك بخلاف المدنيين وصغار الضباط، فقد أدركوا هذه الحقيقة بسهولة ووضوح.

أسلحة جديدة

أما بشأن «أسلحة جديدة»، فقد نجح بعض ذوي المواهب العملية في بريطانيا في اختراع «تراكتور مصفح»، أُطلق عليه اسم «الدبابة Tank» بعامل الحرص على اخفاء الأسرار العسكرية. ومع أنه لم تتم تجربة هذه الدبابة بنجاح إلا في سنة ١٩١٧، فقد ظهر بعضها في «السُوم» سنة ١٩١٦. لكن الجنرالات استعملوها بشكل خاطىء.

وكان العلماء قد سبق لهم أن استحضروا الغازات السامة في مختبراتهم الكيميائية. فاستعملها الألمان في ٢٢ نيسان سنة ١٩١٥ في «ايبر».

وكان نجاحها غير كبير. إذ سرعان ما اختُرعت الأقنعة الواقية، فاستعملها الطرفان، وصار على المهاجِم أن يلبس أقنعته خشية أن يدافع خصمه بالغاز أيضاً. ومن شأن هذا أن يبطىء الحركة، وأن يكثر اصابات المشاة وخسائرهم. ولنأت الآن للطيران . .

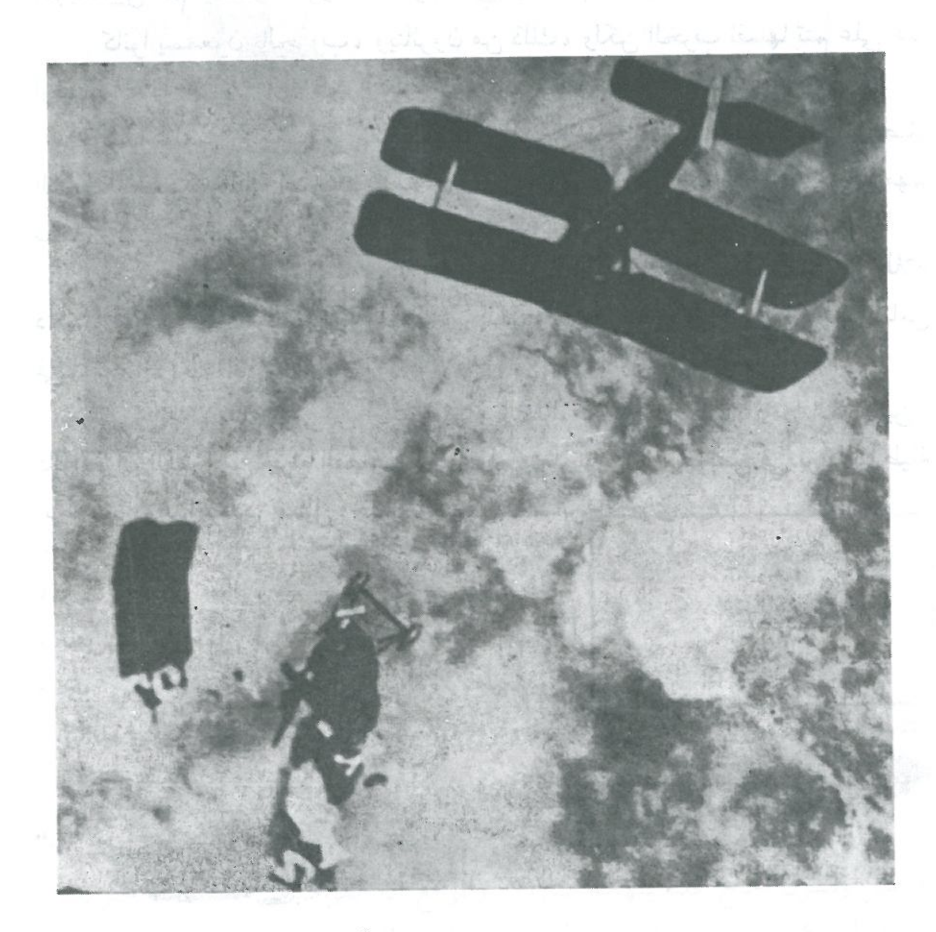


أسلحة جديدة. إنها أقنعة الغاز، يستعملها البريطانيون في الميدان

قتال الجو والزبلين

في أول الحرب كان لدى كل جيش عدد قليل من الطائرات تستعملها قيادته لأغراض الاستكشاف. لكنها تزايدت فيما بعد، ثم صمّمت طائرات مقاتلة، همّها أن تُسقط طائرات الاستكشاف السابقة.

وحينئذ دعت الحاجة إلى انتاج مقاتلات تقاوم تلك المقاتلات. وهكذا. لم تكن الطائرات آنذاك صالحة للقيام بمهمة القصف الجوي، فقد كانت الواحدة منها خفيفة ذات جناحين من الخشب. وظل ذلك حتى سنة ١٩١٨ وقبل أن يعدّ البريطانيون عدداً من الطائرات كافياً للقيام بغارة جوية.



الطائرة، سلاح حربي جديد أيضاً

وإذا كانت الطائرة غير صالحة للغارة فإن الألمان استعاضوا عنها بالزبلين وقصفوا بقنابلهم بريطانيا سنة ١٩١٥.

والزبلين أو «سفينة الجو» مركبة قبيحة المنظر عاجزة عن الدفاع عن نفسها. كما أن حجمها الكبير يجعلها هدفاً سهل الاصابة على الطائرات المقاتلة، بل والرماة العاديين. ولذلك، ما أن صارت المقاتلات البريطانية ترتفع في السماء لمطاردة الزبلين حتى تسقطه أو يهرب. وحين لم ينجح الزبلين في القصف لهذا السبب، استخدم الألمان الطائرات سنة ١٩١٧.

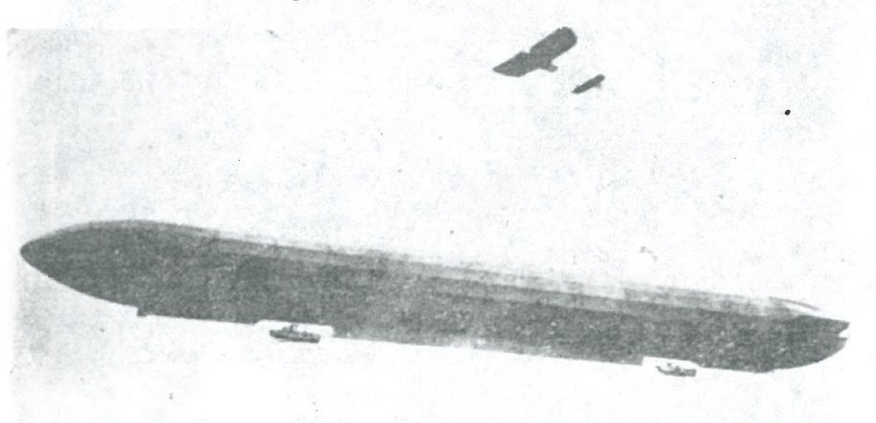
وقد أحدث القصف الجوي فوضى وهلعاً عظيماً في بريطانيا، وذلك لأن البريطانيين لم يعتادوا ظروف الحرب في بلادهم نفسها.

كانوا يسمعون بالحروب، ويتأثرون من ذلك، ولكن الحرب نفسها تتم على غير أرضهم. أما الآن، فها هو العدو يقصف بيوتهم، ومن سمائهم أيضاً.

لهذا تولدت في النفوس نقمة عارمة على ملاحي الطائرات المعادية. لقد صار الشعب يطالب بالتنكيل بأولئك الملاحين حين تُسقَط طائراتهم، بل حتى باعدامهم شنقاً.

ومما زاد في تلك النقمة، نظام «اطفاء النور». فقد كانت البلاد تغدو في ظلام دامس حين يسمع صوت طائرة واحدة في الجو، وما أشد الضيق الذي شعر به الناس في تلك الأيام!

إن عدم الاعتياد أكثر من احتمال الاصابة بالرصاص هو الذي ازعج المواطنين. فالواقع أن القتلى من جراء القصف الجوي لم يتعد ١١٠٠ شخص في بريطانيا طيلة الحرب. وهذا عدد ضئيل جداً بالنسبة للخسائر الأخرى.



سلاح جديد أيضاً.. الزبلين..

الغواصة الرهيبة

وكان عند الألمان سلاح جديد آخر، كشف عن خطورة رهيبة. إنه الغواصة أو «زورق U». وحتى هذا السلاح لم يقدّره الأميرالات البحريون، البريطانيون والألمان على السواء، حق قدره. كانوا ينظرون إليه كسلاح مساعد، يُستَخدم في أعمال الاستكشاف أو مضايقة السفن التجارية مثلاً. ولم يطرق خلَدهم أنه سيكون بالمرصاد لسفن الركاب، يتعقبها حتى يغرقها.



سلاح جديد آخر.. غواصة

لوزيتانيا!!

وهذا ما فعلته الغواصات الألمانية فيما بعد. وكان لذلك نتائج نفسية وسياسية بالغة الأهمية. فقد أغرقت غواصة ألمانية عابرةَ المحيط البريطانية «لوزيتانيا»، وكان في هذه الباخرة، وهي باخرة ركاب، مئة أمريكي، وبعض الذخيرة. وفرح الألمان بذلك، حتى انهم سكّوا مداليات خاصة بتخليد هذا العمل «الرائع».

أما في أمريكا، فقد شعر الأمريكيون بالمقت لهذا العمل الفظيع، حتى ان الرئيس ولسون احتج عليه بلهجة صارمة. والواقع أن الغواصات هذه كانت خير دعاية دفعت أمريكا إلى الدخول في الحرب لجانب الحلفاء.

وقد أدرك ذلك بعض الساسة العسكريين الألمان. وكان من بينهم بتمان الذي

ود الاستفادة من واقع أن بلاده لا تملك إلا عدداً ضئيلاً من الغواصات سنة ١٩١٥، فعرض التخلي عن استعمال ذلك السلاح إذا ما فكّت بريطانيا حصارها البحري المضروب. لكن البريطانيين رفضوا هذا العرض. وفيما بعد ضيّق الألمان من نشاط غواصاتهم بعد أن اغرقت سفناً حيادية أمريكية أخرى.

وحينذاك عاد بتمان إلى الاعتذار عن غزو بلجيكا بقوله: «إن الضرورات لا تعترف بقانون». وقال: «إن الدول الكبرى جميعاً تسلك مثل هذا السلوك». وكان الفارق الوحيد بين مسلك الحلفاء ومسلك المانيا. . ان الحلفاء كانوا يتصرفون بوحشية، لكنهم يصبغونها بشيء من الشعور بالندامة والأسف. بخلاف الألمان، الذين يتصرفون بوحشية أيضاً، لكنهم يُبدون بهجتهم في ذلك.

ملامح جديدة غير مفهومة

كانت هذه الملامح طفيفة الاتضاح في سنة ١٩١٥، شأنها شأن خنادق الجبهة القليلة العمق والكثافة في ميدان شمال شرق فرنسا. فقد رفض الناس أن يصدقوا أن الحرب الدائرة قد سلكت منعطفاً جديداً لم يسبق لأي حرب أن اتخذته من قبل، كما عجزوا عن رؤية الطبيعة المميزة الجديدة لتلك الحرب.

ها هو جوفر يجزم باصرار أن الحرب ما زال بالإمكان كسبها، عن طريق نصر حاسم قريب. وها هو سير جون فرنش يردد «صوت سيده»، ويرصع تقاريره الحربية بعبارات «التفاؤل» و«المجد المنتظر».

الرجل المريض والحرب!

لقد دخلت تركيا أو، لنخلع عليها اسماً فضفاضاً يملأ الفم هو «الامبراطورية العثمانية» ـ الحرب في تشرين الأول سنة ١٩١٤، إلى جانب دول الوسط. ومن الصعب أن يجد المرء سبباً مقنعاً لهذه الخطوة من طرف حكومة «الباب العالي»، إلا إذا اعتبرنا انتصار روسيا المحتمَل من شأنه أن يهدد العثمانيين.

كانت تلك الامبراطورية المهلهلة هي «الرجل المريض» حقاً. وكانت فرصة بقائه «معتلاً، ولكن على قيد الحياة» تكاد تنحصر في ابتعاده عن توتر الأعصاب. وأي توتر للأعصاب أقوى من الدخول في حرب!!

كلا النصر والهزيمة شر

فحتى لو انتصرت المانيا، أتُراها تسمح للأتراك بمشاركتها الغنيمة! إن أول ما تفعله حينذاك أن تقضي على شريك ضعيف كدولة العثمانيين. أما إذا انتصر الحلفاء. . فلا ريب أنهم سيعاملون السلطان ودولته كخصم منهزم. إنهم قد يحترمون ألمانيا وسيادتها القومية، لأسباب شتى، أما تركيا العجوز فسيمزقون امبراطوريتها كل ممزق، ولو بعامل التعصب الديني أو حقد الغرب على الشرق. هذا إذا لم تقع أرضها نفسها غنيمة في أيديهم.

كان الأتراك ينقمون على روسيا مساعدتها للسلاف ضدهم، ولا ينسون اذلالها لهم مرات ومرات. وكانوا يشعرون مثل هذا الشعور تجاه بريطانيا التي طمعت في مصر فطردتهم منها، كما جردتهم من سواحل الخليج العربي. . فكان الاغراء في قتال هاتين الدولتين معاً، قوياً لا يقاوَم. لكن روسيا ظلت هي الهدف الأول للعداوة. ولهذا نجد الأتراك يجمّعون فلول جيوشهم بعد حرب البلقان (١٩١٢ ـ ١٩١٣)، ويقذفونها قبالة روسيا في منطقة القوقاز. ولم ينسوا بالطبع أن يسيّروا شرذمة من جنودٍ حفاة جائعين إلى منطقة السويس(*).

الحملة العجيبة!!

وقد كانت حملة القوقاز اعجوبة في تاريخ الحرب! كانت تجهيزات الجنود فقيرة جداً، وكان الفصل موسم تساقط الثلوج، وكان القادة العسكريون الأتراك أغبياء اغراراً.

وبهذا بدا أن النتيجة محسوبة شر حساب. لقد تجمد الجنود، وسقطوا في هوّات الأودية، وماتوا جوعاً. . و. . و. . حتى رجع منهم في كانون الثاني سنة ١٩١٥ ثلاثون ألفاً من أصل مائة ألف. وهذه ضربة قصمت ظهر «السلطان» وانهدّ «بابه العالي»، فصار «واطئاً».

الغراندوق الروسي يستنجد

في هذا الوقت كان الروس يواجهون ضغطاً عنيفاً. ففي ٣١ كانون الأول سنة ١٩١٤ بعث الغراندوق مستصرخاً كتشنر أن ينجده. لقد طلب إليه القيام بأية مظاهرة حربية في النصف الشرقي من البحر

(*) تجد ذلك في «حملة السويس» في هذا الكتاب.

المتوسط مهما كان الثمن. وكان همّ الغراندوق أن يصمد أمام الألمان إذا ما كفاه كتشنر شر الأتراك بإشغالهم. وفكر كتشنر جدياً في الأمر، لكن «ومضة» لويد جورج لم تأته هذه المرة.

وحين وصلت رسالة الغراندوق إلى لندن، كان الموقف قد انقلب. فها هم الأتراك المخذولون يجرجرون خطاهم متقهقرين من حملة جبال القوقاز. غير أن هذا لم ينفِ الفكرة من رأس كتشنر. فهو رجل عسكري كان معظم خدمته في الشرق أولاً، إذن فهو يتوق إلى ميدان الشرق ذاته. وثانياً: انه كان يرى مساعدة روسيا أفضل بكثير من عملية «الطَرْق» المملة في الميدان الغربي، آنذاك.

احتياطات كتشنر

ولما كان كتشنر هو صاحب حملة السودان في السابق، فقد قدّر تماماً امكانية قيام الأتراك بحملة على قناة السويس فيما لو هاجم الإنكليز بلادهم. لذا نراه يحتاط بالفعل لهذا الأمر. إلا أن الوقائع اثبتت فيما بعد أن هذا التقدير كان مبالَغاً فيه. فالدولة العليّة، لم تكن كفؤاً للدفاع، لا عن مصر، ولا حتى عن القسطنطينية.

تشرشل يجد خطة جانبية!

وطبيعي أن رسالة الغراندوق بُلّغت إلى ونستون تشرشل. وكان يتحرق إلى تنفيذ «خطة جانبية» كما أسلفنا. فزاد من حماسته الآن، انه رأى في مساعدة روسيا مجالاً للقيام بعملية تثبت وجهة نظره في أن بريطانيا سيدة البحار، وعليها أن تنتفع بقوتها البحرية.

وهكذا اتفق رأي تشرشل وكتشنر على ضرورة القيام بحملة ما في حوض المتوسط الشرقي. لكن، أين هو الموقع الذي يُختار لهذا النشاط؟

أين يتم التنفيذ؟

على هذا السؤال أجاب على الفور: «إنه الدردنيل». وعاضده في رأيه كتشنر. أما «فيشر» كبير الاميرالات فقد ارتأى أن يكون الهجوم على سلزويج Selswig. ولكنه لم يرد أن يعارض رئيسه المدني، تشرشل، فلم يقاوم رأي الأخير حين عُرض عليه.

لم يكن فيشر يثق بصواب الهجوم على الدردنيل، كما كان ضباطه يوقنون أنها حملة فاشلة.. والعجيب حقاً انه لم يرفض الاقدام على عملية لا يثق في نجاحها!

حماسة تشرشل تبلغ حد الكذب

أما كتشنر، فقد أكد له تشرشل أن بمقدور القوات البحرية أن تحتل الدردنيل دون أي انتقاص من قوات المشاة في الجبهة الغربية. وكان في هذا حل ناجع للمعضلة التي كان يواجهها كتشنر مع فرنسا. فها هي بريطانيا الآن تقوم بعمليتين في آن واحد: تساعد روسيا، بمهاجمتها لتركيا. وتعطف الجناح الألماني نحو الشرق. وبذلك يخف الضغط في الجبهة الغربية. كما أنها تقوم بإرضاء جوفر بإرسال الجنود البريطانيين إلى جبهته لمساعدته في نفس الوقت.

الدردنيل

وفي ١٩ شباط بدأ الأسطول البريطاني يقصف بمدافعه الثقيلة القلاع الخارجية المقامة على ضفة الدردنيل. ولم يلق هناك أية مقاومة، فنزل البحارة البريطانيون إلى الأرض. وكان بوسع فرقة واحدة منهم أن تحتل الدردنيل الآن، مع أن جيشاً كاملاً قد عجز عن ذلك بعد بضعة شهور.

خريطة الهجوم على الدردنيل.

لقد فشلت الحملة، وبرز مصطفى كمال.. وجمد من الحلفاء نصف مليون رجل

عدم كسب الوقت

وظن البريطانيون أن لديهم متسعاً من الوقت، فتريثوا، وظلت سفن أسطولهم تناور في بحر ايجه طيلة شهر كامل. ثم إنها في ١٨ آذار دخلت المضايق. وكان القواد البحريون يفترضون أن الألغام قد أزيلت على يدي كاسحات الألغام التي أرسلت من قبل إلى هناك. وأثناء دخول المضايق عاودت السفن الغازية القصف المركّز من جديد. ولم تلق هذه المرة مقاومة أيضاً. . فما هو السر يا ترى؟

دولة محاربة ولا ذخائر!

إننا الآن نعرفه. . لقد كان الأتراك مفتقرين للذخيرة(*).

كان بإمكان السفن البريطانية أن تخرج آمنة من مياه المضايق في اليوم التالي. . لكنها لم تفعل. . لقد استمرت في القصف. وحين حاولت الخروج فيما بعد. . وجدت نفسها في ورطة كبيرة. ذلك أن ألغاماً بحرية قد نُثرت هناك.

وكان المعروف أن الأتراك يضعون ألغاماً في الأعماق، يكون اتجاهها من ضفة البوغاز إلى الضفة الأخرى. . أما الألغام التي زرعت الآن، فقد جُعلت بصورة موازية للشاطئين. .

وحينذاك كان على السفن الحربية المهاجمة أن تدفع الثمن. لقد غرقت سفينتان بريطانيتان وثالثة فرنسية. وعندئذ أدرك الأميرال دي روبك، أن المغامرة محفوفة بالخطر. فاحتج إلى لندن أنه غير مستعد لفقدان سفن حربية أخرى. .

حملة برية

وفي هذه اللحظة ظهر لكتشنر أن الحملة البحرية لم تكن ضرورية من اساسها. لقد قرر الآن أن يجهز جيشاً برياً يقوم بالمهمة الخطيرة. ولم يكن حين اتخذ قراره هذا، يفكر في أن الجيش الإنكليزي في الجبهة الغربية يجب أن يظل آخذاً موقف الدفاع. وبذلك اتضح أنه لم يقدّر الموقف في الحرب تقديراً واقعياً.

(*) إن هذا يذكر المرء بالجيوش العربية التي كانت تعتمد على السلاح البريطاني أثناء معركة فلسطين. وبالأسلحة الفاسدة في مصر. . وفاروق.

ها هو يستدعي السير يان هاملتون، وهو رفيق له عزيز في حرب البوير، فيضع تحت تصرفه كل شيء، ثم يشيّعه إلى الباب قائلاً: «اذهب، فاحتل الدردنيل مهما كان الثمن، وإذ ذاك تكون قد فزتَ بالحرب».

كان الحفاظ على «مكانة شرف بريطانيا» هو الدافع الذي أغرى كتشنر بارتجال هذه الحملة. وكل شيء مرتجل قليل النجاح. فقد سارع السير هاملتون إلى مركز عمله الجديد، وليس معه إلا فرقة واحدة، هي جميع ما تبقى لدى كتشنر كي يقدمه له. أما بقية «العساكر» فكانوا عبارة عن فيالق من متطوعي المستعمرات الذين لم يسبق لهم خبرة عسكرية ما.

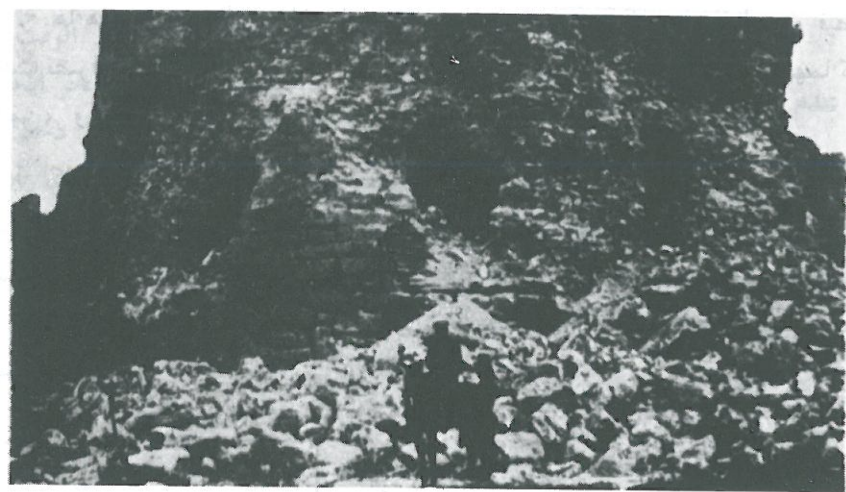
جهل كامل بالخصم

ومن الغباء الداعي إلى الضحك أن السير هاملتون كان مقدماً على هجوم لا يعلم عن خصمه فيه شيئاً. فكل ما عرفه عن مواقع الأتراك الدفاعية، وقوة نارها، ومداخل تحصيناتها، كان قد استقاه من خرائط حربية ترجع إلى سنة ١٩٠٦. أي ان ما طرأ على تلك المواقع طوال ١٠ سنوات كان مجهولاً تماماً لديه.

هذا علاوة على أن خبرة الجيش البريطاني في الانزال على أرض عدوة كانت ضئيلة جداً، إن لم نقل معدومة. ولذلك لم يكن لديه التجهيزات والمعدات الخاصة بمثل هذا الظرف، مما دعا إلى تحضير الضرورات كل يوم بيوم.



الجنرالات الذين أخفقوا في معركة غاليبولي
الثاني من اليسار: الجنرال سير «يان هاملتون»، وبجانبه الأدميرال دي روبك



الخراب في «غاليبولي»
وعليك أنت أن تتصور آلام المدنيين

هاملتون في قيادته الجديدة

وصل السير هاملتون مقر قيادته الجديدة في فترة كان فيها الأميرال دي روبك لا يزال مكتئباً من خسارة الحملة السابقة. فعرض عليه أن يتسلم منه القيادة، وتسلّمها. وبعد ذلك استدعيت القوة البحرية ولم يُعد استخدامها فيما بعد.

وحين فحص هاملتون شحنة سفن الأسطول، وجدها قد عُبئت بصورة خاطئة، فالمواد الضرورية في القاع، بينا الأخرى القليلة النفع من أعلى. فأمر بأن يعود الأسطول بكامله إلى الاسكندرية حيث أعيدت التعبئة بشكل مضبوط.

وقد استغرقت هذه العملية شهراً، ظل فيه الأسطول البريطاني غائباً عن المياه التركية. فاستغل الأتراك هذه الفرصة خير استغلال، حيث جلبوا حاجتهم من الذخيرة، واستنفروا كل قوة قدروا تجهيزها، وبات «دردنيلهم» امنع من فتح «صحراء العرب».

* * *

كانت هنالك أحداث تتطور في الجبهة الغربية إبان هذا الوقت. فقد شكا جوفر من أن البريطانيين «رفاق غير مخلصين». وقال: «ها هم يحاولون فتح جبهة شرقية، بينا لا يقومون بواجبهم في جبهة مفتوحة من قبل!». ولما كان كتشنر، كما أسلفنا، يود ازالة الشكوك من نفس حلفائه الفرنسيين، فقد طُلب إلى السير جون فرنش أن يقوم بعمل ما.

معركة نيوشابل!

وسارع هذا إلى مهاجمة الخطوط الألمانية في «نيوشابل» في ١٠ نيسان، وبأسلوب حربي جديد. فقد كان المتعارف عليه حتى ذلك الحين أن يتم هجوم المشاة بعد التمهيد له بقصف المدفعية.. لكن، لما كانت ذخيرة السير جون فرنش من القنابل ضئيلة للغاية، فقد هاجم دون تمهيد. إنه اعتمد على عنصر المفاجأة.

وبالفعل، ذهل الألمان حين داهمهم المشاة البريطانيون على حين غرة. ولهذا السبب تمكن المهاجمون من فتح ثغرة في خطوط اعدائهم. لكن المعركة لم تدم أكثر من ثلاثة أيام. وهذا وقت لا يكفي للمضي قُدماً في أرض العدو، كما أنه يخلُق احتمال تطويق الجيش المتقدم، ثم افنائه من بعد.

والواقع أن هذا الاصطدام القصير الأجل معلَم بارز في حركات الحرب العالمية الأولى. فقد بيّن أن بوسع كل من الجيشين المتقاتلين أن يخترق أحدهما خطوط القتال عند الآخر، غير أنه يظل عاجزاً عن كسب الانتصار من هذا الطريق.

الثغرة ممكنة والتقدم مستحيل!

وكان «فتح ثغرة مع عدم التقدم» هو التكتيك الحربي الذي فرض نفسه على الجبهة الغربية لمدة طويلة بعد موقعة نيوشابل. فقد استعمله الألمان بدورهم أيضاً. وكانوا يهاجمون.. فيخترقون خطوط أعدائهم.. لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون بعد ذلك.

شطرنج خطر!

على هذه الصورة كانت الجبهة الغربية أشبه بلعبة للشطرنج، لاعباها من «وزن واحد»، فكل منهما يظل يقول «كِش شاه»، حتى إذا ما هرب رفيقه كفَّ هو عن التهديد. غير أن هذا التشبيه فيه تمييع للحقيقة. فإذا كان خسران البيادق مؤثراً في نفس اللاعب، فإنه لا يتعدى في تأثيره إلى غيره. أما خسارة أرواح الجنود فشيء بخلاف ذلك. فـ «كش شاه» في الجبهة تعني بضعة ألوف من القتلى والجرحى والمشوّهين! هذا كما أن رقعة الشطرنج في غير حاجة إلى المجهود الذي تتطلبه مثيلتها على الأرض الموحلة ذات الخنادق.

نريد عتاداً!

ومهما كان الحال، فقد رفعت معركة نيوشابل من معنويات الشعب البريطاني، وعلَت أصوات أفراده في لوم السير جون فرنش على عدم اهتباله الفرصة. وحينئذ احتج القائد من أن جنوده يقاتلون دون ذخيرة كافية. فقام الشعب يطالب الحكومة أن تردّ على هذه الصرخة، وسارعت هذه إلى إلقاء اللوم على عمال مصانع الذخيرة الذين كانت تعتقد أنهم يتقاضون أجوراً عالية.

وقد لجأت الحكومة، أملاً منها في زيادة انتاج المجهود الحربي، إلى إصدار بعض التشريعات المقيِّدة للحرية الشخصية. ومن هذه، أنها فرضت ساعات معينة تغلَق فيها المحلات العامة، وبخاصة الخمّارات حيث يجري صرف الموجودين فيها لفترة محددة بعد الظهر.

وما زالت هذه الاجراءات سارية المفعول حتى يومنا الحاضر في بريطانيا. فكل من أحس بالحاجة إلى شراب بعد الظهر ولم يجد حانةً يرتادها، عليه أن يتذكر موقعة نيوشابل.

* * *

ما دام الجيش البريطاني لم يكسب أرضاً جديدة من جراء حركته المفاجئة في نيوشابل، فالعسكريون يعتبرون تلك الحركة عملاً فاشلاً. وما دام الأمر كذلك، فقد كان على جوفر أن تتثبّط عزيمتُه، وهو القائد الأعلى للجبهة بكاملها. هذا هو المنطق العام. لكن جوفر كان عنيداً.. فهو لم يتأثر بفشل البريطانيين هذه المرة، كما لم يتأثر بفشله هو في مرات عديدة سابقة. لقد ظل مقتنعاً أن الهجوم وحده سيكون العاملَ الحاسم في كسب الحرب لصالحه. فكان كل مرة يقول «هجوم واحد، وكفى». وتمت «هجومات كثيرة»، ولكن أياً منها لم يكن «هجوم جوفر الواحد» المنشود.

عناد جوفر المضحك والإحصائيات المبكية!

ويشير المعلقون العسكريون، ودارسو تاريخ الحرب العالمية الأولى إلى هذه «الهجومات» بصورة مؤسية ومضحكة معاً. إنهم يقولون:

لقد قُتل ٥٠,٠٠٠ فرنسي ثمناً لـ ٥٠٠ ياردة من الأرض إلى الأمام، من شامبين Champagne.

وهلك ٦٠,٠٠٠ آخرون في سانت مهييل St. Mihiel.



لويد جورج يزور «عاملات» أحد مصانع الذخيرة.
إنهن يحضرن الموت بدل أن يلدن الحياة!!

ومثلهم ١٢٠,٠٠٠ آخرون في أيار قرب مدينة أراس Arras.
ثم يلتفت أولئك المعلقون إلى الجيش البريطاني فيقولون:

«لقد جرّب الإنجليز القيام بهجوم في فستوبرت Festubert، وفي أوبر ريدج Aubers Ridge فلاقوا بدورهم نتيجة مماثلة. نعم، إن عدد خسائرهم قد أخفيت، لكن نسبتها إلى عدد جيشهم كانت أعلى مما هي عليه الحال عند الفرنسيين. لقد دفع قائدهم السير جون فرنش ثمناً باهظاً».

معنويات الجيوش المتحاربة

الآن ظهر للعيان أن معنويات الجيوش الفرنسية قد انهارت تقريباً، بعد أن مهدت لذلك نكبات ١٩١٤.

كما بدا أيضاً أن حماسة الجيش البريطاني الملتهبة في أول ١٩١٤ قد فُلّ حدُّها.

وذلك بخلاف الألمان، الذين فطن جنرالاتهم إلى ما غاب عن ذهن جوفر وفرنش. فلم يحاولوا الهجوم إلا مرة واحدة في ٢٢ نيسان، في ايبر Ypres، حيث استعملوا الغازات السامة هناك. ولم يكن استعمالها لؤماً ووحشية فحسب، بل كان نوعاً من الحماقة أيضاً. إذ لم يكن لدى الألمان في الجبهة الغربية، قوات كافية

للاستمرار في التقدم حتى النصر الحاسم. نعم، لقد كشفوا الأرض من تحت أقدام البريطانيين، ولكنهم لم يتقدموا لجني الثمرة التي نشدوها من زحزحة عدوهم من مواقعه. فسرعان ما وفدت الامدادات البريطانية. . وترسّخ خط القتال صامداً كما كان.

أنت جبان.. إلى البيت سر!

وقد رفع عناد السير جون فرنش عدد الخسائر باصراره على القيام بهجومات معاكسة. ولما اعترض آمر الحركة «سمث دورين» على هذه الهجومات كان جزاؤه الطرد. حتى أن السير وليم روبرتسون، الذي كان آنذاك رئيساً لهيئة أركان حرب البريطانيين في فرنسا أبلغه خبر طرده بهذه الكلمات: «يا هوراس - إلى البيت، سِرْ».

وبعد أيام معدودات من هذا، اضطر الفرنسيون إلى التسليم بخطة الانسحاب. فقد كانت الحادثة (موقعة نيوشابل) عبرةً لهم.

كافئوا القتلة والجزارين!

على هذه الصورة. . كان الضباط البريطانيون الذين يحبذون اطالة أمد المجزرة يحظون بتقدير الفرنسيين، وتمنحهم حكومة بريطانيا الأوسمة والنياشين. أما أولئك الذين يحسنون تقدير

الحياة أقوى من الموت
لقد عاش هؤلاء بعد استعمال «الغازات السامة»

الموقف، ويقترحون الخلاص من سوق الجنود إلى الموت قدّام خنادقهم، فجزاؤهم الطرد بمذلة.

ومهما كان الحال، فلم يحن منتصف شهر أيار حتى كانت الجيوش المتحاربة جميعاً منهكة من الناحيتين: نقص الرجال، واتلاف الذخيرة. وحتى بدا النصر النهائي لا يزال بعيداً كما لاح من قبل، إلا في نظر جوفر.

* * *

إذا كان قد تقطع اطلاق الرصاص وقتياً في الجبهة الغربية فإنه لم يفعل ذلك في منطقة الدردنيل. في هذه الأثناء كان السير هاملتون يستعد للهجوم، وكان الأتراك يتأهبون للدفاع. وأخيراً بلغ جيش هاملتون ٥ فرق، مقابل ٦ فرق من الأتراك. ومع هذا فقد أخذ انزاله في ٢٥ نيسان الأتراكَ بعامل المفاجأة. . لقد نزل البريطانيون في كل مكان على الشاطىء. . أحياناً بخسائر فادحة. . وأحياناً بدونها.

رقيق أكثر مما ينبغي

والحق أن هاملتون قد اجاد وضع استراتيجية حركته، ولكنه كان مهذباً وإنسانياً أكثر مما ينبغي لجنرالٍ صناعتُه الموت، وقد اضعف من مركزه الحربي أنه كان شاعراً فدفعه ذلك، ترفّعاً، إلى عدم الانقضاض والفتك بخصومه غير الأنداد له. حتى أنه أثناء عملية الانزال ظل يناور في سفينة حربية قريبة من الشاطىء دون أن ينزل بنفسه.

أربع وعشرون ساعة

وكان بوسعه أن يسيطر على كامل الأحداث في الأربع والعشرين ساعة الأولى. أما لما انقضت تلك الساعات، فقد تغيّر الموقف. فالجنود الذين نزلوا وجدوا أنفسهم قبالة منطقة صخرية يسيطر عليها العدو. وبلغة الحرب كان الجنود النازلون في «أرض مكشوفة» و«في مدى نار العدو. . الكثيفة والمتفرقة».

وتم الآن رسم خطوط للخنادق في ظروف أعسر بكثير من الظروف في فرنسا. لكن خسران كل شيء في هذه الحملة أصبح معروفاً في التقارير الحربية. وبذلك ثبت للندن، أن فكرة «خطة جانبية» هي غزو الدردنيل، فكرةٌ ما أنجحها على الورق، وما



في ساحة «الطرف الأغر» وسط لندن،
تستجدي السيدة دماء الناس ليريقوها في الميدان!!

أسهل تقسيم المكاسب المنتظرة منها، نظرياً. أما حين التطبيق، فما على تشرشل وكتشنر إلا أن يسألا السير هاملتون عن نسبة الاصابات في جنوده!

أزمة في بريطانيا

والآن قامت أزمة في بريطانيا.. فقد تبخر الرجال في كلتا الجبهتين: في فرنسا، وفي غاليبولي. وبدا البريطانيون حانقين على السير جون فرنش أشد الحنق. لكن هذا ظل يعتذر بفضيحة نقص الذخيرة ويصرخ بذلك لكل زائر من كبار زوار مقرّه الرئيسي في الجبهة. وكان هذا ينطوي على استعداء الرأي العام البريطاني على كتشنر. فكتشنر هو المسؤول عن توفير لوازم الجيش. فلماذا «تبعث ابناءنا دون خراطيش؟». وقد ساعدت الصحافة في نشر هذا التساؤل، إذ قرر لورد نورثكليف، صاحب الصحف الكبرى يومذاك، أن «يشرشح» كتشنر حتى ينهار. بيد أنه لم يفلح فيما رمى إليه. حتى أن نسخة من جريدته «الديلي ميل» أحرقت على أرض بورصة لندن للأسهم. وكان هذا جزاءً لصاحبها على «قوله الحق» فيما يتعلق بالحرب.

طبيعي أن كتشنر استعد، بوسائله الخاصة، للدفاع عن نفسه. ولكن، أهم من هذا: ان البريطانيين لم يكونوا يجدون من يحل محل كتشنر. فهم يُقنعون أنفسهم بإبقائه، خشية أن يأتي من هو أسوأ منه.

أزمة وفضيحة و«تطبيق»!!

وفي منتصف شهر أيار انفجرت في بريطانيا أزمة ثانية أساسها الفشل في الدردنيل. فها هو الأميرال الأول «فيشر» يشعر بالقلق لأن سفناً كثيرة قد احتُجزت الآن لعمليات البحر المتوسط. ولذلك نراه يستقيل فجأة دون أي تحذير من الخطر المقبل، أو احتجاج عليه.

وخشي اسكويث، رئيس الوزراء، من مغبة ذلك، فتصالح مع المحافظين على أساس اخفاء حقيقة الفضيحتين: فضيحة نقصان الذخيرة، وفضيحة حملة الدردنيل.

وهكذا لفّت حكومة الأحرار، بريطانيا في غيمة من السرية والكتمان.

وحل لويد جورج محل كتشنر كوزير للعتاد الحربي. وكان هذا التغيير حدثاً أهم في سير الحرب العالمية الأولى من المعارك نفسها. ذلك أنه غدا، بعد قليل، دليلاً على أن فترة جديدة في الحرب قد بدأت. ولا أقصد بذلك الفترة الزمنية، كلا، وإنما «طريقة معالجة الحرب» نفسها.

في حرب.. ونظام مدني معاً!!

حتى هذا الحين ظل البريطانيون يعتبرون الحرب شيئاً خارجياً.. ظلوا يأخذونها بمأخذ الشيء الثانوي، الذي يمكن الحصول عليه، مع المحافظة على طريقتهم في الحياة، ومستوى معاشهم الاقتصادي السابق له. وحتى مكتب الحرب، ظل يوصي في طلبياته على أساس الأحوال المدنية. فكانت أسعار لوازم الجيش خاضعة للعرض والطلب. فالحكومة تعلن عن حاجتها من تلك اللوازم، ثم يجري تلزيمها لأرباب المصانع والشركات عن طريق المناقصة.

ومن شأن هذا الروتين أن يولّد مظهرين:

الأول: افتضاح نوع اللوازم.

والثاني: الابطاء في التسليم، والخضوع لأهواء نقابات العمال التي تظل تطالب برفع أجور المنتسبين إليها على الدوام.

أما الافتضاح فهو أمر لم تكن الحكومة ترهبه، إذ أن استخبارات العدو كانت تعرف عن معدات أخصامها كل شيء تقريباً. وأما البطء فهو أخشى ما يخشاه لويد جورج. وانطلاقاً من فكرة «تسريع انتاج المجهود الحربي» عمد لويد جورج إلى اجراءات كثيرة.

اجراءات لويد جورج

كانت النساء والقاصرون يُبعدون عن الاشتغال في المصانع، فحضّ هو على ذلك. وكانت الكميات التي يطلبها مكتب الحرب من الأسلحة قليلة، فضاعفها مرات ومرات. وحين تذمر العمال المهرة من انخفاض أجورهم بالنسبة لمضاعفة انتاجهم، وعدهم بالعمل على انصافهم كاملاً بعد الحرب. وعندما نقصت موارد الحكومة عن تسديد الأموال المطلوبة لشراء التجهيزات، لجأ لويد جورج إلى «مهراجا» هندي استطاع تمويل المشروع من جيبه الخاص، مع أن سكان مقاطعته في الهند كانوا يموتون جوعاً لرداءة الموسم في ذلك العام!

كم «ماشين غان»!

كان لويد جورج قد سأل كتشنر عن عدد مدافع الـ «ماشين غان» الضرورية لأن تتوفر في الكتيبة الواحدة. فأجابه كتشنر «يكفي أربعة». وكان مكتب الحرب قد قدر أن مدفعي «ماشين ـ غان» يفيان بالغرض. أما لويد جورج فقد قال في تعليماته لمعاونيه: «خذوا أعلى رقم يطلبه كتشنر، فربّعوه، ثم ضاعفوا مربعه مرتين». وبهذا كان وزير الاعتدة والذخيرة يطلب ٦٤ مدفع «ماشين ـ غان» للكتيبة الواحدة.

والواقع أن هذا المستوى من التسليح لم يُتوصل إليه، ففي نهاية الحرب كان مع كل كتيبة بريطانية ٤٣ مدفعاً من هذا النوع، لكن طريقة لويد جورج في التفكير فيما يتعلق بتوفير الأسلحة وكثافة النار هي التي تهم. وبخاصة إذا عرفنا أن اجراءاته الأخرى انسجمت مع هذه الطريقة.

وما حدث في قضية الـ «ماشين ـ غان» حدث مثله في تجهيز مدافع الهاون لحظائر الميدان. فمع أن لويد جورج كان سياسياً مدنياً، إلا أنه كانت له نظرة عسكرية. إذ أن مدفع الهاون أثبت حقاً، أنه خير سلاح لإسناد المشاة في الحرب، آنذاك.

ليمت الآخرون ولنربح نحن!

لم يكتفِ أصحاب مصانع الذخيرة بالأرباح العظيمة التي كانوا يجنونها، فطلبوا رفع أسعار ما يقدّمون. لكن لويد جورج هددهم بأن يشغّل ورشات الحكومة في هذا الميدان. وبيّن لهم أن الأرباح التي ينالونها

ما كان يُسمح بها لولا ظروف الحرب. والواقع أنه كان صادقاً في تهديده. هكذا شعر رجال الصناعة الحربية.. ولذلك رضخوا فلم يخلقوا لهذا الوزير العنيد أية مشاكل بهذا الخصوص.

باعوا نقاباتهم!

وبعد ذلك جاء دور النقابات. فقد كانت هذه بؤرة للحرب الطبقية، وتناقضت مصالح «من يملك» مع «من لا يملك». لكن لويد جورج استطاع بدهائه جلب رؤسائها وترضيتهم. فانضموا للحكومة، وغدوا شركاء معها في الضغط على العمال وعلى أصحاب المصانع. إلا أن الاتفاق بين هؤلاء الرؤساء والحكومة لم يكن مجرد طية من الطرفين. ذلك أن لويد جورج كان يهدد النقابات بتشغيل النساء والأولاد، وبذلك تنخفض أجور العمال المهرة، كما كانت النقابات تهدد لويد جورج بالانحياز إلى جانب أصحاب المصانع.

وعلى كل حال، فقد تمكنت بريطانيا من الجمع بين هذه المتناقضات.

هاتوا جنوداً وخراطيش!

قلنا في السابق ان ميدان الحرب يقذف أمواتاً ومشوّهين.. وان هذا يستوجب التعويض عن المفقود، ونحن نضيف الآن: انه كان يقذف خراطيش فارغة أيضاً. وهذه في حاجة إلى التعويض عنها كذلك. فهل هناك من يعوض؟ ان الرجال يستطيعون القتال، إذن فعليهم بالجبهة وتعويض الخسائر. أما النساء، فينبغي أن يكون بمقدورهن التعويض عن الخراطيش.

وهكذا تم. لقد أدخلت المرأة العاملة إلى مصانع الذخيرة. وبهذا انقلبت من مخلوق ناعم، كله رقة إلى عامل خشن الراحتين يشتغل بصناعة القتل.

خاكي، خاكي!!

لقد قصصن شعورهن، وقصّرن «التنانير» أكثر فأكثر، وطرحن «الكورسيهات» جانباً. وحين لم يكفِ ذلك، ارتدين البنطلون وعملن في «نوبات» الليل. هكذا صار «الخاكي» هو الزي الرسمي لعاملات الحكومة. وهكذا بدأ «استرجال» المرأة الانكليزية أيام لويد جورج.

وقد استعاض لويد جورج في أعمال المكاتب الحكومية عن الرجل بالمرأة،



في مصنع الموت والخراطيش
هكذا شاء الطمع في مناطق النفوذ

فوظفت الحكومة ألوف الضاربات على الآلة الكاتبة والسكرتيرات وعاملات التلفون، وأمثال ذلك.

وحين رأت الدول المتحاربة، الأخرى، نجاح بريطانيا في هذا الانقلاب في الانتاج، حذت حذوها بعد وقت قصير.

* * *

كان الهدف من جميع اجراءات لويد جورج دفعَ طاقة الانتاج في المجهود الحربي إلى أقصى مداها. . ثم ازدياد نشاط الحكومة وحزمها في اتخاذ القرارات التي تقرب الفوز في الحرب. لكن هذا ما لم يحصل. إذ شعر الوزراء أن كآبة الفشل في حملة الدردنيل ما زالت تشل قدرتهم على التفكير. ولذلك عادوا إلى تجريب «الخطط الجانبية» من جديد.

خطط جانبية جديدة

وكان أول اقتراح طُرح على بساط البحث هو «علينا أن نستفيد من الباب الخلفي لألمانيا، فليكن ذلك في اليونان». واختيرت مدينة «سلانيك» موقعاً للهجوم منه. أما السبب في هذا الاختيار، فهو الأمل في اختراق اليونان، بغية مساعدة «الصرب» في داخل البلقان.

الرفض! ولماذا!

هذا ما عرضته بريطانيا على كل من حليفتيها: روسيا، وفرنسا. وهذا ما لم توافق عليه، أول الأمر أي منهما. فقد رفض الروس اشراك اليونان بحجة: أن اليونان قد يصلون إلى القسطنطينية وتسقط في أيديهم، وحينذاك يحتفظون بها ويضمّونها لدولتهم. وليس هذا في مصلحة روسيا. هكذا كانت استراتيجية روسيا المتعلقة بالمضايق تتحكم في خطط حلفائها.

أما الفرنسيون فقد رأوا أن الأفضل من حملة سلانيك، أن تدخل ايطاليا الحرب لصالح الحلفاء. إذ يمكن عند ذاك الضغط على الامبراطورية النمساوية من نقطة الضعف فيها. وبما أن ألمانيا ستسرع إلى مساعدة حليفتها النمسا، فإن القدرة الألمانية في الجبهة الفرنسية ستخفّ. ومن شأن هذا أن يسهّل على جيوش الحلفاء في فرنسا القيام بهجوم عام يكون حاسماً، أو شبه حاسم على الأقل.

أما الدافع المنطوي تحت هذه الخطة فهو ظاهر للعيان:

أولاً: انه محاولة جعل فرنسا شريكاً أول بعد الحرب، إذا ما تم النصر، بحكم أن جيوشها هي التي قامت بالهجوم الحاسم.

ثانياً: الخشية من أن تظل ايطاليا قوية إذا لم تدخل الحرب، بينا تخرج فرنسا من حربها منهكة. وعندئذ تجد فرنسا في ايطاليا جارة قوية تخشاها.

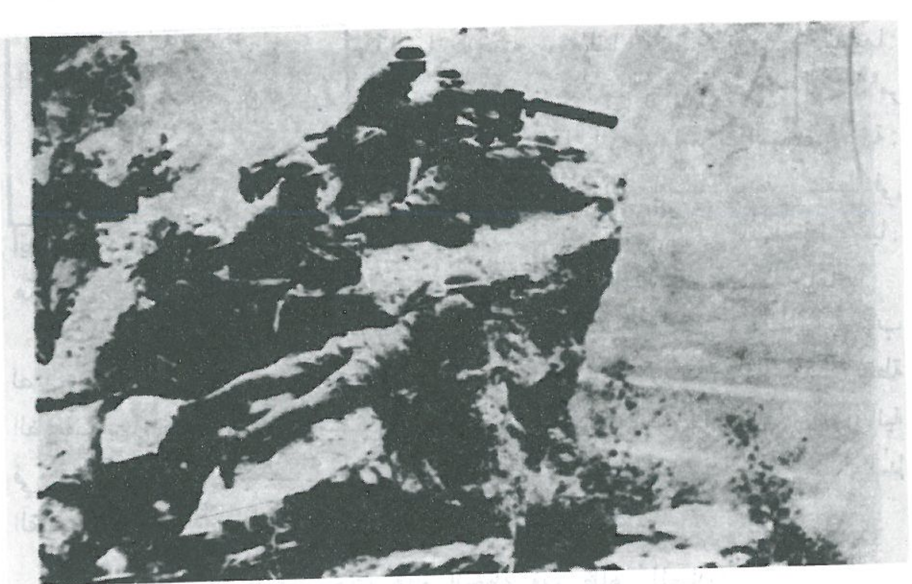
وثالثاً: عدم الاخلاص لروسيا، والخشية من توسعها المحتمل في الشرق.

ثلاث وجهات نظر

الآن لدينا وجهات نظر ثلاث. . فأي وجهة نظرٍ يقدّر لها أن ترى النور؟

إن رأي فرنسا هو الأقرب إلى الصواب. ولذلك عمل الحلفاء على تبنّيه. وكانت ايطاليا، اسمياً، دولة حليفة لألمانيا والنمسا. اما الآن، فقد أعلنت أن «الحلف» لا يشمل في بنوده اعلان الحرب على بلد آخر. وبهذا تنصلت ايطاليا، أدبياً، من التزاماتها.

وزادت على ذلك أن أعلنت حيادها التام بعد ذلك بقليل. وعند ذاك صارت كالعروس التي تخطب دولُ الوسط، والحلفاء، ودها. لقد عرضت عليها ألمانيا أن تظل على الحياد لقاء أن يُضم إليها اقليما «التيرول» و«تريستا» بعد الحرب. فطار صواب النمسا من ذلك: إذ أن هذين الاقليمين كان يجب أن يُقتطعا من ممتلكاتها. ومع هذا العرض السخي، لم تستجب ايطاليا لأصحابه.



الجنود الإيطاليون يقرعون باب النمسا من الخلف
أي استحكام رائع!

عرض أسخى

وكان دور الحلفاء في العرض. فتقدموا بأسخى مما فعل خصومهم. لقد عرضوا التيرول وتريستا، و«دلماشيا الشمالية» وأجزاء واسعة من آسيا الصغرى. ولكن هذا العرض لم يلقَ قبولاً أيضاً. وحينذاك نشطت الاستخبارات ودوائر التجسس الفرنسية. فقد استأجرت فرنسا زعيماً اسمه موسوليني ليكون وكيلاً عنها في اقناع حكومته بضرورة مهاجمة النمسا. وكان هذا رجلاً ديماغوجياً يهمه الكسب الرخيص.

موسوليني عميل للفرنسيين!

كان قد سبق لموسوليني أن كان رئيس حزب «الثوريين الاشتراكيين» في بلاده. ومن مبادىء هذا الحزب، الهجومُ على كل حرب يعلنها الرأسماليون ومعارضتها. أما الآن، فقد غدا موسوليني محبذاً للحرب وداعية مخلصاً لمن دفعوا له الأجر. انه أصبح يردد شعارات «الديمقراطية في خطر»، فمن الضروري دفن «امبراطورية آل هابسبورغ»، لأنها هي التي تهدد الديمقراطية.

أيهما أقوى فعلاً، الأدب أم الذهب!

وحتى الكاتب الايطالي الرومنسي د. انونزيو، والآخر الاستقبالي مارينيتّي، صارا يدعوان إلى الحرب في أعمالهما الأدبية. وإذا كان هذا تناقضاً مع مبادئهما الأدبية، فإن الذهب الفرنسي كان كافياً لاخفات صوت الضمير في هذا الحال.

الشعب لا يريد الحرب!

كانت الأغلبية الساحقة من الايطاليين لا تريد الحرب، ولكن، هل هناك من اهتم برغبات الشعب!؟ ان الصحفيين والجنرالات والساسة المحترفين يريدون الحرب، ودون هدف محدد إلا الحرب نفسها. كان هؤلاء قد خرجوا متعبين من الحرب الليبية ١٩١٢ ـ ١٩١٣، ورأوا معنويات مواطنيهم في حاجة إلى الاستثارة، فقدّروا أن الحرب في أوروبا قد تبلّغهم ما ينشدون. لقد ناقشوا القضية على الصورة التالية:

«إن ايطاليا يجب أن تغدو دولة كبرى. وها هي الدول الكبرى تتطاحن في الحرب، فلماذا لا تشاركها بلدنا فتغدو مثلها؟ وحتى لو أننا لم نقف في السابق على مستوى انكلترا وفرنسا، فهل يجب أن نبقى كذلك الآن؟ كلا، ان بمقدورنا أن نرتفع عن منزلة السويد وسويسرا. اذن، يجب أن نفعل».

اتفاقية لندن واعلان ايطاليا الحرب!

وفي ٢٦ نيسان (أبريل) وقّعت ايطاليا «اتفاقية لندن» وفيها تلتزم اعلان الحرب على النمسا بعد شهر من تاريخ التوقيع. لكن التمهيد لذلك كان يحتاج إلى نوع من الهستيريا الحربية في أوساط الشعب. وبخاصة أن «أعضاء البرلمان الايطالي» كانت أغلبيتهم إلى جانب الحياد. فاقتضى ذلك أن يقوم موسوليني وأنصاره بتظاهرات صاخبة في شوارع روما، اشترك فيها الصحفيون الذين قبضوا ثمن ذلك، كما اشترك خفافيش الأدب. فعمّ الشغب، وهاجمت الجموع مبنى البرلمان أثناء انعقاد احدى جلساته.. وهددت النواب بسوء المنقلب إذا خالفوا أوامر الشارع. ورضخ النواب.. فصوتوا إلى جانب اعلان الحرب في ٢٣ أيار (مايو) سنة ١٩١٥. لكنهم لم يجرؤوا أن يوجهوا اعلانهم إلى ألمانيا، فاكتفوا بتوجيهه إلى عدوتهم التقليدية، النمسا. وبعد عام كامل واتت الشجاعة حكومة ايطاليا، فأعلنت الحرب على برلين.

مشاكل انضمام ايطاليا إلى الحلفاء

كان المأمول من «طبخة ايطاليا» أن يخفّ الضغط من جراء ذلك على الجبهة الفرنسية. لكن هذا لم يحصل. نعم، ان الأسطول الايطالي شرع يتعاون مع القوات البحرية الحليفة في مياه البحر المتوسط، ولكنه كان هزيلاً، فلم يستطع منع الغواصات النمساوية من التسلل إلى خارج بحر الأدرياتيك!

ومن الناحية الاقتصادية، جاءت ايطاليا عبئاً جديداً على بريطانيا. فقد كانت بريطانيا تقوم بتزويد فرنسا بحاجتها من الفحم منذ أول الحرب، لأن المناجم الفرنسية وقعت في يد الألمان منذ البداية. وكانت بريطانيا تشعر بالضيق من اضطرارها إلى ذلك. أما الآن، فها هي ايطاليا أيضاً تطلب تزويدها بالفحم!

ومثلُ ذلك أن الجيش الايطالي كان قد خرج من الحرب الليبية مضعضعاً. ومع أنه لا ينقصه الرجال، غير أنهم لا سلاح بأيديهم. وبخاصة المدافع الثقيلة التي كانت مفقودة تماماً لدى طوابيرهم!

كل هذه الظروف بخرت امكانية الاستفادة من الجيش الايطالي ضد النمسا.

قلاع محصنة على الحدود!

وإذا أضفنا إلى ما سبق عاملاً جغرافياً آخر، تبدى لنا عدم جدوى دخول ايطاليا الحرب. ذلك أن الحد الفاصل بين ايطاليا والنمسا سلسلة جبلية وعرة، تسيطر النمسا على قممها وسفوحها الجنوبية، بينا ينتشر الايطاليون في حضيض تلك الجبال وحوض نهر الـ «بو». أي ان أيّ تقدم يحرزه الايطاليون نحو الشمال لا بد أن يجابه دفاعاً نمساوياً في تلك الجبال. غير أن النمسا كانت قد أقامت سلسلة من القلاع المحصنة على حدودها الجنوبية هذه. وكانت تلك القلاع معمورة بالجنود في أوقات السلم، بغية المحافظة على الحدود، ومنع نشاط التهريب.

اذن، فليس على النمسا أن تنقل إلى تلك السفوح جيوشاً جديدة، حتى لو هاجمها الايطاليون من هناك. نعم، انها قد تعزز حاميات تلك القلاع.. ولكن هذا لن يؤثر في قليل أو كثير على الضغط في جبهة فرنسا.

ايطاليا ورطة للحلفاء!

وبخلاف هذا تكون الحال مع الحلفاء. فجيوش ايطاليا المهاجمة تتطلب لوازم كثيرة من أجهزة وعتاد.. والحلفاء هم الذين سيقدمون معظمها، إن لم يقدموها كلها. ومن شأن ذلك أن يربك انتاج المجهود الحربي لديهم، فيكون عاملاً معيقاً أكثر منه مساعداً في كسب الحرب.

ولقد واجه الحلفاء موقفهم الجديد.. فغُصوا. ولكنهم تحملوه على كل حال. وقد وجد بين الساسة البريطانيين والفرنسيين من فكروا على هذا النحو: ان انتقاض ايطاليا على حليفتها السابقة، النمسا، قد يثير شعوب تلك الامبراطورية (وهم من قوميات مختلفة) على آل هابسبورغ. فإذا تم هذا، كانت نتيجته أن تتمزق الامبراطورية من داخلها.

مجرد أمان حلوة!

لكن هذا التقدير لم يكن صائباً. فقد نظرت شعوب تلك القوميات بشيء من العطف تجاه الامبراطورية العجوز، وحنقت على ايطاليا الغادرة لأنها طعنت حليفتها من الخلف. ولهذا تمنّت تلك الشعوب أن يدفع الايطاليون ثمن غدرهم. وقد سرها بالفعل أن لا ينجحوا في أية معركة يخوضونها.

جيش المعكرونة الرقيع!

وإذا تركنا الملامح النفسية لدى شعوب الدول المتقاتلة وعُدنا إلى الوقائع الحربية ذاتها، وجدنا الجيش الايطالي جيشاً رقيعاً كُتب عليه الهزيمة على الدوام. ان المراقبين العسكريين في الوقت الحاضر لا يُجهدون أنفسهم حين يقولون: «في ١١ محاولة قام بها الجيش الايطالي لاجتياز حدود بلاده إلى الشمال واحتلال التيرول لم يخسر إلا ١١ مرة فقط!!».

كان بعض الساسة الايطاليين قد دخلوا الحرب ظناً منهم أن روسيا سريعاً ما تقهر النمسا، وأنهم إذا لم يشاركوا في النصر المرتقب لم يكن لهم أن يطالبوا بشيء من الغنيمة. أما نظراء هؤلاء الساسة في بريطانيا وفرنسا، فقد هدفوا من جرّ ايطاليا إلى الحرب، مساعدة روسيا ضد فيالق غليوم.

والواقع أن نظرة هؤلاء وهؤلاء كانت تنطوي على شيء من الصواب. فلو



الجنود الإيطاليون ينهكهم الاستمرار في السير..
فالمعكرونة تنزلق على الصخور، وتتجمد على الثلج!

اقتصرت الحرب على الروس ضد النمساويين لانهزمت النمسا بعد وقت قصير. لكن الألمان في تلك الأثناء كانوا قد التفتوا إلى روسيا. ومقابلة الجيوش الألمانية شيء يختلف تماماً عن خيّالة النمسا.

جاء فولكنهاين يا قوزاق!

وكان ما أغرى الألمان بالتركيز على الجبهة الشرقية، أن الجيش الروسي، ومعظمه من القوزاق، عاود هجومه على غاليسيا، واستولى على قلعة «برزميسل Przmysel» الحصينة في ١٥ نيسان (أبريل) ١٩١٥. وعندئذ قرر فولكنهاين أن يلقن القوزاق درساً مريراً. وكان هدفه العسكري من ذلك أنه: إذا تم دحر الروس وإحراز نصر حاسم على جيوشهم، أمكن التفرغ للجبهة الغربية فيما بعد. وبفعل الضغط المركّز على الجيوش الحليفة هناك يمكن التوصل إلى مساومة يعقبها صلح مع بريطانيا وفرنسا، ويكون لصالح ألمانيا إلى حد معقول.

من هذه النظرة في نفس فولكنهاين، أخذت القطارات تنقل ألوف الجنود إلى الجبهة الشرقية. وحتى هيئة القيادة الألمانية العامة، بمن فيها غليوم نفسه، القائد الأعلى (اسمياً)، وفولكنهاين، انتقلت إلى هناك. ولما كان في هذا الانتقال ما فيه من



الجيش النمساوي يفتش عن عدو يقاتله.. لأن خطوط الجبهة غير محددة

تحدّ للجنرالات العاملين في الشرق، وأبرزهم القائدان لدندورف وهندنبرغ، فقد أخذت المنافسة بينهما وبين رئيسهما فولكنهاين تبرز بصورة ملحوظة.. أصبحا ينتقدان خططه، ويقدمان خططاً نقيضة لها، وجعلا يحمّلانه مسؤولية كل خطأ قد يقع.

شليفن من جديد.. واختلاف القادة!

وقد تبلور الاختلاف وانفجر حين بحث غليوم معهم جميعاً وضع خطة للانقضاض على الجيش الروسي المقابل. وكان لدندورف وهندنبرغ، وهما في روسيا الشرقية، يريان أنه من الأضمن نجاحاً استعمال خطة على نسق خطة شليفن. إذ يلتفّ الجيش الألماني من الشمال ثم يتجه جنوباً بسرعة خاطفة، فيتم له بذلك تطويق الجيوش الروسية وافناؤها.

أما فولكنهاين فقد بيّن مآخذه على هذه الخطة بأن قال:

«إن خطة شليفن في الغرب لم تعط النجاح المأمول. كما أن سرعة الجيش المنسحب إلى الخلف في خط مستقيم، أكبر من سرعة الجيش المهاجم والزاحف على قوس نصف دائرة. ولهذا فإن الجيوش الروسية قد تنجو من التطويق. وحينئذ يتحتم علينا أن نأخذ موقف الدفاع من مختلف الجهات، ولا نأمن أن يتم تطويقنا نحن».

ثلاثة أرباع مليون أسير!!

وقد قرّر غليوم الأخذ برأي فولكنهاين. وعلى أساس ذلك تم سحب فرق كثيرة من قوات هندنبرغ، وتوجيهها إلى الجنوب لتعزيز الجيوش النمساوية ضد روسيا. وحين وصلت هذه القوات، قامت بالاشتراك مع القوات النمساوية بالهجوم على «غروليس Grolice» في ٢ أيار (مايو). وكان عرض الجبهة ٢٧ ميلاً.

كانت الخطوط الروسية هناك غير مكينة. فكثافة النار معدومة، والقليل من الجنود من تلقّوا تدريباً عسكرياً كافياً. وحتى البنادق العادية كانت غير متوفرة للجميع. ولهذا سهُل على الألمان أن يشطروا الجيش الروسي إلى قوّتين، كان طرفاهما المتقاربان يبعد الواحد منهما عن الآخر بقدر عرض الجبهة، أي ٢٨ ميلاً.

هذه هي العملية الحربية الوحيدة طوال الحرب الكبرى، التي كانت ناجحة تماماً في اختراق جبهة لا يمكن تعبئة الفراغ الناتج عن اختراقها، من جديد. وهي العملية الحربية الوحيدة أيضاً التي يمكن اعتبار الانتصار فيها حاسماً. أما نتيجتها، فكانت عظيمة جداً لصالح الألمان:

لقد انسحب الروس أولاً من غاليسيا، ثم من معظم بولندا، وبذلك استولى عدوهم على رقعة من الأرض تعدل مساحة فرنسا، كما وقع في يده ثلاثة أرباع مليون أسير روسي.

ومهما بدا هذا النصر حاسماً فقد شاءت طبيعة الأرض الروسية أن لا تجعله نهائياً. وكلنا يعرف نابليون وما لاقى من شتاء روسيا وامتداد سهوبها. ولا أظن أحداً من أبناء هذا الجيل قد نسي هتلر، وطريقة الروس في حربه (العالمية الثانية). مثل هذه الخطة استعمل الروس في الحرب العالمية الأولى. أيقنوا أن لا طاقة لهم بالصمود أمام تسليح الجيش الألماني وتكتيكه فانسحبوا على طريقة «الأرض المحروقة».

ونتيجة ذلك غدا الموقف كما يلي:

الموقف الجديد

الروس ينسحبون مقتربين من خطوط تموينهم (مهما بدت هذه الخطوط فقيرة أو معدومة الترتيب)، والألمان والنمسويون يتعقبونهم فيبتعدون عن خطوط تموينهم (الطويلة سابقاً).

ولقد استفاد الروس من عدم وجود سكك حديدية في بلادهم هذه المرة. نعم، لو كان هنالك سكك لكان هجومهم على غاليسيا قد حدث قبل الوقت الذي تمّ فيه، ولكن.. لو كان الألمان يستعملون تلك السكك في تراجع الجيش الروسي، لكانوا قد أبادوه تماماً!

هكذا استفاد الغراندوق من تأخر بلاده.



«ببركة الرب وقيصر روسيا.. سيروا إلى الحرب» موتوا.. أو اقتلوا غيركم!!

نتيجة خطة فولكنهاين

كان ثقل الهجوم الذي استعمله فولكنهاين في هذه المعركة معيقاً لسرعة الحركة في جيوشه الضخمة. فلم يحلّ أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩١٥ حتى كان الروس قد بنوا خطاً حديدياً في بلادهم على بعد ٣٠٠ ميل إلى الشرق. وهو خط قصير المدى طبعاً، لكنه وسيلة اتصال حديثة على كل حال. وببناء هذا الخط ظهر أن روسيا قد تحطّمت.. لكنها لم تخرج من الحرب. وعدم خروجها من الحرب معناه فشل خطة فولكنهاين في الاستفادة من حملته الكبيرة.

وزاد الأمر سوءاً أن الجيش الألماني الآن أصبح مضطراً لابقاء أعداد ضخمة من قواته على الحدود الشرقية الطويلة جداً، والتي خلقتها الحملة الجديدة. وإذ كان الألمان في السابق لم يحتاجوا أكثر من بعض الحاميات في بولندا، فقد أصبحوا الآن في موقف استعداد دائم للقتال في جميع الأراضي الروسية الجديدة. انهم يخشون أن يعاود الروس القتال على حين غرّة، وأن ينتهز الحلفاء في الجبهة الغربية هذه الفرصة

فيقوموا بهجوم مركز من جانبهم أيضاً . . وبهذا يقع ما ظل الألمان لا يحتملون التفكير فيه أبداً. لقد دخلت ألمانيا الحرب لئلا تواجه مثل هذا الموقف، فكيف بها وهي تراه وشيك الوقوع!!

كذلك لم تنجح خطة فولكنهاين من ناحية ثانية. إذ أن التفاوض مع الروس غدا الآن مستحيلاً ـ فالقيصر والغراندوق، لا يتسامحان في وجود أرض روسية يحتلها العدو. وحتى لو عرض الألمان إخلاءها عن طريق المفاوضات، فإن الحكومة الروسية لن تقبل بهذه المذلة، وبخاصة أنها أعلنت تصميمها على نيل النصر من قبل. كما أن حرب القيصر وجدت لها مبرراً يتقبله شعب بلاده الآن، فهو يقول لهم: «ان روسيا الأم تستصرخكم»، وما أعمق شعور الشعب الروسي بعلاقته بأرضه! انه يكاد يعبدها. ولزيادة حماسة المقاتلين الروس، عزل القيصرُ الغراندوقَ وتولى القيادة بنفسه. نعم، ان قيادته كانت مجرد قيادة اسمية، ولكنها ذات أثر في نفوس «أبنائه الروس» على كل حال.

الساسة هم القادة!

والغريب أن جميع رؤساء الدول المتقاتلة كانوا هم القادة الاسميين لجيوشها. حتى رئيس الجمهورية الفرنسية بونكاريه، ومع كل أناقته وطراوة عيشه، كان هو القائد الرسمي لجيوش جوفر. وإذا كان ملك انكلترا وبونكاريه، وامبراطور النمسا، وغليوم المانيا يكتفون من قيادتهم الاسمية بالمباحثة مع القادة العاملين ورؤساء هيئات الحرب لديهم، فإن نيقولا الثاني في روسيا لا يقنع بذلك. إنه يباشر القيادة فعلاً، فيتدخل في شؤون عسكرية عليا لا يفقه فيها شيئاً.

وقديماً قيل: «إن لقدرة القائد نصيباً كبيراً في كسب أي حرب أو خسرانها»، هذا إذا كان الجيش نفسه كفؤاً من جميع الوجوه. فما بالك الآن، والجيش الروسي منهار والقائد هو نيقولا الثاني بكل غبائه!!

* * *

لم يكن لدى الحلفاء ما يسعفون به الجيش الروسي عندما كان يلقى الهزيمة تلو الأخرى. فقد كان جوفر وتكرار هجوماته الفاشلة، وبخاصة هجوم شهر أيار (مايو) في ذلك العام، قد أنهك قوات الحلفاء في الجبهة الغربية. ولهذا ظلوا يتفرجون على انكسار الروس والمذابح الجديدة فيهم. وقد عرض جوفر على حكومة بريطانيا القيام

بهجوم جديد في حزيران، لكن هذه رفضت المغامرة، وجعلت من استراتيجيتها عدم القيام بنشاط فعال إلى أن يتم تجهيز جيش كتشنر الضخم الجديد في سنة ١٩١٦. أضف إلى ذلك أن الساسة البريطانيين رأوا أن نفوذ بريطانيا في الشرق سيتضعضع، إن لم يتلاش، إذا لم يتم إحراز نصرٍ ما في غاليبولي.

محاولة تنسيق استراتيجية

وفي ٥ تموز (يوليو) انعقد مؤتمر بين وزراء بريطانيا وفرنسا في «شانتلي»، وكان هذا أول محاولة جدية لتنسيق استراتيجية البلدين المتحالفين في الحرب. ولما كان كتشنر هو الانكليزي الوحيد الذي يعرف الفرنسية بين أعضاء وفد بلاده، فقد سيطر على المؤتمر، وبدا أنه أوصله إلى ما شاء هو، أي: الدفاع في فرنسا، والهجوم في غاليبولي.

لقد توجه إلى جوفر قائلاً: «إنني أعدك بتأييد القيام بهجوم عام في الجبهة الغربية إذا ما وافقتَ على ضرورة القيام بحملة بحرية على الدردنيل. . وعلى شرط أن تتم الحملة البحرية أولاً، ويكون الهجوم البري في تشرين الأول (أكتوبر) من هذا العام».

هكذا تمت الصفقة

ووافق جوفر على صفقة كتشنر، فعاد كل منهما إلى مركز قيادته. أما جوفر فأخذ يُعد العدة للهجوم المنتظر، وأما كتشنر فسارع إلى غرف العمليات الحربية في مبنى الاميرالية بلندن. ومن هناك تم ارسال ٥ فرق إلى السير هاملتون لتنضم إلى ٨ فرق كانت معه فيرتفع العدد إلى ١٣. وإذا كان نصيب حملة الدردنيل ٥، فقد كان نصيب الجبهة الغربية ١٦ فرقة جديدة. . كل ذلك إرضاء لجوفر.

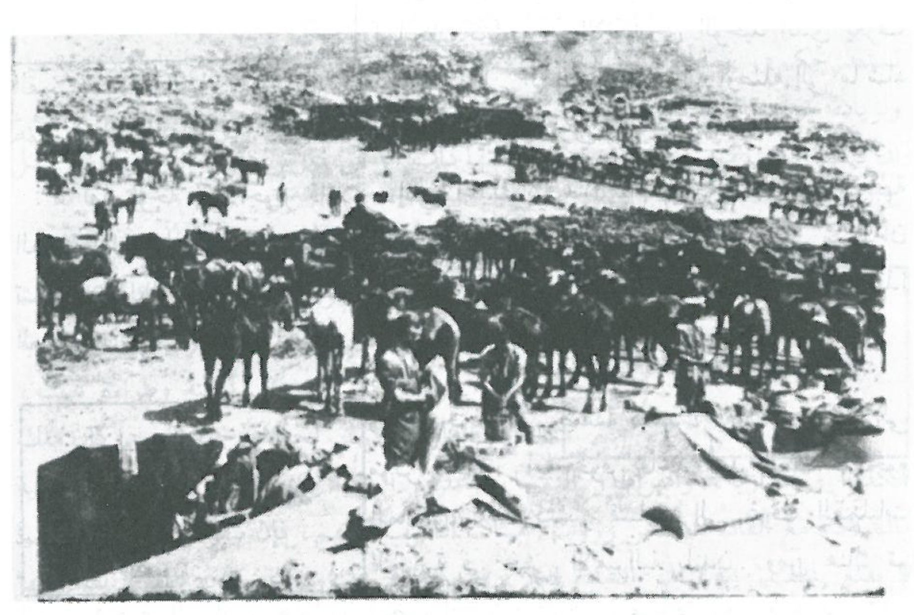
الأتراك وهاملتون!

ومن الطبيعي أن الأتراك لم يضيعوا الفترة ما بين فشل الهجوم الأول، وهذه الأيام. فقد جلبوا كل ما استطاعوا من قوات، واستوردوا أو نقلوا ما قدروا عليه من ذخيرة، سواء للجنود القناصة في القلاع، أو للمدفعية المركّزة على السفوح. وغدا مجمل قوتهم الآن ١٦ فرقة.

وقد طلب هاملتون من كتشنر أن يسعفه ببعض الضباط والجنرالات الشباب من

الميدان الغربي، إلا أن كتشنر كان جافاً في إجابته على هذا الطلب. فلقد أبلغه: «ان الأقدمية والرتبة الأعلى في الجيش هي ذات الحق الطبيعي في القيام بهذه المهمة. ولست أرضى منك الاعتراض على تقاليد الجيش العريقة، إلا إذا كنت تعني باعتراضك هذا تبريراً مسبقاً».

وبعد ذلك أرسل كتشنر الجنرال ستوبفورد، مساعد حاكم برج لندن. وكان هذا الرجل ادارياً صرفاً لم يشهد في حياته معركة واحدة، بل كان يجهل كل شيء عن طبيعة الدردنيل وظروف القتال المتوقع فيه.



شاطىء «سوفلا» الصخري
حتى هنا كانت الخيول ضرورية..

بدء الهجوم والمباغتة

وتقرر أن يبدأ الهجوم في ٦ آب (أغسطس)، وللمرة الثانية استفاد هاملتون من عامل المفاجأة ضد الأتراك. ففي «انزاك» توغل طابور انكليزي إلى عمق ربع ميل في أرض العدو، ولم يجد أمامه إلا ٢٠ جندياً تركياً، قضى عليهم بسهولة. ولكن آمر الطابور جعل جنوده يتوقفون عن التقدم كي يتناولوا فطورهم. وما أن انتهوا من ذلك حتى كان السفح مليئاً بالبنادق.

قائد في معركة.. وينام!

وفي خليج «سوفلا Suvla»، استطاع ٢٠ ألف جندي أن ينزلوا إلى البر دون أية خسارة، ولم يجدوا أمامهم إلا ألف تركي ليس معهم مدفع «ماشين - غان» واحد. وكان آمر هذه القوة ستوبفورد، فلم يُصدر أمره بالتقدم نحو الداخل، بل اكتفى بأن هنأ الجنود على نجاح عملية الانزال، ثم ذهب إلى خيمته ليتمتع بغفوة قصيرة في القيلولة. أما الجنود النازلون فقد طُلب إليهم أن يستريحوا ليجددوا نشاطهم. وهذا ما تم بالفعل، فقد ذهب عدد كبير منهم يستحمون في مياه البحر.

الأدب واللياقة في الميدان!!

وفي هذه الأثناء كان هاملتون يناور في سفينته، فحضر إلى منطقة انزال ستوبفورد. ولم يشأ أن يتدخل لأدبه، أول الأمر. لكنه حين لاحظ اهمال ستوبفورد طلبه إليه. بيد أن الرسول وجده نائماً، فاضطر إلى إيقاظه، وهو يتعجب من قائد ينام وجنوده قد نزلوا أرض العدو في صبيحة ذلك اليوم!

وحين طلب هاملتون من ستوبفورد أن يباشر تقدمه فعلاً، كان جواب ستوبفورد: «الوقت طويل، والجنود الآن غير مستعدين. أرى تأجيل ذلك إلى الغد». وقد ذُهل هاملتون من جواب مرؤوسه لكنه، بفعل الأدب أيضاً، انسحب ولم يشأ أن يكون عسكرياً صارماً معه.

وهكذا، حفر النازلون في تلك الليلة خنادق لهم، وقضوا ليلتهم في هدوء بال.

٤٨ ساعة في الميزان

وفي ٨ تموز (يوليه) حاول ستوبفورد التقدم. لكن الأتراك كانوا أقوى منه كثيراً هذه المرة. ففي الـ ٤٨ ساعة التي بددها، كان القادة الأتراك قد عملوا ٤٨ ساعة تامة. لقد جيء بالآليات والطوابير من مختلف المواقع القريبة، وكُدّست جميع الحاميات المجاورة.

كان تفكير القادة الأتراك ينطلق من أنه:

«إذا نجح الانكليز في تثبيت أقدامهم حيث نزلوا ثم استطاعوا التقدم إلى الداخل من هناك ـ أصبح بوسعهم أن يقطعوا المواصلات بين القسطنطينية وأوروبا.

وفي هذه الحال نغدو مضطرين إلى مواجهة كامل ثقل الحلفاء، وقد يستعملون في ممتلكاتنا الآسيوية». ولما كانت هذه الأجزاء الآسيوية لم تتم تعبئتها بعد، كما أن أهلها مشكوك في ولائهم الصادق للدولة، فإن خسران الحرب حينئذ يغدو وشيكاً.



نظام الخنادق من الجو لاحظ الانتظام النظري فيه

مصطفى كمال (أتاتورك) على المسرح

وهكذا انقلبت محاولة تقدم ستوبفورد إلى ملحمة أجاد فيها «بياده» الأتراك في رمي النار. وفي هذا اليوم بالذات نُقل خبر المعركة إلى الجنرال الألماني «ليمان سندرس» قائد الجيش التركي في غاليبولي، فأرسل فرقتين من قواته لمساعدة الأتراك المدافعين. وصدف أن تأخر قائد احدى الفرقتين عن الوصول في الوقت المعين، فعزله سندرس، وعين مصطفى كمال بدلاً منه.

عبقرية عسكرية

وهكذا صار مصطفى كمال هو القائد الأعلى الذي يوجه الدفاع. والحق أن عبقرية هذا الرجل العسكرية برزت في هذه المعركة. وخير شاهد على ذلك ما نقله الأستاذ عمر أبو النصر مترجماً عن الكولونيل النسون. وكان هذا ضابطاً اشترك في المعركة نفسها، وهو يقول:

«تقرر أن يبدأ الهجوم على الخطوط التركية حين تنتهي المدفعية والأسطول من اطلاق القنابل. وكانت القنابل تتساقط بصورة مفزعة مخيفة على الخطوط التركية فتنسفها نسفاً، وتجعل الجبل يتحرك من مكانه. ولما توقفت المدافع عن اطلاق النار أشرتُ إلى جنودي بالهجوم فتقدمنا.

وكان الترك بانتظارنا، فأصبت بجرح في رجلي من طعنة سيف. واشتبك جنودي في معركة بالسلاح الأبيض مع الجنود الأتراك، فتراجعوا أمامنا، فأخذنا باللحاق بهم. وعندئذ بدأت مدافع أسطولنا تقذف قنابلها علينا، وقد ظنتنا من الترك، فاختلّ نظامنا، واضطررنا للتراجع..

وكانت المراكز التي وصلنا إليها تشرف على المضايق إشرافاً تاماً. ولو كانت هناك قوات تساعدنا، لتمكنا من الثبات فيها، والسيطرة على وسائل النقل التركية كل السيطرة.

ولما ذهبت في اليوم التالي لرفع تقريري إلى القيادة العامة.. وأخبرتهم أننا بحاجة عظيمة إلى نجدات، قالوا:

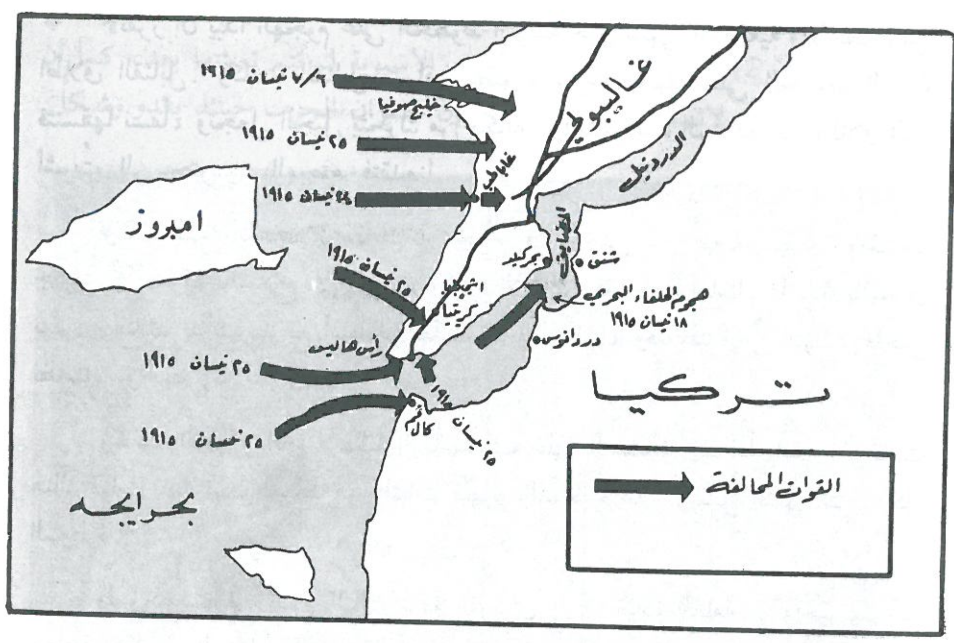
ـ لقد فشل الهجوم تماماً في كل المراكز.. وعلينا أن نتراجع.

وهكذا خسرنا اثني عشر ألف جندي للوصول إلى القمة التي تشرف على المضايق.. ولكننا مع الأسف لم نتمكن من الاحتفاظ بها. فكأننا لم نفعل شيئاً».

أنافورطة

اذن، لقد فشلت حملة الدردنيل للمرة الثانية.. فاستدعي الجنرال ستوبفورد إلى بريطانيا، وغدت الوزارة البريطانية تنظر إلى تقارير هاملتون عن إمكانية نجاحه فيما بعد، بكثير من الارتياب. لكن أهم من ذلك، أن الجنود البريطانيين في غاليبولي ظلوا يموتون.. ففي ٢١ آب، (أغسطس) أي بعد عشرة أيام من الفشل السابق، حاول هاملتون أخذ الأتراك بالفجاءة أيضاً، لكن مصطفى كمال صَدَّهُ في «أنا فورطة» وكبّده خسائر فادحة.

وبهذا صار لدى الوزراء البريطانيين الذين هددوا بالاستقالة من الوزارة مبرر كافٍ لعدم التعاون مع كتشنر وقواده. أما الوزراء الآخرون الذين رفعوا عقيرتهم بأن: «نفوذ بريطانيا وهيبتها الدولية قد تمرغا في وحول الدردنيل»، فقد جاء هاملتون يقول لهم: «آمين».



خريطة الدردنيل وغاليبولي

هذا صك طال أجله

ان أحداً لا يشك في وطنية جوفر، ولكن الطبيعة البشرية لا تتغير، فهذا القائد الكبير بدا عليه شيء من الشماتة حين تقدم الآن يعرض فكرة القيام بهجوم عام في الجبهة الغربية. لقد قال: «ان هذا صكّ قد أجّلتُ استيفاءه»، وفعلاً كانت الحال كذلك، فقد سبق أن وعده كتشنر بهذا الهجوم. وحين عُرضت الفكرة على مجلس الوزراء البريطاني عارضها الجميع تقريباً. كانوا آنذاك يفكرون في النكبة الحديثة العهد في الدردنيل، ويودون لو أجّلوا كل نشاط حربي في تلك الأيام، ريثما يفيق الجيش من الصدمة، وترتفع معنوياتهم هم.

كتشنر يؤيد جوفر بتحليل الموقف

عند ذاك انبرى كتشنر مدافعاً أمامهم عن فكرة جوفر.. لقد قال بصرامة وغيظ: «اسمعوا أيها السادة، ليست الحرب أن تفعل ما تشتهي، بل أن تفعل ما يتوجب عليك فعله. لقد دخلنا الحرب، ولنا في الجبهة الغربية مقاتلون. وأرجو أن تعلموا جميعاً، أن جوفر سيفقد منصبه إذا لم نسنده نحن من هنا. فإذا فقد هذا الرجل منصبه، لم يجد الفرنسيون جنرالاً في

كفاءته، وحينذاك تنهار الجبهة الفرنسية بكاملها. افرضوا معي الآن أن فرنسا قد استسلمت. عند ذاك يبرز أمامكم موقفان:

الأول: أن نستمر في الحرب وحيدين.
والثاني: أن تستسلموا بدوركم أيضاً.
فهل هناك من يعمل منكم لهذه الغاية؟».

كانت هذه تهمة خطيرة، ما كان أي من الحاضرين يقبلها لو جاءت من غير كتشنر، ولذلك خضعوا جميعاً لرأيه، وأبصروا الحكمة في قوله: «ان الحرب أن تفعل ما يتوجب عليك فعله»، ووافقوه.

فكرة غريبة!!

وفي تلك الموافقة منطوى جديد. فمضمونها هو: «يجب أن يموت الجنود البريطانيون في الجبهة الغربية من أجل أن تظل فرنسا شريكة في الحرب إلى آخر الشوط». وهذه فكرة جد غريبة! فقد دخلت بريطانيا الحرب (ولو زعماً) للدفاع عن حياد بلجيكا، لا لإبقاء جوفر في منصب القيادة، ولا للتوسل إلى فرنسا كي تستمر في القتال.

فلنقل الآن مرة ثانية: هذه أحجيات الحرب.

هجوما شامبين وأراس

كان جوفر واثقاً من النجاح الآن، شأنه في العادة. وكانت خطته ترتكز إلى القيام بهجومين مركّزين، أحدهما على الجناح الألماني الأيمن في «شامبين»، والثاني على الأيسر في «أراس». أما النتيجة المرجوة من ذلك، فهي إجبار الألمان على التراجع إلى ما وراء نهر الموز، أو الفوز بانتصار حاسم لصالح الحلفاء.

وقام الفرنسيون بهجومهم في ٢٥ أيلول، فاستطاعوا اختراق خط الميدان الألماني. ولكنهم هنا اكتشفوا حقيقة أذهلت قيادتهم! لقد وجدوا أن للألمان خطاً محصناً ثانياً وراء خط الجبهة.. وأنهم، حتى لو اخترقوا خط الدفاع الأول، سيكون عليهم القتال من جديد أمام خط الدفاع الثاني.. ومعنى ذلك بلغة العسكريين:

ان عدة هجومات، سريعة ومتتالية، وكلًا منها بقوى جديدة.. هو ما كان من المحتمل أن يحتاجه تنفيذ خطة جوفر.

خدعة يقابلها غباء

وزاد الأمر نُكراً على الفرنسيين اكتشافهم أن الخط الثاني هو الذي كان يعوِّل عليه الألمان في عملياتهم الحربية، الدفاعية منها والهجومية. أما الخط الأول، فقد جُعل لمجرد المناوشة والتمويه!

ومع أن هذه حقائق عجيبة، إلا أن غباء جوفر لم يستفد منها عبرة ما، إذ أمر باستمرار الهجوم. ودام الهجوم ثلاثة أيام، كان تقدم الفرنسيين أثناءها شبراً واحداً معناه افناء الصف الأول من المتقدمين.

ان القتال يومذاك لم يكُ حرباً، وإنما مسلخاً عاماً للبشر ها هم الضباط الفرنسيون يقودون جنودهم إليه.

وهكذا سُحب الهجوم الفرنسي، اضطراراً، وأعيد الخيالة الذين كانوا ينتظرون مطاردة الألمان، إلى ثكناتهم خلف الجبهة الفرنسية.

جوفر في عناده كبغل استرالي!

جابهت تلك الحقائق جوفر بكل وضوح، ومع هذا لم يتراجع عن فكرته في ضرورة الهجوم الانكليزي. لذا نجده يقرر أن يتم الهجوم في موقع «لوس Loos»، وحتى دون أن يدرس طبيعة ذلك الموقع وكثافة القوات التي ستحاول صد الهجوم فيه. ولسنا نظلم الجنرال القدير حين نقول: يبدو أنه قرأ اسم المدينة على الخريطة، ثم أشار إليه، وكفى!

وقد عارض السير جون فرنش في اختيار هذا الموقع، وعرض نقاط انطلاق أخرى لهجوم جنوده. فاتصل جوفر بكتشنر في لندن - وكان هذا يعاني ناحية ضعف تجاه جوفر - فما كان من كتشنر إلا أن أمر السير فرنش بالخضوع.

هجوم.. غاز.. نكبة!!

كان قائد الفرقة المهاجمة هذه المرة هو الجنرال هايغ، وكان شبه واثق من النجاح في حملته الجديدة، اعتماداً على الاستفادة من اطلاق الغاز. غير أن الريح في اليوم المحدد كانت معاكسة تماماً للاتجاه المطلوب، حتى إن قائد فصيل أمر بإطلاق الغاز فسمم جنوده أنفسهم. ولهذا تبخر عامل مهم كان هايغ قد بنى أمله عليه.

وقام الجنود البريطانيون بالهجوم.. واستطاعوا اختراق خط الدفاع الألماني

الأول، وكادوا يخترقون الثاني، إلا أنه حدث شيء عجيب في تلك اللحظة. إذ كان هايغ قد طلب امدادات من رئيسه جون فرنش، وكان هذا غيوراً من نجاح هايغ المنتظر، ولذلك نجده أبقى كتائب الاحتياط متخلفين في المؤخرة. أما الآن، وهايغ يطلب امداده بهم، فقد أمر فرنش بتلبية طلبه.

وتقدمت كتائب الاحتياط هذه في الساعات التي كان فيها الألمان يقومون بهجوم معاكس على هايغ، يضطر قواته إلى التراجع.

وهكذا اختلط الجنود البريطانيون المتراجعون برفاقهم القادمين لنجدتهم، وتدافع الفريقان على عرض الجبهة. فقدموا بذلك فرصة نادرة المثال للقناصة ورجال المدفعية الخفيفة والثقيلة، الألمان. لقد أصلاهم هؤلاء ناراً حامية، حتى اختلط فيهم الحابل بالنابل. وكانت المذبحة.

النتيجة..!

وما ان سيطر الضباط البريطانيون على كتائبهم وسراياهم وفصائلهم حتى استداروا لهجوم الألمان المعاكس وصدّوه.. ولكن.. ماذا كانت نتيجة الحملة الحمقاء!!

أولاً: لم يكسب البريطانيون موقعاً استراتيجياً واحداً.

ثانياً: كانت خسائرهم ٥٠ ألف إصابة لقاء ٢٠ ألف إصابة فقط من الألمان.

ثالثاً: انكشفت الخطة المشتركة بينهم وبين الفرنسيين في الهجوم، للألمان.

وإذا قارنا هذه النتيجة بما أدى إليه الهجوم الفرنسي السابق، وجدنا الثانية أفضل من الأولى على كل حال. فقد كانت نتيجة الهجوم الفرنسي ما يلي:

أولاً: لم يكسب الفرنسيون شبراً واحداً من الأرض.

ثانياً: كانت خسائرهم ٩٠ ألف إصابة مقابل ١٢٠ ألف إصابة عند عدوهم.

ثالثاً: تزعزع مركز جوفر الذي كان يترنح من قبل.

وفي هذه النقطة الأخيرة خطر أكيد على مجرى الحرب بكامله.



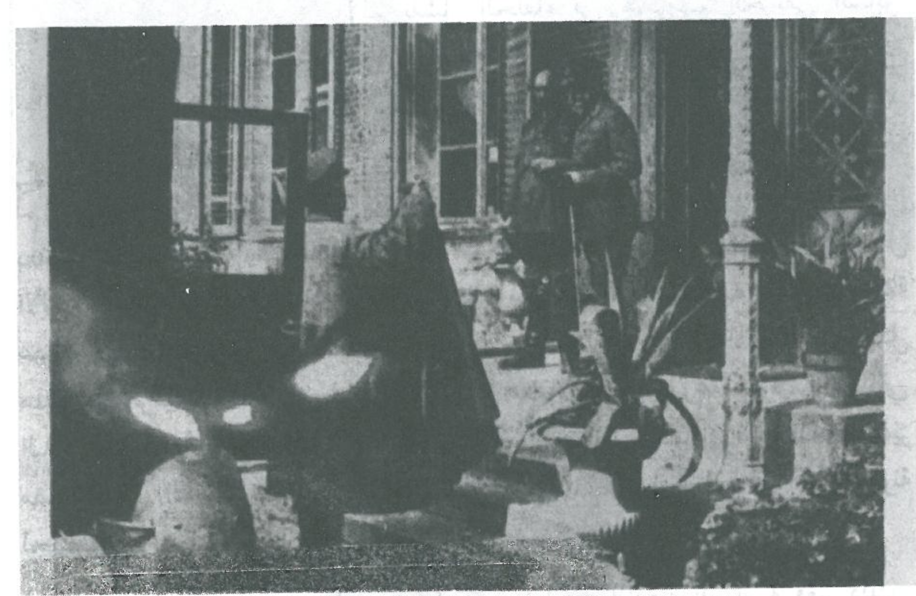
الحرب: في الخنادق يسيطر الموت سنة ١٩١٥

اعتراف غير مباشر بالفشل!

أغرب من كل هذا، أن جوفر ظل مستبشراً يؤكد لضباط الأركان في قيادته أن كسب الحرب ممكن عن طريق الهجوم. لكنه الآن بدأ يتخذ خطة غير مباشرة في الاعتراف بالفشل. لقد جعل يقول:

«حتى ولو أننا لم نهزم الألمان، فإننا قد أنهكنا قواتهم، وأظن في هذا ربحاً كافياً لصالحنا».

ولكن ما عساه يقول لو فسر له أحد ضباطه المدى الذي تذهب إليه «نظريته الجديدة» هذه، فسأله: «وهل توافق يا حضرة الجنرال على حقيقة أنهم أنهكونا، وبضعف المقدار، أيضاً؟».



هايغ يشعر برجفة البرد حين طلب إليه بيتان أن يطول خطوط جبهته

معلق ساخر..!

وقد كتب أحد المعلقين العسكريين الفرنسيين عن هذه الموقعة، فيما بعدُ ساخراً، فقال على لسان جوفر:

«اخواني كبار الضباط: ها أنتم ترون أننا قد عطلنا ١٢٠ ألف الماني عن العمل، وفي مرة واحدة. وها هم اخواننا البريطانيون قد

عطلوا ٢٠ ألفاً.. وأنتم تعلمون أن الألمان ليسوا رجالاً لا عدد لهم.. فنحن سنستطيع تعطيلهم كلهم يوماً ما».

ثم أضاف ذلك المعلق، مكملاً سخريته!

وعندئذ أجابه واحد من الحاضرين: «لكن الألمان أكثر عدداً من الفرنسيين على كل حال. ولا أظن البريطانيين سينقلون كل مواطنيهم إلى «لوس» أو «أراس»!!».

والواقع أن سخرية هذا الناقد ترتكز إلى شيء من الواقع، فقد بدا أن جوفر يسير على فكرة الناقد نفسه.

المانيا تلتفت إلى الميدان الشرقي..!

لم يفشل الحلفاء في هجومهم الخريفي السّابق فحسب، بل انهم لم يؤثروا على خطط القيادة الألمانية لا من حيث التعبئة ولا من حيث التنفيذ أيضاً. وحتى مجرد إعاقة نشاطات تلك القيادة لم يتوصلوا إليها. فها هي ألمانيا تلتفت إلى الميدان التركي لأول مرة، وهنا واجهتهم بعض العقبات. فمع أن هجوم الحلفاء البحري قد تحطم في المرة الأولى بفعل الألغام الجانبية في المضايق، وفي المرة الثانية من جراء تلكؤهم وعدم اغتنامهم فرصة عدم وجود قوات تركية في أنا فورطة، في الـ ٤٨ ساعة الأولى بعد الانزال ـ مع كل هذا، فإن تركيا كانت في خطر. ان الذخائر لديها تتناقص بسرعة كبيرة، وليس في البلاد مصانع للأسلحة، تستطيع تعويض العتاد المستهلك. كما أن فشل الحلفاء غير مضمون في المرة القادمة. لذا، فإن على ألمانيا أن تسارع إلى مد يد المعونة لحليفتها.

هذا هو التحليل من زاوية عسكرية.. أما من الناحية السياسية فغير ذلك.

كانت ألمانيا قد اكتفت بامتياز قسم من سكة حديد (برلين ـ بغداد)، فلماذا لا تفوز بالخط بكامله الآن؟! وألمانيا تعلم حقيقة الوضع في ممتلكات «الرجل المريض» في آسيا، وتوقن أن هذه الممتلكات وشيكاً ما تنسلخ عن «الباب العالي»، فلماذا لا تكون هي شريكاً، إن لم تكن وارثاً، لها؟

وقد يدخل في هذه النظرة تسهيل تجريد روسيا من نفوذها لدى السلافيين في البلقان، والنفوذ إلى مياه البحر المتوسط، والتحكم في المضايق.

لكن كل هذه الأفكار كانت تصطدم الآن بواقع مغاير.. فألمانيا يجب أن تمد حليفتها تركيا بالذخيرة مهما كان الثمن.. وصربيا تمنع هذا الامداد، بل تمنع الاتصال نفسه. وصربيا هذه في حرب مع النمسا..

(وأظننا ما زلنا نذكر مدينة سراجيفو وحادثها المشؤوم).



الأرشيدوق «فرانز فرديناند» قبل زفافه بأيام



الكونتيسة «صوفي شوتيك» زوجة الأرشيدوق



«جفريلو برنسيب».. قاتل الأرشيدوق

صربيا تدخل المعمعة!!

اذن، على المانيا أن تكتسح صربيا. ولهذا نقل الألمان فرقاً كثيرة من قواتهم في الجبهة الغربية، ومن جيوش كانوا قد عبأوها حديثاً في المانيا ذاتها، إلى حدود صربيا. وهاجمت تلك الجيوش صربيا فاكتسحتها.

وهنا يدخل مسجلو وثائق الحرب في دهاليز مختلفة من التأويلات. فبعضهم يقول: كان على الحلفاء أن يتنبهوا لهذه الخطة، وإلا، ماذا كان يشغَل دوائر استخباراتهم آنذاك؟ وآخرون يقولون: وحتى لو علمتْ دول الحلفاء بالخطة بكاملها، هل كان بوسعهم أن يساعدوا صربيا، وقد عجزوا هم أنفسهم عن الاستيلاء على شريط ضيق في غاليبولي!!

لكنهم مهما اختلفوا في نسبة تقصير الحلفاء، يتفقون جميعاً على أن صربيا لم تكن نداً للجيوش الألمانية. ثم يضيفون قائلين: «ومع هذا، فقد قاتل الصربيون ببسالة».

بلغاريا عروس مدللة..!

وبعد صربيا جاء دور بلغاريا. وكان لهذه الدولة وضع خاص. فكما كانت إيطاليا، قبل توريطها في الحرب، عروساً يخطب ودها الحلفاء ودول الوسط، صارت بلغاريا الآن. كان الألمان في حاجة إلى انضمام هذه البلاد إلى جانبهم، تقويةً لمركزهم في البلقان، وإبعاداً لامكانية هبوط الجيوش الروسية على تركيا من الشمال الغربي.

وكان الحلفاء في حاجة إلى بلغاريا أيضاً، للضغط على مؤخرة الجيوش العثمانية، وضماناً لاستمرار صربيا في الصمود أمام النمسا.

ولكن بلغاريا طبعاً كانت تختار الأفضل لها. أما ما هو الأفضل في تلك الفترة فينبني على ما يلي:

نتيجة للحرب البلقانية ١٩١٢ ـ ١٩١٣، أعطيت مقاطعة مقدونيا إلى صربيا. وكانت بلغاريا تدّعي أن هذه المقاطعة من أراضيها.. إذن فهي تساوم الفريق الذي ستنضم إليه، على مقدونيا. وفي هذه المسألة رجح كفة ألمانيا وحليفتها. ذلك أن



الجنود من الصرب

ألمانيا قد اكتسحت صربيا، فهي تستطيع أن تعد بتوزيع الأراضي الصربية بعد الحرب إذا تم لها النصر. أما الحلفاء، فليس من المعقول أن يعدوا بتقسيم أراضي دولة حليفة لهم، إذا خرجوا منتصرين.

وخلاصة كل ما سبق أن ملك بلغاريا، فرديناند، المخادع، غدا حليفاً لألمانيا، بشكل سري في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥.

وجواباً على ذلك، ملأ الحلفاء الهواء بالخطب الحماسية والوعود متفاخرين بأنهم سيقدمون معونات عسكرية فعالة إلى صربيا.. لكن صربيا دولة داخلية، ومنفذها الطبيعي هو اليونان!

جاء دور اليونان...!

إذن فلينزل جنود الحلفاء إلى الشاطىء اليوناني، ومن هناك يتقدمون. بيد أن اليونان دولة محايدة لم تعلن الحرب، فلا يجيز العُرف الدولي لأية دولة أخرى أن ترسل إليها قوات عسكرية!!

هذا هو الموقف الذي واجه ساسةَ الحلفاء قبل إنزال الحملة. وهو ذاته الذي تكلم فيه أصحاب «الخرائط الحربية» من الجنرالات وصمتَ الساسة كسكان القبور.

وقد كتب بعض المعلقين السياسيين فيما بعد قائلاً:

«لقد دخلت بريطانيا الحرب دفاعاً عن حياد بلجيكا، كما زعمت. لكن حياد اليونان أغراها بعدم الدفاع عنه، أليست هذه نقطة جديرة بالتأمل!!».

ومهما كانت الحال، ودون النظر إلى التفسيرات الفقهية في القانون الدولي، فقد أُنزلت فرقتان من جنود الحلفاء، واحدة إنكليزية وأخرى فرنسية، في سلانيك، في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٥.

وفي ٧ تشرين الأول، أي بعد يومين من ذلك الإنزال، اجتازت الجيوش الألمانية ـ النمساوية نهر الدانوب باتجاه الجنوب. وفي ١١ تشرين نفسه، غزا البلغار مقاطعة مقدونيا اليونانية.

الصرب أمام بطش الألمان

ولما حاول «سرايْ Sarrail» التوجه من سلانيك إلى أعلى وادي نهر «فردار Vardar»، اصطدم بالبلغار، فوجدهم في وضع عسكري أقوى منه عدَداً، وعُدداً. وحينئذٍ اضطر إلى التراجع.



«فرديناند» الثعلب، ملك بلغاريا وإلى جانبه الأرشيدوق النمساوي شارل الذي أصبح امبراطوراً فيما بعد



الجنود المشاة الفرنسيون يحطون في «سلانيك» باليونان

وهكذا كان على الصربيين البؤساء أن يجابهوا بطش الألمان وانتقام النمساويين، فتبدد جيشهم مِزقاً بعد أول هجوم كاسح قُدّر لهم أن يذوقوا ناره. فمات منهم من مات، والتجأ الباقون عبر جبال البانيا إلى جزيرة كورفو، حيث وصلوها يحملون ملكهم العجوز على محفّةٍ لضعفه.

لكن القادرين منهم على حمل السلاح لم يستسلموا للهزيمة، ففي أوائل سنة ١٩١٦ كانوا قد التحقوا بقوات الحلفاء في سلانيك.

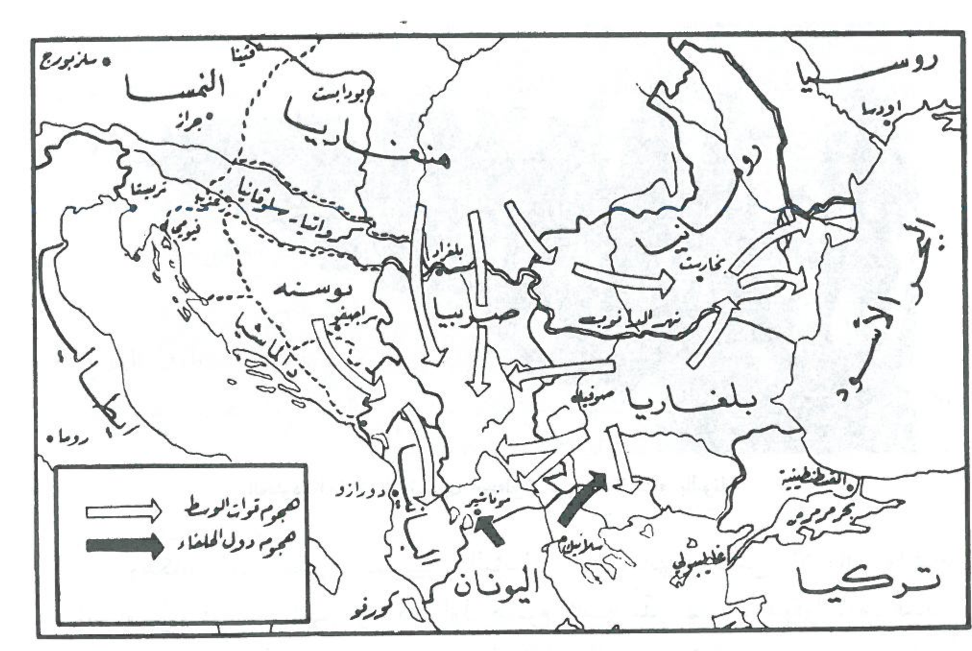
وفي هذه الأثناء كان النمساويون يوالون انتصاراتهم في البلقان، إذ سقطت في أيديهم مونتنجرو Montenegro، ثم اكتسحوا «ألبانيا» أيضاً.

لنعد الآن إلى حملة سلانيك

لقد فشلت حملة الحلفاء على سلانيك في الوصول إلى الهدف الذي أُعدّت من أجله. فصار من المنطقي سحب تلك الحملة.. وهذا ما اقترحه البريطانيون. غير أن فرنسا، وهي التي كانت تعارض فيها أصلاً، أصرّت الآن على البقاء.

فما هو وجه الحكمة في ذلك الاصرار؟

ليس هنالك من غاية استراتيجية عامة، أو هدف تكتيكي خاص. فالحملة قد ثبت فشلها، والأعداد الضخمة التي عُطِّل نشاطها في تلك الحملة يمكن الاستفادة منها في مكان آخر: فالجبهة الغربية في حاجة إلى مقاتلين، على الدوام، ونصف المليون جندي المجمدين في سلانيك



خريطة حرب البلقان..
لاحظ اتجاه قوات الوسط، ودفاع الحلفاء الفاشل

محصورون في منطقة ليس من العسير على الألمان أن يهاجموها فيأسروهم، مهما حاولوا الدفاع عن أنفسهم.

إذن، لماذا تصرّ فرنسا على ابقائهم هناك؟

السبب واضح للغاية. فالذي يصرّ هو جوفر نفسه، والدافع لإصراره هو إبقاء «سرايْ» بعيداً عن الجبهة الغربية، لأن جوفر يرى فيه منافساً خطيراً له في القيادة.

وهكذا: من أجل أن يظل جوفر في منصبه، لا بأس من أن يموت نصف مليون!! وقد يقول قائل:

إن وجود حملة الحلفاء في سلانيك ستُبقي البلغار عاجزين عن القيام بعمليات عسكرية في مناطق أخرى، إذ أن همهم سينحصر في الاستعداد لهجوم تلك الحملة الذي لا يُعرف موعده. والردُّ على ذلك: أن البلغار لم يكونوا يطمعون أصلاً في القيام بأية عمليات حربية خارج بلادهم.

إذن، كان مع الألمان الحق كل الحق في أن يطلقوا على سلانيك اسم «المعتقل الاختياري للحلفاء» من باب التندّر.



الملك بطرس، ملك صربيا يفكر في مذلة الهزيمة



جنود الصرب يصلون كورفو

ماذا يفعل الحلفاء بالدردنيل؟

لقد عرض الكومودور كيس Keyes أن يستولي على المضايق بالقوة البحرية وحدها، ووافق على ذلك قائد الموقع. لكن الحكومة البريطانية عارضت ذلك بشدة. واقترح هاملتون أيضاً استئناف المحاولة، فاستدعته حكومته، وكفّت يده.

وللخلاص من هذا الموقف، أرسل السير شارلز مونرو، وكان في فرنسا، إلى منطقة الدردنيل ليدرس الموقف عن كثب. وكان هذا ضابطاً بعيد النظر، يتخذ قراراته على ضوء الواقع العسكري، دون اعتبار أية معقّبات سياسية على الإطلاق. فما أن

اطّلع على وضع الجبهة هناك حتى أوصى بضرورة الانسحاب. وقد اتخذ هذه التوصية بعد ٢٤ ساعة فقط من وصوله إلى الموقع، وبعد ٦ ساعات كاملة من المداولة والنقاش مع ضباط المشاة والبحرية الذين كانوا يمانعون في الاعتراف بفشلهم.

كتشنر يعارض ذلك

كانت هذه التوصية ضربة موجهة إلى كتشنر بالذات. فاستنكرها، ورفض الاذعان لرأي أكثرية رفاقه في الوزارة. وحينئذٍ أدى عناده إلى انقسام الوزارة على نفسها. فقد خشي بعضهم من وقوع اصابات بالغة أثناء عملية الانسحاب، كما كان آخرون يودون الخلاص من كتشنر ويرون تلك التوصية فرصة مناسبة لذلك.

والحق، أن كتشنر في معارضته كان عنيداً لمجرد العناد. حيث لم يكن للحلفاء الخيار في الانسحاب. ولو سأل أحد الوزراء زميله كتشنر عن نقيضٍ لرأي مونرو، لما كان في استطاعته أن يجيب.

وعلى كل حال، فقد استطاع اسكويث (رئيس الوزارة) أن يجد لنفسه ووزارته مخرجاً من المأزق. لقد كلّف كتشنر أن يذهب بنفسه إلى الدردنيل ليدرس القضية برمتها، وكان يأمل ألا يعود الذاهب من هناك أبداً.

من الذي فشل؟

كان أكثر الوزراء الآن يُلقون تبعة الخيبة والفشل على عاتق كتشنر، وكانوا يرون فيه متغطرساً يسوق البلاد بعناده إلى الدمار، لكنهم جميعاً مع هذا، كانوا يودون الاستفادة من ابقائه كرمزٍ عسكري للبلاد. وكما قالت عنه زوجة اسكويث، ذات يوم: انه «ركيزة عظيمة».

ومن الغريب فعلاً، أنه في اليوم الذي تسلم فيه كتشنر تقرير «مونرو» موصياً بسحب حملة الدردنيل، تلقى فولكنهاين والامبراطور تقريراً من الأدميرال الألماني اسدوم، قائد الموقع، يوصي فيه بضرورة سحب قوات الوسط من هناك. وكان تعليل مونرو: «ان أية حملة عسكرية تقوم بالهجوم في تلك المنطقة سيكون نصيبها الفشل. فقد صمد الأتراك بأسلحتهم العتيقة، وذخيرتهم الوشيكة النفاد. فكيف الآن، وقد اتصل بهم الألمان بعد اكتساح صربيا!!».

أما تقرير أسدوم فهذا مجمله:

«يبدو أن القوات المعادية لا تنوي الانسحاب. ونحن هنا غير قادرين على طردهم من مواقعهم بالقوة.. إن عددهم ضخم، وأسلحتهم فتاكة، ووراءهم اسطول يكفُل سرعة الامداد والإسناد. ولهذا فإني أنصح بالانسحاب».

كتشنر يرضخ للواقع المر

زار كتشنر جبهة الدردنيل، ورأى بأم عينه خطورة موقف الحلفاء هناك، فوافق على الانسحاب. لكنه بدلاً من البقاء في الشرق الأدنى، سارع بالعودة إلى لندن. وهناك وجد كل شيء غير ما يعهده. فحتى ذلك اليوم كان كتشنر يدير العمليات الحربية البرية بنفسه، ولا يُطلع الوزارة إلا على الخطوط العريضة الاستراتيجية التي يرسمها. إنه لم يتخذ له مستشارين عسكريين، بل استأثر بمنصبه كوزير للدفاع، كاملاً. وكان هذا ما يضيق به صدر اسكويث ووزارته.

مستشار حربي جديد

وفي غياب كتشنر انتهز اسكويث الفرصة، فاستدعى السير وليم روبرتسون من مركز قيادته في فرنسا، وعيّنه مستشاراً خاصاً للحكومة في قضايا استراتيجية الحرب. وهذا أساس لا يوافق عليه كتشنر. ذلك أن السير روبرتسون أصبح هو الشخص الوحيد الذي يحق له الاتصال بالجنرالات في الميدان، واصدار الأوامر الخاصة إليهم فيما يتعلق بالاستراتيجية العامة أو تحرّكات الجيوش. وفي هذا صفعة إلى كتشنر، حيث اصبحت مهمته بعد الآن مقصورة على «توريد الجنود» كما قال غاضباً.

وحتى هذه المهمة غير الجليلة، سرعان ما سحبتها الحكومة من خلفاء كتشنر.

روبرتسون حاكم مطلق!

طوال سنتين ظل السير روبرتسون هو الحاكم الأعلى، وإن كانت قليلاً ما تعترض أحكامه بعضُ الآراء التي يبديها الوزراء المدنيون. ظل يتمتع بصلاحية تكاد تكون مطلقة، شأن ما كان يتمتع به جوفر في فرنسا، وأكثر مما كان يباشره فولكنهاين في ألمانيا، وأعظم بكثير مما حلم به أي جنرال في الحرب العالمية الثانية. كان يصوغ استراتيجية الامبراطورية كيف يشاء، ويحرك جيوشها حسب ما يتبدى له من وجهة نظر.

القائد الفظ

وكان هذا الحاكم المطلق أقرب إلى الفظاظة وصرامة الجنود. إنه الوحيد الذي ارتفع إلى منصبه الأخير من بين الطوابير وأوحال الخنادق. ولهذا كان منطقه عسكرياً صلباً، مما أدى إلى الاصطدام مع اسكويث الذي كان يظل يقول له: «لقد سمعتُ خلاف ما تروي». وقد أجابه روبرتسون مرة:

«إن من ضياع الوقت أن أشرح لك الاستراتيجية. فلكي تفهم هذا الأمر، عليك أن تكون قد نلتَ الخبرة التي مارستها أنا».

نظرية روبرتسون لكسب الحرب

أما نظرية روبرتسون في إمكان كسب الحرب، فكانت بسيطة للغاية. إنه يقول: «إن الميدان الفرنسي هو الوحيد المؤهل لكسب الحرب فيه». وهذا هو رأي جوفر. لكن السير روبرتسون ينطلق من زاوية أخرى غير زاوية جوفر. فهو يقرر: «أن السبب في كون الميدان الفرنسي كذلك، هو أن الحجم الأكبر من الجيش البريطاني موجود هناك». ولو سأله سائل: «ولماذا يوجد هذا الحجم في الميدان الفرنسي بالذات:» لأجاب: «لأن الميدان الفرنسي هو الميدان الرئيسي للجيش البريطاني»!!

إذن، فهو يستنتج نقطة يفرضها مسبقاً!!

ليس هذا فحسب، بل إن روبرتسون كان يقتفي خطوات جوفر في أفكاره أيضاً. فقد كان من رأيه أن الألمان، عاجلاً أو آجلاً، ستنفد مواردهم من الرجال. وهذه حسابات خاطئة من أساسها. فقد ظل الألمان يجدون من البالغين من أبنائهم ما يسد حاجة كافة جيوشهم إلى آخر الحرب.

الانسحاب من الدردنيل!

وعلى الرغم مما يظهر زيفه من آراء روبرتسون (فيما تقدم)، ظل الجنرال الجديد يدعو إلى المبادرة إلى الهجوم في فرنسا. ولما كان هذا الهجوم يتطلب امدادات جديدة، فقد حان الموعد لانهاء مشكلة جبهة الدردنيل.

وهذا ما فعله روبرتسون. ففي الأيام الأخيرة من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥



«التدمير» قبل الانسحاب
الجنود يحرقون المخازن على شاطىء غاليبولي، قبل تراجعهم

تم الانسحاب من «أنزاك» و«سفلا». وفي ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ أخلي «خليج هاليس». وكان الانسحاب ناجحاً تماماً. ان رجلاً واحداً لم يفقد حياته أثناء تلك العملية الضخمة. أما كميات المؤن والعتاد التي دُمرت أو أبقيت هناك فهائلة حقاً.

بهذا الانسحاب، صُفي حساب حملة غاليبولي، وظهر أنها فكرة استراتيجية رائعة، ولكنها نفّذت دون استعداد كامل وحسن تقدير، ومع غياب القيادة الكفؤة الحازمة.

احتمالات نجاح حملة الدردنيل

من إضاعة الوقت أن نتأمل ما كانت هذه الحملة قد تتمخض عنه من نتائج لو قدّر لها النجاح. لكن دعنا نفعل ذلك.

أولاً: اقصاء تركيا من الحرب، وهذا يفتح طريقاً مباشراً للاتصال بروسيا وامدادها.

ثانياً: فتح جبهة روسية ثانية على ألمانيا.

ثالثاً: خلق ثورات في ممتلكات النمسا في البلقان، وتحطيم طاقاتها التعبوية هناك.

ولكن.. لقد أخفقت هذه التقديرات، وظهر للعيان فشل من ارتأوها.. ووقع اللوم على ونستون تشرشل، فاستقال من الوزارة، ولم يستعد اعتباره، كسياسي قدير، طوال بقية الحرب العالمية الأولى.

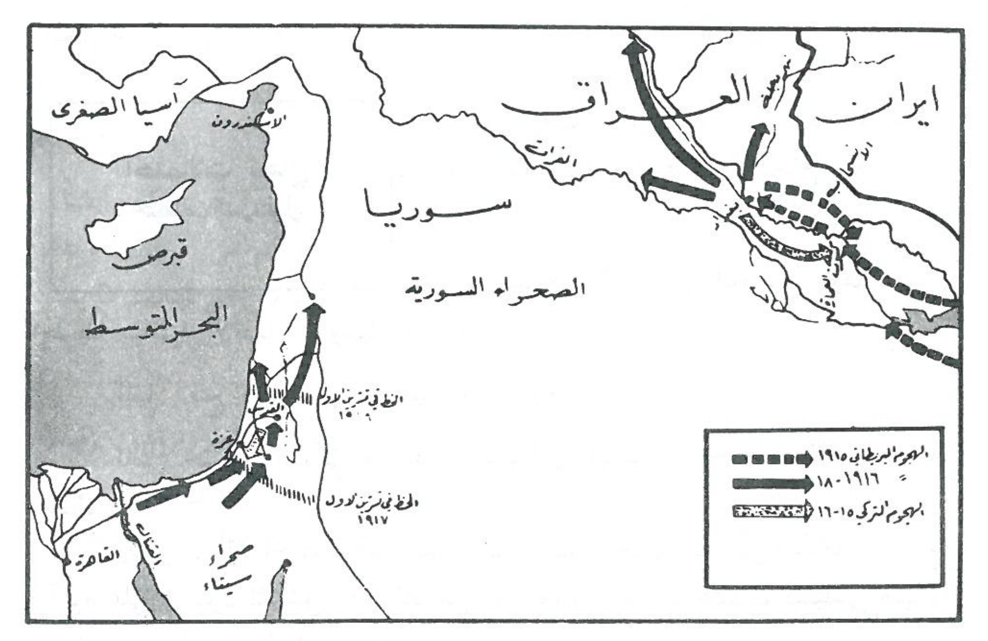
وهكذا، ظلت المضايق مغلقة، وظل الاتصال بروسيا عسيراً. نعم، لقد حاول

الحلفاء استعمال ميناءي اركانجل ومورمنسك في شمال روسيا، ولكن جدوى مرفأيهما كانت ضئيلة، لوقوعهما على حدود المنطقة المتجمدة. وحتى حين كانت تصلهما الأعتدة والتجهيزات، كان نظام سكك الحديد الروسية المهترىء يعيق تماماً نقل تلك الأعتدة في الوقت المناسب. ولهذا السبب، كانت العنابر مكدسة بلوازم الحرب حين خرجت روسيا منها بعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧.

بعد كل هذا أصبح التركيز على الجبهة الغربية هو الشغل الشاغل لروبرتسون. إلا أن خططاً جانبية ظل يجري تنفيذها رغم معارضته، ومن هذه الخطط، حرب فلسطين والعراق.

الحماية تنقلب غزواً!

كان من الطبيعي أن تتم حماية قناة السويس، ضرورة. غير أن تلك الحماية لا يمكن أن تتوفر بدون السيطرة على مؤخرة القناة نفسها، أي السيطرة على سيناء. لكن صحراء سيناء ليست هي البلد العامر بالسكان الذي ينتظر أن يتم الهجوم منه. إذن لا بد من الاستيلاء على فلسطين.



خريطة الهجوم البريطاني على فلسطين والعراق
لاحظ التقدم وتاريخه

وهكذا تحول ذلك العمل الدفاعي في أول أمره إلى خطة هجومية واسعة. وفي هذه الحال غدت الحاجة إلى جنود يلتحقون بالقوات البريطانية العاملة في الميدان أكثر وأكثر.

ومثل هذا تم بشأن حملة العراق.

فقد كان البريطانيون يتولون حراسة آبار النفط هناك. والنفط عامل حيوي، بل أساسي في صناعة بريطانيا. ومن المحتمل جداً، أن يعمد الأتراك، أو يدفعهم الألمان، إلى تخريب مصادر النفط هذه، إذا ما قام البريطانيون في مصر بغزو فلسطين.

ولهذا يتوجب حماية آبار النفط، وعن طريق غزو العراق أيضاً.

وطبيعي أن من شأن نجاح هذه الخطة الجانبية في الحرب، إذا ما تم لها أن تنتصر في فلسطين والعراق، أن تعيد لبريطانيا شيئاً كبيراً من نفوذها المنهار بعد خذلان «غاليبولي» وحملة «الدردنيل».

ومن هذا المنطلق تقدمت الكتائب البريطانية من البصرة، صاعدة إلى الشمال مع مجرى النهر إلا أن مأساة كانت تنتظرها في الطريق، فقد تم تطويقها في «الكوت» حيث استسلم قائدها لمهاجميه الأتراك في نيسان (أبريل) ١٩١٦.

وباستسلام «تونسند» تبدت فاجعة إخفاق الخطط الجانبية من جديد. لكن بريطانيا لم تستسلم هذه المرة. ففي سنة ١٩١٦ كان هنالك ٦٠٠ ألف جندي في ميدان العراق، و ٥٠٠ ألف جندي في ميدان فلسطين، و ٥٠٠ ألف آخرون في سلانيك. كل هؤلاء لم يشتركوا اشتراكاً مباشراً في كسر ألمانيا، إلا جيش سلانيك في آخر الحرب. لكن جنود حملة العراق وفلسطين كانوا لا شك يضعون الأساس لاستحواذ بريطانيا على المستعمرات في الشرق بعد نهاية الحرب.

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى ما تم في جزيرة العرب بشكل إجمالي سنفصله فيما بعد.

شبه جزيرة العرب

كانت شبه جزيرة العرب عند نشوب الحرب العالمية الأولى مجزأة إلى دويلات عديدة: الحجاز، وعاصمته مكة، يخضع لحكم الشريف حسين من البيت الهاشمي، الذي كان يقيم في استانبول منذ عام ١٨٩٣ «ضيفاً» على السلطان عبد الحميد.

نجد

أما نجد فكان موزعاً بين إمارة شمّر ـ وأصحابها آل الرشيد، وعاصمتها حائل ـ وبين الوهابيين وعاصمتهم الرياض. وكان تاريخ آل رشيد حافلاً بالمنازعات العائلية. أما أعظم رجال هذه الأسرة، محمد بن عبد الله بـن رشيد (١٨٧٢ ـ ١٨٩٧)، فقد وُفق بمساعدة الأتراك إلى أن يقضي على سلطة آل سعود، وهم الأسرة الأعرق في الرياض. لكنه في عهد ابن أخيه عبد العزيز بن متعب استطاع عبد العزيز آل سعود، من منفاه عند الشيخ مبارك في الكويت، أن يسترد الرياض، سنة ١٩٠٢. وكان عبد العزيز بن سعود قد وفّق إلى بعث الروح الوهابية القديمة من طريق تأسيس جماعة «الإخوان»، سنة ١٩١٠. والحق أنه فرض على أتباعه الجدد التقيد التام بقواعد الشرع الإسلامي. كما أسكن ابن سعود «إخوته» ـ الذين كانوا يؤلفون آنذاك جيشه النظامي ـ في مستعمرات زراعية في أجزاء من نجد خصبة نسبياً، فكانت هذه «المهاجر» المراكزَ الأولى للتنظيم السياسي هناك. وفي سنة ١٩١٣ أفاد من ضعف الامبراطورية العثمانية فاستولى، بالاتفاق مع حكومة الهند البريطانية، على مقاطعة الاحساء المحاذية لممتلكاته. وهكذا أصبح يملك منفذاً إلى البحر. وبدلاً من أن تعاقبه الدولة العثمانية على هذا الصنيع، سعت لاكتسابه إلى جانبها فسمته والياً على نجد من غير أن تفرض عليه أيما التزام.

عسير

أما منطقة عسير الجبلية الواقعة جنوبي الحجاز، فكانت مستقلة استقلالاً تاماً، رغم بقائها اسمياً، جزءاً من الامبراطورية العثمانية. وفي أواخر القرن الثامن عشر استقر في تلك الديار أحمد الإدريسي. وسرعان ما نظر إليه سكان المنطقة كولي أو قديس، فضمن ذلك لخلفائه شبه سلطة سياسية. والواقع أن أحد هؤلاء، السيد محمد الذي عاش فترة مع السنوسية في كفرة من أعمال برقة، جمع شمل أتباعه في الأراضي الجبلية ونظمهم. وفي سنة ١٩٠٩ أبى الخضوع للأتراك، فهُزم هو وحليفه الإمام يحيى إمام الزيدية؛ ولكنهما وُفقا إلى أن يتحررا (من العثمانيين) آخر الأمر بمساعدة الإيطاليين.

اليمن

وفي اليمن، وفقت السلالة الزيدية إلى التمكين لنفسها في البلاد على الرغم من أن الأتراك ما انفكوا يحاولون، منذ سنة ١٨٥٠، إخضاع البلاد. حتى إذا أدركت حكومة السلطان عبد الحميد أن هذه

الولاية لا يمكن الاحتفاظ بها بالقوة، أعلنت استعدادها لأن تطلق يد الإمام يحيى في حكم الأقسام الداخلية الجبلية منها. بيد أن رجال «تركية الفتاة» رأوا في هذا التخلي إهانة للشرف الوطني، فاستأنفوا الصراع حتى اضطروا في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١١ إلى توقيع معاهدة صلح، مع الإمام بالشروط نفسها.

السلاطين

وفي المناطق الساحلية الممتدة على شواطىء المحيط الهندي والخليج الفارسي، من حضرموت إلى عُمان فالكويت، كان عدد من السلاطين، الذين خضعوا جميعاً خضوعاً مباشراً لبريطانيا بعد أن مكنت لنفسها في عدَن سنة ١٨٣٩، وكانت معنيّة جداً بسلامة طرقها البحرية إلى الهند.

الاتصال بالبريطانيين

كان الشريف حسين قد سعى منذ ربيع ١٩١٤ إلى الاتصال بالبريطانيين في مصر، بواسطة ابنه عبد الله، علّهم يساعدونه على الاستقلال عن دولة الخلافة. فلما دخلت تركيا الحرب أصمّ أذنيه دون دعوة «شيخ الإسلام» إلى الاشتراك في الجهاد أو الحرب المقدسة. لكن بريطانيا كانت تهدف إلى دفعه إلى المشاركة الفعلية في الحرب ضد الأتراك. وهكذا شرعت طائراتها توزع نشرات الدعاية إلى الأهلين، داعمة حملتها بمنع استيراد القمح المصري الذي كان الحجازيون في أمسّ الحاجة إليه. وفي تموز (يوليو) سنة ١٩١٥ أصبح الشريف حسين مستعداً للدخول في مفاوضات مع المندوب السامي البريطاني في مصر، السير هنري ماكماهون. وفي مذكرة بعث بها إلى ماكماهون في ١٥ تموز (يوليو) عرض الشريف على بريطانيا مساعدة العرب لها إذا ما وعدتهم بالاستقلال في حدود مرسين ـ أضنة في الشمال الغربي وحتى إيران في الشرق والمحيط الهندي في الجنوب؛ وإذا أعلنت موافقتها على إنشاء خلافة عربية. ولقد أجاب ماكماهون أن بريطانيا لا تعارض في انتقال الخلافة، لكن الوقت لم يحن بعد لتعيين الحدود المطلوبة، لا سيما وأن كثيراً من العرب لا يزالون يحاربون في صفوف الأتراك.

وكان هذا بداية التمهيد لـ«الثورة العربية» التي سنرجىء بحثها إلى فصل لاحق. فلنعد الآن إلى مسار الحرب في جبهة فرنسا.

عودة إلى الميدان الغربي! من الملوم؟

كانت الاخفاقات التي منيت بها بريطانيا في الجبهة الغربية سنة ١٩١٥ عظيمة الأثر. ولم يكن كتشنر القائدَ العسكري الوحيد الذي تجرع مرارتها، كلا، فالسير جون فرنش كان الضحية الأولى، بل إن هايغ نفسه لحق به رذاذ اللوم. لقد أخذ البريطانيون يتساءلون عن الأسباب التي فرضت هذا الخذلان المتلاحق. أما كتشنر فكان يصمت، وأما فرنش فكان يلقي عبء اللوم على كاهل هايغ، وبخاصة فيما يتعلق بطلب قوات الاحتياط في معركة لوس. ومع أن الغلطة كانت من عمل فرنش، فإن كونه القائد الأعلى جعله في مركز أقوى من هايغ.

قائد عامر المائدة..

إلا أن هايغ الآن شعر بالخطر، فاتخذ جانب الدفاع عن نفسه تجاه قائده الفاشل. لقد شرح جميع نقائص السير جون فرنش إلى اسكويث، كما ظل على اتصال شخصي بالملك جورج، وكان صديقاً حميماً له من قبل، فبيّن لجلالته غباء فرنش، والنتائجَ المرعبة التي يمكن أن تترتب على استمرار بقائه قائداً في الجبهة الغربية.

ويبدو أن هايغ كان كريماً في مقر قيادته حين يزوره أحد الرسميين الكبار، فهو يولم لهم، ويعتني برغباتهم الشخصية الصغيرة.

ومهما كان الحال، فقد تم في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ أن استُدعي السير جون فرنش من فرنسا، وأسندت قيادة الجيوش الإنكليزية هناك إلى هايغ، الذي ظل في هذا المنصب حتى نهاية الحرب.

سننتصر بمشيئة الرب

والمعروف عن هذا القائد أنه كان جميل الهيئة، شديد الاخلاص للواجب. ومع أنه لم تكن لديه فكرة معينة عن «كيف يتم النصر»، إلا أنه كان واثقاً من النصر وثوقاً مطلقاً. كان يقول: «اننا سننتصر، وبإرادة الله، فالرب يريد ذلك». وبصدد النقائص والثغرات الموجودة في موقف الحلفاء تجاه الألمان كان هايغ يجيب: «نعم، هنالك ثغرات في موقفنا تجاههم، ولكن الله سيعبئها.. انه سيعمي عيونهم عنها».

بهذا الإيمان الطفولي، والعناد في تقبل الهزيمة، استطاع هايغ أن يخرج

منتصراً آخر الحرب. لقد ذاق مرارة الفشل في مواقع كثيرة ولكنه جعل من تكرار الفشل نجاحاً. وبهذا محا صفحة سوداء كانت ستظل في تاريخ الجيش البريطاني إلى الأبد.



الماريشال «دوغلاس هايغ» كان عظيم الثقة بنصر الرب

نقد هايغ

ويختلف المعلقون العسكريون في تقدير شخصية هذا القائد. لكنهم يكادون يجمعون على نقطة واحدة، هي:

«لقد كانت قراراته صائبة وعميقة في استراتيجية الجبهة الغربية، وإن ظل على الدوام عاجزاً عن تنفيذها كاملة».

لهذا يرى بعضهم أنه كان عليه أن «ينتظر حتى يتم تطوير الدبابات في بريطانيا، أي حتى سنة ١٩١٧، ثم يتخذ جانب الهجوم، بعد تزويده بعدد كافٍ منها». بينما يرى آخرون «أن الفرنسيين بقيادة جوفر ما كانوا يقبلون من حلفائهم البريطانيين التزام جانب الدفاع حتى ذلك التاريخ، كما أن الرأي العام البريطاني طوال تلك المدة كان سيظل يشعر بالمذلّة والهوان».

التزام الدفاع معناه المفاوضة للصلح

والحق، أن هايغ كان مضطراً إلى السلوك الذي سلكه. فبقاؤه في جانب الدفاع، كان معناه فتح المفاوضات للصلح. وهل هناك من كان يجرؤ على فتح هذا الباب، مقنِعاً حتى المدنيين البريطانيين بأن

من الحكمة أن يتم الصلح، بعد فشل جيشهم في الميدان!! (فكيف بالفرنسيين!).

لو فعل ذلك أي وزير بريطاني، لما ضمن له زملاؤه الخروج إلى الشارع ثم بقاءه على قيد الحياة. فقد كان جنون الحقد، الذي هو رد فعل عكسي للإخفاق في الجبهة، يطغى في موجة عنيفة على الرأي العام.

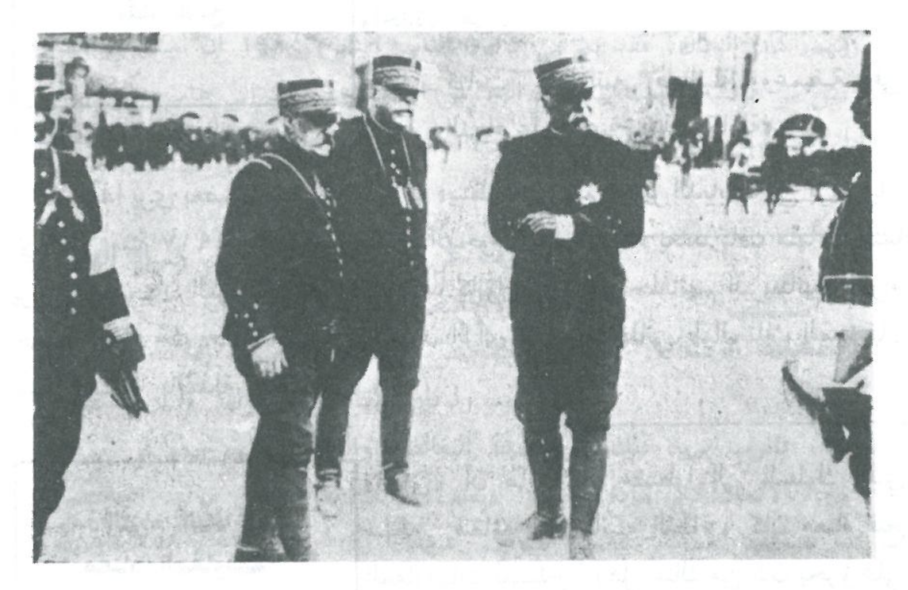
أما في فرنسا، فالحال أدهى وأمرّ: لو تقدم بهذا الرأي «جوفر»، مع أنه رمز المجد العسكري الفرنسي آنذاك، لهوى إلى الحضيض واعتبره مواطنوه خائناً. ولأشاروا إليه قائلين: «أين ليل، وأراس، ومناجم الفحم أيها الجنرال الخائن!!»، ثم عطفوا على ذلك: «بل أين الالزاس واللورين!!».

المدنيون يتحركون

وبالرغم من أن هايغ قد فشل مرات كثيرة في جلب النصر، فإنه لم يكن في بريطانيا من يحل محله!

ومثلما كانت الحكومة البريطانية تواجه الأزمة مع شعبها في هذه الفترة، كانت حكومة فرنسا تترنح، ولنفس السبب.

كانت الرؤوس تتساقط في وزارة فرنسا، إذ أثار الشعبَ أن حكومته فشلت في



جوفر في الوسط بين اثنين من جنرالاته في الجبهة الغربية

مساعدة صربيا، وأخفقت في إبقاء بلغاريا بعيدة عن المشاركة في الحرب. وحين استقال وزير الخارجية «دلكاسيه»، سقطت الوزارة الائتلافية التي كان يرئسها «فيفياني» بكاملها. ووقع الحكم في يد «بريّان»، الخطيب المشهور. إلا أن الأمر لم يقتصر على هذا. فقد أخذت مياه كثيرة بانت راكدة، تتحرك. ها هم أعضاء الجمعية الوطنية يرفضون الاستمرار في طأطأة رؤوسهم لجنرالات الحرب: إنهم يقولون: «نحن ممثلو الشعب، والحرب التي يدفع الشعب ثمنها باهظاً يجب أن تكون من اختصاص ممثليه».

ثم طفق مفوضو الشعب يترددون على الجبهة، ويناقشون الجنرالات الفرنسيين هناك، بل ويحرجونهم مراراً كثيرة، مبينين لهم أن المفوضين ينكرون على جوفر زعمه في أنه: ديكتاتور للحرب. وهنا تبرز حكمة جوفر. فالواقع أن هذا الرجل كان سياسياً حاذقاً أكثر منه عسكرياً موهوباً.

لباقة جوفر

إننا نجده الآن يصرف بعض مساعديه العسكريين ويصغي الساعات الطوال لأحاديث الوزراء المدنيين الذين يطلب منهم التكرم بزيارة مقره. وأحكَمُ من ذلك، ها هو يوجد لبقائه في مركزه تبريراً مقنعاً بعض الشيء.. إنه يحدّث الوزراء قائلاً:

«إنني الرجل العسكري الوحيد الذي يمكن أن يخضع لاشرافه حلفاء فرنسا وقادتهم على أرضها، وبدوني، شخصياً، يصعب كثيراً على فرنسا ابقاء بريطانيا حليفة مخلصة في الحرب، معها».

وقد قبل منه الفرنسيون هذا التعليل، فأبقي في منصبه كقائد أعلى عام للجبهة، والفرنسيون يظنون في ذلك إرضاءً للحلفاء، بينما يظن الحلفاء فيه مداعبة لغرور الفرنسيين وارضاءً لهم.

موقف فولكنهاين

أما العسكريون الألمان، فقد أنجتهم فطنتهم من الوقوف موقف النقد المر. إن هؤلاء يتمثلون في فولكنهاين، وفولكنهاين قد انتصر. أليس هو الذي سحق الجيوش الروسية، وكبّدها خسائر لم يسجل التاريخ من قبلُ أعظم منها! أليس هو الذي اجتاح صربيا مظفراً، ففتح الطريق إلى

القسطنطينية، وساند حكومةً حليفة، ربما كانت قد انهارت لولاه! أليس هو وقادته العسكريون، الذين يعملون مستشارين لدى تركيا، هم الذين جمّدوا طاقات نصف مليون جندي من الحلفاء في سلانيك، ثم اضطروهم إلى الاعتراف بالخيبة! كل هذا لصالح فولكنهاين. فهل يُنتظر أن يفقد منصبه؟ كلا، طبعاً.

وعلاوة على ما سبق، فإن فولكنهاين قد ظل يلتزم خطة الدفاع في الجبهة الغربية، وبهذا قلّل من خسائره كثيراً بالنسبة إلى خسائر مهاجميه، كما رسّخ أقدام قواته منيعة في موقعها.

وأكثر دلالة على حكمة هذا القائد، أنه الوحيد بين جنرالات الحرب العالمية الأولى، الذي كان لا يطمح إلى الحصول على نصر حاسم. لقد سبق أن أدرك أن هذا النصر لا وجود له، فكان كل ما يبغيه فولكنهاين هو: إيجاد ظروف مواتية لعقد مفاوضات للصلح، وبشروط لصالح المانيا، دون أن تكون مجحفة بأعدائها.

الحقد أعمى

لكن كل هذه الميزات لم تشفع له عند خصومه الحاقدين عليه والمقربين عند غليوم. فأثاروا كلاً من هندنبرغ ولدندورف ضد رئيسهما. ولاقى ذلك هوى في نفس القائدَين، وبخاصة أنهما اضطرا إلى التخلي عن بعض الفرق من قواتهما وإرسالها إلى الجبهة الجنوبية في صربيا، ومن ثم مساعدة النمسا والعثمانيين. وقد زعم القائدان أن: «فولكنهاين قد أخفق في إخراج روسيا، بالكلية، من الحرب»، ونقما على ذلك زاعمين أنه «كان بإمكان القوات الألمانية التي شطرت الجيوش الروسية أن تبيدها لو تعقبتها إلى الداخل، لكن الأوامر التي أصدرها فولكنهاين حالت دون هذه النتيجة المرجوة».

والحق، أنه كان بوسع فولكنهاين تخطئة هذا الرأي من ناحية عسكرية، ولكنه آثر عدم ذلك. فقد كان الرجل حريصاً على وحدة القيادة، حتى لو كان ذلك على حسابه هو.

القائد هو «الرمز العسكري»!

طوال سنة ١٩١٥ كان جوفر هو الرمز العسكري للنصر في فرنسا، وكتشنر نظيره في بريطانيا، وهندنبرغ لا فولكنهاين، قبالتهما في ألمانيا. أما لماذا لم يكن فولكنهاين نفسه، فلأنه لم يكن رجل مجتمع يعشق تسليط الأضواء على شخصه. كان عبقرية عسكرية لا غير. ولهذا

كانت الريح تجري ضده كلما طالت الحرب.

وأخيراً، قرر الالتفات نحو الجبهة الغربية، معللاً تحوله هذا بحجج فنية وعسكرية سليمة، وإن كانت تنطوي على فكرة الابتعاد عن منافسة هندنبرغ ولدندورف. وفي أواخر عام ١٩١٥ تحرك قطار غليوم وأعضاء قيادته نحو الجبهة الغربية للتفقد والاستطلاع.

وهكذا، انقضت سنة ١٩١٥، ومواقف القادة العسكريين في بلادهم، وفيما بينهم، متناقضة أشد التناقض.

فـ «جوفر» المتكرر الخيبة، باقٍ في منصبه، والفرنسيون والحلفاء موافقون على ذلك.

و «كتشنر» في بريطانيا، جُردت منه سلطاته الفعلية، وبقي رمزاً، لمجرد عدم الرغبة في إحداث هزة في الرأي الشعبي العام.

و «فولكنهاين»، وهو صاحب النجاحات الوحيد، في تلك السنة، غير مرضي عنه ولا يتمتع بشهرة عريضة مثل صاحبيه.

فيا له من عجب: كان الاخفاق يرسّخ اقدام جوفر، وينقذ كتشنر من فضيحة نقصان الذخيرة، بينما كان النجاح يحط من قدر فولكنهاين!

ولننتقل الآن إلى أوساط الشعب في الدول المتحاربة لنلقي نظرة عليها.

الموقف الرسمي بين الشعوب المتحاربة!

١. بريطانيا

كان الصحافيون البريطانيون الذين لا يجدون أخباراً دسمة عن تحركات الحرب وعملياتها يلجأون إلى اختراع القصص ونسج الوقائع الخيالية عن بطولة أبناء بلادهم في الميدان. ولا ينسون أن يشيروا بطريقة أو أخرى إلى «الروح الملهمة، والعبقرية العسكرية» التي يتحلى بها قادتهم. ومن الطبيعي أن ينال كتشنر من ذلك النصيب الأوفى. فلم يَعدَم شاعراً من المطبلين والمزمرين، ولا صحافياً يُدعى إلى وليمة خاصة، فيدفع ثمن ذلك على صفحات جريدته. مثل هؤلاء الأقزام، أضفوا على كتشنر هالة من القداسة، وإن كانوا في نفس الوقت الهبوا مشاعر المواطنين بما نشروه من هُراء.



لويد جورج.. شواربه تهتز وهو مطرق..

٢. فرنسا

وفي فرنسا كان جوفر هو «مسيح مجد فرنسا المنتظر». وإذا كان البريطانيون أرصن في عواطفهم الوطنية وإبدائها، فإن الفرنسيين شعب سهل الاندفاع حتى التضحية، وسهل الفتور حتى الركود. ولما كانت أخبار المعارك معماة على الصحف، كما أسلفنا، فالخيال الفرنسي أقدر

على الاختراع، وأخصب في الخلق. لهذا نرى القصص عن «أطفال فرنسيين أسروا ضابطاً ألمانياً وجردوه رتبته، وفتيات فرنسيات صرن عشيقات لكبار القادة الألمان كي ينقلن أسرار الأعداء». أما جوفر، فروحه هي التي تلهم كل هذه «المآثر الجليلة»، وفي عبقريته العسكرية يجتمع الاسكندر ويوليوس قيصر ونابليون !!

٣. ألمانيا

أما في ألمانيا فالأمر يختلف. ذلك ان غليوم، وإلى حد ما هندنبرغ، هما مركز الدائرة. فغليوم هو الوارث الشرعي لعبقرية بسمارك، وهو الذي سيقهر فرنسا كما قهرها بسمارك في حرب السبعين. على يديه ستقوم أمبراطورية المانية لا حدود لها، وبفضل هندنبرغ ستغدو أوكرانيا، اللعينة، اهراء طبيعياً لألمانيا يُجلب منها القمح والخيول. وبعد الانتصار المنتظر ستجرّد بريطانيا من مواقعها في آسيا، ويتم توزيع مستعمراتها، فتعود جزيرة قاحلة يعيش أهلها من صيد السمك وزراعة البطاطا.

٤. روسيا

وأما في روسيا القيصرية، فالقيصر هو البطل. إن الكنيسة لن تألو جهداً في الدعاء والصلوات كي يحفظ الرب أرض روسيا العزيزة سالمة لشعبها! وكتائب القوزاق سيطردون الألمان عما قريب. وهم لن يستعملوا البندقية أو المدفع، وإنما يكفي السوط وحده. أليس هو الذي يلهب ظهور الفلاحين في البلاد؟ بلى، إذن فهو كافٍ لإلهاب ظهور الألمان المعتدين أيضاً!!

وطبيعي أن مخازي الهزائم المتكررة لم تكن موضع مناقشة، لا في بلاط القيصر ولا بين ركام البشر في الأرياف..!!

٥. تركيا

ولا يختلف الحال عن ذلك في قصر السلطان في الآستانة. فها هنا: ليس الوقت وقت «حزب الاتحاد والترقي»، ولا «جمعية تركيا الفتاة»، وإنما هو: «العقيدة المحمدية تواجه الكفار». ها هو السلطان قد تبرك بـ «بردة الرسول» ونال بركات «شيخ الإسلام»، كما أنه يدعو أفراد «التابعية العثمانية» للجهاد. إنه يعدهم بكل خير بعد الخلاص من هذه «الغمّة»، ويندبهم لحرب «المسكوب». وهو يذكّرهم بأن فرنسا استولت على الجزائر وتونس، وأن إيطاليا استولت على بنغازي وطرابلس قبل ذلك بقليل. وان «البريطانيين» يسومون إخوانهم

المسلمين في الهند خسفاً وإذلالاً. ويبين لهم أن «الحرمين الشريفين» سيكونان في خطر من «تدنيس أعوان إبليس» إذا انتصروا، ولن ينتصروا بإذن الله.

ثم يتبع ذلك بـ«فرمان شاهاني» عن قرب النصر.



لويد جورج وجوفر والجنرال هايغ..
إنهم يتحدثون عن القيام بهجوم جديد

حقيقة الموقف في نظر الشعوب

تلك هي الأوضاع النفسية التي كانت سائدة في أواخر سنة ١٩١٥ في المقامات الرسمية ومن يتأثر بها من المغفلين في شعوب الدول المتحاربة، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن حقيقة الموقف في نظر الشعوب.

١ - ايرلندا

ففي إيرلندا مثلاً، برزت إلى السطح منظمة قومية متعصبة تقول: «إن في مغرم بريطانيا مغنم لنا»، ثم تضيف: «فعلى كل ايرلندي أن يساعد في جلب الأسلحة والتدرب عليها استعداداً لفرض استقلالنا على مستعبدينا». وبالفعل، تدفق على ايرلندا سيل من الأسلحة المهربة، وتدرب عليها الايرلنديون، ثم استعملوها فيما بعد وانتصروا بأن فرضوا استقلالهم.

٢ - تشيكوسلوفاكيا

وفي تشيكوسلوفاكيا، كانت الحماسة فاترة في الانتقاض على امبراطورية آل هابسبورغ، إذ أن الأهلين يجدون الحياة في ظل حكمها أفضل كثيراً من حياة إخوانهم السلافيين في ظل القيصر الروسي، زعيم دولتهم القومية ذاتها.

٣ - الاشتراكيون الراديكاليون

وهنا وهناك، في فرنسا، كما في ألمانيا وروسيا، كان هنالك بعض الاشتراكيين الراديكاليين ينشرون دعاية ضد الحرب من أساسها. ولكن هؤلاء كانوا نفراً يسيراً لم يأبه لهم أحد. كما أن تعارُض مثاليتهم مع واقع الحرب، ومع كون معظم الجيوش المتحاربة تدافع عن أرض وطنها نفسه، اضعفَ إلى حد كبير جداً من تأثيرهم في أوساط الشعب.

كان هؤلاء مثلاً يقولون للروسي: «لا تقاتل الألمان، فليسوا هم الذين أبقوك في حالك التاعسة هذه، وإنما قاتلْ مستثمريك - القيصر والكنيسة، والكولاك». فهل يُعقل أن يرى الروسي بلاده مشطورة مهانة، فيقبل باحتلال الألمان لأرضها، وينصرف إلى الثورة على بطرسبرج!!

ومثل هذا كانوا يطلبون إلى الفرنسي، فهل يرى الفرنسي الجزء الشمالي

الشرقي من بلاده خاضعاً للغزاة الألمان ثم يقبل بعد ذلك بالاستدارة إلى الخلف لاسقاط حكومة باريس!!

لو فعل ذلك، لكان معناه: «لست وطنياً، وإنما خائن، فتعالوا يا أعداء فرنسا وأذلّوها، ولتكنْ لكم الالزاس واللورين إلى الأبد».

وأما في المانيا، فلو فعل ذلك أحد، لنال من جسده الرصاص قدراً كبيراً. إن جزاءه الإعدام.

أما في تركيا وممتلكات الدولة العثمانية في آسيا، فسيكون حينذاك، «عدواً للدين» و«ممالئاً للكفر»، وخاذلاً للجهاد والسلطان. ولن يَعدم رصاصة يأمر بإطلاقها «أمير آلاي» السنجق الذي هو فيه، أو أنشوطة يشنقه بها في إحدى الساحات العامة.

ومثل هذا يكون البلجيكي الذي يدعو إلى وقف الحرب، والانصراف إلى تطاحن طبقي في الداخل..

والواقع أن الجنود المقاتلين في قارة أوروبا كانوا، كما أسلفنا، يقاتلون دفاعاً عن سيادة دولهم القومية. هذا إذا استثنينا الألمان الذين كانوا يحتلون أراضي غيرهم.

٤ . بولندا

وهنا نقع على مثال فريد. إنه بولندا. فقد كانت هذه البلاد خاضعة للحكم الروسي قبل الحرب، وإثر حروب متكررة في القارة الأوروبية، انتهت باقتسام البلاد. وها هم الألمان يطردون الروس منها. إذن فقد استبدلت البلاد سيداً قوياً بآخر ضعيف. وإذا كان السيد الضعيف قد استطاع البقاء متسلطاً فيها لمدة طويلة ـ عن طريق التعامل مع بقايا الاقطاعيين، وبفضل الجهل العام في البلاد ـ فمن الأولى أن يستطيع ذلك السيد القوي، المتسلح بجبروت فيالق الألمان.

نعم، لا شك أنه كانت هنالك بذور وطنية يتحسس الداعون إلى استغلالها ظلالاً من «قومية بولونية» ـ فهذا أمر طبيعي في كل شعب وفي كل زمان ـ ولكن هذه القومية لم تكن واضحة المعالم بعد.

لذا نجد البولونيين يخفضون رؤوسهم أذلاء بدل أن يثوروا على أسيادهم الجدد.

٥ . بلجيكا

وقد يتساءل بعض الناس: لماذا لم ينشط البلجيكيون ويقوموا بحرب عصابات، مثلاً؟ هل زايلتهم وطنيتهم؟

والجواب، أن رقعة البلاد الضيقة، والفرق الواسع بين قواهم وقوى الألمان كانا يحولان دون نجاحهم، حتى لو فعلوا. هذا أولاً. وثانياً: ان حرب العصابات الناجحة تتطلب أرضاً ذات طبيعة جبلية، أو مكسوة بالغابات. لهذا نجدها قد نجحت على يد «الأنصار» في روسيا إبان الحرب العالمية



هربرت هوفر يقدم المؤن إعانة إلى لاجئي البلجيك

الثانية، ثم في حرب تحرير الصين. أما بلجيكا فهي سهل منبسط تخترقه القنوات والأنهار. وثالثاً، ان حرب العصابات ما هي إلا حديثة العهد في أساليب الحرب، أي أنه لم تكن قد وُضعت لها القواعد التي تكفل البدء بها أو نجاحها.

لكل هذا عجز البلجيكيون عن عمل أي شيء، إلا استدرار دموع ذوي النفوس الرقيقة المشاعر في بريطانيا وأمريكا. فاستقبلت بريطانيا لاجئيهم، وعطفت عليهم أمريكا فقدمت لهم، من باب الصدقة والإحسان، بعض المواد الغذائية.

بريطانيا تقلب «الانسانية» إلى «تجسس»

كانت بريطانيا في أول الأمر تسمح بإيصال هذه الشحنات التموينية، دون أن يتعرض لها نظام الحصار البحري على ألمانيا. لكنها سرعان ما منعت ذلك. أما السبب في هذا المنع فيذكره

صحافي ألماني درس وثائق الحرب الكبرى في بلاده ثم التجأ إلى سويسرا بعد نهايتها، وهو يقول:

«اتخذت بريطانيا من قضية العطف الإنساني على جوعى البلجيك بؤرة للتجسس. فلما أن اكتشفت السلطات الألمانية ذلك، وحاولت التجسس العكسي عن نفس الطريق، تبين لبريطانيا أن زيف انسانيتها قد افتُضح. ولهذا لجأت إلى خلق دعايةٍ تزعم أن الألمان يأخذون التبرعات الأمريكية لتغذية جنودهم. وسرعان ما منعت وصول تلك التبرعات بهذه الدعوى».

وهنا يجدر بالقارىء أن يتساءل: هل كانت أمريكا تتبرع لإغاثة البلجيكيين سنة ١٩١٥ خوفاً عليهم أن يموتوا جوعاً، مع أنها كانت قد أهلكت عدداً وافراً من جيرانها المكسيكيين قبل ذلك بسنوات؟ إن هذا لعجيب! والجواب على ذلك سهل للغاية: انظر أيها القارىء الكريم إلى عالم السياسة الدولية اليوم.. وسترى أدهش من كل ذلك.

ولنعد الآن إلى مجرى الحرب.

حرب جنرالات

لقد ورد في تقرير رفعه سفير سويسرا إلى حكومته، التي ظلت محايدة في الحرب، قوله: «إن هذه الحرب حرب جنرالات، وليس بوسع السلك الدبلوماسي أن يحرز أي وساطة أو نجاح.» وما أصدق هذه العبارة. ففي الحرب الكبرى تسلّم الجنرالات زمام السلطة الفعلية في بلادهم، وإن لم تبلغ بهم الوقاحة أن يطلبوا اسم «ملوك أو سلاطين».

موقف الساسة المدنيين من ذلك

أما الساسة المدنيون، فقد تواروا خلف هؤلاء العسكريين كظلّ لهم. ولم يكن ذلك التواري بحكم الإخلاص لأولئك الجنرالات، ولا من باب الثقة بهم، وإنما كان من جراء العجز عن زحزحتهم أولاً، والحيرة فيما يجب فعله للتخلص من الحرب، ثانياً. كان الساسة يصغون إلى الانتقادات المؤلمة، والاتهامات الخطيرة التي يكشفها الجنرالات المتقاعدون ويشرحونها لهم.. ولكن إبعاد الجنرالات العاملين، والاتيان بآخرين متقاعدين، ما كان سيغير من الأمر شيئاً. إذ سيظل الجنرالات هم الجنرالات.

لم يكن بين أولئك الساسة أحد يمسك بين يديه دفتي السلم والحرب كما فعل روزفلت وتشرشل وهتلر وستالين في الحرب العالمية الثانية. فقد ظلوا يعتقدون أن البقاء بعيدين عن طريق المغامرين العسكريين لهو أسلم.. وليظلّ الجنود يقتل بعضهم بعضاً.

وهذا عجيب حقاً.

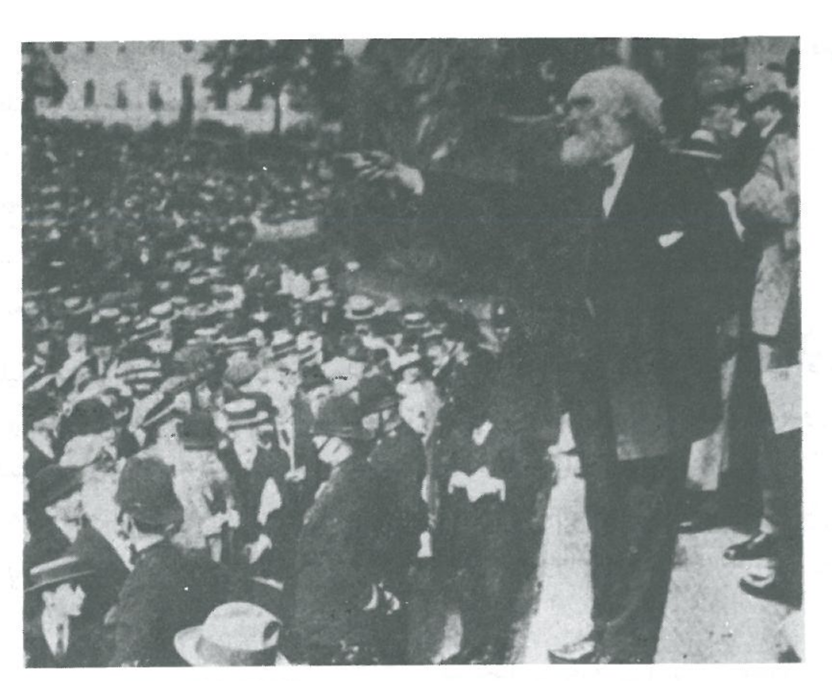
ألم يفطن لويد جورج وبرايان وردينو وقيصر روسيا وسلطان تركيا، إلى أن العقلية العسكرية، حين يطول بها المدى، تتجرّد من كل اعتبار انساني، وتنقلب أقرب إلى وحشية الغاب؟ ألم يجدوا ذلك الخلُق حتى في صرامة وجه كتشنر ولدندورف وهندنبرغ، وشاربَيْ جوفر وعبوس جمال باشا السفّاح!!

إنه لمن المؤسف حقاً أن نقول: لقد كان الساسة آنذاك أغبى وأكثر وحشية من جنرالاتٍ صناعتهم الموت.

سياسي واحد كمثال!

كان لويد جورج مثلاً جاهداً في تقوية ما سماه «الحرب على الجبهة الداخلية»، أي زيادة إنتاج العتاد، وقد ساعدته قدرته الخطابية في هذا الباب. ففي تموز (يوليو) من هذا العام، استطاع أن يفكّ إضراب عمال مناجم الفحم في جنوب ويلز، بأن أثار فيهم الروح الوطنية، وملأ بطونهم وعوداً بالخبز والزبدة بعد الحرب. ولم ينسَ أن يُسيلَ لعابهم حين منّاهم بالحصول على مستعمرات جديدة لبريطانيا تستغلها لصالحهم. لقد حدّثهم أن كنوز الهند تنتظرهم عشية نهاية الحرب، فما عليهم الآن، إلا العمل بإخلاص كي يحموا وطنهم، ويستثمروا تلك الكنوز بعد قليل. بهذا خدعهم، فلما تمت الحرب، وجدوا أنفسهم لا يزالون حيث هم. أما غنائم المذبحة فقد أخذت تتكدس في جيوبه وجيوب أمثاله.

ولكن يبدو أن مقدرته الخطابية قد خانها التوفيق في غلاسكو. فهناك رفض ثلاثة آلاف عامل من أُجراء المحلات التجارية أن يصغوا له يوم عيد الميلاد. ولم يكفهم الانفضاض من حوله، وتلك إهانة كبرى، بل أخذوا يتهجمون عليه ويبيّنون له عدم ثقتهم بوعوده. وحين نشرت جريدة «التقدم Forward» ريبورتاجاً تفصيلياً عن شرشحة «معالي» الوزير، منعت الحكومة صدورها.



كير هاردي يخطب ضد الحرب في ساحة «الطرف الأغر» بلندن

التجنيد الاجباري

وأهم أحداث عام ١٩١٥ في بريطانيا هو اللجوء إلى التجنيد الإجباري. فمنذ قديم الزمن ظل الالتحاق بالجيش اختيارياً، وظلت بريطانيا قوة بحرية أكثر منها برية. أما الآن فقد اختلف الموقف. ان الألمان يحصدون المتطوعين الانكليز في فرنسا، والأتراك هشّموهم في غاليبولي، بينا يظل جوفر يصرخ طالباً قوات جديدة لهجوم جديد.. فماذا تفعل حكومة بريطانيا؟

حين استشير الجنرالات كان جوابهم: «التجنيد الإجباري يحل المشكلة». وزعق بعض أعضاء حزب الأحرار منداً بذلك.. لكن الظروف الحربية التي خلقت نقصاً في الرجال. اجبرت الجميع على الموافقة. وهكذا أُوقف التطوع. ونفّذ قانون «خدمة العلَم» في كانون الثاني (يناير) ١٩١٦.

وكان المأمول من تنفيذ هذا القانون الحصول على ٦٥٠,٠٠٠ شاب قادر على حمل السلاح لم يتطوعوا، حسب تقديرات الرأي العام وضجة الصحف. لكن ما حصل كان غير ذلك. فقد تقدم مليون ونصف رجل يعملون في مراكز حيوية للمجهود الحربي يطلبون الإعفاء. بينما لم يظهر أحد من الـ ٦٥٠,٠٠٠ المتهمين بالتهرب.



«الواعون» يرفضون الحرب. ها هم يشتغلون بزراعة الأرض في «دارتمور»

نرفض الحرب، أية حرب!

هذا إلى أن أوجهاً أخرى تولدت من سن هذا القانون. فقد ظهر علانية الآن في بريطانيا من يعارضون الحرب من أساسها. نعم، لقد كان هؤلاء خمسة أو ستة آلاف رجل، فهم قليلون، ولكن الناحية الفكرية التي نفذوا منها كانت بالغة الأهمية. فهم الآن يرفضون الحرب، لأنها حرب، وهم يريدون أن يفقهوا سببها.

والحق، إنه الآن بدأ البريطانيون يتساءلون «لِمَ نشبت الحرب؟».

ولما كان هؤلاء «الواعون» مسلّحين بقيم خلُقية رفيعة تدفعهم إلى استنكار الحرب والاستنكاف عن المشاركة فيها، فقد جعلت الحكومة همّها أن تقلل من شأنهم في نظر الرأي العام. بل وأن تحجزهم، خوف أن يتفشى مرض «العقلانية» الذي أصابهم بين ظهراني الشعب.

انتقال الأفكار

ومثل هؤلاء «الواعين» ظهر في ألمانيا. ولكن بشكل آخر، وإن كان في نفس الوقت تقريباً. ففي كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥ انشقّ عشرون عضواً من أعضاء حزب «الديمقراطيين الاشتراكيين»، وصوّتوا ضد ميزانية الحرب. وفي أول سنة ١٩١٦ انشق هذا الحزب بكامله إلى فئتين.

وهكذا ظهر في أوروبا، [illegible]ر، من يتحدى الحرب ولو على نطاق ضيق.



التفكير في عواقب النصر أو الهزيمة

وفي هذا العام (١٩١٥) كانت أهداف الحرب قد تقررت إلى حد ما، سواء منها جانب الدفاع أو احراز النصر. فإذا انتصر الألمان فلا شك أنهم سيضمون إلى بلادهم بعض الممتلكات الجديدة من جهة الغرب ومن جهة الشرق. أما إذا انتصر الحلفاء فإنهم سيسترجعون أراضيهم المحتلة على كل حال. . أي انه لم يكن أحد يفكر في تجريد المانيا من قوتها العسكرية، ولم يدر بخلد الساسة الانقضاض على مستعمراتها كغنيمة حرب.

هذا في أوساط الحلفاء. أما لدى الألمان فالوضع مغاير لذلك. كانوا قد فتحوا الطريق إلى القسطنطينية بعد اجتياح صربيا، وانضمام بلغاريا إلى جانبهم. وبدا أن طريق سكة حديد «برلين ـ بغداد» قد أصبحت مفتوحة أمامهم. وفي هذا على بريطانيا خطر كبير. وبخاصة أن أحد كبار المتمولين الألمان صرح «ان المستقبل سيكون لوسط أوروبا».

المستقبل لوسط أوروبا

وحينذاك نظر الساسة البريطانيون، وكلهم من ذوي المصالح المالية الكبيرة، إلى خريطة أوروبا وآسيا، وتساءلوا: «أمن المعقول أن المانيا قد جعلت هدفها أن تتخذ وسط أوروبا بكامله، ثم البلقان، فتركيا والهلال الخصيب، حتى خليج العجم ـ كلَّ هذا مجالاً حيوياً لتوسعها الاقتصادي فيما بعد؟ يا له من هدف ضخم!»

لكنهم نظروا إلى الواقع الراهن في أيامهم وقالوا: «إن ألمانيا لم تستفد من تركيا أية مغانم اقتصادية، ولا هي فعلت ذلك من النمسا أو بقية البلقان. وحتى الخطوط **الحديدية في البلقان لا تزال عرجاء عاجزة عن أن تفرض لها شأناً في مجرى الحرب. وألمانيا لم ترسل إلى حليفتها تركيا قوة تكفيها للصمود أمام الحلفاء لو شاءوا التركيز عليها.**

إذن، ماذا تبغي ألمانيا من فكرتها هذه؟ هل تريدها هدفاً حقيقياً للحرب، أم أنها قنبلة دعائية للتخويف واثارة البلبلة؟»

والواقع أنها كانت كذلك. إذ أن الطبيعة الجغرافية والأخرى العِرقية والثالثة الاقتصادية تعارض ضم هذه المنطقة المشار إليها، في وحدة من أي شكل كان. لكن الألمان أرادوا أن يجعلوا للحرب اسطورةً، فانتقوا هذه الفكرة الخيالية، وأذاعوها.

ما الهدف من الأسطورة!

وكان لاذاعتها هدف ما. فالألمان يعرفون أن بريطانيا وفرنسا وروسيا ظلت تختلف، وأحياناً تتحارب، على مطامعها في أملاك الدولة العثمانية طوال قرن كامل. فهم يودون الآن، أن يثيروا الاختلافات بين هذه الدول؛ فلا تطمئن إحداها للأخرى ويفتر نشاط الجميع للحرب.

لا ثقة بين الحلفاء

ونحن نعرف مثلاً، أن الروس كانوا قد احتاطوا لهذا الأمر من قبل. فحين عُرضت فكرة القيام بحملة الدردنيل في الربع الأول من سنة ١٩١٥، نراهم يشترطون أن تكون القسطنطينية والمضايق من نصيبهم. ولم تمانع في ذلك بريطانيا ما دام لا يؤثر على بقاء سيطرتها على مصر. أما فرنسا فقد عارضت، لكنها اضطرت إلى الاذعان آخر الأمر.

وقد جزم بعض المعلقين السياسيين فيما بعد بأن بريطانيا وفرنسا كانتا تحاربان سنة ١٩١٥ لمجرد أن «تقدّما القسطنطينية تفاحةً ذهبية إلى روسيا، كما وعدتاها بذلك في نيسان من ذلك العام». وهذا غير صحيح. فقد وافقت بريطانيا على ذلك خشيةً من تفرق الكلمة إبّان الحرب.

الوعد لروسيا بالقسطنطينية والمضايق

كان هذا الوعد مفتاحاً لإثارة قضية كبرى أخرى. فقد غدا الفرنسيون يتساءلون: «إن جنودنا يموتون في الجبهة الغربية، وعلينا يقع العبء الأكبر من هذه الجبهة، ولكن يبدو أن حلفاءنا البريطانيين ينشطون في الشرق، بغيةَ الاستئثار بممتلكات الدولة العثمانية في آسيا، فيما بعد». ولهذا اضطرت بريطانيا إلى أن تجعل سوريا من حصتهم. لكننا لا نود استباق الحوادث، فلنترك أثر الحرب العالمية الأولى على البلاد العربية قاطبة إلى فصل لاحق، ويكفي هنا أن نقول:

«مع أن حملة غاليبولي قد أخفقت، ومع أنه ثبت للحلفاء أن النصر على ألمانيا لن يكون في آسيا، بل في أوروبا، فإن تركة «الرجل المريض» قد جرى توزيعها في هذا العام، (١٩١٥). وكان افتضاح أمر هذا التوزيع هو الذي جرّد بريطانيا من كل تزييف للمُثل العليا التي ادّعت أنها حاربت من أجلها».

عام ١٩١٥
قريب من نهايته

بنهاية العام الثاني من اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى نكون قد قطعنا نصف تلك الحرب من الوجهة التاريخية، إذ أنها انتهت في «الإحدى عشرية» كما يقول السير ونستون تشرشل في كتابه «الأزمة العالمية». و«الإحدى عشرية» هذه إشارة إلى قوله: «ها هو بغ - بين Big Ben يدق الدقيقة الحادية عشرة من الساعة الحادية عشرة في اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر (نوفمبر، تشرين الثاني) سنة ١٩١٨، مؤذناً بانتهاء الحرب التي لفحت بنيرانها أوروبا والعالم طوال ٤ سنوات». و«بغ - بين» هو الجرس الأكبر من مجموعة الأجراس في ساعة Big Ben الشهيرة في لندن، وهو يعرف باسم آخر هو «Big Chime».

وما دام قد انصرم عامان على بدايتها، فإنه يجدر بنا أن نستعيد إلى ذاكرتنا، عن طريق الصور، بعضاً من أولئك الرجال الذين اشتركوا في هذه المعمعة، مراعين عدم تكرار الرسوم. ومن الأنسب أن تكون حادثة إعلان الحرب أو السبب المباشر في ذلك الإعلان، هي الأسبق إلى التذكّر. إنها «حادثة سراجيفو» في «صربيا».

ثم الملوك وكبار الشخصيات المدنية التي عجزت عن ضبط أعصابها، وساقها تيار الغرور أو المطامع أو الكبرياء الجوفاء إلى دفع العالم إلى أتون تلك الحرب.

ولا يجوز أن ننسى رجال الحرب الذين سيطروا طوال هذه الفترة من فترات «الجنون البشري»، فأزهقوا من الأرواح، وهدروا من المجهود الإنساني، وأعاقوا من تدفق نهر الحضارة ما يدفعنا دفعاً إلى القول بأنهم «مجرمون واتاهم الحظ أن يتنكروا في ثياب أبطال»، فكانوا أبطالاً مزيفين.

والحق، أن قولنا هذا لا ينطبق عليهم جميعاً، فالقائد العسكري الذي يدافع عن أرض وطنه حين يُعتدى عليها يظل وطنياً لا مجرماً. ولكن، كم من القادة هؤلاء كان يدافع عن أرض وطنه؟ إنهم البلجيكيون والصربيون وحدهم.

ولربما بدا هذا التقويم غريباً في نظر الجمهور الأكبر من الناس، وعذرنا في ذلك أن مفهوم «العظمة» التي يضفيها الناس على «القادة العسكريين» ينبع من غريزة إظهار القوة. وهي غريزة عميقة الجذور، لم تستطع المدنية أن تقتلعها من نفسية الإنسان. لقد ورثها الفرد من أسلافه الوحوش في الغاب.. وظلت كامنة فيه. ولذلك نجده يُكبر البطش ويُلهب خياله العنف، وكثيراً ما يقع فريسة سهلة لهذه الحماسة المستثارة، لكمونها في نفسه، فيمجّد القادة العسكريين في الحروب، المنتصِر منهم والمنهزِم، ولكنه يعبد القوة في المنتصر آخر الأمر.



قبيل حادث الاغتيال. الأرشيدوق والكونتيسة يخرجان من دار البلدية في سراجيفو



رسم مستوحى من تفاصيل الحادث.. برنسيب يقتحم السيارة ليقتل



الغراندوق ـ قائد الجيوش الروسية

القيصر الروسي و«بونكاريه»،
رئيس الجمهورية الفرنسية
الذي جاء يباحثه بشأن الاستعداد للحرب





الأرشيدوق والكونتيسة في نعشيهما في الكاتدرائية في «فيينا»
وكان نعشها أدنى من نعشه بعدة سنتيمترات لأنها ليست من «آل هابسبورغ»!!



٢٩ تموز (يوليه) ١٩١٤ في فيينا
الامبراطور في طريقه إلى ضاحية فيينا للاجتماع بأركان القيادة هناك



٣٠ تموز (يوليو) ١٩١٤ في بطرسبرج
القيصر يستعرض ضباط حامية المدينة قبل اجتماعه بأركان القيادة



٢٩ تموز (يوليه) ١٩١٤ في برلين
غليوم يزور المجندين بعد إعلان التعبئة



٣١ تموز (يوليو) ١٩١٤ برلين
غليوم يخطب عن إنذاره لروسيا ومدته ١٢ ساعة



١ آب (أغسطس) ١٩١٤ في برلين
غليوم في قصره الامبراطوري وأهل برلين يهتفون له



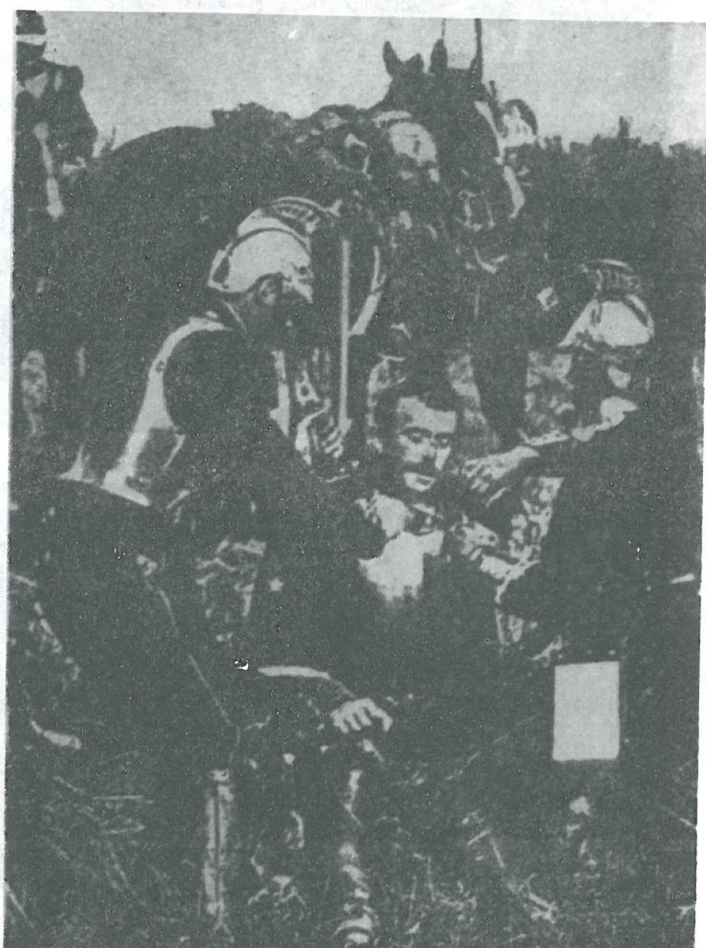
١ آب (أغسطس) ١٩١٤ في بطرسبرج
القيصر يستعرض الجيش بعد إعلان الحرب على ألمانيا ورفض الانذار



١ آب (أغسطس) ١٩١٤ في برلين
غليوم يجتمع بأركان حربه قبل إعلان الحرب بساعات



٣١ تموز (يوليو) بطرسبرج الفوج الأول من التعبئة ضد النمسا



الجريح الفرنسي الأول



الجريح الألماني الأول

مصر ١٩١٤ ـ ١٩١٥

توطئة

قلنا في السابق، اننا سنبحث علاقة الحرب العالمية الكبرى بالبلاد العربية في دراسة خاصة. ونحن الآن نود الاستدراك، فنشير إلى أن هذه العلاقة ستكون محصورة في نطاق الحرب ذاتها. فلن نتعرض للمشاكل السياسية أو الجمعيات العربية التي سبقت الحرب، مثلاً، ولا إلى الواقع العربي في ظل السلطنة العثمانية.

ولكن هذا الاقتصار لن يعفينا من ذكر فذلكة مقتضبة جداً عن تاريخ البلد العربي الذي نبحثه ههنا. ولنبدأ بمصر نظراً لعلاقة الحرب بقناة السويس.

مصر القديمة

بين طيّات التاريخ القديم تلوح مصر كنجم مشرق، ارتقت فيه حضارة أهل النيل من الوجهة الاجتماعية والمعمارية والفكرية. فقد تأسست في الصعيد مملكة مصر العليا، ثم توسعت فضمت مصر السفلى في «فرعونيةٍ» واحدة، قويت وتعاظمت وامتدت فتوحها إلى فلسطين وسوريا.

وارتقى أثناء ذلك الفكر البشري، فمن مقياس النيل بدأ ضبط الوقت، ومن فكرة الحياة بعد الموت ظهرت الأهرام والتحنيط، بل «وحدانيةُ» أخناتون و «دينه» الأقرب إلى التوحيد في الديانات السماوية التي تلت.

وزال عهد الفراعنة وعقبه العصر اليوناني على يد الاسكندر ثم البطالسة. وفي هذا العهد غدت مصر مركزاً حضارياً للفلسفة والفكر. ثم عقب ذلك عصر الرومان على يد يوليوس قيصر فانحط مركز مصر وخضعت كولاية يأخذ منها الرومان الغلال والعبيد.

وحين ظهرت المسيحية تقبلها عدد كبير من المصريين في الظاهر، وإن ظلت نفوسهم تتوق إلى رواسب دين الفراعنة ومجموعة الآلهة اليونانية والرومانية.

مصر بعد الفتح

وبقي الحال كذلك إلى يوم فتحها عمرو بن العاص. ومع الزمن استطاع الاسلام والعروبة أن يصبغاها بصبغة عربية أصيلة هي الأولى والأخيرة اليوم. ولسنا في معرض التفصيل عن مصر أيام الراشدين ثم الأمويين فالعباسيين فالفاطميين فالأيوبيين فغيرهم. ولكننا نقفز رأساً إلى المماليك البرجية والمماليك البحرية وسقوط مصر سنة ١٥١٧م في يد السلطان سليم الأول التركي. لكنه لن تفوتنا الإشارة ههنا إلى فضل مصر في حدثين تاريخيين بارزين. أولهما صدّ موجة الاستعمار الأوروبي في القرن الثاني عشر، والذي جاء على شكل حملات صليبية، وثانيهما الوقوف أمام جموع المغول المدمّرة أيام المماليك.

ثم ننتقل بعد الفتح العثماني إلى حملة نابوليون وظهور أسرة محمد علي الأرناؤوطية، فنقفز إلى سنة ١٨٦٩ حيث حفر الشعب المصري قناة السويس تحت إشراف المهندس الفرنسي دي لسبس، أيام الخديوي اسماعيل.

وبحفر «قناة السويس» عاد لهذا الجزء من العالم أهميته التجارية في المواصلات، بعد أن كانت الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر قد حرمته منها.

مصر والقناة

وبفعل استدانة الخديوي أموالاً طائلة أنفقها على البذخ والمظاهر الجوفاء، ولوجود «القناة» في طريق الهند، «درة التاج البريطاني» احتلّ الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ وفرضوا حمايتهم عليها، وإن ظلت البلاد «رسمياً» خاضعة لسلطة «السلطان».

ونحن الآن في أول الحرب الكبرى أي سنة ١٩١٤. . فماذا نرى في مصر؟

نرى بريطانيا تود الإبقاء الدائم على الاتصال بمستعمراتها في آسيا. . فهي تطلب ثروات الهند، ورجال نيوزيلندا واستراليا، وفي حاجة ماسة إلى بترول إيران ومطاط جزر الهند الشرقية وقصدير الملايو.

إذن فقناة السويس شريان الحياة البريطانية. . لذلك تبقى بريطانيا جيشاً كبيراً في مصر للمحافظة على هذه القناة.

هذا من حيث بريطانيا، فما هو الحال عند المصريين أصحاب القناة؟

مصر.. الشعب

هنا نرى نظاماً خديوياً ترتبط مصالحه مع مصالح بريطانيا، يساعده في ذلك طبقة من مخلّفات الأتراك من الباشاوات الاقطاعيين وجمهرة من «الأروام» المغامرين، من يونان وإيطاليين وفرنسيين.. يتحكمون باقتصاد البلاد وخدماتها الداخلية. ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء مطيّة للحاكم الأجنبي الذي يحفظ وجودهم بهيمنته.

أما الشعب المصري، فعاملٌ في الغيطان علّه يسدّ رمقه بما تنتجه الأرض من قطن يستولي عليه الاقطاعيون ليصدّروه إلى مصانع لانكشير في بريطانيا لأنه طويل التيلة ومن نوع جيد.

كان هنالك لا شك حركات وطنية تصيح: «مصر للمصريين»، ولكن هذه الدعوات آنذاك كانت غامضة المفاهيم، ففيها الاخلاص لسدّة السلطان في الآستانة، ومحاولة بعث الخلافة الإسلامية، بسماتٍ دينية، على نحو أو آخر.

الحرب.. ومشاعر المصريين

في مثل هذا الوقت نشبت الحرب العالمية الأولى.. فماذا شعر البريطانيون؟ كان هؤلاء واثقين كل الثقة من أن المصريين يودون التحرر من ربقة استعمارهم، ومن أنهم سينضمون إلى دول الوسط، لا حباً في تلك الدول، وإنما سيراً على مبدأ «عدو عدوِّك صديقك». فالمصريون لا يرغبون العودة إلى أحضان التأخر في دولة الخلافة، ولا يسعون من أجل أن تستعمرهم ألمانيا بدلاً من بريطانيا، فيستعيضون عن سيد بسيد.

إذن: إن بريطانيا تواجه في مصر وميض نار العداوة. فهل تأمن على سلامة القناة ما دام الحال كذلك؟ كلا، طبعاً. ولهذا فإن عليها أن تحرسها.

وقد جلبت بريطانيا بالفعل تعزيزات قوية إلى حامية القناة، إثر اشتباك خفَر القناة مع مائة بدوي اجتازوا الحدود من صحراء سيناء. كما بحث كتشنر في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٤ مع ماكسويل قائد الجيوش الإنكليزية في مصر، أمر قطع المواصلات بين تركيا وسوريا. ولكن الأخير أبلغ رئيسه عدم استطاعة قواته القيام بذلك العمل. فحاول كتشنر إنزال حملة بحرية في الاسكندرون.. ولكنه عدل عن ذلك لأسباب شتى.

تركيا.. والقناة!

جمال باشا

وفي ٢ آب (أغسطس) سنة ١٩١٤ أعلنت تركيا التعبئة العامة بقصد مهاجمة القناة، وعيّنت لذلك أحمد جمال باشا، الذي كان في السابق وزيراً للبحرية، قائداً عاماً على الحملة المزمعة.

حتى إذا ما حل كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ تكاملت حملة القناة، وغدت مؤلفة من ٢٠ ألف جندي مع ٩ بطاريات مدفعية.

أما وجهة هذه الحملة فكانت الإسماعيلية على القناة. لكن، كيف تم مهاجمة الإسماعيلية هذه؟



جمال باشا، قائد الجيش الرابع في سوريا.. شنق أحرار العرب ثم سلم القدس

إليك الخطة التي رسمها جمال باشا بمساعدة أركان حربه، وهم من الألمان:
تتوجه الحملة من دمشق، مركز تجمّع القوات، فتسير عبر فلسطين في طريق داخلي حتى تصل منطقة النقب. ومن هناك تتجه إلى العريش. حتى إذا ما وصلت اجتازت مفازة سيناء فهبطت على الاسماعيلية في عدوة القناة.

أما لماذا تسلك الطريقَ الداخلي في فلسطين، فلأن الطريق الساحلي محفوف بالخطر إذ يمكن أن يهاجم الأسطول البريطاني أو الفرنسي مركز التجمع لو كان مدينة يافا أو غزة مثلاً.

الحملة

وقد تم تنفيذ هذه الخطة بالفعل. لكن اجتياز سيناء كان أمراً عسيراً. فقد زوّدت الحملة بسبعة آلاف بعير، على ظهورها تم نقل المؤن والذخيرة. وحتى قطع المدافع، والتي كانت تسمى «أطواب». ورغم كل الصعوبات، نجح الضابط الركن «كرسنتين» الألماني بمعاونة زميله «فيشر»، في توفير الماء للجيش، واجتياز الصحراء.

وكانت الخطة العسكرية التي حاولت تنفيذها هذه الحملة هي التالية:

١ ـ تتجه قوة جزئية إلى العريش.
٢ ـ تتجه قوة أخرى إلى السويس.
٣ ـ تتجه القوة الرئيسية إلى الاسماعيلية.

وكان المفروض أن لا ينتبه الانكليز إلى هذه الخطة، فيوزعوا قواتهم توزيعاً متكافئاً ـ بحيث يسهُل على القوة الزاحفة على الاسماعيلية أن تضرب ضربتها فتقطع اتصال القناة من الجنوب.

تسرب الخطة.. والفشل

لكن جواسيس الإنكليز، وبعضهم من الضباط الأتراك الذين أغراهم الذهب، كانوا قد لمّحوا إلى مستأجريهم خبراً عن هذه الخطة. فعمد الإنكليز إلى تعزيز قوات الإسماعيلية بشكل خاص.

وحين وصل الأتراك إلى هدفهم، وحاولوا القيام بالهجوم المحدد ليلة ٣ شباط (فبراير) ١٩١٥ لم يستطيعوا عبور القناة إلى العدوة الأخرى. كانت كلاب الحراسة

الإنكليزية قد نبهت أصحابها.. فأصلاهم هؤلاء ناراً حامية من رشاشاتهم المركزة قبالة نقطة العبور.

ولما كان من غير السهل أن يقفز الجندي في القناة ليخوضها سباحة، فقد اجتمع الأتراك في نقاط محددة يجري منها إنزال الزوارق في الماء. وكانت هذه النقاط هدفاً ثابتاً لقصف المدفعية الشديد من جانب العدو.

وهكذا فشل هجوم جمال باشا، وباء بالخسران.

تعليق

والغريب أننا نجد في مذكرات جمال باشا وأقوال المؤرخين عنه لهذه الحملة ما يلي:

«إن أهل مصر، وهم من الملّة، لا بد أن يثوروا على الإنكليز حين يبلغهم الانتصار الأول الذي نحرزه. لقد بعث السلطان الهدايا إلى العلماء».

وهكذا كان جمال باشا، يتوقع من أهل مصر أن يعاونوه على أن يستعبدهم! أما «رشاوى» العلماء، فكان قد ولّى زمن تأثيرها حتى مع بقاء «بعض» العلماء قابلين للارتشاء.

وإنه لمن باب الطرفة أن أذكر هنا حديثاً بسيطاً فيه الطيبة والصراحة.. فقد حدثني جدي المرحوم جميل موسى أبو حجلة، وكان قد اشترك في هذه الحملة، عنها قائلاً:

«بعدما رفضوا أن يأخذوا «البدَل» العسكري، ساقونا إلى نابلس. وكان معي «أجدادك»... ومن هناك إلى يافا قضينا يومين في الطريق. وفي يافا فرزوا جنود «الرديف» وسلّموني «بارودة» وسنجة، وعدّة أكل.. وكانت بارودتي بياده.. طويلة. ثم جاء «أومبشاي» وأخذ يدربنا باللغة التركية. وهنا ظللنا ١٤ يوماً. وفي أثناء هذه المدة كنت متضايقاً جداً، حتى اني فكرت في الفرار مثل الكثير من «أولاد» العرب. ولكن أين أفرّ؟ المفاوز ودوريات التعقيب تزور كل قرية تقريباً.. وفكرت في أن أختبىء عند أهل قرية «يازور».. ولكنهم لن يخفوني إلى الأبد!!

ومن يافا أرجعونا إلى «اللدّ». وقلنا: يظهر أنهم سينقلوننا بـ«الترين». لكنا في محطة «اللدّ»، وجدنا الترين بدون فحم حجري، ورأينا عروق الزيتون المقطوعة من

أجله مكوّمة في ساحة المحطة. ولم نركب القطار، وإنما جعلونا نمشي من قرية إلى أختها حتى وصلنا قريباً من العريش. وهناك بلّغونا أن آلاي ١٨ هاجم القناة ليلة وصولنا. وعلينا أن نستريح ٣ أيام لا نغادر فيها مواقعنا أبداً. وفي اليوم الثالث، جاء الخبر أن جيش السلطان قد انكسر.

وتفرق «أولاد» العرب من هناك. فأنا مثلاً، استأجرت (دابة) بأربعة مجيديات، نقلني صاحبها إلى بلدة صغيرة.. نسيت اسمها، بعيدة عن رواح ومجيء العسكر.

ومن هناك صرت أتنقل بين القرى حتى عدت إلى نابلس».

وهكذا يكون جدي المرحوم جندياً لم يحضر المعركة. والحق أنه لم تكن هناك معركة، وإنما مجرد محاولة عبور للقناة صدّها الإنكليز.

ولننتقل الآن إلى العراق.

العراق ١٩١٤ - ١٩١٥

لمحة في التاريخ القديم

يصدق على العراق معظم ما قلناه عن مصر، من حيث تاريخه الحضاري القديم. فهذه أرض استوطنها الإنسان الأول ليغتني بغناها. ولا يذهب التاريخ المعروف عمن سكن ما بين النهرين إلى أبعد من السومريين. ويرى (كرامر) أن هؤلاء لا بد أن يكونوا قوماً هبطوا من الجبال في الشمال. ولاستقرارهم في أراض خصبة، انقلب مجتمعهم من مجتمع رعوي إلى آخر زراعي. ثم بدأت حضارة الاستقرار تنمو وتزدهر. وتدلنا «أساطيرهم» كما يؤرخها البروفسور «هوك» على أنهم كانوا أهل حضارة، وفكر، ومعمار. فمن حضارتهم الكتابة المسمارية التي عُثر على عدد وافر من آجرّاتها، ومن فكرهم تلك الديانة الجميلة لتأصّلها في واقع حياتهم، ومن معمارهم «الزاقورات» التي أرادوا بها تقليد مواطنهم الجبلية الأولى.

ثم غلب على العراق الأكّديون، وكانوا أهل رعاية، لكنهم هضموا الحضارة السومرية وتمثلوها، ولم يأخذوا عن أسلافهم لغتهم.

ومن بعد هؤلاء جاء الأموريون. وشرائع زعيمهم ثم ملكهم حمورابي لا تزال تعتبر منطقية سليمة الأساس، حتى أخذ منها اليهود في وصاياهم.

وقد تعاقبت بعد ذلك على العراق أمم شتى، إذ استوطنه البابليون والكلدانيون والأشوريون ثم الفرس. وكلٌ من هؤلاء بنى لنفسه امبراطورية ضخمة. وقد عُرف الأشوريون بالبطش والكلدانيون بالعمارة والعلوم، أما الفرس فبالتنظيم الإداري والنهضة الزراعية.

ثم غزا اليونان بقيادة الاسكندر، ما بين النهرين، وحكموها. لكن دولتهم لم يطل عهدها فاستعاد الفُرس البلاد، وأخذت تنتقل إلى (السواد) بعض القبائل العربية. وقد ظل العراق «فارسي» الحكم طوال المدة التي قضاها الرومان في سوريا قبل الفتح

العربي. لكن مملكة عربية الأصل هي دولة المناذرة ظهرت في طرفه الشمالي، وكانت في حماية الفرس، يتخذونها وقاءً لهم ضد تقدم الرومان من سوريا، وقُبالة الغساسنة عند الرومان.

وقد انتشرت المسيحية في قرونها الأولى في شمال العراق، حتى ان بعض ملوك الحيرة اعتنقوها كما يقول الأب شيخو و الأب انستاس الكرملي . لكنها لم تعمّ أو تعمّق جذورها في الشعب. فظل هذا وثنياً في أكثره، وعلى دين الزرادشتية، ومذاهبها المتأخرة، خضوعاً للتأثر الفارسي.

في الاسلام

وما أن سطع نور الإسلام في بطحاء مكة، وسيّر ابن الخطاب أبطاله المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص إلى ديار الفرس حتى انهارت امبراطورية الأكاسرة في القادسية، وهرب «يزدجرد» إلى حيث قتله أحد أعوانه.

ولسنا الآن في معرض أحداث العراق في خلافة علي ولا انشقاق أهله عن الخلافة الأموية في عهد يزيد بن معاوية، وواقعة كربلاء، ولن نذكر الحجاج والخوارج والمهلّب، وابن الأشعث، وقتيبة. وإنما نقفز إلى بداية عهد «دعاة» العباسيين، ثم إظهار دولتهم في «مرو» بخراسان، ومن بعد ذلك استيلاء أبي العباس السفاح على الكوفة حيث رسّخ أساس الخلافة العباسية التي دامت حتى ١٢٥٨ م يوم خرّب هولاكو والتتار بغداد.

ولن نعرض لمجد الرشيد، وحكمة المأمون، وبطولة المعتصم في عمورية، وإنما نكتفي بالقول: ان الشأو الذي بلغه العراق في هذه القرون لا يزال في الوقت الحاضر يطمح إليه.

العهد التركي

وعلينا الآن أن نتخطى ثلاثة قرون، حتى نبلغ العهد التركي، حين فتح سليم الأول البلاد وقهر الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان آنذاك مسيطراً في العراق. وتغرق البلاد في لجة من الإهمال والفوضى، وبحران من التأخر في عهد السلطنة العثمانية حتى أوائل القرن العشرين،

وحتى الحرب الكبرى على التحديد. ويكفي العراق تعاسة أنه ظلّ تحت حكم «الرجل المريض».

كلمة!

وهناك كلمة لا بد من قولها عن العراق، تتعلق بتركيب السكان فيه: كان من دواعي الفُرقة في العراق أن أهله ليسوا من قومية واحدة، ولا مذهب في الدين واحد. فهنالك العرب، والآشوريون، والأكراد، والسريان، والأتراك، والإيرانيون. ولكل من هؤلاء مطامع ومصالح، تستغلها الدول الطامعة في الاستبداد بالجميع، وتسير على مبدأ «فرّق تسد».

وهنالك المسلمون الشيعة، والمسلمون السنّيون. ومن الطبيعي أن تحاول الدول والقوى التي تضمر الشر للعراق، التفريق بينهما، ضحكاً على الذقون.

طبيعة العراقي

ويتميز العراقيون طوال التاريخ بصفات معينة. فهم رجال أشداء في القتال إذا آمنوا بما يقاتلون في سبيله. وفيهم، حتى الآن، رجولة البداوة الأصيلة وبعض جفافها، كما أن فيهم بساطة أرضهم المبسطة وبعض مكر الفيضانات. وهم سريعو الانفعال ذوو حدة في مزاجهم، يميلون إلى التناقض في عواطفهم، فتارة تراهم أهل متعة وترف ورقة مشاعر، وأخرى تشهدهم ذوي نزعة إلى الكآبة العميقة والحزن الدفين. ومهما كان حالهم، فهم أهلٌ لنا وخير إخوة.

ولنتحدث الآن عن أحوال العراق قبل الحرب.

العراق قبل الحرب

يطالعنا العراق ولاية عثمانية مقسمة إلى سناجق على كل سنجق والٍ يعينه السلطان «بفرمان» شاهاني، ويؤدي عدداً معيناً من «آقجات» الليرات العثمانية لخزينة «الآستانة».

ويكفي هذا لأن نقدّر أن العراق، شأن بقية الممتلكات العثمانية في آسيا العربية، غارق في ظلام الجهل والفقر، ورائع في نعيم التأخر.

على هذه الحال المزرية كان العراق حين منح السلطان من قصره (يلدز) امتيازاً

لشركة ألمانية بمد خط حديدي بين الموصل وبغداد، ثم لأخرى إنكليزية لتكملة ذلك الخط إلى البصرة.

ولننتقل فجأة إلى إعلان الحرب.

العراق.. الحرب، وبريطانيا تتحرك

حين أعلنت تركيا، تحت ضغط من ألمانيا، الحرب على الحلفاء، قدّرت السلطات الإنكليزية في الهند أن منابع النفط الإيرانية في عبادان سريعاً ما تصبح في خطر.

وكانت بريطانيا هذه قد فصلت «قائمقامية» الكويت عن ولاية بغداد، وخلقت لها وضعاً خاصاً سيطرت فيه على كل شيء، إثر معاهدة حماية عقدتها مع الشيخ هناك.

إذن، فبريطانيا ذات مصالح واسعة في الخليج. وبحجّة حماية تلك المصالح، خوفاً من وقوع العراق في يدٍ ألمانية تستطيع أن تهدّد طريق مستعمرة الهند ـ أرسلت حكومة الهند قواتٍ من عندها للمرابطة في منافذ الخليج والإسراع إلى نجدة منطقة النفط، إذا دعت الحاجة.

وقد أُمرت تلك القوات البحرية أن لا تنزل إلى البر إلا بعد أن تعلن تركيا الحرب. وهذا ما حدث بالفعل. فقد ظلت تلك القوات على ظهر سفنها إلى أن تم الإعلان.

الأمر بالحركة وسقوط الفاو..

وفي ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤ تلقى آمر القوة الانكليزية أمراً بالاستعداد للتقدم. ولم يطل الانتظار، ففي تشرين الثاني (نوفمبر) قصفت المدفعية البحرية الانكليزية موقع «الفاو» في الأراضي العراقية. وفي أقل من ساعة سقطت المدينة بيد القوة المهاجمة، فتقدمت هذه صاعدة في شط العرب مسافة ٣٠ ميلاً حتى معمل تكرير البترول في جزيرة عبادان.

سقوط البصرة

ثم أرسلت حكومة الهند إمدادات قوية إلى قواتها في عبادان، فقرر قائدها «باريت» أن يجعل البصرة هدفاً له. ولذلك تقدم نحو هدفه محتلاً المواقع التركية واحداً إثر آخر. وكانت هذه المواقع غير معززة

بالحاميات الكبيرة، كما أن الأتراك فيها أظهروا نذالة وجبناً لا مثيل لهما؛ فكانوا ما أسرع ما يستسلمون أو يهربون!

ومن غباوة الأتراك مثلاً، أنهم انسحبوا من البصرة دون قتال فاحتلها البريطانيون في تشرين الثاني (نوفمبر) دون خسارة تذكر. وباحتلال البصرة، سقط ثغر العراق الوحيد في يد العدو، وخسر الأتراك مدينة كانت مفتاح الخليج على الشرق.

استراتيجية جديدة للحلفاء

بعد ذاك أخذ الانكليز يتطلعون بصورة جدية إلى احتلال العراق. لقد تغيرت استراتيجية الحرب في نظرهم. فقد كان لهم في هذا الوقت جيش يقاتل على الطريق من مصر إلى فلسطين، وآخر يسانده على الطريق من البصرة إلى بغداد. ولقد قدّر العسكريون والساسة الإنكليز أنهم بإشغالهم الدولة العثمانية في ميدانين، وفي أقصى ممتلكاتها، إنما يوجهون لها ضربة قاضية، ربما أخرجتها من الحرب كلياً. وحين يتم ذلك يتسنى لهم الاتصال بروسيا والانقضاض على بلغاريا، ومعاونة صربيا، وإثارة القلاقل للنمسا في البلقان. ومن شأن كل هذا أن يزيد الضغط على ألمانيا، فيقرّب انكسارها في ميدان فرنسا.

سقوط القرنة

وبعد سقوط البصرة تقدم الانكليز شمالاً إلى «القرنة» حيث هاجمتها مدفعيتهم الثقيلة من سفن النهر وبطاريات الجنود والمشاة. وكان في الموقع ما ينوف عن ألف جندي من الأتراك، استسلموا دون قتال، فنقلهم الانكليز أسرى أذلّة إلى الهند.

وبسقوط القرنة الواقعة عند التقاء نهري دجلة والفرات، ضمن الانكليز صيانة مصالحهم البترولية، ودقوا اسفيناً في الجبهة التركية في العراق. ويعزو الذين درسوا هذه الوقائع من المعلقين العسكريين، سبب سهولة الاستيلاء على هذا الجزء من العراق، إلى سببين:

أولهما: عدم تعاون العرب مع الأتراك الذين أذلوهم طويلاً.

وثانيهما: عدم اهتمام الدولة العثمانية بالجبهة في العراق أصلاً.

السلطان يتحرك أخيراً!

كان سقوط البصرة نكبة كبرى على رأس السلطان في الآستانة. فتشاورت الوزارة التركية، وقررت إرسال نجدات إلى قواتها هناك، والاهتمام بتلك الجبهة، خشية أن يضيع العراق بأكمله. لهذا زحف حوالي ٣٧ ألف جندي من سوريا إلى بغداد. وقرر هؤلاء التقدم جنوباً في محاولة لاسترداد البصرة.. وهناك وقعت معركة «الشعيبة» في ١٢ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٥ حيث انتصر الانكليز بفضل إمدادات غزيرة وصلتهم إبان تلك المعركة من الهند. وقد انتحر القائد التركي حين علم بفشل قواته.

من مخازي الأتراك

ثم تعقب الانكليز الأتراكَ المنسحبين إلى «العمارة». ومما يذكره التاريخ في باب «مخازي الأتراك في العراق» أن متصرف العمارة وواليها استسلما لباخرة نهرية إنكليزية بينما كانت قواتهما ١٤٠ ضابطاً و ٢٠٠٠ جندي!

وبعد سقوط العمارة والبصرة أصبحت «الناصرية» هي المركز الثالث المنشود. لقد طلبت إسقاطه حكومة الهند. وتمهيداً لذلك احتل الانكليز «سوق الشيوخ» في ٦ تموز (يوليو) سنة ١٩١٥. ثم أعقبوها «الناصرية» إذ انسحب الأتراك منها دون قتال مباشر، اللهم إلا القصف بالمدفعية من البواخر في النهر.

سقوط كوت العمارة

وبعد كل هذه الهزائم المتلاحقة من جانب الأتراك، أصبح المطمع المباشر للإنكليز هو «كوت العمارة». وكان الأتراك قد حفروا حولها الخنادق وأقاموا استحكامات محصّنة بغية جعلها خط الدفاع الأول عن بغداد.

وفي ٢٦ أيلول (سبتمبر) اصطدم الانكليز بالقوات التركية في الكوت، وكان عددها ٦٠٠٠، ثلاثة أرباعهم من العرب المكرَهين على القتال. والحق، أن القتال في هذه المعركة كان حامياً، حتى ان الإنكليز خشوا أن يكون هذا موقفهم الأخير في أرض العراق. لكنهم في صباح اليوم التالي وجدوا الأتراك قد انسحبوا، مولّين الأدبار إلى بغداد.

وهكذا سقطت «كوت العمارة» في يد القوات المهاجمة، أيضاً. وكان هذا ما جعل الإنكليز يقررون الإسراع في التقدم قبل أن يلمّ الأتراك فلولهم المنهزمة. لكنه في هذه الأثناء كانت هناك حملة تركية تتجه من شمال العراق إلى الكوت.. فاصطدمت بالقوات الانكليزية المتقدمة عند «سليمان باك»، واستطاعت قهرها، والانتصار عليها حتى ردّتها مهزومة إلى الكوت.. ثم تعقبتها إلى هناك وحاصرتها حصاراً مراً اضطر معه قائد القوة «تاونسند» إلى الاستسلام، هو وجنوده. لكن هذا حدث في أول سنة ١٩١٦، فلنرجئه إلى وقائع تلك السنة.



الهنود في العراق

ومما سهّل على الانكليز أن ينتصروا على الأتراك في العراق، كما قلنا، عاملان لا مانع من التذكير بهما ثانية، أولهما عدم تعاون العرب، وثانيهما: عدم اهتمام الدولة العثمانية بتلك الجبهة. لكن نضيف هنا عاملاً ثالثاً هو: استئجار الانكليز للبدو الذين يأخذون الذهب ويبيعون الوطن وأهل الوطن معاً، ولذا نجدهم عماد سلطة الحاكم الذي يُضمر خيانة بلده، فهم كالقوزاق أيام القيصرية الروسية.

الفصل الثالث

١٩١٦

أطلّ عام ١٩١٦ وأوروبا في سعير المعركة، وجزء كبير من العالم يدفع إليها الوقود. ولكن هذا الوقود كان يُستهلك من طرف واحد، ذلك أن الجيوش العثمانية لم تشترك إلا في ميدان اليونان من أوروبا. ولم يكن هذا هو الميدان الرئيسي في الحرب على كل حال. أما ميدان فلسطين والقناة، وجبهة العراق، فهما آسيويان موقعاً ورجالاً.

وقبل أن ننطلق في ذكر أحداث الميادين الأوروبية الثلاثة، علينا أن نستعيد جُماع الموقف الذي خلّفناه في أواخر سنة ١٩١٥:

أولاً: الميدان الشرقي

وكان يقاتل فيه الروس ضد الألمان والنمساويين.. وبعد أن انتصروا انتصاراً جزئياً على النمساويين باحتلال برزميسل، قذفهم فولكنهاين بقواته الصاعقة فمحقهم وفتح في مواقعهم ثغرة عرضها ٢٨ كيلومتراً.

إذن، فالموقف كما يلي:

تقدّمٌ ألماني وتقهقر فوضوي من جانب الروس.

وفي هذا الموقف ما فيه من مآخذ على الألمان وحسنات لصالح الروس. فالروس الآن بتقهقرهم يقصّرون خطوط تموينهم ويكثّفون مواقع دفاعهم. بينما ينساح الألمان في سهول روسيا الشاسعة التي هجرها ١٠ ملايين إنسان، منسحبين للاحتماء ببقايا جيوشهم المنهارة.

ثانياً: الميدان الغربي

وفيه يقاتل الألمان ضد الفرنسيين والإنكليز، وفلول قواتٍ بلجيكية.

وفي هذا الميدان ترسّخت المواقع وغدا القتال ينحصر في مضمون عبارة «حرب الخنادق»، فالألمان لا يطمعون في التقدم لالتزامهم «نظرية الدفاع» في الحرب، والفرنسيون يدفعون الضحايا الكثيرة من جراء عناد «جوفر» واصراره على الاستمرار في الأخذ بـ «نظرية الهجوم».

أما البريطانيون، فتحت قيادة هايغ المستحدثة، ينفّذون آراء جوفر نتيجة لعقدة كتشنر تجاه هذا الرجل.

ثالثاً: الجبهة الايطالية

وفيها يقاتل الجيش الايطالي ضد حرس الحدود وحاميات القلاع النمساويين. والعمليات الحربية في هذه الجبهة غير ناشطة، إذ أثبت الايطاليون غباءً (يدعو إلى الاعجاب!) وجُبناً يجعلهم جديرين بالتهنئة! . لقد حاولوا اختراق الحدود فجابهتهم الخيبة، فآمنوا عند ذاك بحكمة «الكسَل» ومنافعه.

أما الحرب في آسيا فهي على النحو التالي:

أولاً: جبهة القناة

ويقاتل فيها البريطانيون ضد الأتراك الذين يشرف الضباط الألمان على عملياتهم الحربية. وقد فشل جمال باشا في حملة القناة، فانسحب العثمانيون إلى مواقعهم الرئيسية في نابلس من أواسط فلسطين.. ولم يتعقّبهم البريطانيون مباشرة آنذاك.

ثانياً: جبهة العراق

ويقاتل فيها البريطانيون ضد الأتراك. وقد تقدم المهاجمون فاحتلوا البصرة بعد الفاو ثم صعدوا مع شط العرب حتى العمارة والكوت، إلا أن امدادات تركية هبطت من سوريا فاسترجعت سليمان باك وحاصرتهم في الكوت.

جبهة اليونان

وفيها يقاتل الأتراك بالذخائر الألمانية ضد الفرنسيين والبريطانيين، ومتطوعي الصرب بعد اجتياح ألمانيا لبلادهم. وقد خسر الحلفاء في هذه الجبهة وحصرهم الأتراك في ما كان الألمان يسمونه «المعتقل الاختياري». وهو الشريط السهلي الضيق بين البحر وقلاع مرتفعات سلانيك المواجهة له.

نشاطات أخرى

كل هذا ينحصر في عبارة «النشاط البري» للحرب. أما النشاط البحري فقد خمد بعد إغراق الأسطول البريطاني لمدمرات ألمانيا القادمة من الشرق الأقصى. وأما النشاط الجوي فقد كان مقصوراً على

أعمال الدوريات الاستكشافية، بعد فشل ألمانيا في الاستفادة من الزبلين على نطاق واسع، نتيجة لسهولة اصابته.

* * *

وإنه لينبغي علينا أن نستعرض أحوال شعوب الدول المتقاتلة، إذ ان هدفنا هو عرض «نفسية الحرب»، إذا جاز التعبير، كما أشرنا في مقدمة هذا الكتاب.

لنبدأ بألمانيا:

إن تصوير نفسية الشعب الألماني حتى أول سنة ١٩١٦ سهل للغاية. والصورة التي تتراءى لنا كقطعة العملة، فهي ذات وجهين متلازمين. الأول: صورة اندفاع شعب ألهبه الحماس بتأثير تضخم قوته العسكرية، وانسداد مجال الاَستفادة من تلك القوة.. فهو مكبوت يريد أن ينطلق وطبيعي أن يكون الانفجار مدمراً. أضف إلى ذلك، أن حداثة عهد هذا الشعب بالوحدة القومية - والانتصارات التي رافقت قيام تلك الوحدة وتبلور تلك القومية - خلقت في نفوس العسكريين منه شيئاً أقرب إلى تمجيد الحرب. واتفق ذلك مع وجود قيصر طموح إلى العظمة، وجيران ضعفاء نسبياً في الشمال والشرق والغرب، فأدى كل هذا إلى نوع من «الغطرسة القومية»، ساعدت على تقديم الضحايا في أول الحرب دون تقدير لحساب.

لكن هذه العواطف لا تملأ البطون، والقتلى والمشوهون الذين قذفتهم معارك الـ ١٩١٤ والـ ١٩١٥ أصبحوا مصدر تساؤل وقلق عن الحكمة في الحرب، بين مواطنيهم. وحين ساءت أحوال التموين في البلاد، بسبب من نجاح الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا، وبسبب من تحويل الانتاج بكامله إلى مجهود حربي، صار الشعب ناقماً على الحرب ومن اعلنوها.

صارت النساء الألمانيات يفتشن القُمامة علّهن يجدن بقايا طعام، وصار القمح الذي كان مأمولاً أن يتدفق من الأراضي الروسية المحتلة نادراً، لاتباع الروس خطة «الأرض المحروقة». وأصبح الفلاحون الألمان يزرعون ليملأوا فطارات التموين المنطلقة إلى الخطوط الخلفية للجبهة..

كل هذا خلق نقمة عارمة.. ولكنها غير ناضجة، لأنها عاجزة عن تبين هدفها.. كان هناك ارستقراطية ألمانية، وكان هناك بورجوازية ألمانية، وكان هناك حكم فردي

في الواقع، وإن اتشح ببرلمان. . وكل هؤلاء يستفيدون من الحرب، أو يطمحون إلى الاستفادة منها إذا نجحت.

وكان هناك شعب من زارعي الشمندر وعاصري الجعة، والموظفين الصغار، والأرامل، والطلاب الثانويين الذين هم على أبواب الالتحاق بالجبهة. . وكل هؤلاء تكويهم الحرب بنارها من حيث كل شيء: انتاجهم الزراعي والصناعي، وفقدان الاصابات منهم، وضياع المستقبل.

وفي ذات الوقت كان هناك مفكرون يرون في الحرب من أساسها رأياً آخر. . إنهم الديمقراطيون الاشتراكيون. وهؤلاء يدعون إلى «الحرب الطبقية». نعم، إنهم لم يعارضوا غليوم في أول الحرب، لكنهم الآن أدركوا خطأهم، فهم يطلبون للشعب الحرية السياسية والرفه الاجتماعي، والكفّ عن التقتيل. وهذه جميعاً أفكار مغرية. إنها تلوح للمنكوب كالسراب في المفازة، فهو يظنه ماءً وما هو بماء. وإذا كان السراب يخدع الظامىء فيهلك الأخير عطشاً، كذلك فإن أفكار هؤلاء كانت تُهلك أصحابها في سجن القيصر. لكن هلاك هؤلاء يختلف عن رمّة تنوشها الطير في الصحراء، إذ ان السجن لم يقتل الفكر أبداً، وطوال التاريخ.

وملخص القول: كانت ألمانيا في أوساطها العسكرية تلقى الحماسة الدائمة والخيبة أحياناً. أما في أوساط الشعب، فالجوع والنقمة والكبت والتساؤل.

* * *

أما في روسيا فالأمر أشد من ذلك.

لقد دخلت روسيا الحرب للحفاظ على الهيبة، وإظهاراً لعدم الرضوخ للانذار الألماني المعروف، ودخلتها ومجتمعها على النحو التالي:

أ ـ القيصر وحاشيته

قيصر تجمّع فيه الغباء، وشهوات القيصرة وشعوذات راسبوتين. وهو يحكم حكماً فردياً مطلقاً يساعده فيه أعوان هذا النوع من التفكير في الحكم. وهم الكنيسة ورجالها، وكبار مالكي الأراضي (الاقطاعيون)، وأصحاب المؤسسات الأجنبية في البلاد.

أما خطة الحكم وسياسة القيصر فهي محصورة في ٣ نقاط:

١ ـ نشر الجهل.

٢ ـ تسليم مرافق البلاد لمؤسسات غير روسية.

٣ ـ خنق الأفكار التي تناقض الأوضاع الراهنة.

والناتج الطبيعي من تطبيق هذه الخطة في الحكم في الداخل، هو تطبيقها في الخارج أيضاً. فالحكومة التي تقوم على أساس كبت الحريات لشعبها، لا يمكن أن تكون مخلصة لشعب آخر يقع تحت سيطرتها. ولهذا نجد الاضطهاد القيصري يطال بولندا والجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا. ومع الاضطهاد طبعاً يزحف التأخر.

ب ـ طبقة رجال الدين

وكان هؤلاء من أعوان القيصر، شأنهم مع كل حاكم على الدوام، إلا ما ندر. فللكنيسة والأديرة ممتلكات واسعة وغنية تبلغ ثلث مساحة روسيا الأوروبية، والقساوسة يعيشون في بحبوحة من جهل الشعب وسخاء أرضه. وممتلكاتهم معفاةٌ من الضرائب، بل تتقاضى مساعدات من الدولة. ولم يكن هؤلاء رجال دين متنوّرين، أو أنهم تلقوا أصول علم اللاهوت في مدرسة مختصة، بل كانت أغلبيتهم الساحقة جهَلة كل امتيازهم أنهم أقل جهلاً من العامة بقليل. أما أعدادهم فجموع وافرة من القلانس والمسوح.

جـ ـ الاقطاعيون

إذا كانت أوروبا الغربية قد تخلصت من الاقطاع حين بدأت في إنشاء الممالك القومية فيها، فإن روسيا قد أبقت الاقطاعية لتساعد على بقاء دولتها القومية. وكان هؤلاء يملكون الأراضي الشاسعة، والقرى الكثيرة، ويشتغل فيها الفلاحون على اعتبار أنهم تابعون للأرض «Serfs». نعم، إنهم لم يكونوا أرقّاء اسماً، لكنهم، وسوطُ السيد أو وكيله يُلهب ظهورهم، كانوا كذلك فعلاً. ولا حاجة إلى شرح مستفيض عن هذه الطبقة المنكودة، ففي الأدب الروسي[*] في أوائل القرن العشرين وصف صادق وفاجع لمأساة الحياة عند هؤلاء.

د ـ المثقفون

وهؤلاء ينقسمون شِقّين: أ ـ **مثقفون تلقوا تعليمهم** داخل روسيا فظلوا ذوي إخلاص، قليل أو كثير، لشعبهم **وأرضه، وإن كانوا يتصفون** بشيء من ضيق الأفق.
ب ـ مثقفون ثقافة روسية ثم **أوروبية، وهؤلاء يسايرون** أوضاع حكومتهم حفظاً لمصالحهم الشخصية.

(*) خير ما يمثل ذلك هو أدب «مكسيم غوركي».

مجتمع صدمته الحرب!

في أول الحرب كان هذا المجتمع الهاجع في غفوة القرن السادس عشر، هو الذي صُدم فجأة، فكيف يتصرف؟

لقد توالت الهزائم على جيشه حين اصطدم بعقلية القرن العشرين الحربية، وإذ ذاك تلاشت الهالة شبه المقدسة التي كان يضفيها البلاط القيصري على «المجد الروسي»، وبخاصة أن الحرب اليابانية الروسية قبل عقد واحد من الزمن كانت قد لطخت ذلك المجد الموهوم. ثم عقبت تلك الحربَ ثورةُ ١٩٠٥ فزادت من امتهانه.

وحين تحول الانتاج بكافة طاقاته إلى المجهود الحربي، زادت حياة الروس بؤساً على تعاسة. ومع هذه الزيادة زادت غطرسة القوزاق ورجالِ الجيش المهلهَل على الشعب أيضاً.

أفكار مضادة!! قمحكم لكم

عند ذاك وجدت الأفكار المضادة، والتي كان يبثّها الاشتراكيون تربة خصبة، فتقبّلها الناس، لا عن تفهّم لها أو تعمّق واعتناق، وإنما لمجرد الأمل في الخلاص من جحيم الواقع. لذا امتلأت منافي سيبريا الجليدية، وأزهقت أرواح الألوف. . و. . و. . لكن كل هذا كان كضغط الغاز في قارورة سريعة الدوران، فلا بد أن تنفجر، ولربما مزقت من يديرها.

كان الروس جائعين، والاشتراكيون يقولون لهم: «قمحكم وشوفانكم لكم». وكان أبناء الشعب ينفرون من الموت بحراب الألمان ورشاشاتهم، والمنفيّون يقولون لهم: «هذه حرب استعمارية(*) ستعود فائدتها للطبقة الحاكمة في البلدان المتحاربة، ولستم أنتم من هؤلاء». وكان الناس يودون أن يرسلوا ابناءهم إلى المدارس لكنها غير موجودة، فجاءت «نشرات» هؤلاء تقول: «الدولة ملزَمة بالتعليم المجاني للجميع».

كل هذه الاستثارات النفسية، ومداعبة الآمال التي كان أفراد الشعب لا يجرؤون على التحدث بها بينهم وبين أنفسهم ـ تركت أثراً في مشاعرهم تجاه القيصر وحكومته، والحرب وفظائعها. ولكنهم مع هذا ظلوا يسوقهم القوزاق دفاعاً عن «روسيا الأم» و«القيصر» المقدس.

(*) في متحف لينين بموسكو مجموعة وثائقية من هذه المنشورات وبخاصة عن الحرب.

إذن، كان مجمل الوضع في روسيا هو: تأخر من جميع الوجوه، وإذلال قومي عميق الجراح، بفعل الهزائم، وغليان شعبي تائه الطريق.

علينا الآن بالدولة العثمانية: وحشية.. ونذالة!

يقول الأستاذ ساطع الحصري في كتابه «البلاد العربية والدولة العثمانية» إن: «الدولة العثمانية نشأت وقامت وتنظمت إدارياً على أساس أنها دولة عسكرية الصبغة». وهذا صحيح. فالقبائل التركية الشديدة المراس حين هاجرت أول أمرها إلى ديارها المعروفة كانت جماعات من رجال يتصفون بالقسوة إلى درجة الوحشية، والخداع إلى درجة النذالة. وهاتان الصفتان تنطبقان حتى على سلاطينهم شخصياً، من بايزيد في «قوصوة»، وسليم الأول في «مرج دابق» حتى عبد الحميد في «يلدز».

الأتراك والاسلام والخلافة

لقد اعتنق الأتراك الإسلام، فكانوا يفقهون حدوده الضيقة وحدها، ثم تُعقّد عقليتهم البدائية هذه الحدود، فيجردونه تماماً من روحه السمحة وسموّه الفكري. لقد جعلوه طرقاً صوفية وشعوذات ما أبعدها عن الصوفية الحقة، وما أقربها إلى غموض وثنيتهم في جبال آسيا الوسطى قبل هجرتهم.

وحين واتاهم الحظ وأسقط هولاكو خلافة العباسيين في بغداد ١٢٥٨ م، هرب الخليفة إلى مصر، حيث بقي هناك. وحين فتح سليم الأول مصر سنة ١٥١٧، يذكر المؤرخون أن الخليفة خلع عليه لقبه وتنازل له. وهذه قصة مختلَقة ينفيها الأستاذ ساطع الحصري بحجج وجيهة. وهو يرى أن السلاطين العثمانيين اغتنموا ضعف العرب، فلفقوا قضية التنازل هذه، كي يضفوا على حكمهم صبغة إسلامية، كانوا يظنون أنها تسهّل لهم قيادة «الملّة».

بقايا عظمة!

وقد كان للعثمانيين «أوج عظمة» شيمةَ بقية الدول، ففي سنة ١٥٢٩ م حاصروا فيينا، مثلاً. وطوال القرن السادس عشر كانت أوروبا بكاملها تخشاهم. لقد أذلوا بطرس الأكبر الروسي(*)، وقهروا شعوب

(*) لكن الذهب وجمال زوجته خلصاه من الوقوع في الأسر.

البلقان وسيطروا على ساحل شمال افريقيا. وكان هذا يؤهلهم للبقاء لو أنهم استفادوا من الثورة الصناعية التي عرفتها أوروبا بعد ذلك. لكنهم ويا لسوء حظهم، جمدوا، والجمود هو التقهقر ما دام العالم يسير قُدماً بشكل مطرد. وطول الجمود هو استمرار في التقهقر. وهذا بلغ نهايته آخر الأمر بالفناء.. تلك سنّة الطبيعة.

الرجل المريض

كانت «الدولة العليّة» رجلاً مريضاً تتنازع دول أوروبا اقتسام تركته، قبل الحرب العالمية الأولى بقرن كامل. فكيف تكون الدولة «رجلاً مريضاً»؟. هناك أعراض لكل مرض، فإذا تكاثرت الأعراض واختلفت وتناقضت دلّ ذلك على أن صاحبها مأزوم.

طريقة الحكم

كان حكم «شاهنشاه» و«خاقان البرّين» يقوم على أساس ديني مطلق. فهو خليفة المسلمين، أو «خليفة رسول الله» فيهم. وحسب التفسير الذي «ابتدأ به» أبو جعفر المنصور العباسي، يكون الخليفة مسؤولاً عن «رعيته» تجاه الله وحده(*). إذن، ليس للبشر أن يسألوا «الذات السلطانية» لَمِ فعل هذا، وما الحكمة منه. لأنه ليس مسؤولاً أمامهم. ولا حاجة بنا الآن لأمرين:

الأول: القولُ بأن الإسلام بريء من هذا التشويه وحتى من النظام الملَكي أو السلطنة أصلاً.

والثاني: انه لا يزال هناك بعض المنتفعين بادعائهم هذا، من الحكام في القرن العشرين، ومن المسلمين على الخصوص.

نظام الادارة

وبموجب سلطة الخليفة، فهو المسؤول والمتصرف (والثانية هي المهمة) في أموال «التابعية العثمانية» وأرواحهم. ولهذا كان نظام الادارة غريباً فالدولة العثمانية مقسمة إلى ولايات ومتصرفيات وسناجق وقائمقاميات ونواحٍ. على كل قسم من هذه ضريبة مقررة من «الآقجات» يتم توريدها

(*) وهذا أساس «حق الملك الإلهي» الذي ظهر في أوروبا فيما بعد.

إلى «خزينة السلطان» بعد تسديد النفقات المحلية منها.

ويتم ذلك التسليم عن طريق «التلزيم»، فالضرائب نوع من «المزايدة» ولمن يقع عليه «البيع» أن يجمع تلك الضرائب بالطريق الذي يشاء، وبمساعدة «المفارز» و«الجندرمة»(*).

وعلى كل قسم من الأقسام الإدارية أيضاً، تقديم عدد معيّن من «السواري» أي «جنود الخيّالة»، بدوابهم، وعدد من «البياده» أي المشاة.

جهاز الحكم

ويساعد السلطانَ في الحكم، الصدرُ الأعظم ووزارة ليس لها من الأمر شيء، إذا تعارضت مشورتها مع رأيه. وهو الذي يصدر «الفرمانات» بتعيين الولاة والمتصرفين، الذين يعيّنون القائمقامين ومديري النواحي.

ولا ضمان لبقاء أي من هؤلاء في منصبه إلا استرضاء رجال «يلدز» و«حريم القصر» أحياناً. إذن فالموظف غير مطمئن إلى بقائه على الاطلاق، فعليه أن ينهب أثناء وظيفته أكثر ما يستطيع. أما الشعب فهو مجبَر على الدفع والدعوة «للسلطان بالنصر»!

هكذا كان جهاز الدولة يقوم على قاعدتين: أولاهما الرشوة، وثانيتهما: الظلم، وقبالته الكراهية والنقمة.

وبلاد، هذه أسس دولتها لن تكون إلا على الوجه التالي:

تأخرٌ مطبق في النواحي العمرانية والاقتصادية والفكرية، والعسكرية. أما الأحوال الاجتماعية فاسأل عنها أحد الذين حضروا «سفر برلك» أو عاشوا قبله بعقد واحد على الأقل.. لقد كانت متردّية للغاية.

قوميات مختلفة.. العرب!!

والدولة العثمانية تضم قوميّات مختلفة، في أوروبا، وفي آسيا. وأكبر هذه القوميات هم العرب. لكننا لن نتعرض لهذه القضايا المتشابكة، فعلى من يود التوسع أن يراجع كتابات الأستاذ ساطع الحصري

(*) ظل هذا النظام متبعاً حتى منتصف القرن التاسع عشر.

بهذا الخصوص. وإنما نقول:

حين أطلت الحرب الكبرى كانت الدولة العثمانية ممزّقة تماماً. ويهمنا من هذه المِزق شأن العرب. فقد كانوا غير راضين عن عدد أعضائهم في مجلس «المبعوثان»، وناقمين على جعل اللغة التركية هي لغة التعليم الرسمية، ويطالبون باعتماد مبدأ اللامركزية في الادارة، ويسعون بكل ما اوتوا من قوة في سبيل إظهار ملامح قوميّتهم الناشئة آنذاك، ويُنحون باللائمة على السلطان لضياع مراكش وتونس وليبيا منذ عهد قريب، ويؤيدون اليونان والبلغار في تخلّصهم من الاضطهاد التركي، وينظرون إلى نزعة «الطورانية»(*) بكل ريبةٍ وحقد.

ومع كل ذلك، فقد كانت عواطف العرب عامة، مع الأتراك، لوجود رابطة الدين. فالإنكليز مثلاً كانوا يخشون أن تنقلب عليهم مصر، حتى وهم في معركة حملة القناة. وها هو السنوسي في ليبيا يعلن الجهاد ضد ايطاليا، وهي إحدى دول الحلفاء. وكذلك سلطان دارفور يهدّد بالزحف على السودان، وفي السودان إنكليز. وحتى الهنود المسلمون لم يتحمسوا للحرب ضد «خليفة الإسلام»، ولم يغفروا لِـ «شريف مكة» الملك حسين، ثورته على العثمانيين فيما بعد، فلم ينصروه على «ابن سعود».

لكن العواطف لن تقيمَ دولاً سائرة إلى الانهيار. كان اقتصاد الدولة العثمانية منهاراً، والسكك الحديدية فيها غير متوفرة، كما أنها خاضعة لامتيازات الشركات الأجنبية. أما الطرق البرية، فشبه معدومة. وكان الجهل عاماً.

جهل مطبق نشرته الدولة بين العرب

وإني لأذكر بهذه المناسبة أن المرحوم والدي (واسمه أحمد مصطفى أبو حجلة) كان أحد أفراد قليلين يلجأ إليهم الناس لقراءة «المكاتيب» و«كتابتها» في قرية ديراستيا من قضاء نابلس. هذا مع أن هذه القرية بالذات كانت تعتبر «بلد الشيوخ» في المنطقة. والشيوخ تعني «الأغنياء والمتعلّمين، معاً» قبل نصف قرن.

نعم، كان هنالك بعضُ المدارس، وكلها تحمل اسم «الرشادية» أو «المجيدية» أو «الحميدية» على أسماء السلاطين، ولكن هذه المدارس كانت تقوم في المدن. ولم يشكّل سكان المدن آنذاك نسبة كبيرة من أهل البلاد. كما أن الريف هو مقياس تقدّم أية دولة لا غيره.

(*) أي التعصب لسيادة العنصر التركي، ومن قبيل ذلك محاولة تتريك العرب.

الخلاصة

ومجمل القول: كانت الدولة العثمانية آيلة إلى الانهيار، تقوم بمجهود حربي من طراز عتيق، كأن تستعمل خشب الزيتون في قاطرات السكة الحديدية عوضاً عن الفحم الحجري، وتستعمل أسلحة صدئة تنكسف أمام الأسلحة الأوروبية الحديثة، وذات نظام عسكري مضحك، وكُرهٍ في نفوس العرب عميق. لقد قهرها الفرنسيون والايطاليون في السابق، وأعجزها الإمام يحيى في اليمن، بمساعدة الايطاليين، وفشلت في نصر «ابن رشيد» في «حائل» ضد عبد العزيز بن سعود الذي ساندته حكومة الهند (البريطانية).

وطبيعي، مع نكبات الحرب، والانكسارات المتلاحقة في العراق، وفي القناة، وفي القوقاز من قبل ذلك، أن يترقب العرب، مشوقين، لحظة تحررهم من ربقة هذه الدولة «الطورانية النزعة».

وفي هذه الأثناء كان نشاط الجمعيات العربية السياسية(*)، وهي سرية، عظيماً، فأبعدت العرب عن إمكانية التعاون الفعّال مع مستعبديهم. وبذلك زاد الأمر سوءاً في وجه جمال باشا السفاح ودولته.

عرب خاين.. أرمن كافر!!

وليس من الصحيح أن لا نشير ههنا إلى مذابح الأرمن وتهجيرهم. فقد تعاون هؤلاء مع الروس ضد الأتراك في حملة القوقاز، فصار الحكم العثماني ينطلق في معاملتهم من مبدأ «عرب خاين.. أرمن كافر». صاروا يهجّرونهم من قراهم بكل وحشية، فيموت أكثرهم جوعاً، ويتكفل رصاص حاميات الطريق بعدد كبير من الباقين. وحين يصلون لبنان أو سوريا، وبعضهم إلى مصر، يقاسون آلام الفاقة والغُربة، وقد يقضي الجوع على الضعاف منهم. لقد شتتهم الأتراك بكل فظاعة ووحشية، وعاملوهم بطريقة أقرب إلى ما كانوا يعاملون به قبيلة عدوّة وهم في مواطن وحشيتهم في أواسط آسيا. وللأرمن حتى الآن، قضية لم تحل، شأنهم في ذلك شأن الأكراد في الشرق الأوسط.

(*) راجع كتاب «يقظة العرب» لجورج انطونيوس في هذا البحث.

الجوع.. والمرض

ونتيجة لمختلف عوامل التأخر الذي أشرنا إليه، مضافاً إليها حصار السواحل الذي تقوم به أساطيل الحلفاء، ثم سوء نظام الادارة ـ انتشر الجوع في البلاد العربية على الخصوص، والدولة العثمانية على العموم.

لقد غدا بعض الناس ينقُب الشعير من روث خيول العسكر كي يجففه ويطحنه، وأكل لحم الجمير والكلاب، وحتى لحم الأطفال أحياناً. ولهذا انتشر السلّ، وفتكت الأمراض بالأطفال خاصة.. ورأى الناس غمّة ما بعدها غمة. وإني لأعرف عجوزاً لا تزال حيّة ترزق حدّثتني(*):

«لقد زوّجني أبي في بلدكم بعد أن أعطاه (الزوج)... صاع قمح. وقد ساقني أبي إلى بلدكم وعمري ١٤ سنة.. وكنت حافية.. وعليّ جلاّبية زرقاء خيّطتها لي أمي في تلك الليلة على ضوء سراج.. وظلّت تبكي، لا لأني سأفارقها، بل لأن الجلاّبية هي أثر من أخي الذي راح في حرب اليمن.. وما رجع».

* * *

مما سبق نقول: كانت البلاد العربية ناقمة على العثمانيين فهي في مخاض ثورة. وكان الجيش التركي أيضاً ناقماً على حكومته فهو على وشك تمرد وانقلاب.

وما دمنا قد أتينا على سوء الأحوال الاجتماعية في كل من الدولة العثمانية وروسيا وألمانيا، بعد أن انهكتها الحرب طيلة عامين، فإننا نكتفي بالاشارات الكثيرة العابرة عن الأوضاع المقابلة لهذه في كل من فرنسا وبريطانيا.

وهذا ما يجعلنا ننتقل رأساً إلى أحداث ١٩١٦ فنقول:

حلفاء.. ولكن لا تحالف!

قد يظن القارىء، ومعه كل الحق، ان دول الحلفاء الأربع كانت على اتصال وثيق فيما بينها أثناء الحرب، ومثلها دول الوسط. والواقع أن هذا الظن لا يستند إلى أساس. فقد كانت كلمة «الحلفاء» لا تعني أكثر من «المشتركين في القتال». كانت خطط كلٍ من هذه الدول تسير في فلك محدّد لها لا يتأثر بخطط الدولة الأخرى. فسياسة فرنسا مثلاً، لا ترتبط أي ارتباط، اللهم إلا الحذَر والريبة، بسياسة روسيا. ومثل ذلك بريطانيا وإيطاليا.

(*) كان هذا عند تأليف الكتاب في الستينات.

وحتى تبادلُ المعلومات التي تحصل عليها دوائر الاستخبارات في دولة لم تكن لتُفضخ أمام الحليفات. أما تنسيق حركات الجيوش وتقرير تسليحها وإمكانياتها، فقد يكون إلى حدٍ ما معقولاً بين الجيش البريطاني والجيوش الفرنسية تحت قيادة جوفر. لكنه معدوم تماماً بين الجيوش الايطالية والجيوش الروسية مثلاً، مع أن العدو المشترك هو النمسا.

ليست هذه طريق النصر

وقد لاحظ الحلفاء جميعاً أن هذا الأمر لن يؤدي إلى طريق النصر، فقرروا تنسيق خططهم لهذه السنة (١٩١٦). ولذا عُقد اجتماع عام حضره مندوبون كبار عن هيئات أركان الحرب لجميع الدول المتحالفة. وكان ذلك في ٦ كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩١٥.

وقد تمكن هذا الاجتماع من تحديد استراتيجية عامة لجميع نشاطات العام القادم، وعلى الجبهات الثلاث: الغربية، والشرقية، والجبهة الايطالية. لكن التنفيذ كان هو المشكلة. فالقليل جداً من أهداف هذه الاستراتيجية العامة هو الذي برز إلى حيّز العمل.

سبب التعويق

أما السبب في ذلك فيمكن تقديره: لقد عجز الايطاليون عن القيام بهجوم ناجح يكون له أثر في تحويل بعض القوات الألمانية إلى الجبهة النمساوية. كما أن الروس أخذوا يميلون أكثر فأكثر إلى تبنّي الخطط الطويلة الأجل.

وهكذا ظل جوفر في الميدان الغربي مضطرباً، وإن كانت استراتيجيته تكاد تكون ثابتة. ومع جوفر كانت الجيوش البريطانية. وهكذا غدت الجبهة الغربية الآن، مرة أخرى، هي مركز الدائرة في الحرب، سواء عند الألمان أو الحلفاء.

جوفر.. وهايغ وفرق عديدة

وفي ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥، اجتمع جوفر بالجنرال هايغ، الذي كان قد أصبح قائداً أعلى للقوات البريطانية العاملة في فرنسا، بعد سحب السير جون فرنش. وكان هايغ قد انقلب على نظرياته السابقة والتي انتقد فرنش من جرائها. لقد غدا يؤمن بجدوى «خطة الهجوم».

وبخاصة أن قواته كانت ٣٨ فرقة في مطلع سنة ١٩١٦. وكان لدى الفرنسيين ٩٥ فرقة، ولدى متطوعي البلجيكيين ٦ فرق، فيكون المجموع ١٣٩ فرقة مقابل ١١٧ فرقة للألمان. وفي تموز (يوليو) من سنة ١٩١٦ وصلت إلى الميدان ١٩ فرقة بريطانية جديدة، فازدادت أهمية الجيش البريطاني في الميدان.

خطة هايغ

وكان لدى الجنرال هايغ خطة حربية جديرة بالتأمل. فهو يرى من الأفضل أن يهاجم الحلفاء القواتِ الألمانية في بلجيكا أولاً، ثم من هناك ينعطفون إلى الجنوب فيقابلون قلب الجيش الألماني في الوسط. والحكمة في هذه الخطة أن جناح الألمان موجود في بلجيكا، وأن ذلك الجناح كان أضعف من القلب المنيع. لكن جوفر رفض هذه الخطة حين عُرضت عليه. وطبيعي أنه قدّم أسباباً عسكرية لهذا الرفض. أما السبب الحقيقي فكان ما يلي:

كان جوفر يرى أن الإنكليز ليسوا أهلاً للثقة بهم في القتال. وكان يعتقد أن أي ميدان يقومون فيه بالعمليات الحربية، لوحدهم، لن تكون نتيجته إلا الخسارة، وتوسيع الرقعة الخاضعة للألمان من أراضي فرنسا. إنه يصرّ على أن يقاتل الإنكليز تحت قيادته، ومع القوات الفرنسية، وفي هجوم مشترك.

«هنا على الانكليز أن يقاتلوا!»

ولما كانت خطوط دفاع القوات الإنكليزية والفرنسية تلتقي في «السوم» فقد أشار جوفر إلى هذا الموقع وقال: «هنا، على الإنكليز أن يقاتلوا». والحق، أن اختيار السوم كنقطة لهجوم مركّز كان أمراً يدعو إلى الغرابة. فحتى لو تم النصر هناك للحلفاء، أيّ موقع حربيّ هام يحصلون عليه! لا شيء. إذ ان فقدان تلك المنطقة، وفي ذلك الموقف الحربي على الخصوص، يقوّي الألمان ولا يضعفهم. فبدون «السوم» تغدو خطوط الدفاع الألمانية أقصر، وتصبح جبهتهم أكثر عمقاً، لأنهم يرتدّون إلى خطوط مواصلاتهم الأصلية، ويقتربون من خطوط تموينهم أيضاً.

إذن، لماذا اختار جوفر هذا الموقع؟

لمجرد أن يُجبر البريطانيين على «القتال الحامي» كما كان يقول.

خضوع هايغ وتحديد الهجوم

كان هايغ يعرف هذا عن جوفر، ولكنه خضع لتعليماته بأمر من كتشنر. وكان جوفر وهايغ يظنان أن الوقت في صالحهما، ولهذا حدّدا موعد الهجوم في منتصف العام، حيث يكون البريطانيون قد تلقوا تدريباً كافياً، ويكون الفرنسيون قد أعدّوا امدادات كبيرة إذا دعت الحاجة. وكان المقرر حسب الخطة أن تقوم ٤٠ فرقة فرنسية بالهجوم على جنوب السوم، بينما تقوم ٢٥ فرقة انكليزية بالهجوم على شماله. أما تكتيك الهجوم نفسه فقد خُطط على ثلاث مراحل:

الأولى: أن يتم قصف ثقيل ومركّز بالمدفعية على خنادق الألمان وروابيهم ومواقعهم الأمامية.

والثانية: حين يتم تدمير هذه الخنادق تدميراً تاماً، يتقدم المشاة للاشتباك مع عدوهم بالسلاح الأبيض، فيطردون الألمان.

والثالثة: حين يتقدم المشاة المهاجمون، يخلّفون وراءهم جيوباً في حاجة إلى التطهير. وهذه الجيوب يتكفل بها الخيّالة، الذين عليهم أن يتعقبوا الألمان المدحورين، بغية القتل، لا الأسر، ولا الاحتلال. ان على هؤلاء الخيالة مجرد أن يقتلوا.. فليستعملوا سيوفهم الطويلة جيداً. هذا هو المجرى الوهمي لمسير المعركة كما رسمه جوفر وهايغ..؟

هل ينجح التخطيط؟

يقول جوفر «إنه سينجح.. لأن الألمان المعتدين على عزة فرنسا يستحقون ذلك»(*) ويقول هايغ «إنه قد ينجح.. لأن جوفر يرى امكانية نجاحه». لكن رأي جوفر وهايغ ليس إلا طرفاً واحداً، فلنرَ ما يقول فولكنهاين. فالرجل حين ينطق لا يقول هراء.

إنه يقول: «إذا كان الإنكليز والفرنسيون يودون الانتظار حتى أواسط العام فإن الجنود الألمان يكرهون التململ دون الحركة. ولهذا فإننا سنتحرك قبلهم ونُفسد عليهم خطتهم بكاملها».

(*) أي ان الأسباب عاطفية فقط.

وهذا ما حدث فعلاً. فقد نطق فولكنهاين.. وصمت جوفر وهايغ.. ولكن أي نوع من النطق يا تُرى! إنه معركة فردان Verdun.

استراتيجية القوى

قبل أن نتحدث عن المعارك الطاحنة التي نشبت حول فردان ـ الألمان يريدون اقتحامها وبيتان من داخلها قد صمم على مقالته «لن يمروا» ـ يجدر بنا أن نعرف شيئاً عن استراتيجية القوة المهاجمة، والموقع الذي سيقع عليه الهجوم. وسنأتي على الاستراتيجية أولاً:

أمامنا الآن فولكنهاين في غرفة القيادة السرية. وأمامه خارطة تفصيلية منشورة على عرض الجدار، وعليها دبابيس وأزرار حمراء، تبيّن المواقع ونسبة القوات. وها هو يشير بإصبعه إلى فردان قائلاً:

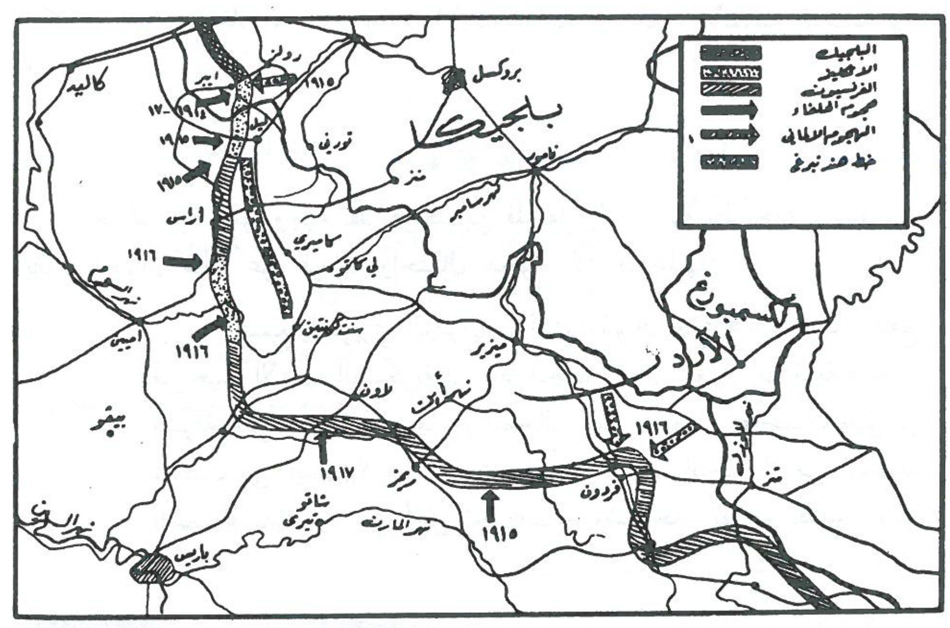
«هنا تتحطم الكبرياء الفرنسية. وهنا تنهار معنوية فرنسا». ثم يلتفت إلى ضابط كبير من أركان القيادة فيقول: «إذن، سوف نذلّ فرنسا في فردان».

ما الذي جعل فولكنهاين ينتقي فردان هذه؟

إن هناك سراً. فما هو؟ هل هو ارتداد فولكنهاين إلى الجبهة الغربية ابتعاداً من منافسة هندنبرغ ولدندورف. له في الجبهة الروسية؟ هل هو الانصراف من غليوم عنه، فالجنرال يود تذكير مليكه بدوره الفعال ونجاحه الباهر في الحفاظ على النمسا وسحق صربيا، وتمزيق الروس؟! لسنا ندري، ولكنا نعلم أن فولكنهاين الآن يبدو ناشطاً في الجبهة الغربية، وفي فردان على التحديد، وبعد أن رسم استراتيجية نود أن نشرحها.

كان فولكنهاين يفكر على النحو التالي:

«يا سيدي القيصر، إن عدونا الرئيسي هو بريطانيا، وهي قوة بحرية أكثر منها برية، ولذا يجب تدميرها عن طريق البحر. إن سلاحنا لذلك هو الغواصات، فيجب أن نغرق أسطولها بكامله أو قسماً كبيراً منه على الأقل. لكن غواصاتنا ليست كافية الآن من حيث العدد، كما أن الدول المحايدة، وبخاصة هذه الـ «أمريكا» تظل تزعجنا، تارة بالاحتجاج، وثانية بعدم بيعنا ما نطلب. إذن، فيجب اتخاذ سلاح فعال آخر. إنه فرنسا، فأنتم تعرفون يا سيدي القيصر أن فرنسا ـ جوفر هذه هي الحليف الأكبر



خريطة الجبهة الغربية
ما بين أول سنة ١٩١٥ وأول سنة ١٩١٧

الفعال في القارة (الأوروبية) لبريطانيا، فلو استطعنا أن نجعلها تجثو مهدّمة منهارة، لصار في وسعنا فرض شروط الصلح التي نبغي. وبانهيار فرنسا، تنهار بريطانيا بالتأكيد. ولي بصدد ذلك خطة رسمتها، هي:

في أي اصطدام حربي وقع بيننا وبين الفرنسيين في جبهتهم، كانت الخسائر التي كبدناهم اياها فادحة جداً. إنهم الآن يعانون نقصاً في الرجال، وتدهوراً في المعنوية. وقد اسقطوا وزارتهم لتكرر الخيبة في الميدان.. وهذا يساعدنا كثيراً. فالفرنسيون الآن في اضطراب مرير. إن نفسية شعبهم متوترة تكاد أن تنكسر، فلو اخترنا موقعاً يعتبرونه رمزاً لعزتهم القومية، وهاجمناه بعنف حتى نستولي عليه، لأنتج ذلك فوضى في البلاد، أكاد احتم معها أن تنهار الحكومة والجيش. وحينئذ نجد أمامنا الفرصة السانحة... فنغتنمها.

وقد عثرت على الموقع المنشود في فردان».

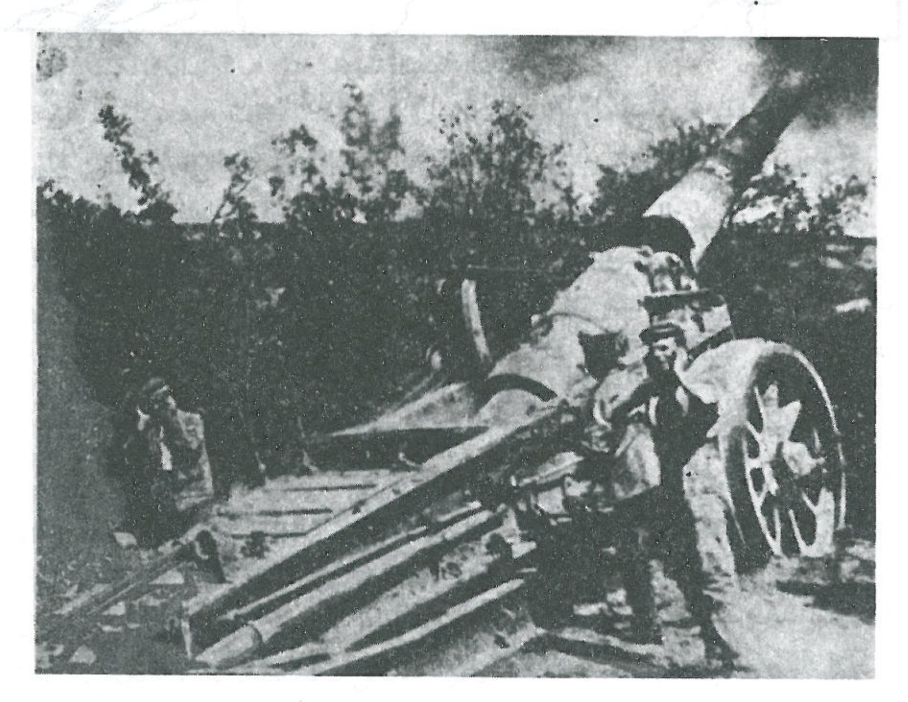
ومع أن هذا الكلام موضوع على لسان فولكنهاين، فالواقع أنه الحقيقة مجردة.

فهذه هي الاستراتيجية التي انطلق منها القائد الكبير. أما المعلومات التي يتضمنها الكلام، فهي مستقاة من أدق تقارير الاستخبارات العسكرية الألمانية الناشطة في فرنسا.

* * *

ها قد فرغنا من وجهة نظر فولكنهاين فلننتقل إلى وجهة نظر جوفر. لنتصوره يقول لجنرال سأله عن فردان واحتمال هجوم الألمان عليها:

«اسمع يا عزيزي الجنرال.. أنت تعلم أن قلاع فردان عديمة النفع من حيث الأهمية العسكرية في خط الجبهة الحالي. نعم، إنها قلعة ضخمة مشرفة على ممر، ولكن ما هو المجال الذي ينتفع به مهاجموها حتى لو سقطت في أيديهم؟ إنها ليست ذات موقع استراتيجي لا في المنطقة المحيطة بها، ولا من أجل تحركات جيوشنا حين تهاجم العدو، فيما بعد.



مدفع ألماني جبار اشترك «طاقمه» من الجنود في قصف «فردان»

ولهذا فقد جردتها من المدفعية، وأبقيت فيها حامية أقرب إلى الرمز منها إلى القوة العسكرية المصادمة. وأرجو أن تكون مقتنعاً بهذا الرأي. أما إذا عرضْتَ لي أن الشعب لا يزال يعتبرها قلعة حصينة، ويتخذها رمزاً لمجد فرنسا العسكري، فأنا أقول لك: ولهذا تراك جنرالاً، وتراهم من الرعاع. إنهم يُستَثارون بالعاطفة، أما أنت فتفكيرك العسكري يربأ بك أن تنحو نحوهم. ولو كانوا يفقهون المناقشة في الأصول العسكرية لكفاهم حجة أن قلعتي «لييج ونامور» في بلجيكا، سقطتا بيد المهاجمين الألمان بعد وقت قصير من القصف ثم الحصار».

وكل هذا ما كان يعتقد به جوفر بالفعل. حتى أنه حين سأله الجنرال غالياني، الذي كان قد عين وزيراً للدفاع، عن صدق الرواية في أن فردون مجردة من مدفعيتها، قال له:

«اعطني أسماء المخبرين كي أعاقبهم، لأنهم يتدخلون فيما لا يعنيهم من أسرار الجيش العسكرية، ولغرض خبيث».

بهذا يمكن القول إن تحذيراً كافياً كان لدى جوفر عن قرب هجوم الألمان على فردون. وأكثر من ذلك، يمكن الجزمُ بأن الألمان هم الذين سعوا إلى ايصال هذه الأخبار إلى دوائر الاستخبارات الفرنسية. ومع كل هذا لم يهتم جوفر.

بداية
معارك فردان

حتى إذا كان صباح ٢١ شباط (فبراير) سنة ١٩١٦ انفجرت القنبلة الأولى من مدفع عيار ١٥ إنش في داخل قلعة فردان. وكانت تلك القنبلة بداية الهجوم، كما كان القصف الثقيل هذه المرة سمة مميزة للحرب في سنة ١٩١٦ بكاملها.

لقد انصبت على خط الخنادق الفرنسي حمم من القنابل لم يسبق أن رأت أي حرب في العالم مثيلاً لها. وبدأ الخط الفرنسي يتضعضع. ها هم الجنود يغادرون خنادقهم في إعصار من الغبار الذي أثارته القنابل الساقطة أمامهم على بعد بضعة أمتار. وها هو بعضهم يرتفع في الجو مع الشظايا.. وها هم آخرون وبطونهم مبقورة، وسوقهم مبتورة والإسعاف عاجز عن الوصول إليهم أو يتخطفه الموت.

كل هذه النار المندلعة في فردان، وجوفر يصر على القول: «إن هذا الهجوم

للتغطية والتمويه، وسيضرب الألمان ضربتهم في مكان آخر ولهذا لن أرسل إلى فردان إلا إمداداً قليلاً».

ثم يضيف:

«وهل أسمح لسقوط قلعة عتيقة أن تتدخل في خطتي الكبرى المرسومة بصدد الهجوم في «السوم؟» كلا، لن أفعل».

برايان.. جوفر أنتم جبناء!!

وإذا كان جوفر متين الأعصاب كجنرال كبير، فإن أعصاب برايّان وهو السياسي المدني، سرعان ما خارت. لهذا هرول رئيس الوزارة إلى مقر جوفر مستصرخاً. وكان برايان قد حمى جوفر في السابق ضد كل انتقاد وجهه إليه الساسة المدنيون، فهو والحال هذه ذو فضل وصاحب دالة عليه.

إلا أنه الآن لا يذهب ليتقاضى أجر فضله وإنما ليوجّه إلى جوفر انذاراً أخيراً. وقد وجده نائماً، فأصر على إيقاظه في التوّ. وفي انتظار ذلك راح يسلق بلسانه الجنرالات الذين وجدهم في المقرّ حين بينوا له أن لا أهمية عسكرية لـ «فردان»، حتى ولو سقطت وصاح في وجههم:

«إنكم لن تعتبروا سقوطها هزيمة لفرنسا، ولكن أي إنسان في فرنسا يعتبره كذلك. اعلموا أنها لو سقطت لكنتم جبناء، جبناء، وأنذالاً، وسأعمل بنفسي على وصمكم بالعار».

وعجب الجنرالات من رئيس الوزراء المعروف برقة لسانه كيف يتهجم عليهم، ولكنهم لم يجيبوا على ذلك بمثله.

لن نتراجع!

وحين افاق جوفر، فتح عينيه نصف المغمضتين وقال: «إن رئيس الوزراء على حق. وأنا أوافقه على رأيه. لن نتراجع في فردان، بل نحارب حتى الرمق الأخير».

وذُهل الجنرالات من هذا الانقلاب الطارىء في عقلية جوفر، فناقشوه. إلا أن برايان تدخل ثانية، فاتخذ جوفر قراره.. وكان قراراً خاطئاً. وهكذا نصب فولكنهاين للفرنسيين فخاً كبيراً، وها هم يقعون فيه.

بداية مجد بيتان

ولقد فتش جوفر عن قائد فرنسي خبير بالدفاع يعهد إليه بهذه المهمة في فردان، فوجده في شخص بيتان. فكانت فردان، أساس مجد بيتان العسكري الذي رفعه إلى رتبة مارشال، ثم إلى رئيس الجمهورية في حكومة فيشي، أثناء الاحتلال النازي لفرنسا في الحرب العالمية الثانية.

المعركة. استعداد

حين بدأ الاستعداد للمعركة، ضرب الألمان بجميع الخبرة التي اكتسبوها من معارك الحرب الكبرى، عرض الحائط. ففي الأسبوع الأول من شباط (فبراير) ركزوا مدافعهم الثقيلة وراء خطوطهم، ورصوا المدافع الخفيفة إلى جانبها، بارزة على ظهر الأرض دون إخفاء.



حالة الجنود الفرنسيين المحصورين في فردان، البائسة

وكان هذا بفعل الغرور، فقد ظنوا أن مدافع «سكودا» النمساوية الثقيلة من عيار «١٥ إنشاً» لن تبقي من قلاع فردان وخطوط دفاعها شيئاً. وكان لديهم ٤٥٠ مدفعاً ثقيلاً و١٤٠٠ مدفع خفيف.

كان الهجوم مقرراً أن يحدث في ١٣ من نفس الشهر. ولكن ظروفاً معينة، أهمها سوء الأحوال الجوية، اضطرت القيادة إلى تأجيله حتى ٢١ منه. وقد استفاد الفرنسيون من هذا التأجيل بطريقة مثلى.. وهي:



الفرنسيون في قلعة فردان

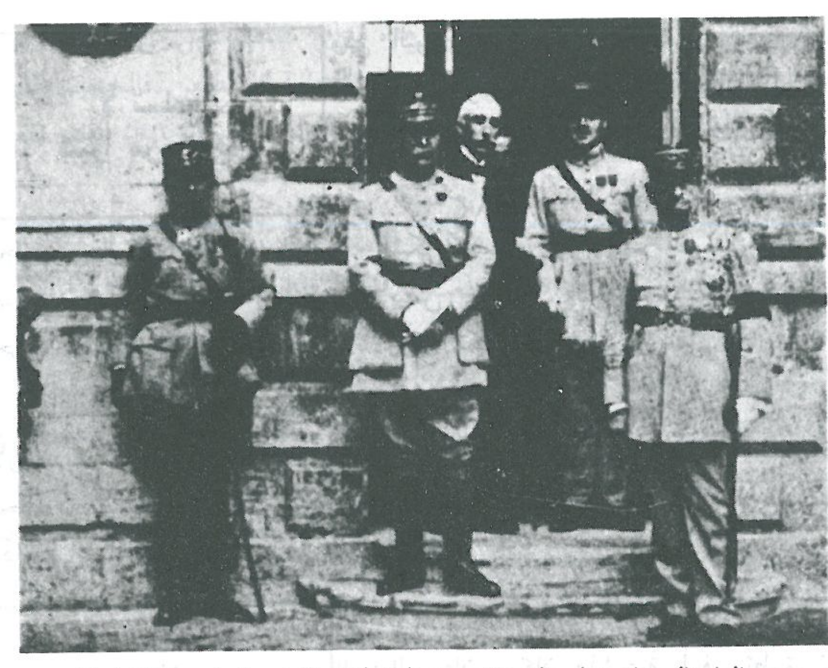
أثر الموقع

تبعد فردان عن السكك الحديدية الألمانية ١٢ ميلاً، ولذلك فمن السهل ايصال الذخائر والجنود إلى القوات الألمانية التي تهاجم فيها. ومن السهل توفير المؤن والمواد الطبية، بل وتأمين الترفيه للجنود. وهذا بخلاف حال القوات المدافعة، فليس للفرنسيين إلا طريق واحد يصلح لسير العربات ويربط بين فردان وبين الخطوط الفرنسية. وحتى هذا الطريق البري، الذي يتعطل المرور فيه إذا ما انفجر دولاب سيارة لوري وتوقفت، كان واقعاً في مرمى نار الألمان، بمدفعيتهم وقناصتهم. أضف إلى ذلك أن السير على هذا الطريق كان غير منظم البتة. وفي تأخر هجوم الألمان نظمه الفرنسيون، بحيث جلبوا سيارات شحن كافية لنقل ٩٠ ألف رجل و ٥٠ ألف طن عتاد كما تبين فيما بعد.

الهجوم.. القصف

في ٢١ شباط (فبراير) انطلقت أول قنبلة كبيرة من مدفع ألماني ثقيل، وانفجرت في ساحة كاتدرائية فردان، مؤذنة بابتداء الهجوم. ثم عقب ذلك سيل من الحمم الملتهبة كانت تقع هنا وهناك على خط الدفاع الفرنسي الأول فتنسفه نسفاً. وكانت خطة القصف المدفعي تتلخص في كلمتين: «قصف ثقيل وتدمير شامل». لهذا نرى مليوني قنبلة تنصب في يوم واحد. أما الهدف من وراء هذه الغزارة والتركيز فهو أخْذ الفرنسيين المدافعين بالرهبة وتحطيم معنوياتهم أو امكانية صمودهم في الموقع.

وبالفعل صارت الأرض أمام خط الدفاع الأول وخلفه حفراً عميقة وشبه



المارشال بيتان (على الدرجة) ومعه الجنرالات الفرنسيون في موقعة فردان

أخاديد، حتى يمكن اعتبارها أرضاً محروقة لا تصلح للدفاع عنها. ومن حسن حظ الفرنسيين أن قوات ضئيلة من جنودهم كانت في ذلك الخط، فأبيدت تقريباً. ولو كان فيه «قلب دفاعهم» لسقطت فردان في ذلك اليوم.

المشاة والمقاومة! ١١٧ من ١٢٠٠

وبعد هذا القصف الشديد، تقدم المشاة الألمان على شكل دوريات استكشافية تحمل قنابل يدوية للتطهير، وكان من خلفهم صفوف متراصة من الجنود الألمان للاحتلال. والواقع أن مقاومة الفرنسيين في هذا اليوم كانت باسلة جداً، بل ومستميتة، ولكن الألمان استطاعوا التقدم واحتلال الأرض الحرام بين مواقع الخطوط العسكرية في السابق، كما وصلوا حدود الغابة الكثيفة التي كانت المدافع الفرنسية مختفية بين أشجارها.

وكان من نتيجة المعركة أن أخلى الفرنسيون قرية محصنة وانسحبوا منها بقوةٍ قدرها ٧ ضباط و ١١٠ جنود ظلوا أحياء من كتيبة كاملة كان عدد أفرادها ١٢٠٠ رجلٍ من قبل.

لا تسلموا شبراً من الأرض!

وفي اليوم التالي حاول الفرنسيون القيام بهجوم معاكس، وأمرت القيادة العامة بذلك، إلا أنها ألغت هذا الأمر نتيجة الإعياء الذي كان جنودها يعانونه.

وفي صباح ٢٣ شباط (فبراير) شدّد الألمان هجومهم، وركزوا نيرانهم المحرقة بشكل عنيف، وواجههم الفرنسيون في قرية «ساموغنو» بكل ضراوة، وبالسلاح الأبيض.. إلا أن التكتيك الألماني استطاع أن يحرز النصر. ولكن بخسارة في الأرواح تكاد لا يتصورها عقل.

لقد كان الفرنسيون يقومون بهجوم معاكس محاولين استخلاص كل شبر من الأرض يقع في أيدي عدوهم. وطبيعي أن خسائر الفرنسيين كانت بالغة جداً. كانت الحصون تقع في يد الألمان كل يوم، ولكن المقاومة الباسلة والقتال المستميت يردّانهم عما كسبوه في ذلك النهار.

بيتان وتنظيم المواصلات

وفي ٢٦ شباط (فبراير) وُلِّيَ القيادة في فردان، الجنرال بيتان. وكان هذا عبقرياً في تطبيق نظرية الدفاع، فنظم المواصلات إلى الحصن، وأمّن توفير المؤن والذخيرة. وقد تم له ذلك بفضل طريق وحيدة كانت بيد الفرنسيين، وإن كانت في مرمى نار المدافع الألمانية.

كانت ثلاثة آلاف سيارة شحن تقطع هذه الطريق ذاهبة آيبة كل يوم. وتنصب عليها حمم المدافع الألمانية كل يوم أيضاً. ومع هذا أبقت فردون صامدة.

وإلى هذا الاجراء يعزو المعلقون العسكريون صمود فردان من ناحية التكتيك. أما من حيث معنوية جنودها، فهم يقولون «إن الفضل كل الفضل في ذلك لبيتان».

وكان من حسن حظ القائد الجديد أن انقطع هجوم العدو ما بين ٢٦ شباط (فبراير) و ٥ آذار (مارس)، إذ أنه في هذه المدة استطاع أن يعزز قواته ويخزن من عتاد مدافعه احتياطياً كبيراً.

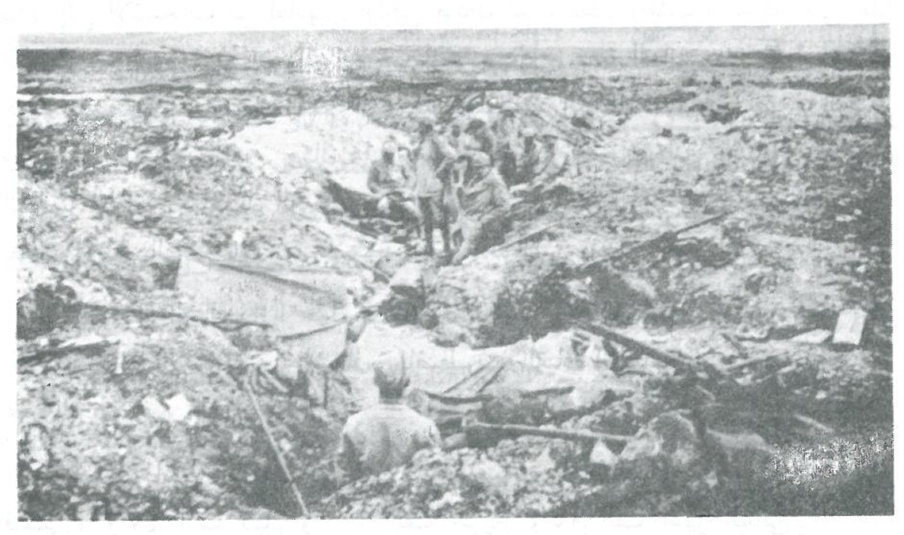
صمود رغم الجحيم!

وفي ٦ آذار (مارس) استعادت الجبهة نشاطها وأخذت مدافع سكودا الشهيرة تنشط في العمل. لقد حرثت الأرض حول كل موقع تقصفه، وألهبت الأشجار المجاورة، وأدت بالكثير من الألمان

والفرنسيين إلى الاصابة بالصمم. لم تكن هذه مدافع تقذف قنابل من رصاص، وإنما كانت براكين تتفتح فوهاتها عن سيل من الكبريت الحارق المنصهر. فالجحيم يغدو هو الموقع المسلطة عليه، والحياة تحكم على نفسها بالفناء في الخندق الذي تقع فيه القنبلة.

ومع هذا.. صمد الفرنسيون. كانت آلامهم عظيمة، والغصص التي تجرعوها لا يكاد يطيقها البشر. إن أطرافاً قد قُطعت بالسكاكين العادية.. وبطوناً شقّت لاخراج الشظايا، بنصلات الأمواس. أما الأيدي المكسورة، والعيون المقتلَعة والمنتفخة محاجرها بقطن الألحفة أو قطع البطانيات المشدودة بسيور من القماش فقد كانت كثيرة.. وأما الجثث فكانت منطرحة هنا وهناك وكأنها قطيع من البقر أصابه العطش في إحدى الصحارى. كانت هذه الجثث منتفخة شوهاء بتأثير البرد، وكانت تبدو كاللطخات الزرقاء على بساط الثلج الأبيض، اصابعها معقوفة، وأحذية الأقدام منها مهترئة لكثرة ما غاصت في الوحول.. أما بنادق أصحابها فحطَب منتثر على الثلج دون اهتمام..

أمام حصن «فو» في فردان كانت تبدو نقائض الحياة: الألمان يظنون في موت الفرنسيين حياةً لهم، والفرنسيون يظنون في موت الألمان لهم كل الحياة.. فما أعجب صراع البقاء والفناء! وإذا كان للإنسان أن يضحك في هذا الموقف الرهيب،



أحد الخنادق التي أكلت لحوم الفرنسيين والألمان..
لقد تبادلتها الأيدي

فلن تكون ضحكته أقل من انفجار هستيري في أعماق نفسه. إن وحشية الحرب هي وحشيته هو، فعلى من يضحك؟!

ورغم هذه الفظائع تقدم الألمان على جثث قتلاهم فاحتلوا قلعة جديدة، ومن هناك حاولوا التقدم في ٩ آذار (مارس) إلى فردان نفسها.. وهنا أيضاً صمد بيتان. وكان مما قاله لجنوده «إن الألمان يودون أن ينالوا عليكم نصراً، فاحرموهم اياه». ثم أضاف: «لقد سبق ورفعت شعار «لن يمروا» وأنتم لن تدعوهم يفعلون».

كان الألمان يقومون بهجوم جديد، كل يوم على قلعة من قلاع فردان، فتتقدم صفوفهم بعد أن تكون مدفعيتهم قد دكّت الأرض دكاً. وعند تقدمهم تحصد المدافع الفرنسية صفوفهم، ويظل ضباطهم يأمرون بالتقدم!! وكان الجندي المتقدم يسحق بحذائه الثقيل رأس رفيقه الجريح الساقط، وقد يبقر بطنه إذا أعاق ساقه في الحركة.. وبعد ذلك يتقدم.. صفوف مستقيمة متراصة تعوي بصيحة الحرب فيما تهرول وتتعثر هي التي كانت تزحف على القلعة الواحدة. ويستميت الفرنسيون، ولكن التصميم الألماني ينتصر، فينسحب من تبقى من حامية القلعة.. ولا يكون أحدهم سليماً. أما الأسرى وهم الجرحى العاجزون عن الانسحاب، فكانوا يموتون.. بجراحهم.

على هذا المنوال تمت ما بين ١٠ إلى ١٥ من هذا الشهر ٥ محاولات وسقطت ٥ حصون صغيرة، استرد الفرنسيون اثنين منها. وبدا أن الألمان في طريقهم إلى النصر النهائي. هكذا ظنوا حين قاموا بهجوم عام شامل في ٢٠ آذار (مارس) فاضطر بيتان إلى الانسحاب من أمامهم. ولكن فردان لم تسقط. وظلت المعركة على هذا التناوب حتى يوم ٩ نيسان (أبريل) حين زحف ٤٠٠,٠٠٠ ألماني على قلعة «مورت هوم» الحصينة، وتصدت لهم المدفعية الفرنسية الثقيلة فكبدتهم بضعة ألوف، وأجبرتهم على الارتداد.. وكان هذا يوماً محدّداً في تاريخ فردان، وبيتان، والحرب العالمية الأولى. ذلك أن الفرنسيين لم يتقهقروا من بعده، وإن كانت قد سقطت من يدهم بعض القلاع الثانوية الأهمية، وبعد قتال مرير.

وقد ظل القتال دائراً حول فردان حتى شهر تموز (يوليو) ١٩١٦، حين كسر الإنكليز الخط الألماني في الشمال، فاضطرت القيادة الألمانية إلى تخفيف الضغط عن الجبهة في فردان.

أما ضحايا فردان هذه فهي ١٨٠ ألف قتيل و ٢٨٠ ألف جريح و ٣٠ ألف أسير فرنسي، و٤٧ ألف قتيل و ٢٠٠ ألف جريح و ٢٥ ألف أسير ألماني.

والآن، وبعد كل هذه الضحايا والويلات.. ماذا كانت النتيجة؟

فردان هي قطب معنوي!

ذكرنا في السابق أن فولكنهاين كان يود انهيار معنوية فرنسا عن طريق ضربها في نقطة تعتبرها رمزاً لمجدها العسكري. ونحن على يقين من أنه كان يدرك تماماً أن فردان ليست الموقع الاستراتيجي الجدير بكل هذه التضحيات في سبيل الاستيلاء عليه. لكنه وقد بدأت المعركة، وجد نفسه بين نقيضين مستحيلين:

الأول: ان الألمان صاروا يعتبرون إسقاط فردان محكًّا لقوتهم العسكرية، فهم لن يتخلوا عن ذلك مهما كان الثمن.

والثاني: ان الفرنسيين أيضاً غدوا يعتبرون فردان رمز اعتزاز لهم، فسقوطها معناه زوال مجد بلادهم العسكري. ولذلك فقد صمموا على الدفاع مهما كان الثمن.

فما معنى كل ذلك؟

معناه أن فردان كانت بؤرة استقطب فيها الصراع بين قوتين، ترى الواحدة منهما فيها الموت أو النصر. فلو سقطت فردان لانهارت فرنسا تلقائياً، ولو صمدت فردون لكان ذلك ضربة شبه قاضية على معنوية الألمان.

نقد وتعليق!

هذا ما يراه المؤرخون العاديون. أما المؤرخون العسكريون، وخبراء الجنرالات فلهم رأي آخر. إنهم يقولون:

«إن نجاح معركة أو خطة، أو فشلها، يعتمد على وصولها الغرض الذي أُنشئت من أجله أو تقصيرها عن بلوغه. وما دام فولكنهاين قد هدف من خطته استنزاف قوة فرنسا، ونجح في ذلك، فإن فولكنهاين هو الذي انتصر». ثم يضيفون: «وليس يهم أن يكون انتصاره قد تم حتى ولو عن طريق فشله في خطة جانبية له هي احتلال فردان في هذه الحال».

غير أن للمعلقين الحربيين الأكثر اعتدالاً، رأياً آخر بهذا الصدد. فهم يرون أنه:

«لا يمكن اعتبار استنزاف قوى فرنسا هدفاً سليماً في خطة فولكنهاين. ذلك أن هذا الاستنزاف لم يتم إلا باستنزاف قوة ألمانيا بدورها أيضاً. ومن غير المعقول أن تكون خطةٌ أدت إلى استنزاف قوى صاحبها هي الخطة الحكيمة. ومن غير المعقول كذلك أن يُعتبر صاحب تلك الخطة ناجحاً، قد بلغ هدفه».

جوفر يستصرخ حلفاءه

خلال فترة الصراع المرير حول فردان كان جوفر يصرخ طالباً من الجنرال هايغ، القائد الأعلى للجيوش البريطانية في فرنسا، أن ينجده. وذلك بأن يقوم بهجوم مباشر على الجيوش الألمانية المقابلة له، فيخف الضغط على فردان. لكن هايغ كان يصمّ أذنيه على الدوام. وقد بلغ به عدم الاكتراث بمصير الفرنسيين أن الجواب الأوحد الذي تسلّمه منه جوفر هو: «نتيجة للضغط الحالي، فإنه يمكن القبول بزيادة طول خط الجبهة البريطانية. أما الهجوم الذي تطلبونه فكل ما نستطيعه بصدده هو أن نقدمه فنجعله في أول شهر تموز (يوليو) بدلاً من كونه في أول شهر آب (أغسطس)».

تساؤل..

ويتساءل بعض مؤرخي الحرب الفرنسيين عن سبب هذا التلكؤ، فيقولون: لماذا كان هايغ، أي بريطانيا، لا يهتم بألوف الضحايا الفرنسيين؟ هل كان هذا كما يزعم المؤرخون البريطانيون، راجعاً إلى أن تدريب القوات البريطانية كان لمّا يزل غير كافٍ، أو أن عتادها ما زال غير مؤمّن بمقدار معقول، أو أن هنالك سبباً آخر!!

ومن هؤلاء الفرنسيين من يجيب على هذا التساؤل بقوله:

«كانت بريطانيا في قرارة نفسها في هذه الفترة تسعى إلى تحقيق هدفٍ مزدوج: أحد وجهيه إضعاف الفرنسيين أنفسهم، والثاني اضعاف الألمان. ونحن نستشهد على ذلك من خطة تقليدية ظلت بريطانيا تتبعها في حربها على الدوام. ومفادها: الحليف القوي خطير تماماً كالعدو القوي، ولذلك يجب اضعاف الاثنين ما أمكن ذلك».

المغيث يستغيث!

وكما كان جوفر يستصرخ البريطانيين كان يفعل ذلك مع الإيطاليين. ووعد هؤلاء بالمساعدة، فقاموا ببعض هجمات في جبهة اسونزو Isonzo. لكن هذه الهجمات كانت شراً ولعنة. فقد اغتنم كونراد، القائد الأعلى النمساوي لتلك الجبهة، الفرصة، فاخترق الجبهة الإيطالية بأن هاجمها من جنوب التيرول. وحينذاك أصبح الإيطاليون في حاجة إلى من ينجدهم.

ولو أن كونراد حظي في ١٥ أيار (مايو) ببعض الفرق الألمانية التي كان فولكنهاين يقذف بها في جبهة فردان، لاستطاع النمساويون أن يسيطروا على سهل

نهر البو Poe في شمال إيطاليا، وهناك يحطمون الجيش الإيطالي، ويمحقونه بحيث يسهل عليهم إخراج إيطاليا من الحرب.

لكنّ من حسن حظ الحلفاء أن ماكينة فردان في تلك الأثناء كانت عجلتها تدور، إذ أنه لو خرجت إيطاليا من الحرب (وفي تلك الحال تنقلب على الحلفاء) لسهُل على الجيوش الألمانية أن تفتح للفرنسيين جبهة ثانية من جبال الألب. ولو هبطت تلك الجيوش من هناك، لما استطاع جنوب فرنسا الصمود أمامها على الإطلاق.

ومهما كان الحال، فإنه في الوقت الذي كان جوفر يكاد يختنق من شدة الضغط كان الإيطاليون أيضاً يستصرخون المساعدة من الشيطان.

هكذا يرتسم الموقف أمامنا:

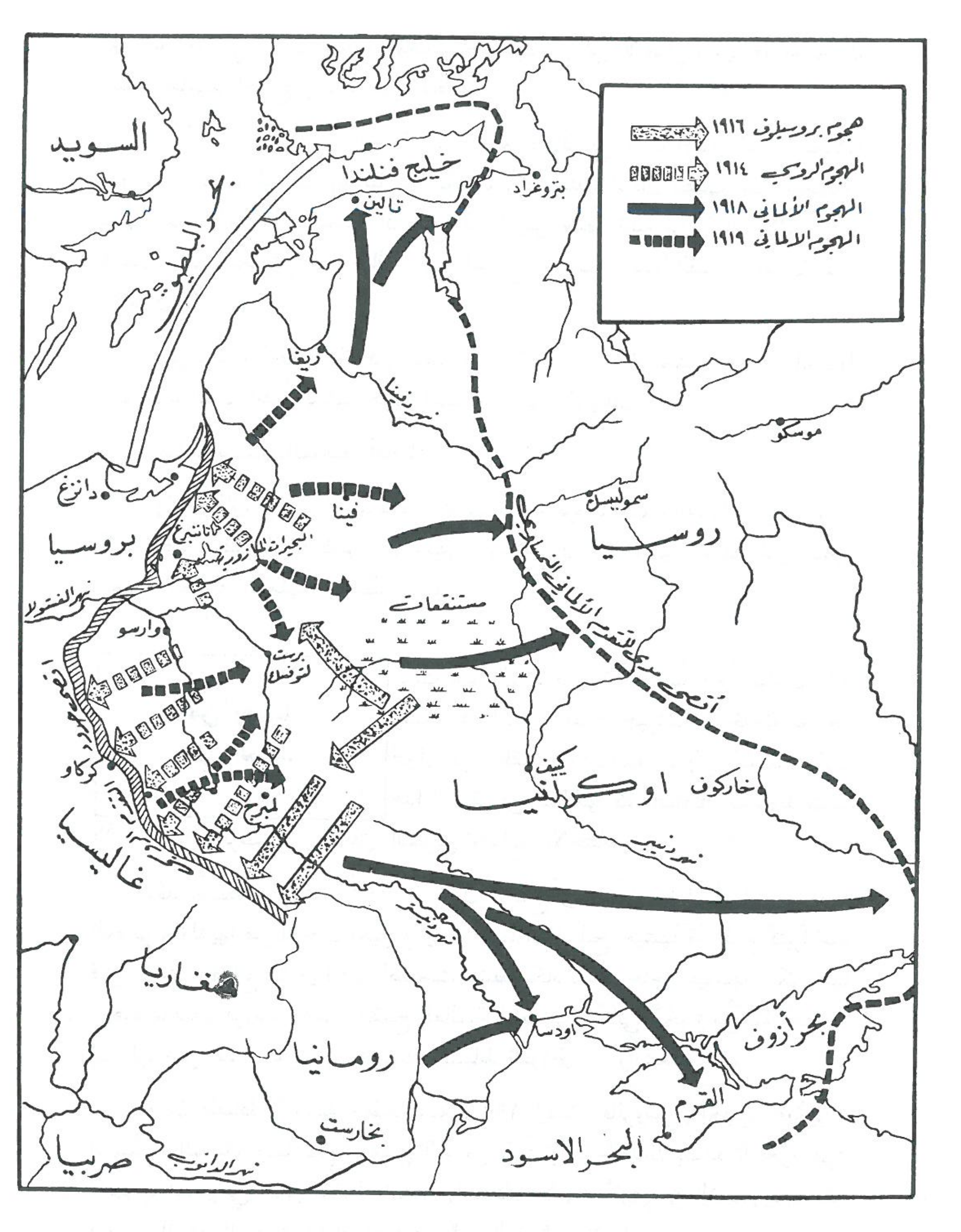
إن بريطانيا ترفض المساعدة، وفرنسا تواجه قوة قاهرة، وإيطاليا الطرية العود تكاد تهصر خصرها يدا كونراد.. ويبقى روسيا. إن في روسيا المدد الذي تنتظره الجبهة الغربية بكاملها. فلننظر إليها.

من روسيا يأتي المدد..!

كانت هذه البلاد قد تلقت درساً كافياً سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٥، واضطرت جيوشها، مخذولةً تجرجر أذيال خزي القيصر والغراندوق، إلى التقهقر. وكان هذا التقهقر في صالحها كما أسلفنا. فخطوط قتالها الآن أقصر وأقرب إلى مناطق التموين ومواقع الاحتياط.

وقد استطاعت سنة ١٩١٦ أن تحوّل الانتاج في بلدها بكامله لصالح المجهود الحربي، ولديها من الرجال معين لا ينفد. كما أن تسليح جيشها قد تقدم كثيراً عما قبل. وحتى مصانع الذخيرة فيها أصبحت ناشطة تكاد تكفي حاجة جيوشها. لكن فيها ظاهرة عجيبة. فروسيا، أهراء القمح العالمية المعروفة، تعاني الجوع من قلة القمح. إن الزارعين قد سيقوا إلى الميدان بسياط القوزاق.. والشعب ناقم.

وكان للقيادة الروسية خطتها سنة ١٩١٦ أيضاً. فالروس يواجهون عدوّين: النمسا، وألمانيا، ولما كان المفهوم الحربي المتّفق عليه آنذاك بصدد الهجوم هو: «اضرب العدو في أقوى النقاط لديه»، ولما كان الألمان أقوى من النمساويين، فقد قررت القيادة الروسية القيام بهجوم على الجيوش الألمانية.



خريطة الجبهة الشرقية ١٩١٤ - ١٩١٨

الخطة

وكان مجمل خطة هذا الهجوم هو: جيش روسي يهاجم القطعات الحربية المعادية في الشمال، وآخر يهاجمها في الوسط باتجاه وارسو.

وهكذا، تم تحضير الهجومين حسب معايير الحرب العالمية الأولى، وبجميع الأخطاء التي يقع فيها جنرالات القيصر. وتتلخص هذه الآن في أمور ثلاثة:

أولها: أن الكمّ هو الأهم. ولهذا حشدت القيادة العامة الروسية جموعاً جرارة من الرجال.

وثانيها: أن القصف المدفعي الثقيل هو الذي يطرد العدو من خنادقه، ويزحزح المواقع. وهذا ما تم تنفيذه فيما بعد.

وثالثها: (وهو أخطر من الجميع) لن يهمنا العدو.

وانطلاقاً من هذا المبدأ السخيف وقعت عدة نسخ من تقرير الخطة بكاملها في يد الاستخبارات العسكرية الألمانية.. فاتخذ الألمان الاحتياطات الكافية، ووضعوا التكتيك الذي يجب تطبيقه لإفشال الخطة.

التقدم.. الفشل!

وحين تقدم الجيشان الروسيان في الشمال والوسط، كان الألمان لهما بالمرصاد. لقد كبدوهما خسائر فادحة في الأرواح، حتى كانت نسبة القتلى: خمسة من الروس مقابل كل جريح أو قتيل ألماني. ولم يتزحزح الألمان من مواقعهم خطوة واحدة. وبكلمة أخرى: كان الهجوم فاشلاً تماماً، إلا إذا اعتبرنا غرضه أن يتخلص الضباط الروس من جنودهم بفضل رصاص الألمان!!

ومن جراء ذلك كان جواب الروس حين استغاث بهم الإيطاليون فيما بعد: «اننا لم نسمع استغاثتكم»، وإن عبروا عن ذلك بطريقة مهذبة، حين أبلغ وزير الدفاع الإيطالي رأي زميله الروسي: «ان جيوشنا غير مستعدة في الوقت الحاضر، ونحن منهمكون في تحضيرها».

بروزيلوف

لكن هذا الجواب ما كان ينطبق على قوات الجنرال بروزيلوف في الجنوب. فقد كان هذا الجنرال يشعر بطعنة لكرامته حين لم تعهد له القيادة العامة بالمشاركة في الهجوم الفاشل السابق. ولذلك فهو يود أن يجلب الأنظار إليه. لهذا تحرك الآن في ميدانه.

والواقع أن خطة هذا الجنرال كانت غريبة، وغير مقبولة في نظر قادة زمانه. فقد أمر بعدم التركيز في قواته، وإنما طلب إلى وحداته أن تتبعثر. وطلب إلى قادة تلك الوحدات الصغيرة أن يقوم كل واحد منهم بهجوم محلّي، وعلى مواقع العدو المقابلة له. كما أمرهم أن لا يستعملوا طريقة «القصف المركّز» قبل المعركة؛ وإنما يباغتون العدو دون تمهيد ويكون جلّ اعتمادهم على السلاح الأبيض.



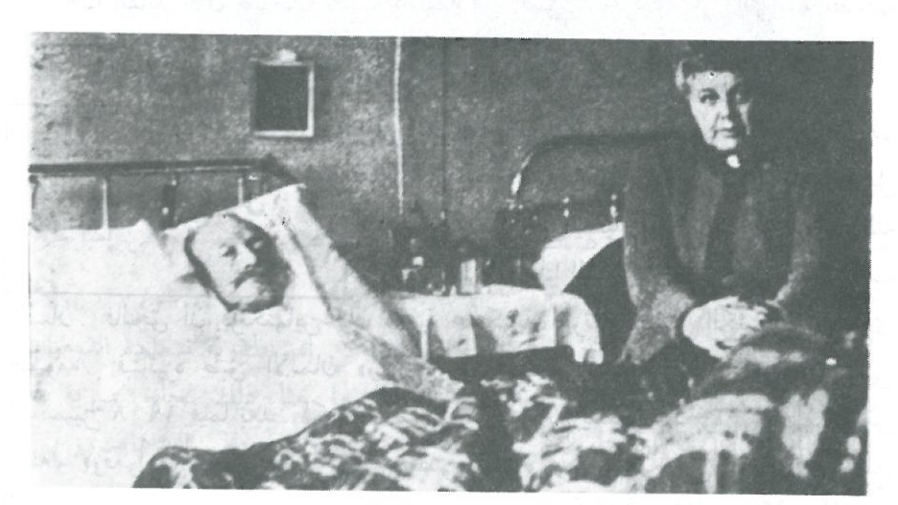
هجوم بروزيلوف الذي قيل عنه:
قهر النمسا، وقهرته ألمانيا، فانتقم من القيصر وأيد تروتسكي

النجاح

وقد نجحت هذه الخطة تمام النجاح، إذ هاجمت كتائب بروزيلوف الجيوش النمساوية ـ الهنغارية في أكثر من ٢٠ موضعاً، واستولت عليها جميعاً. وكان القائد المنتصر يتعقب عدوه المهزوم عميقاً في عرض الجبهة. وفي أقل من ٣ أسابيع، وقعت في يد الجيوش الروسية مساحات واسعة من الأرض، وحوالى ربع مليون أسير.

وهناك من ينسبون إلى هذا الجنرال أنه أدرك التحول في طبيعة الحرب آنذاك، ووعى أن «الحرب الكلاسيكية» قد غدت في حاجة إلى تجديد تكتيكها. لكن هناك أيضاً من يقولون، ان سلوك بروزيلوف هذا المسلك كان اضطرارياً، ولم ينبع من مقدرة عسكرية خاصة. ويستشهدون على ذلك بتاريخ هذا الجنرال فيما بعد..

ومهما كان الحال، فقد ساعدت الانتصارات الجزئية التي أحرزها بروزيلوف على التفات فولكنهاين لمساعدة حلفائه النمساويين. وحين أرسل بعض الفرق الألمانية لمواجهة تقدم الروس، خفّ الضغط قليلاً عن فردون والجبهة الإيطالية معاً.



الجنرال بروزيلوف.. جريح في الفراش، وتعوده زوجته

قوات دون احتياط!

كان عيب موقف بروزيلوف أنه لا قوات احتياطية لديه، وأنه لم يفكر في ذلك حين نشر جنوده على جبهة طويلة. ومما ساعد في إبراز هذه النقيصة أن خطوط السكك الحديدية في روسيا تمتد من الشرق

إلى الغرب، لا من الشمال إلى الجنوب، ومن شأن هذا أن يجعل محاولات إمداد بروزيلوف بقوات احتياطية، أمراً يتطلب بعض الوقت.

وقد اغتنم فولكنهاين هذه الفرصة. فوجه إلى جبهة بروزيلوف بعض الفرق الألمانية الحسنة التدريب والتسلح. حتى إذا ما اصطدمت بها جيوش بروزيلوف صمدت القوات الألمانية أمامها بثبات. ثم انها سرعان ما أخذت تطوق تلك القوى المتناثرة، وتتخلص من كل جيب منها على حدة. حتى لقد بلغت الاصابات التي أوقعتها في الجيوش الروسية حوالى مليون إصابة. هذه هي نتائج الهجوم الروسي في «غاليسيا».

تقويم الهجوم

حين يحاول المرء إنعام النظر في هجوم بروزيلوف، يقع على بعض النقاط المثيرة في الموضوع. فكما عرفنا، لقد نجح بروزيلوف لأنه حطم القواعد المسلّم بها في الحرب الكلاسيكية آنذاك. كما أنه أخفق حين رجع إلى تلك القواعد. ولو أنه استمر متَّبعاً عدم التقدّم من نقطة واحدة، لكان هذا القائد الآن صاحبَ نظرية عظيمة في أصول الحرب، هي التي تم تطبيقها على يد الألمان في الحرب العالمية الثانية، وفي ميدان روسيا بالذات.

بدعة لم تدرس

ومن الغريب حقاً، أن جنرالات الحلفاء آنذاك لم يدرسوا «بدعة» بروزيلوف هذه دراسة تقدير، بل اعتبروا فشله الأخير كافياً للحكم عليه وعلى خطته الأولى. غير أن هذا القول لا ينطبق على الجنرالات الألمان. فالحق أن فولكنهاين كان داهية عسكرية، يرتفع الكثير الكثير عن مستوى خصومه. فبتأثيره طبق الألمان «رأي» بروزيلوف، المتقدمَ في هجوماتهم على الفرنسيين ١٩١٨ فيما بعد. لكنهم، لسوء حظهم، لم ينتفعوا بالعبرة التي ظهرت من فشله، فوقعوا في نفس الخطأ الذي قضى عليه، وهو التقدم من نقطة واحدة في الجبهة.

كشف نقاط الضعف

وكان للهجوم الذي قام به بروزيلوف أثر آخر كبير على الحرب العالمية الأولى. فقد بيّن سهولة تحطيم الجيش النمساوي، وأثبت أن الهنغاريين لم يكونوا يحاربون بروح معنوية تجعل الانتصار عليهم



تروتسكي، متطرف كان يريد القيام بثورة عالمية
بعد نجاح الانقلاب البلشفي في روسيا، ومنظم جيوش قدير

عسيراً. وبمعنى آخر: لقد كشف بروزيلوف أن التناقضات المستترة في إمبراطورية النمسا ـ المجر، كفيلة بانهيارها عما قريب.

وإذا كان بروزيلوف قد أبرز نقاط الضعف في إمبراطورية متعددة القوميات، آخذة في التفكك هي إمبراطورية النمسا. فقد فعل مثل ذلك تجاه قيصرية بلاده أيضاً. ولهذا يُقال: «إن هجوم بروزيلوف في غاليسيا قد حطم آل هابسبورغ وآل رومانوف معاً». وهذا صحيح.

وقد بيّنا كيف تم أثر ذلك في آل هابسبورغ، أما بالنسبة لآل رومانوف، فإن بروزيلوف لم ينس أن القيصر وقيادته هما اللذان سلباه مجده العسكري، حين أخفقا في إمداده بما طلب. ولذلك نراه لا يغفر للقيصر جنايته عليه. فما أن هبّت الثورة البلشفية المعادية للقيصر ١٩١٧ حتى انضم بروزيلوف مع جيشه إلى البلاشفة وغدا يعمل بالتعاون مع تروتسكي بكل سعادة.

الجنرالات الفرنسيون وتقويم حملة بروزيلوف

وينكر الجنرالات الفرنسيون الذين كتبوا عن فردان، وأخصهم بيتان، على بروزيلوف الفضلَ في تخفيف الضغط عن الجبهة الفرنسية. وهم يقولون:

«الواقع أن بُعد نظر فولكنهاين هو صاحب الفضل، فقد كان ينظر إلى قوائم الإصابات التي تقع بين جنوده، ويلاحظ أنها آخذة دوماً في الارتفاع. وحينذاك يتألم ويقول: وإلى متى نظل نقذف جنودنا في فردان!! ولهذا كان فولكنهاين قد أوقف توجيه الطوابير إلى فردان قبل قيام بروزيلوف بهجومه في غاليسيا بزمن غير قصير».

بروزيلوف وتقويم الجنرالات الانكليز

لكن دارسي هذه المعارك من العسكريين البريطانيين يخالفون هذا الرأي، وينسبون إلى أنفسهم وإلى بروزيلوف فضلاً كبيراً. فهم يقولون:

«إن هجومنا على «السوم»، ومن قبلُ، هجوم بروزيلوف في غاليسيا، هما اللذان مكّنا القوات الفرنسية من الصمود في فردان. ونحن نلاحظ تقدّم الألمان المستمر، واسقاطهم قلعة أو حصناً في كل مرة يقومون فيها بالهجوم تقريباً».

كل يدعي غير فضله

وهنا يدخل الباحث في باب «النزعات القومية»، ومحاولات «ادّعاء الفخر» ولو عن طريق مغالطة التاريخ. فالحق أن خفّة الضغط عن فردان قد تمّت قبل ان يقوم البريطانيون بهجومهم على السوم، ومن قبيل المكابرة أن يدّعوا ما سبق. أما إذا قالوا: ان استعداداتهم لذلك الهجوم قد جعلت الألمان يتحسّبون للموقف، فيبقُون من قواتهم احتياطياً يكفي ـ حسب تقديرهم ـ لصدّ الهجوم المنتظَر، فهذا صحيح. لكن في صحته مطعناً في القيادة البريطانية. إذ أن معناه أن استخبارات الألمان العسكرية كانت عظيمة الدهاء بحيث نفِذت إلى أسرار القيادة الإنكليزية، وإلا، كيف عرفتْ بالهجوم، وموعده المحدّد!!

هايغ وهجومه.. والسوم

قلنا ان جوفر إبّان معارك فردان كان يلح على هايغ أن يقوم بهجوم عام في مواقعه. وذكرنا أن هايغ وعده بذلك في أول تموز (يوليو). ولكن، لا اشتداد القتال في فردان، ولا وعدُ هايغ لجوفر بالهجوم هو

الدافع الحقيقي في الهجوم الجديد. وإنما هو اقتناع هايغ بأهمية نقطة يمكن أن تُنهي الحرب إذا تم للحلفاء أن ينتصروا فيها. إنها السوم.

لكن هذا الرأي لم يكن يحظى بموافقة السير وليم روبرتسون. وهو كما نعلم، الرجل الذي اصطفاه ـ اسكويث ـ ليقلّم أظافر كتشنر عن طريقه، وجعلَه رئيس هيئة الأركان الامبراطورية. بيد أنه، لما كان هايغ أعلى رتبةً من روبرتسون، فإن الأخير خضع لنظام الانضباط العسكري، ولم يشأ أن يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ الخطة.



الجنود البريطانيون يتأهبون للهجوم على تلال «السوم»

وجهة نظر جوفر

أما جوفر، والذي كان غير مقتنع بسلامة اختيار الموقع، فقد حبّذ الخطة لغرض واحد. انه: «على البريطانيين أن يدفعوا نصيبهم من القتال كدولة محالفة». وهو يعني بعبارة «نصيبهم من القتال» ذلك القدر الكبير من الإصابات والخسائر التي تلحق بالجيش المهاجِم في العادة، وبخاصة إذا كان الدفاع من جانب الألمان في خنادقهم المنيعة.

على هذا الأساس تم التخطيط لمعركة السوم، وبوشر القيام بها في ١ تموز (يوليو) ١٩١٦. لكننا يجب أن نعرف منطقة القتال وطبيعتها قبل أن نتكلم عن القتال نفسه.

ما هي منطقة السوم؟

إنها مجموعة من التلال والروابي الكثيفة التربة، يقسمها نهر السوم إلى قسمين، وبذلك يكون النهر نفسه حاجزاً مائياً يصلح لأن يُتخذ مقدمة لخط دفاع. ومثل ذلك، قمم التلال التي يجعل منها ارتفاعها نفسه منطقةً يعسُر التقدم فيها على القوة المهاجمة، كما يجعل المنبسطَ الذي أمامها من السهل والوادي، أرضاً في مرمى نار الخندق المنشأ في القمة. ومُفاد هذا أن منطقة السوم تصلح للدفاع أكثر من صلاحيتها للهجوم.

هذا ما كان يعرفه القادة الفرنسيون والبريطانيون. ولكنهم أصروا، كما أسلفنا، على خوض المعركة في هذه المنطقة. وكانوا يعتمدون على عوامل ثلاثة تساعدهم:

١ ـ كثرة العدد، فالانكليز لم يدفعوا الجزية اللازمة في مذابح فردان.

٢ ـ عنصر المباغتة مع التصميم على انتهاز فرصة ارتفاع معنويات المقاتلين الفرنسيين بعد صمود جيوشهم في فردان.

٣ ـ الاتفاق مع إيطاليا وروسيا بالمساعفة إن أمكن.

وكان في ذهن هايغ عامل رابع هو استعمال «الدبابات» كسلاح جديد له فعاليّة، لا يزال الألمان محرومين من مثيلها.

والآن.. ماذا كان عند الألمان؟ خنادق عجيبة!!

كانت الخنادق التي حفروها في السوم عجيبة حقاً، فهي ـ والأرض كلسيةٌ ـ عميقة جداً، ومتصلة ببعضها، بحيث يسهل نقل المدافع فيها من موقع إلى آخر. كما أنها بارعة من حيث استعمال

«الكاموفلاج» أو التمويه، فقد غُطيت مداخلها بالأشجار، ونُحتت الأقسام العميقة منها بحيث يسهُل نسفُها وتدميرها، حتى بعد أن تكون قد سقطت في يد العدو. كانت الألغام تحيط بمرابض المدافع خوفَ أن يقترب منها متسللو العدو، لو تم هجوم الدوريات أثناء الليل. وكانت الاستحكامات مؤلفة أحياناً من طابقين، فيهما غرف مريحة، ومخازن عتاد، ومكاتب للضباط، وأجنحة لسلاح الإشارات. أما المؤن، وحتى الكماليات المتعلقة بالترفيه، فكانت متوفرة في هذه الاستحكامات بقدر كبير. ولو جاز لنا القول ان تلك الاستحكامات كانت «قصوراً حربية الهندسة»، لقلنا: لقد برع الألمان في السوم في هندسة القصور تحت الأرض.

هذا ما كان سيقابل الجنود البريطانيين والفرنسيين الزاحفين على خنادق الألمان في منطقة السوم. أضف إلى ذلك براعة التكتيك لدى القيادة الألمانية، وصلابة الجندي الألماني الغريزية في نفسه حين يرتد إلى عرق «قبائل الجرمان».

في مقر قيادة هايغ

والآن، لنترك مناعة الخطوط الألمانية، ولنقطع الأرض الحرام، فنصل مقر قيادة هايغ. ها نحن الآن في غرفة العمليات السرية في القيادة. غير أن الأوراق كلها مرصوصة على مكتب، ولا وقت لدينا للاطلاع عليها جميعاً. هذه قصاصة من الورق على الأرض.. وها هو عليها خط هايغ الذي نعرفه. وهو يقول:

«يكفينا في اليوم الأول أن نحرز ٤ آلاف ياردة حتى نلتقي بخط الدفاع الألماني الأول. ولدينا الآن ٤٥٠ مدفعاً ثقيلاً سنركّز نيرانها عليه. ومن ثم نتقدم. وفي ذات الوقت يكون الفرنسيون قد ضربوا نفس هذا الخط من اليسار. بهذا يتم تطويقه، فتصدر الأوامر إلى الخيالة كي يكتسحوه».

ومن هنا علينا الآن أن ننتقل إلى «شانتلي»، مقر جوفر، لنطّلع على رأيه أيضاً. إنه يقول:

«في ٢٤ حزيران يبدأ القصف بالمدفعية الثقيلة. ويكون التسديد محكَماً على الجناح الأيسر من خط الدفاع الأول في منطقة السوم. وفي ٢٩ منه يتم الهجوم. ولست أوافق الجنرال هايغ في رأيه أن يكون الهجوم وقت الفجر، إذ يكون الألمان وقتذاك قد هيأوا أنفسهم لاستقبال يوم آخر



الخيالة البريطانيون ينتظرون أن تفتح المدفعية والمشاة الانكليز ثغرة كي يقوموا بواجبهم في تطهير الجيوب

كالأيام الخمسة السابقة، وإنما أرى أن يتم الهجوم ضحى. وسيكون هذا غير متوقع من قِبل الألمان على الإطلاق. بهذا يتم لجنودنا الاستفادة من عنصر المباغتة وإرباك العدو. أما مدفعيتنا فستكون ٨٥٠ مدفعاً ثقيلاً.

لكن كل هذه التقديرات لم تتحقق في حينها، فقد اضطر الفرنسيون والإنكليز إلى تأجيل الهجوم حتى ١ تموز (يوليو).

معركة السوم

في ١ تموز (يوليو) سنة ١٩١٦، ومع عتمة الفجر، بدأت ٤٥٠ مدفعاً إنكليزياً ضخماً، تهدر، خالقة زوبعة من النار تنصب على خنادق الألمان. لكن هذه لم تتأثر. فقد كان التصويب غير محكم، والعتاد أقرب إلى الفساد. إن كثيراً جداً من القنابل أخطأت الهدف، والبعض منها انفجر بعد اطلاقه من ماسورة المدفع بقليل. فهل كان هناك قضية «أسلحة فاسدة؟».

دعنا من هذا الآن، وسنعود إليه في المساء. أما في هذه الساعة، فلنراقب النار تندلع. ثماني دقائق فقط ظلت تلك المدافع تهدر، ثم خمدت.

وانقضت الدقائق الثماني.. فخرج الجنود الألمان من الأنفاق، واتخذوا مراكزهم قدّام مدافعهم ليردّوا تحية الزملاء بمثلها أو «بأحسن منها». لكنهم الآن رأوا شيئاً لم يشهدوه من قبل.. فألوف الخوَذ الفولاذية تتحرك في خنادق الأعداء. هناك

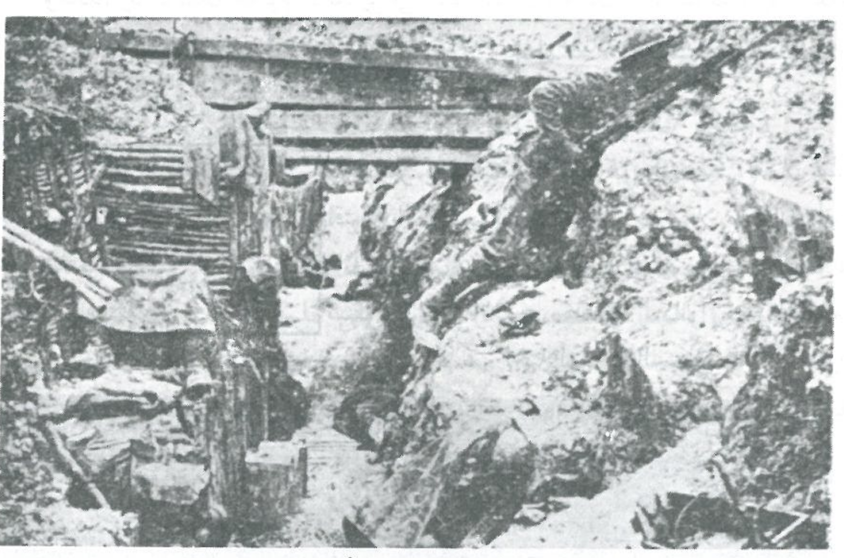
لغَط، وهناك حركة. وهي ليست استبدال فرقة بفرقة تتسلم حراسة الخنادق. الأمر أعظم من ذلك بكثير.

إن هناك هجوماً.

إذن، فليتلَقّوا الأوامر من ضباطهم.

وجاء الأمر، وكان: «على كل مدفعي أن يجهز «طاقم» مدفعه كاملاً. العتاد غير محدود. تبادلوا التلقيم. انتظروا الأوامر».

وهكذا جُنّ شيطان رجال المدفعية الألمان.. ووقفوا مستعدين. وفجأة، تحركت جموع هائلة من البشر، تعوي في نشيدها «ليحفظ الله الملك»، وتتقدم في صفوف متراصة الخطى أولاً، ثم منسجمة الهرولة، فيما بعد.



خندق إنكليزي كانت المدفعية الألمانية قد دمرته.. وها هو الآن خال تقريباً من جنوده بعد تقدمهم مهاجمين الخط الألماني

النار.. سريعاً، إرم

وحينذاك صدر أمر ضباط الألمان: «النار، سريعاً، إرمِ».

ومع «إرمِ» هذه، سقط الصف الأول على طول الجبهة، من المتقدمين. لقد حصدتهم المدفعية، وصادهم الرماة. وارتفع صراخ من نفذ في صدورهم الرصاص. ومعه ارتفعت اللعنات تنصبّ على الألمان، والإنكليز، والدنيا، والشيطان.. كان الجرحى

ينزفون أرواحهم.

وتقدم الصف الثاني، ولم يعتبر، فحصده الرصاص أيضاً، ووقع. ثم تبعه ثالث ورابع وعاشر وعشرون.. والألمان يحصدونهم من مواقعهم الحصينة.

ولما كانت منطقة السوم تشمل أكثر من خندق واحد، أو قرية واحدة، فقد كان هنالك عدة هجومات على مختلف تلك الخنادق والقرى. ومع أن خسائر الإنكليز كانت بالغة جداً، إذ أنهم فقدوا ١١,٥٠٠ قتيل في سبيل إسقاط قرية واحدة، فقد استطاعوا آخر الأمر تثبيت أقدامهم في بعض مناطق خط الدفاع الألماني الأول. لكن هذا لا يعني أن خط الدفاع قد سقط.. ذلك أن الألمان كانوا يعوّلون على خطهم الدفاعي الثاني على الدوام.

وهكذا رد الألمان هجوم الانكليز في اليوم الأول. وكان الرد صاعقاً، إذ ارتفعت نسبة قتلى الإنكليز إلى ٦٠ ألفاً في ١٢ ساعة. فهل هناك ماكينة تحصد مثل هذا العدد من السنابل، وبمثل هذه السرعة!!

طوبى لوحشية الهون!

ولن نمر بعشية هذا اليوم قبل أن نذكر عملاً فظيعاً اقترفه المهندسون الإنكليز.. وعملاً ما كان «أتيلا» قائد الهون، يرضى به دون أن يوبخه ضميره. لقد نسفوا قرية فرنسية بكاملها. كانوا قد ظلوا منذ ٧ شهور يحفرون نفقاً تحت قرية فرنسية يساعدهم احتلالها في السيطرة على مجموعة من التلال بيد الألمان. وقد انجزوا ذلك النفق، ووضعوا فيه شبكة من الألغام جعلوا فيها ٤٠ ألف باوند من روح النشادر.. وفي ١ تموز (يوليو) فجروا تلك الألغام. فأبيدت القرية..

ولن نصف منظر النسف الفظيع، إذ يكفي أن نقول: ان الحرب جريمة كبرى، تتألف من جرائم كبيرة أيضاً.

هذا ما حل بالإنكليز في اليوم الأول، فماذا فعل الفرنسيون؟

باض الديك.. وأصاب رأي جوفر

لنرجع إلى ما قرأناه في «شانتلي» سابقاً، فقد أصاب تقدير جوفر. كان الجناح الأيسر من خط الدفاع الألماني هو نقطة الهجوم المزمعة. فأحرقتها الـ ٨٥٠ مدفعاً الفرنسية، ثم هجم الفرنسيون في

وضح النهار، فاستطاعوا بالمباغتة، وبعدم الفصل بين إطلاق النار ومباشرة هجوم المشاة، أن يشلّوا نشاط رجال المدفعية الألمان.. وبذلك تمكنوا من إسقاط المنطقة التي هاجموها بخسائر قليلة جداً. ليس هذا فحسب، بل إنهم أسروا من الألمان ٤٠٠٠ مقاتل. ولا يجوز أن ننسى عاملاً فعّالاً أشرنا إليه من قبل.. لقد كان عتاد المدافع الفرنسية صالحاً تماماً للاستخدام.

* * *

وبهذا تكون حصيلة اليوم الأول من الهجوم.

أ- فشل الإنكليز مع خسارة ٦٠,٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح.

ب- نجاح الفرنسيين مع أسر ٤٠٠٠ من الألمان.

ولنعد الآن إلى قضية فساد الذخيرة عند هايغ.

ذخيرة فاسدة ولا مفسدون!

حين شكا ضباط المدفعية البريطانية من قبلُ، واحتجوا على أن القنابل التي يجري تزويدهم بها، قليلة الصلاحية للعمل، كتب هايغ إلى وزير العتاد في لندن، وهو لويد جورج، فكان الجواب الذي تلقاه: «ان رجال مدفعيتكم معدومو الخبرة فيودون إلقاء اللوم على نوعية العتاد». لكن الواقع هو ان اضطرار المصانع البريطانية إلى تلبية طلبات جيوشها، والجيش



الجنود البريطانيون يتقدمون إلى «السوم»

الإيطالي، وإرسال بعض الشحنات إلى روسيا - كل ذلك قد هبط بمستوى التقنيّة فيها. فكَان مع الضباط المتذمرين الحق كل الحق في شكاواهم.

هجوم متواصل ودفاع مستميت

وبانقضاء اليوم الأول من شهر تموز (يوليو) وحتى ١٠ منه، ظل الفرنسيون والإنكليز يهاجمون خطوط الدفاع الألمانية كل يوم. وظلوا يحتلون جزءاً جزءاً من تلك الخنادق، على الرغم من الخسائر البالغة التي يعانونها. وزاد الأمرَ شراسةً أن فولكنهاين أصدر أوامره لقواته بأن يدافعوا عن مواقعهم شبراً شبراً، فكانت ضحايا احتلال قرية واحدة تفوق عدد أهل تلك القرية أضعافاً مضاعفة.

تعليق المؤرخين

يرى بعض المؤرخين أن فردان والسوم لم تكونا معركتين بقدر ما كانتا فورة حيوانية دهت العقل البشري بكامله في تلك الأيام، لكنها حطّت في أوروبا وحدها. وهم يدللون على ذلك بأن الوحشية التي تمّت في كل من المعركتين تنحطّ بالنوع الإنساني بكامله إلى درك الحيوان.

إن ألوفاً من الأرواح ابتلعها وحل السوم، وألوفاً من الجنود خرجوا وقد فقدوا قدراتهم العقلية. أما غريزة الإجرام التي يذكر علماء الاجتماع أنها أصيلة في تلك المنطقة، فأساسها تلك المذابح التي يبدو جنكيزخان بالنسبة إليها حَمَلاً وديعاً، ما أطيبه!!

كان الخندق الواحد يتبادله الجانبان، وفي ساعات قليلة، فترتوي أرضه الكلسية المنخربة بدماء الجرحى والقتلى مرة واحدة. وكان منبسط الأرض الحرام بين موقعي الخنادق قاحلاً في العادة، أما سنة ١٩١٧ فقد جاءت غلاله وفيرة. ولا عجب في ذلك، فالرمم التي لم تسمح ظروف القتال بسحبها طوال ١٠ أيام قد تفسخت فصارت سماداً.

هايغ وتقاريره..

ومع كل هذه الفظائع والاستماتة من جانب البريطانيين ظل نجاحهم أقرب إلى الفشل.. ظلوا يتكبدون خسائر جسيمة في كل حركة يتحركونها. وكان هايغ لا يبعث في تقاريره إلى لندن عن عدد

السوم.. بعد المعركة!!

الإصابات في جنوده، بل يموّه ذلك بذكر عدد الأسرى الألمان فقط. وهؤلاء قليلون كل يوم.

هجوم ليلي.. ومباغتة

ويئس من هذه الحال المقيتة روبرتسون، فاستأذن رئيسه هايغ أن يسمح له بالقيام بهجوم ليلي مباغت، إلا أن هايغ عارض في ذلك أول الأمر ولسان حاله يقول: «قد يقبلون عذري في لندن، إذا ما عرفوا الحقيقة عن عدد الإصابات في جنودنا، حين أقول لهم: هاجمنا العدو نهاراً، ومدفعيتنا ضعيفة وعتادنا غير متقن الصنع. ولكنهم لن يقبلوه حتماً حين أقول:

«ومع كل هذا فقد قمنا بالهجوم تحت ستر الظلام».

إلا أن الفكرة جذبته على كل حال. لقد يئس من هجوم النهار الذي ظل يعود بلائحة ضخمة من القتلى والمفقودين.. وهكذا سمح لروبرتسون أن يجرّب خطته.

وفي ليلة ١٤ تموز (يوليو) تحرك من الجبهة البريطانية ٢٠,٠٠٠ جندي في الساعة الرابعة إلا ربعاً. وكان قد سبق تحركهم قصفٌ مدفعي لم يستغرق إلا ٥ دقائق. وكان الألمان آنذاك نياماً، فقد ظنوا أن ليلتهم هذه ستكون كالليالي السابقات. وهكذا باغتهم الإنكليز، فاستطاعوا الاستيلاء على ما طوله ٥ أميال من خط الدفاع الألماني.

مهمة الخيالة..

والآن حانت فرصة استخدام الخيالة البريطانيين. وكانت ٣ فرق منهم معدّة لاختراق الجبهة وتطهير جيوبها. إلا أن هؤلاء تأخر وصولهم. فقد كانت المنطقة موحلة جداً، فاضطرتهم العربات والخيول إلى الإبطاء في السير.

وفي الساعة السابعة صباحاً لاح لأعين المشاة الإنكليز مشهد طالما تمناه جنرالاتهم. ها هم الخيالة قد وصلوا. إنهم يمشطون الحقول بأذناب خيولهم. إن صفّهم العرضيّ الطويل يكاد يسدّ الأفق: رؤوسهم مرفوعة، ورماحهم مُشرَعة، وقريباً ما يقطفون رؤوس الجنود الألمان وكأنها أكواز الذرة بعد أن لفحتها الشمس.

لهذا المنظر رقص بعض المشاة، وغنى آخرون.. وحتى في الموقف الخطير الذي كان فيه الجنود، رمى بعضهم بخوذته في الهواء، وكأنها «بيريه» عتيقة يقذفها صاحبها بعد خروجه من الحانة. أليس هذا مشهداً رائعاً حقاً!!

فرحة لم تتم

ولم يطُل ذلك السرور المباغت، إذ ما كادت صفوف الخيالة تتقدم حتى انهمر عليها مطر الرشاشات الألمانية.. فكانت الفاجعة. صار السهل الضيّق اسطبلاً كبيراً، فمن كل جانب فيه تسمع حمحمة وصهيلاً. أصبحتَ لا تكاد تلمح الفارس في سرج جواده حتى ترى قوائم الحصان الأمامية قد ارتفعت في الهواء وانقلب على ظهره، فدقّ عنقَ سيده.

هكذا انقلب المشهد الرائع، مأساة مؤلمة. ثلاث فرق من الخيالة لم تتقدم إلا إلى الخط الذي قرر لها المدفعيون الألمان أن تفعل. أما حين تجاوزته يساردة واحدة فقد غضبت عليها الأرض والسماء معاً.

الفشل! فهل تكسب النصر الدبابات؟

بذلك فشل الهجوم الانكليزي، وأخفى هايغ عدد الإصابات.. ولم يستطع روبرتسون أن يشرب نخب انتصاره. وبعد هذه المحاولة، بانت الخيبة على محيا الضباط الإنكليز، وغدا القتال روتينياً لا حماسة فيه.

لكن هذا لم يفتّ في عضد هايغ. نعم، إنه كان متألماً جداً، ولكنه أيضاً كان

كان لوحل منطقة السوم أثر كبير في المعركة
إن عتاد المدافع البريطانية لا يصل في حينه

عنيداً جداً. لقد قرر آخر الأمر أن يستعمل الدبابات، وكان ذلك في أيلول (سبتمبر). وقد نصحته القيادة العامة من لندن أن لا يفعل، وطلبتْ إليه الانتظار حتى يتم تزويده بعدد كافٍ من هذا السلاح الجديد. إلا أن إصراره كان إصرار اليائس من وجود وسيلة أخرى.

الدبابة سلاح لا يحتل المواقع

كان هذا السلاح جديداً لم يتم تطويره بعد، وكانت التجارب التي أُجريت على صلاحيته قليلة جداً، لا تكاد تجزم بالنفي أو الإيجاب. ومع هذا قرر هايغ استخدامه في جبهة السوم.

وتقدّمت هذه الدبابات إلى الخط الألماني.. أما بعضها فقد انقلب بعد ان لحق به خلل، وعجز الجنود المشاة عن إصلاحه. وأما البعض الآخر فقد تقدم حتى حاذى خطوط العدو. ولكن.. وما أمرّ هذه الـ «لكن» في حق هايغ! إنه لم يستطع أن يجعل المشاة يلحقون بالدبابات المتقدمة.. وليس في مقدور الدبابات وحدها أن تحتلّ موقعاً. لذلك فشل الهجوم، فتراجع العدد الذي ظل صالحاً منها، واستولى الألمان على بعضها.

وهكذا لم ينتفع هايغ من السلاح الجديد.

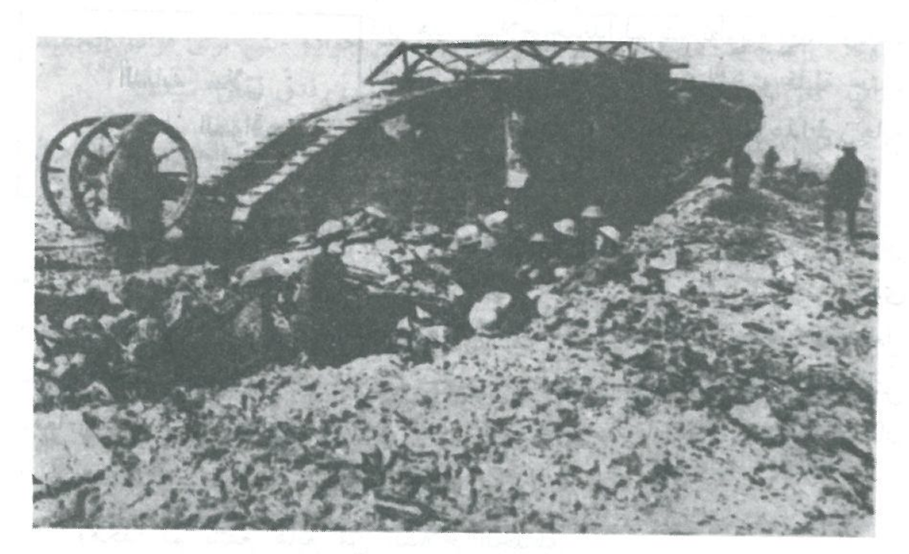
نعم، كان ذلك إنذاراً للألمان بأن من الممكن الوصول إلى خطوطهم مع البقاء

في مأمنٍ من نارهم الكثيفة. ولكن، حتى هذا الإنذار لم يأخذه الألمان بالقدر الكافي من الجدِّية. وزاد الأمرَ تعقيداً، أن موسم سقوط الأمطار كان قد حان، فغدت الأرض قيعاناً موحلة يتعذر على المشاة، بله الآليات، أن تتحرك فيها.

لم تفتح ثغرة.. رغم ارتفاع الخسائر

وبهجوم ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وفشله، يمكن القول ان معركة السوم غدت خالية من النشاط، وإنما استمرت تجرجر نفسها بين الحين والحين. نعم، لقد تم هنالك تقدم لمسافة ٥ أميال في بعض المواقع، لكن فتح ثغرةٍ ما، لم يحدث. وبذلك ظل الخط الألماني منيعاً كعادته.

ويمكن تقدير أهمية هذه المعركة من الخسائر التي لحقت بالطرفين المتحاربين. فالألمان ارتفعت لائحة إصاباتهم إلى ٤٥٠,٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح ومفقود. والإنكليز دفعوا ٤٢٠,٠٠٠ معظمهم قتلى. والفرنسيون كان نصيبهم ٢٠٠,٠٠٠ رجل. وكان معظم إصابات الألمان من الجرحى، والذين بالوسع تفادي إصاباتهم لولا عناد فولكنهاين، كردّ فعل لعناد هايغ. إذ كانت أوامر القائدين هي: «لا تتراجع خطوة واحدة. وإذا اضطررت إلى ذلك فاسترجعها بهجوم معاكس».



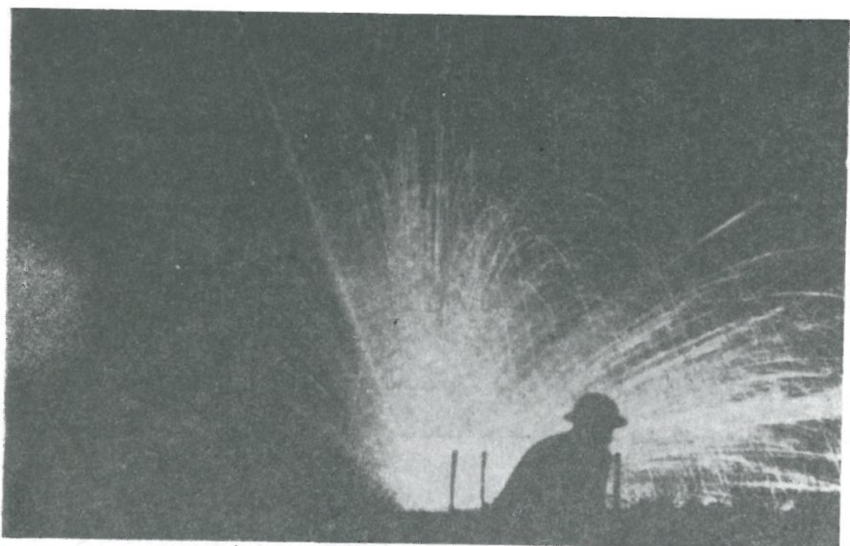
دبابة بريطانية في ورطة.. لقد انقلبت

كذبٌ على التاريخ!

ويقول المؤرخ الإنكليزي الرسمي ان خسارة الألمان ارتفعت إلى ٦٥٠,٠٠٠ رجل، ولكن:

أولاً: إن هـذا المؤرخ لم يذكر هـذا الرقم في وقت المعركة أو بعد بضعة شهور منها، وإنما عمد إلى رفع رقمه السابق بعد حدوث «السوم» بسنوات. وطبيعي أن هذا يترك مجالاً للشك في إيراد الحقيقة.

ثانياً: كان الألمان هم المدافعين في معركة «السوم»، وكان البريطانيون والفرنسيون المهاجمين. ولم يسبق في معارك الحرب العالمية الأولى أن كانت خسارة الدفاع مثلَ خسارة الهجوم! وهذا ما يحدث لو قبلنا الرقم، إذ تغدو خسارة الألمان ٦٥٠,٠٠٠ رجل، بينما يكون مجموع خسارة الحلفاء ٦٢٠,٠٠٠ رجل. وهذا غير طبيعي.



الفن في الحرب.. اطلاق النار في الليل باستعمال الأضواء الكاشفة حتى وسائل الدمار لا تخلو من جمال!

ثالثاً: لقد ذكرنا من أسباب فشل الحملة الإنكليزية الأولى سوء صناعة العتاد، أو عدم التدرب على استعماله (كما احتجّ لويد جورج). وذكرنا في نفس الوقت أن الألمان كانوا يتقنون استعمال مدفعيتهم الثقيلة، فهل من المعقول أن يكون العتاد الصالح في موقف الدفاع، أقل تأثيراً من العتاد الفاسد **في موقف الهجوم؟!**

إن كل هذا يجعلنا نستنتج: «ان المؤرخ الرسمي الإنكليزي رأى في بقاء نتائج معركة السوم وصمةً تلحق بالجيش البريطاني، فأراد أن يزيل تلك اللطخة لمجرد تبييض السجل، ورفع المعنويات في السنين القادمة. ولكنه كان مضطراً في سبيل ذلك إلى الكذب، والتزوير في التاريخ».

وإذا كان هذا جائزاً في معرض التأريخ الفردي، ككتاب يؤلفه إنكليزي أو فرنسي أو الماني متعصّب لقوميته وبلاده (حتى مع أنه لا يمكن إلا أن يظهر الزيف)، فإنه من العيب تماماً أن يفعَل ذلك مؤرخ رسمي. ألا يعلم أن التأريخ يمحو بطبيعته كل الدعاوى الكاذبة التي تُلصَق به!!

السوم.. هزيمة للطُرفين

الألمان

الواقع أن معركة السوم كانت هزيمة للبريطانيين.. ولكنها هزيمة ليست قليلة الثمن في جانب الألمان. وإذا كان هايغ قد هدف من إصراره على الاستمرار فيها أن يحطم معنوية الجيش الألماني، فقد فشل تماما في بلوغ هدفه. نعم، إن معنوية الألمان قد غدت مهزوزة، والجيش الألماني قد خسر كثيراً.. لكن كل هذا لم يبلغ درجة الانهيار، لا من حيث القدرة على القتال، ولا من حيث تعويض الخسائر بجنود جُدد.

البريطانيون

ومن ناحية أخرى، لم يكن الألمان وحدهم هم الذين اهتزت معنوياتهم. فالبريطانيون أيضاً قد عانوا ذلك، بل وبصورة أبعد أثراً. فقد عرفنا من قبلُ أن «جيش كتشنر» هو الذي ألقي به في المعركة. وعرفنا أن ذلك الجيش كان في معظمه من «المتطوعين»، وقلنا انهم كانوا أقوى أبناء الأمة من حيث اللياقة البدنية، ومن حيث اشتعالهم حماسة لمجد وطنهم.

والآن.. ها هم تحطموا في معركة السوم. إن خسائرهم بالغة، ووطنهم قدّم لهم عتاد مدفعيةٍ فاسداً أو شبه فاسد، وضباطهم كانوا ينحرونهم بإيعاز «إلى الأمام تقدّم»، وقيادتهم تأمرهم بدوام الهجوم المعاكس ـ فماذا يُنتظر أن يحدث لنفسياتهم!!

لقد تبخرت حماستهم، وانقلبوا من «وطنيين» راغبين في «التضحية» إلى «مجرد جنود» كل هدفهم «أن يَقتلوا» كيلا «يُقتلوا». وبكلمة أخرى صاروا «مُحترفي قتل»، و«عصابات إجرام»، ولكن بصورة جماعية.

حرب ولا هدف!

الآن أصبحت الحرب لا «هدف» لها. وبضياع ذلك «الهدف» انقلبت مجرد مجموعة من المذابح المترابط بعضها برقاب بعض، ودون سبب إلا ذلك الترابط نفسه.

هذا ما فطن إليه المؤرخ الرسمي البريطاني ثم زميله الفرنسي بعد ذلك بسنوات. ولكن المرء لا بد وأن يتساءل: وحتى في أول أمرها، هل كان للحرب هدف ما؟ قد يجيب بعضهم، انه السيطرة، والاقتتال على مناطق النفوذ، و.. و.. غير أن كل هذه أهدافٌ آنيّة، وضيّقة الأفق. ونحن نعني بكلمة «هدف» أن يكون هدفاً للإنسانية قاطبة، ان لفظة «هدف» في نظرنا لا بد وأن يتسع محتواها فتغدو «هدفاً نبيلاً للإنسان كإنسان». ولسنا نرى إمكانية تطبيق هذا المحتوى على واقع أي حرب مسلحة أبداً.

وكما صار «مجدُ» الامبراطورية البريطانية بعد الآن، في يد «مجموعة من محترفي القتل»، كذلك وقع «مجدُ» ألمانيا في يد «فئة من الضباط المغامرين»، الذين لم يكونوا أقل احترافاً للقتل. ومثل هؤلاء، ولكن بشكل أخف حدّة، حصل في فرنسا. وفي روسيا والنمسا والدولة العثمانية تُوصّل إلى نفس النتيجة، ولكنْ إثر عمليات عسكرية أخرى.

أثر ذلك في الأدب. الأدب العسكري..

كل ما مضى يوضح لنا اتّصاف الأدب ـ وفرع الرواية على الخصوص ـ في البلدان المتحاربة، والذي تم إنتاجه في العقد الذي تلا، بصفة واحدة هي: الكآبة والإفلاس. فهذا الأدب ينظر إلى الإنسانية من زاوية قاتمة، ومن خلال عدسة الضياع التي نشرتها الحرب على رؤى الكتّاب والشعراء والفنانين.

ويمكن تلخيص الأدب العسكري (إذا جاز التعبير) الذي خلّفته الحرب بأنه «صورة مشوهة للمخلوق السوي، تشويهه في روحه كمجرم غير مسؤول، ويائس من الحياة لأنه تائه في سراديبها، وتشويهه في جسده، كمنحرفٍ في شهواته، تعويضاً عن عاهات لحقت به في الميادين».

إن الجندي غدا: «كافراً بجميع القيم الأخلاقية، غير قابل لأن ينضبط، وغير مخلص إلا لشركائه في المأساة، أي رفاقه في السلاح في الخندق، أو حظيرة المدفعية أو فصيلة المشاة». نعم، إنه شجاع، ولكن شجاعته أقرب إلى نقيصة القنوط منها إلى فضيلة التحمل.

هذه النفسية المشوهة هي التي بُني عليها عالَم ما بعد الحرب العالمية الأولى.

فهل من الطبيعي أن تستقيم أمور السياسة الدولية إذن؟ كلا.. ولهذا قيل: «في

معركة السوم، ومن قبلها فردان، بُذرت البذرة الأولى للحرب العالمية الثانية».

ونحن نعقب على هذا القول، فنضيف: «ومن تاننبرغ وحملة بروزيلوف أيضاً».

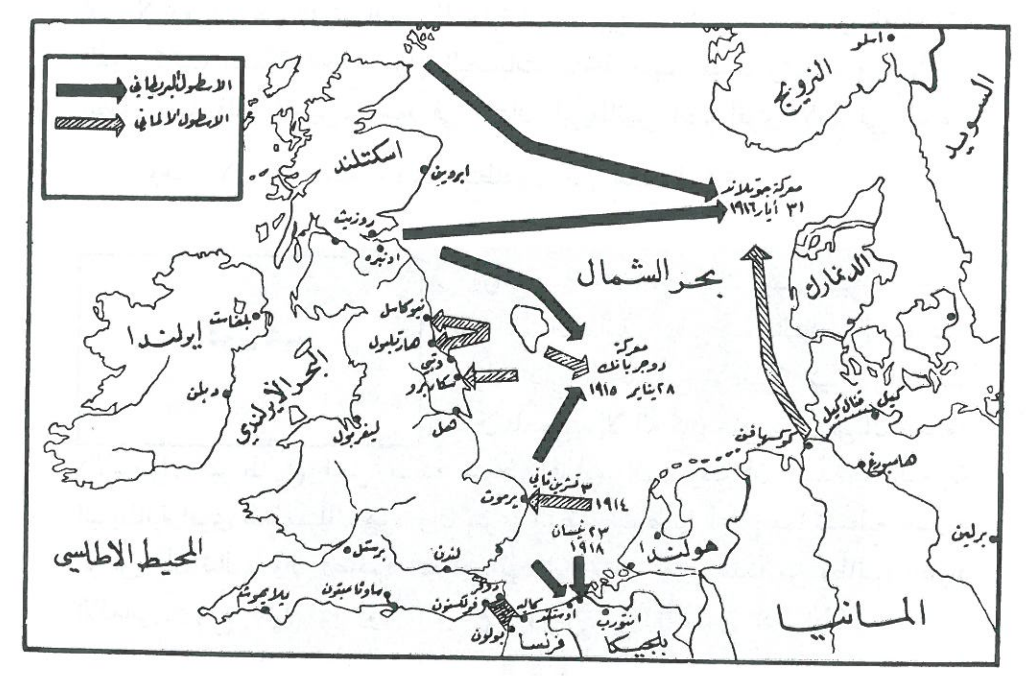
* * *

إذا وددنا تلخيص السجل الحربي لما تم في سنة ١٩١٦ أمكننا القول: انتقلت الحرب من شهامة الفرد وعافية المجتمع إلى صناعة قائمة بذاتها تنم عن انحراف ومرض المجتمع.

ولقد غدت المدافع والدبابات وذخيرتها عاملاً يبطىء في سير الحرب، مع أنه أنشىء في أصله من أجل زيادة السرعة فيها. كما أصبحت الأرواح البشرية ضحية للأهداف، وقرباناً يراق على مذبح الشيطان لا غير.

وشرع العالم الدخول في مفازة من الضياع، وصحراء تبعث على اليأس والجنون.

فهل ترى أيها القارىء الكريم عاماً أكثر سواداً من عام ١٩١٦؟؟



خريطة الحرب البحرية ١٩١٤ ـ ١٩١٨

الحرب البحرية

ولما كان إلّه الحرب يملك البر والبحر، فقد ود في هذا العام أن يباشر نشاطه على مملكته المائية أيضاً. لهذا ترانا نسمع بالمعارك البحرية في بحر الشمال.

المعارك البحرية

تعتمد المعارك البحرية علاوة على رسم القيادة العامة للاستراتيجية، وتحديد القيادة الموضعية للتكتيك، على عاملين: أولهما ـ سرعة الحركة، وثانيهما ـ الرغبة في القتال. أما من حيث سرعة الحرب فإن الدقيقة الواحدة في المعركة البحرية قد تكفي لترجيح كفة على أخرى. وأما من حيث الرغبة في القتال فهي التي تحدد محاولة الوصول إلى نصر حاسم، أو الاكتفاء بنصر جزئي، أو الانسحاب المرسوم.

لم تشهد أوروبا منذ سنة ١٥٨٨، معركة بحرية فاصلة. و١٥٨٨ هذه هي يومَ هاجم الملك فيليب الثاني، ملك إسبانيا والأراضي الواطئة، شواطىء بريطانيا بأسطوله الضخم الذي أطلق عليه المؤرخون الأسبان اسم «الأرمادا»، أي «العمارة البحرية التي لا تُقهر». حينذاك تم النصر للبحارة البريطانيين، وجلّهم من مغامري القراصنة، الذين كانت الملكة العذراء (!) اليصابات تتخذ منهم عشاقاً وشركاء في الأرباح أيضاً. ومنذ ذلك الحين، رسخ في أذهان البريطانيين أنهم أقوى الأمم في الماء.

وهم الآن في سنة ١٩١٦ ينطلقون من هذه الفكرة.

فون شير

في أوائل سنة ١٩١٦ حدث تبدل كبير في جهاز الأدميرالية الألمانية، إذ عهِد بالقيادة العامة على أسطول أعالي البحار إلى الأدميرال شير. وكان هذا يتحرق للعمل. إلا أنه كان على يقين من أن خصمه (الأسطول البريطاني) ليس صيداً سهلاً. فالأدميرال يعرف أن المدفعية البحرية البريطانية أقوى مما يمتلك هو، وان سرعة القطع البريطانية أعلى مما تستطيع عمارته البحرية أن تنال، وان «طاقم» الطراد البريطاني مثلاً، أكبر عدداً من «طاقم» الطراد الألماني. ومع هذا فهو يود الالتحام، وبكل قواه!! أليس أدميرالاً؟

***

هذا من ناحية الألمان. أما عند البريطانيين فإليك الموقف آنذاك: الحصار

البحري المفروض على ألمانيا ناجح جداً يضيّق عليها الخناق، وبتصفية القطع البحرية الألمانية التي كانت في الشرق الأقصى، بإغراقها ـ غدت أعالي البحار تحت سيطرة البريطانيين. والأسطول البريطاني قد تجمّع من قواعده البحرية النائية وتركزت قواته في بحر الشمال.. أضف إلى ذلك نوعاً من الاعتقاد بأن «بريطانيا للبحر، والبحر لبريطانيا».

تقييمان ووجهتا نظر

والآن، ما هي نفسية الأدميرالية الألمانية ونفسية مخاصمتها؟

إن الأدميرالية الألمانية تقول:

«نعم، إن الأسطول العدو أكثر عدداً في قطعه، وأسرع، وذو عدد أكبر من البحارة ـ ولكنه، أقل براعةً من حيث القيادة، ومن السهل إيقاعه في فخٍ لذلك».

ثم تضيف:

«إذا قدّر لنا النصر في البحر، كسبنا الحرب، وجعلنا بريطانيا تعاني حصاراً أشد من هذا الذي تفرضه الآن. كما أنه يغدو بوسعنا آنذاك أن نساعد الغواصات النمساوية في بحر الأدرياتيك كي تقوم بدورها في البحر المتوسط. ومن ثم، نساعد حليفتنا تركيا في ميدان آسيا».

أما الأدميرالية البريطانية فترى غير ذلك:



إلى اليمين «الأدميرال فون شير» وأسطوله يقاتل

«إننا سننتصر على العدو في البحر. وبعد تحطيم أسطوله، نزيد من تشديد الحصار، كما يغدو بوسعنا استخدام جنود بحريتنا في الميادين البرية في آسيا. ولن تزاحمنا فرنسا أو روسيا هذا النصر، حتى إذا ما تم النصر النهائي، جعلنا مساهمتنا البحرية في الحصول عليه نظيراً مساوياً لمجهودات الفرنسيين والروس، البرية».

ونحن استناداً إلى مجموعة من آراء الثقات في الحرب البحرية نقول:

«إن كلتا الأدميراليتين كانت مصيبة في تقديرها لو تم نجاح ذلك التقدير». لكن، دعنا نرى الوقائع.

زعم الشيفرة!

منذ أول الحرب في سنة ١٩١٤ كان الروس قد حصلوا على الشيفرة الألمانية المتعلقة بالحركات البحرية، حين قذف الموج جثة ضابط ألماني كان على ظهر مركب تم إغراقه. لقد نسي الضابط أن يتخلص من أهم أسرار رتبته العسكرية، فكان في ذلك غنيمة ثمينة للعدو. وقد سلّم الروس هذه الشيفرة للأدميرالية البريطانية، فحلّت رموزها، وغدت بفضل ذلك على علم تام بجميع حركات الأسطول الألماني. صارت تترقب يوم نزوله إلى بحر الشمال، وتترصده لإغراقه.

الحاجة إلى تمحيص

هذه قصة يذكرها المؤرخون الرسميون الروس والبريطانيون. وقد قبلها آخرون غيرهم دون تمحيص. لكننا نحن نقف منها موقف الشك للأسباب التالية:

أولاً: لم نسمع أن دولة واحدة مهما بلغ الغباء عند أفراد قيادتها العامة، تضع شيفرة ثابتة طوال أربع أو خمس سنوات. ولا حتى لسنة واحدة. فكيف لم تغيّر ألمانيا شيفرتها هذه من أول الحرب حتى منتصف سنة ١٩١٦!؟

ثانياً: إن المؤرخين قاطبة، والعالم أجمع، يشهد للقيادة الألمانية بالتفوق في جميع النواحي على خصومها، فهل تُغفل أمراً عظيم الخطورة في مجرى الحرب مثل هذا الأمر؟

ثالثاً: **لماذا لم يستفد البريطانيون من هذه الشيفرة في معركة فولكلاند فيقللوا خسائرهم، مثلاً!؟**

وقعت الواقعة ولكن مخففة

ومهما كان الحال فقد وقعت الواقعة في ٣١ أيار (مايو). ففي هذا اليوم اتجه الأدميرال هيبر، قائد المدرعات الألمانية، نحو السفن البريطانية التي تحاول اللحاق بالأسطول البريطاني في مركز تجمّعه في عرض البحر. وكان مقرراً أن يكون ذلك خديعة، يتم بواسطتها سحب الأسطول البريطاني لمقاتلة الأسطول الألماني المتهيء للقتال. وطبيعي أن جليكو، قائد الأسطول البريطاني أُبلغ عن حركة الأدميرال هيبر، فود بدوره أن يجعل الفخ لصالحه هو. ولذلك اتجه بالقوة الرئيسية نحو الجنوب، بعد أن كان في «سكابافلو».

هكذا شهد بحر الشمال أقوى عمارتين بحريتين تتقدم الواحدة منهما تجاه الأخرى في ذلك اليوم. وقد علّق على ذلك أحد الظرفاء بقوله: «يبدو أن السمك كان جائعاً».

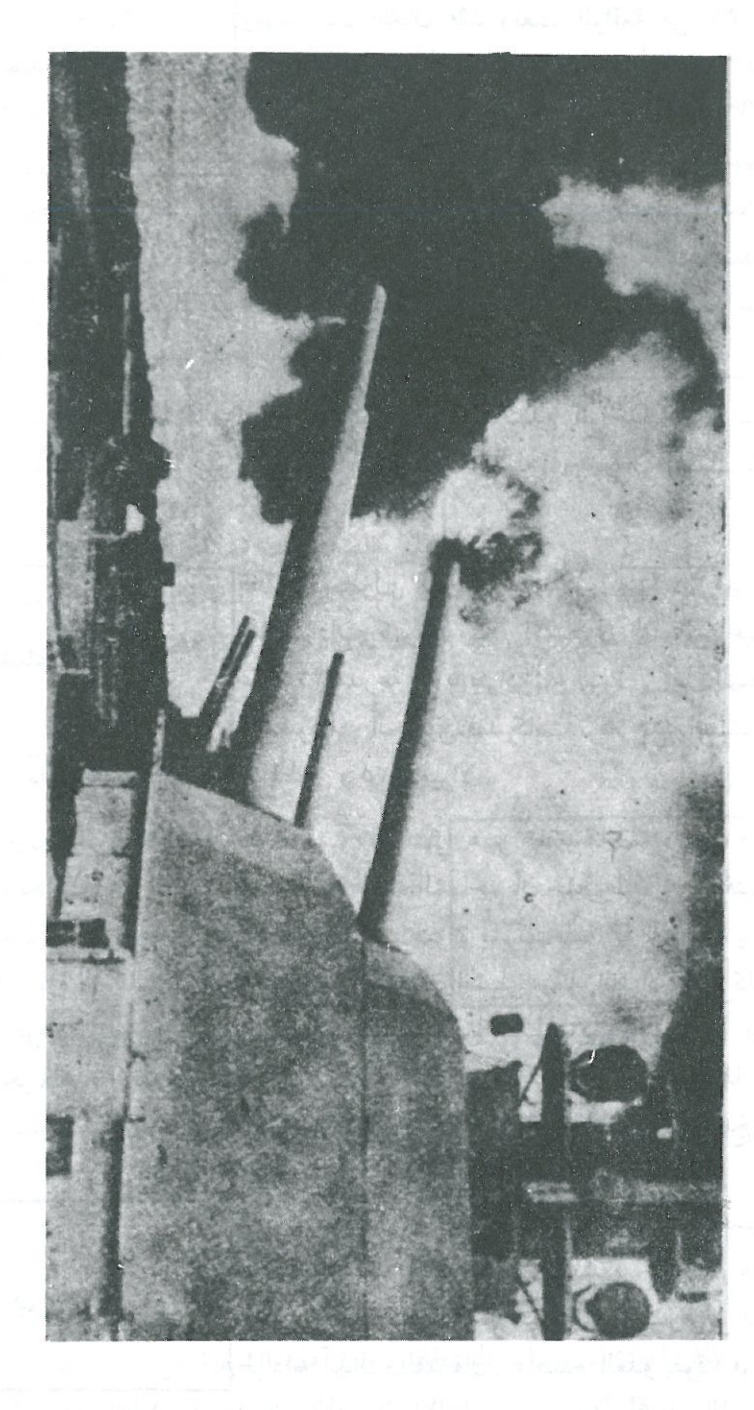
إحصاء للقوات

كان الأسطول البريطاني يتألف من ٣٨ مدرعة و ٩ طرادات كبيرة. وكان الأسطول الألماني عبارة عن ١٦ مدرعة و ٥ طرادات كبيرة. أما السفن الصغيرة من الجانبين فقد كانت ترفع عدد المنشآت البحرية في ذلك اليوم إلى ٢٥٠ قطعة و ٢٥ أدميرالاً.

وفي أول الأمر، سارت الخطة حسب ما يشتهي هيبر. فقد هاجمه «بيتي» قائد الطرادات الانكليزية بعد الظهر بقليل، فكان جزاء المهاجِم أن خسر طرادين أغرقتهما مدفعية الألمان المركزة والدقيقة التسديد. وهناك صورة نشرتها البحرية الألمانية يبدو فيها مئات البحارة الانكليز يتواثبون إلى الماء - بعد أن انشطر هيكل الطراد الذي كانوا فيه - **في وجوههم يلوح الذعر، ويرتسم الموت فاغراً شدقيه كي يلتهمهم. وقد التهمهم البحر، هذه المقبرة الهائلة التي لا ترد منها أحداً ولا شيئاً، والتي حين يقارنها الناس لا يجدون شيئاً أصدق عليها من قولهم: «إن جبّانة البحر كبطن التاريخ».**

بيتي المتهوّر

كان المفروض أن يرتد «بيتي» بعد هذه الخسارة العظيمة. لكنه كان متهوراً. يشهد بذلك، هذه العبارة التي كانت الأمرَ الوحيد الذي أصدره إلى قادة طراداته آنذاك. لقد قال: «أصبح العدو يفوقنا قوة. فلنتقدم». وكان هذا الطيش هو ما يبغيه الأدميرال الألماني سير. لقد رأى فيه الفرصة





المدافع البحرية الألمانية تهدر في معركة جوتلند

المواتية للقضاء على عدوه. وبخاصة أنه كان يهدف من وراء مناوشة هيبر للأسطول البريطاني أن يعزل قطعه على شكل مجموعات صغيرة، يغرقها على التتالي.

لكن بيتي فطن للعبة، كما يبدو. فتظاهر بالانسحاب مهزوماً. وحينئذٍ تعقبه شير طوال ساعتين. غير أنه عجز عن اللحاق به لسبب بسيط؛ فأقصى سرعة الطرادات الألمانية كانت ١٦ عقدة بحرية في الساعة، في حين أن أقصى سرعة الطرادات الانكليزية هي ٢١ عقدة.

وفي الساعة ٦:١٥ من مساء ذلك اليوم ظهر الأسطول البريطاني في الأفق. واتخذ في سيره «وضع الدفاع». فأدرك شير أن هناك خطة ترمي إلى تطويقه من الخلف. ولهذا غادر الموقع في الساعة ٦:٣٠ مولّياً الأدبار. ولم يحاول جليكو أن يتعقبه، بل تركه ينجو.

تقويم وتعليقات

هنالك الكثير من المعلقين البحريين يقولون: «لقد جبُن جليكو، أو أنه لم يتمتع بالحذق الحربي الكافي في هذه المعركة. فلو طارد «شير» لاستطاع بفضل أسطوله الأكبر والأسرع والأحسن مدفعيةً، أن يقضي على خصمه».

ولكن معلّقين آخرين يقولون: «وهل كان جليكو يأمن الغواصات الألمانية أو إمكانية أن يجره شير إلى مياه تنتشر فيها الألغام البحرية!؟ لو طارد جليكو خصمَه، واستعمل الأخيرُ أحد هذين السلاحين، لكان الأسطول البريطاني نفسه قد سجّل النصر في الحرب بكاملها للألمان».

ولنترك هذه التعليقات لنرى رأي جليكو نفسه. إنه يقول:

«إن المحافظة على بقاء مدرعة أو طراد في عمارتي البحرية، فوق الماء، لهي أهم بكثير من إرسال مدرعة أو طراد ألماني إلى قعر البحر».

شير يظهر ثانية ثم ينسحب الخصمان

ولم تمض نصف ساعة بعد الانسحاب حتى ظهر شير ثانية في وسط الأسطول البريطاني، ولم يدرِ أحد من أين طلَع. وحينذاك بدأت المدفعية البحرية نشاطها، فدام القصف ربع ساعة، ثم انسحب شير، سالماً. وقرر جليكو هذه المرة أن يتعقبه. لكنه لم يدرِ الطريق الذي سلكته

القطع الألمانية على وجه التحقيق، فخمّنه من عنده. وكان ذلك التخمين خاطئاً تماماً.

أما الموقف في تلك اللحظة فكان كما يلي:

الألمان يسيرون منسحبين تجاه بلادهم، والأسطول البريطاني بينهم وبين هدفهم لكنه لا يعلم ذلك.

وقد اتصلت الادميرالية في لندن عن طريق اللاسلكي بـ «جليكو» وأرشدته إلى الطريق الذي يسلكه شير، إلا أن الأدميرال كان يحتقر اللاسلكي، فقرر أن يعود أدراجه إلى بريطانيا. ومثل ذلك فعل شير.. وبهذا انتهت معركة جوتلند.

السير جون جليكو
كان على وشك أن يخسر الحرب

الخسائر.. ومن الذي انتصر؟

لقد بدأت المعركة في الثالثة والنصف بعد الظهر، وانتهت ٦:٣١ من مساء اليوم نفسه بهذا يكون القتال لم يدم أكثر من ٣ ساعات فما هي النتيجة؟

كانت خسارة الانكليز ٣ طرادات و٣ مدرعات و ٨ نسافات.

وكانت خسارة الألمان طراداً ومدرعة و ٥ نسافات و ٤ طرادات صغيرة.

هذا من حيث القطع البحرية. أما من حيث الرجال، فكانت خسارة الانكليز ٦١٠٠ بحار، وخسارة الألمان ٥٢٠٠ فقط.

لكن، من الذي انتصر؟

يقول جليكو: «لقد هرب الألمان من أمامنا، فنحن المنتصرون. هذا معيار المعارك البحرية». ويقول شير: «لقد كانت خسائر العدو أكبر من خسارتنا بكثير، كما أننا وضعنا أيدينا على نقاط الضعف عندهم، وهو المدفعية غير المحكمة التسديد. ولهذا فنحن المنتصرون». لكن الواقع أن الذي انتصر هو حيتان بحر الشمال.

إقصاء جليكو

بيد أنه: هل يُقنع حكمنا السابق، المواطنين الانكليز في بريطانيا؟ كلا، طبعاً. ولهذا نرى الوزارة تغيّر أوضاع الأدميرالية فيستعاض عن جليكو بالأدميرال بيتي الأكثر حيوية وانقياداً. إلا أن هذا يرى الحكمة في بقاء الأسطول البريطاني في قواعده ما لم يخرج الأسطول الألماني إلى عرض البحر.. وقد حدث ذلك مرتين خلال هذا العام، وكانت المناوشات البحرية فيهما غير ناجعة ولا حاسمة. وبهذا تم إنهاء الحرب البحرية لهذا العام دون غالب أو مغلوب.

***

وإذا كان الألمان والانكليز لم يتوصلوا إلى نتيجة ترضيهم من حيث العمليات الحربية، فقد توصلوا إلى ذلك في أفكارهم. فبعد جوتلند وتوابعها أصبح الموقف الاستراتيجي عند الأدميرالية الألمانية على النحو التالي:

«إن انتصارنا في جوتلند لم يكن كلياً، ومنه عرفنا أنه يستحيل علينا إحراز النصر المنشود عن طريق مواجهة الأسطول العدو في معركة نهائية. إذن، علينا أن نستغل

سلاحاً جديداً للقضاء عليه، وهذا السلاح هو الغواصات. إنه يقتضي أن نحوّل جميع أحواض السفن في بلادنا لبناء الغواصات، وأن يتلقى بحارتنا التدريب الكافي على العمل تحت الماء. بهذا نستطيع تحطيم القوة البحرية المعادية ورجالُنا في مأمن. كما أن العدو سيظل عاجزاً عن اللحاق بنا في هذا المضمار. وقد كان بمقدورنا أن نفعل ذلك منذ سنة ١٩١٥ لو كان لدينا العدد الكافي من الغواصات آنذاك. أما الآن فيجب توفير هذا العدد».



الأدميرال بيتي
ظن أنه كسب الحرب في أعلى البحار

الاستراتيجية البريطانية

أما الاستراتيجية البريطانية فإليك ما تم رسمها بتأثيره:

«ليس من السهل إحراز نصر على الأسطول الألماني في عرض البحر. فقد أثبتت معركة جوتلند أنه خصم قويّ استطاع التغلب على اسطولنا ذاته. ولهذا فإنه ينبغي الاستمرار في تطبيق الحصار البحري المفروض مع تشديده إلى درجة كبيرة، وفي نفس الوقت ينبغي إبقاء أسطولنا في قواعده ما لم يضطره الأسطول الألماني إلى الالتحام».

إذن، كان النصر للحيتان..

في كلتا النظرتين تصديق لما قلناه سابقاً من أن المنتصر في معركة جوتلند كان الحيتانَ في بحر الشمال. فها هم الإنكليز يعتبرون أنفسهم مهزومين، كما أن الألمان يقرّون بعدم إحراز النصر.

وفي هذا المجال، نود الرجوع إلى قضية العثور على «الشيفرة» فنقول: هل يتخذُ الموقفَ الذي سبق أسطولٌ لدى أدميراليته الشيفرةُ الخاصة بأسطولٍ عدو!! ليس هذا مما يتفق والمنطق.

ولنترك الآن الأساطيل ورجال الحرب، ولنلق نظرة على أحوال المدنيين في سنة ١٩١٦.

* * *

«شتاء اللفت» وأمثاله

في ألمانيا ظهر «شتاء اللفت»، وفي بريطانيا «التوقيت الصيفي»، وفي روسيا «نريد الكفّ عن إطلاق النار»، وفي سويسرا «لا حرب استعمارية بعد اليوم» وفي الإمبراطورية النمساوية «التشيك شعب يطلب الاستقلال بشؤونه» وفي إيرلندا «الحرية لايرلندا، فهرّبوا السلاح الألماني». هذه قائمة من شعارات.. فما معناها؟

إذا شرحنا كلاً من هذه الشعارات بصورة إجمالية نكون قد أعطينا صورة مقتضبة لمجتمع سنة ١٩١٦ في أوروبا. فلنبدأ بـ«شتاء اللفت».

١ ـ ألمانيا

ألمانيا بلد يكاد يكون مكتفياً زراعياً، فقلّما يستورد المواد الغذائية في حال السلم. لكن الألمان في عام ١٩١٦ كانوا جائعين إلى درجة أن غدا اللفت هو الغذاء الرئيسي على موائدهم. وكانت القيادة الألمانية تعمد على الدوام إلى نشر الفكرة القائلة: إن الحصار البحري البريطاني هو السبب في الجوع، وهدفها من ذلك واضح تماماً، فهي تريد خفض كل صوت قد يرتفع منادياً بأن الحربَ شر على الشعب فيجب أن توضع لها نهاية ما. كما تود في نفس الوقت إثارة مشاعر المواطنين الجوعى وتسهيل دفعهم، بعامل الحميّة والانتقام، إلى تحمّل وضعهم الحالي في سبيل قهر هذه الـ«بريطانيا المجرمة».

ولكن.. لماذا جاع الألمان؟

كانت حكومتهم هي السبب في جوعهم. فقد غدت تنفق كل «مارك» تحصل عليه من أجل الاستمرار في الحرب. إنها هي التي سحبت الفلاحين من حقولهم ليلتحقوا بالمقاتلين في فردان وغاليسيا والسوم. ولهذا تدنّى الانتاج الزراعي. كما



نساء برلين يفتشن القمامة بحثاً عن الطعام!!

أنها، بطرْحها كميات ضخمة من النقد في السوق، خلقت التضخم المالي. فالأسعار أخذت ترتفع دون أية رقابة، وهذا أغرى المزارعين ببيع خنازيرهم وأبقارهم ومحاصيلهم في أسواق المدن.

وقد صدف أن جاء موسم سنة ١٩١٦ رديئاً لشدة البرد الذي أتلف المحاصيل، فنتج من كل ما تقدم أن سيطر على ألمانيا «شتاء اللفت».

٢ ـ بريطانيا

أما في بريطانيا، فقد ظلت الأحوال شبه عادية، لم يجر توزيع الخبز بالبطاقات ولم يقلّ استهلاك السكر إلا قليلاً. نعم إن بعض الكماليات قد فُقد أو كاد، لكن المواد الضرورية ظلت متوفرة إلى حد ما. ظل الناس يجدون طحين القمح فلما زادت الحاجة إلى المجهود العسكري، صار الطحين يُخلط بدقيق الجودار ثم الذرة الصفراء، وأخيراً بمسحوق البطاطا. وكان هذا ما خلق اشمئزازاً فظيعاً في نفوس الناس من أيام الحرب.

أما الأسعار فقد ارتفعت، لكن ليس إلى الحد الذي يخلق أزمة التضخم المالي. فقد كان هنالك شيء من الرقابة تقوم به الحكومة. وساعدها في ذلك أن النقابات واتحادات العمل لم تتشدد في مطالبها، بل قبلت حلاً وسطاً من الحكومة، وظلت تعمل بتؤدة في سبيل رفع أجور أفرادها.

سرقة العمال.. تقديم الساعة!

لكن هنالك ظاهرة جديدة تتعلق بعمال بريطانيا في الحرب. إذ استطاعت الحكومة أن تسرقهم، وبطريقة لبقة لا غبار على نُبلها! لقد خلقت التوقيت الصيفي والآخر الشتوي. وبهذا أمر لويد جورج الشمس أن تسرع في سيرها مرةً وأن تبطىء أخرى. إن تقديم الوقت ساعة، معناه أن تأخذ المصانع فرقاً في جهد العامل. ويكون هذا الفرق غير مدفوع الأجر. وحين يُعكس ذلك في الصيف تتم العملية بصورة أخرى. ويكون العامل هو المغبون طوال العام.

وإذا كان «اليشَع» قد عد هذا معجزة أمام شعبه في غابر الزمان، فإن لويد جورج اعتبره الآن تدبيراً ضرورياً لزيادة الإنتاج الحربي. وهكذا، يتطور العالم فتغدو معجزات الأنبياء، مجرد مراسيم وقوانين.. أفليس هذا مضحكاً!!

٣ ـ روسيا

وفي روسيا يختلف الوضع. فسهول «المسكوب» شاسعة، غنية التربة، وافرة الغلال. لكن تنظيم المجتمع، والتأخر الذريع في طرائق الاستغلال ـ حتى ليمكن القول ان الأساليب كانت أقرب إلى البدائية ـ وصقيع سنة ١٩١٦.. كل ذلك أبرز مشكلة الحاجة إلى الطعام.

ولم يكتفِ القدَر بذلك لروسيا، بل خلق لها متاعب أخرى. فالانهزامات المتوالية من تاننبرغ إلى البحيرات المازورية إلى حملة بروزيلوف في غاليسيا، وفقدان ملايين الرجال في هذه المعارك ـ ومعظمهم من فلاحي الأراضي ـ خفض الانتاج الزراعي في البلاد. أضف إلى هذا، أولئك النازحين الروس من الأراضي الواقعة بيد الألمان، وكونَ هؤلاء النازحين يستهلكون ولا ينتجون. وكذلك فقدان إنتاج الأراضي المحتلة، وتحويل الإنتاج بكامله إلى مجهود حربي.

كل هذه العوامل تضافرت لتصفع حكومة القيصر صارخة «نريد الخبز».

وقد يتساءل البعض: إن هذا قد يقع في حال حدوث مجاعة طبيعية مثلاً، فلماذا نجد الروس وحدهم يطالبون بالخبز؟ وما علاقة الخبز بإنهاء الحرب؟

والجواب عن ذلك قول فلاسفة الثورة الفرنسية من قبلُ: «ليس الجوع هو الذي يثير، وإنما الوعي به». وهذا ما كان يقوم به البلاشفة في روسيا. فقد كان هؤلاء يرون



ما بين ١٠ إلى ١٥ مليوناً من الروس
نزحوا من أراضيهم التي احتلها الألمان

واقع بلادهم ومأساة شعبهم، ويفتشون عن طريق يرفعون أمتهم بها إلى مصاف الدول الأوروبية الأخرى.. وكان طريقهم هو «نسف علاقات الإنتاج في المجتمع بعد أن ثبت إفلاسها» والإتيان بـ «علاقات إنتاج» جديدة من عندهم.

عن هذه الطريق كانوا يمهدون لثورتهم في العام القادم.

٤. إمبراطورية النمسا. المجر

قلنا إن أمبراطورية آل هابسبورغ كانت تضم شعوباً مختلفة القوميات. والتشيك واحد من هذه الشعوب. وهم أقرب إلى العِرق السلافي منهم إلى الألمان. وقد آنسوا الآن ان الامبراطورية العجوز تترنح آيلة إلى السقوط. وكانوا منذ شهر شباط (فبراير) من هذا العام، قد شكلوا «مجلساً وطنياً» لهم في باريس، ضم بعض المثقفين المنفيين من فيينا. غير أن الحلفاء لم يهتموا بذلك المجلس، كما أغفلته سلطات الامبراطورية النمساوية أيضاً.

أما الآن، فقد رأى اسكويث أن ينادي بـ «للشعوب الصغيرة أن تقرر مصيرها». ومن هنا انطلق «مازاريك» يطلب الحرية للتشيك. غير أن نشاط هذه البادرة الوطنية لم يسلك طريقاً إيجابياً، كالثورة أو العصيان الواسع النطاق. وإنما اكتفى التشيكيون بأن يهربوا من الجيش النمساوي في أحرج ساعات المعركة، مسلّمين أنفسهم للروس. وحتى هذا العمل، كان بدافع التقزز من الحرب لا بفضل الشعور الوطني والميل إلى العرق السلافي.

٥. إيرلندا

وإذا لم يكن التشيك قد أحسنوا استغلال صيحة اسكويث وتطبيقها ضد إمبراطوريتهم، فقد جاء الايرلنديون الآن يفعلون ذلك. لقد أثبتوا أن اسكويث لم يكن جاداً فيما قال، واعتبروا صيحته: «كلمة حق أريدَ بها باطل». فهم مثلاً أحد هذه الشعوب الصغيرة، ولهم الحق في تقرير مصيرهم. لكن لماذا تصر بريطانيا على استعمارهم!!



نساء إيرلندا يهربن الأسلحة الألمانية إلى وطنهن لطرد الانكليز

متراس نصبه الجمهوريون في دبلن.. إيرلندا

كانت ثورة إيرلندا هي الحادث الوحيد المطبوع بالوطنية الشريفة في مساق الحرب الكبرى. فقد كانت إيرلندا منقسمة إلى فئتين: الأولى تطالب بالحكم الذاتي، والثانية تود البقاء خاضعة لبريطانيا، حتى لو قاتلت مواطنيها في سبيل ذلك.

وكانت الفئتان قد تطوع أفرادهما للحرب دفاعاً عن حياد بلجيكا، كباقي المتطوعين من جزيرة إنكلترا نفسها. لكن هؤلاء الأفراد وجدوا أنهم يُعامَلون باحترام أقل من زملائهم الإنكليز، فامتعضوا من ذلك، وهنا دخلت المشاعر الوطنية. فأخذ بعض ضباط القبائل من بينهم ينفخون في الجنود روح الثورة والتمرد. وأخذ هؤلاء يفرّون من الجيش أو يقومون بأعمال التخريب في داخله.

منظمة اليد الحمراء

وفي هذا الوقت تألفت في إيرلندا منظمة أطلقت على نفسها اسم «اليد الحمراء». وكان همها جلب الأسلحة للشباب الإيرلنديين، وتدريبهم عليها، والفتك بكل من يدعو لبقاء النفوذ الأجنبي في الجزيرة. كانت هذه المنظمة سرية بطبيعة الحال، وكان الضباط الإيرلنديون هم الذين يرسمون خططها ويموّنونها بالسلاح والمدربين. أما كادر الأعضاء فيتألف من كل إيرلندي أو إيرلندية يتعشق الحرية. لهذا نجد الفتيات هنّ اللواتي يقمن بتهريب السلاح.. أما مصدره فهو الألمان.

الاتصال بالألمان

كان رئيس هذه المنظمة مجهولاً، لكن الناطق باسمها في الخارج هو «كاسمنت»، الذي سبق أن كان قنصلاً لبريطانيا في أمريكا. وقد ذهب كاسمنت إلى ألمانيا يطلب المساعدة من أجل القيام بثورة حدّدها في عيد الفصح سنة ١٩١٦. غير أن القيادة الألمانية لم تتقبل الفكرة، فماطلته، إذ كانت تعتقد أن غزو إيرلندا أمرٌ غير عملي بالنسبة إليها، فترفعت عنه. لكنها قبيل «عيد الفصح» أنزلت كاسمنت من غواصة اقتربت من شاطىء بلاده.

وفي هذا الحين أعلنت «اليد الحمراء» الثورة. وحين عجزت عن احتلال قلعة الحكومة في دبلن، اتخذت من مركز البريد مقراً لها.

تصرف اسكويث

وجُن جنون اسكويث والقيادة البريطانية، فأُرسل إلى الثوار جيش استطاع قهرهم، بعد أن دمّر أسواق دبلن بشكل مأساوي. وقد دام القتال ٥ أيام. وانه لمن المخزي أن يتصرف الإنكليز على النحو الذي صدر منهم تجاه ثوار إيرلندا الوطنيين. ولكن الاستعمار هو الاستعمار، في كل مكان، وكل زمان.

وحشية الاستعمار

لقد أعدم الانكليز قادة الثورة رمياً بالرصاص، وجيء بأحد هؤلاء القادة مريضاً عاجزاً عن المشي فأُطلق عليه الرصاص وهو في كرسي مرضه. أما الضباط الهاربون، حين تم القاء القبض عليهم، فقد عوملوا معاملة المجرمين.. لقد عُذبوا بوحشية وسيقوا إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. وأما الأفراد، حتى المدنيون، فقد طوتهم جدران معسكرات التعذيب والاعتقال الرهيبة.

وبعد كل ذلك ثبت للعالم وفي بطن التاريخ أن مفهوم «حق تقرير المصير للشعوب الصغيرة» في نظر بريطانيا (التي أعلنت الحرب دفاعاً عن حياد الشعب البلجيكي الصغير!) هو مجرد هُراء، حين يصطدم بمصالح الاستعمار البريطاني.

غريب.. ومناضل

كان واحد من أولئك الزعماء لا يحمل الجنسية البريطانية. إنه ديفاليرا.. فتمكن هذا العامل الإيطالي المقيم في إيرلندا من القيام بثورة لاهبة [illegible] بعد، أحرقت أصابع الاستعمار البريطاني

وكانت زيت الايقونة المباركة في نظر الايرلنديين . . وعند ذلك تظاهر البريطانيون انهم اقتنعوا بأن بذور الحرية لا تموت، حتى ولو لم تخرج أوراقها في نفس الشتاء الذي بُذرت فيه.

* * *

والآن، نكون قد ألمعنا بصورة موجزة إلى مجمل الأحوال الاجتماعية في دول أوروبا المتحاربة لِسنة ١٩١٦. فعلينا أن ننتقل إلى الأوساط العسكرية لندري ما هناك.

نحن نذكر أن الجنرالات كانوا يَعِدون ساسة بلادهم، وبالتالي، شعوب تلك البلاد، منذ بداية الحرب، بأنهم سيحققون لهم نصراً مكللاً بالفَخار. .

ونذكر أن الكثير جداً من المواطنين قد خدعتهم الوعود، ودفعتهم الحماسة الوطنية المنفوخة إلى طاعة أولئك الجنرالات دون السؤال عن سبب الحرب. كما نذكر أن الأحزاب، وهي الهيئات السياسية التي يُفترَض فيها أن تكون أوعى من الجمهور، قد أجمعت، بصورة أو أخرى، على تأييد الحرب والمباشرة فيها.

وأُعلِنت الحرب . . .

والتهم الرصاص والقنابل وحيتان البحر عشراتِ الألوف من الجنود. وعاد الألوف الآخرون إلى ديارهم مشوّهين. وانقضت أعوام ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦ والحربُ ما زالت رحاها تدور.

أين النصر أيها الجنرالات؟

هذا ما أخذ يطرق أذهان المواطنين في كل دولة مشتركة في الحرب.

وهذا ما دعا القادة السياسيين أخيراً لأن يتحركوا. ولكن حركة هؤلاء ظلت كتبريرات «الزوج المخدوع». إنها لم تكن جذرية تنسف الحرب من أساسها، بل جاءت سطحيّة تستبدل العشيق الشيخ بعشيق يتمتع بالشباب. وكان الجنرالات الكبار أنفسهم يتململون نازعين إلى التغيير في مراكزهم. ومهما كان الحال، فقد تم استبدال كتشنر بـ «روبرتسون» وهايغ. وتم استبدال جوفر بـ «نيفيل». كما جيء بـ «هندنبرغ» ودماغُه «لدندورف» عوضاً عن فولكنهاين. أما في روسيا فقد غُضب على بروزيلوف بعد انحداره.

هذه هي الدول الأربع ذات النشاط الأكبر في الحرب. أما الأتراك وجنود النمسا

وإيطاليا فشأنهم ثانويّ بحيث لا يؤثر تبديل القادة عندهم في مجريات الأمور.

ولندرس الآن ظروف تغيير كل من هؤلاء الجبابرة.

كتشنر

لا نود العودة إلى تفصيل تعيين كتشنر وزيراً للحرب في وزارة اسكويث. ولا نود أن نذكر أمجاده في السودان، ثم عمله في الهند. وكل ما يعنينا الآن أن هذا الرجل ظل مطلق السيطرة في توجيه استراتيجية الحرب في بريطانيا طوال ١٩١٤ و ١٩١٥، وإلى أن أرسله اسكويث ليفتش الموقف في حملة الدردنيل، وجاء بـ «روبرتسون» في غيابه.

ونحن نذكر حين سردنا ذلك في فصول سابقة أن روبرتسون أصبح المسؤول عن استراتيجية الحرب وتحركات الجيوش الانكليزية في شتى الميادين، بوصفه مستشاراً للوزارة البريطانية المدنية. لكن هذا سريعاً ما غدا دكتاتوراً مثله مثل كتشنر في السابق.

ونحن نعرف أن السير جون فرنش قد تم الاستغناء عن خدماته بعد فشله في فرنسا، وأن هايغ قد حلّ محله هناك.

وهكذا كان اسكويث قد استبدل «الجنرال العجوز» بـ «جنرال شاب»، بل باثنين. إذن، فهو لم يتخلص من قبضة الجنرالات، وإنما استبدل سيداً له بسيدين جديدين . .

والآن . . ظل شبح كتشنر، حتى وهو منزوع الصلاحية، مزعجاً لـ «اسكويث». إنه يود التخلص النهائي منه ولكنه عاجز عن ذلك. لهذا طلب إليه أن يقوم بزيارة الجبهة الروسية علّ «عبقريته!» تنجح في الميدان الشرقي. وفي طريق كتشنر إلى روسيا غرقت المدرعة التي كانت تقلّه عند اصطدامها بلغم ألماني بعيد عن الشاطىء في ٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦. ولم تحترم كلاب البحر رتبة كتشنر على الإطلاق. إن أياً منها لم يفكر البتة وهو ينهش وجنتي اللورد والجنرال ومجد الامبراطورية، أو حين نتف شاربيه. حقاً، إن كلاب البحر لعينة جداً.

جوفر

إذا كان كتشنر قد مات جسداً وروحاً، فإن جوفر مات روحاً فقط. ذلك انه مات وهو حي. وتفصيل ذلك أن برايّان، رئيس الوزارة الفرنسية كان يلاحظ ارتفاع أرقام الإصابات في الجيوش الفرنسية شهراً بعد



الجنرال نيفيل
إن لدينا سر النصر.. هكذا كان يظن!

آخر. وقد سأل في ذلك جوفر، فأبدى عدم اكتراث بالأمر كله. نعم، لقد أورد القائد لرئيس الوزراء معاذير كثيرة وطمأنه إلى عدم الخشية من فقدان الرجال، ومنّاه بنصر قريب يخلد اسمه على مرّ العصور، ولكن كل هذا لم يقنع بريّان. كان هذا يقول: «وما هي إجابتي على أسئلة ممثلي الشعب؟ هل أُشبعهم كلاماً ومواعيد؟ أأقول لهم إن اعتمادنا «نظرية الهجوم» سيقضي على الشباب الفرنسي يوماً ما؟ أأُعلن لهم أن قائدنا قد أخفق حتى في كل مناوشة جابه فيها العدو؟ أأُحيلهم إلى لوائح الخسائر في فردان وفي كل معركة قبلها؟».

وحين يجيبه جوفر «انتظر النصر القريب»، يقول بريّان: «أكاد أجزم أن النصر الكامل لنا أو لهم قد غدا مستحيلاً».

الجنرال نيفيل وسر النصر!

وصدف أن قام الجنرال نيفيل بهجوم مباغت في منطقة فردان فاستعاد معظم المواقع التي كان الألمان قد استولوا عليها في هجوماتهم السابقة.. وبهذا غدا نيفيل البطل الآنيّ في فرنسا، إذ أثار في

الشعب نوعاً من التنفيس عن جرح عميق طال عليه الزمن. فساعد الموقفُ الشعبي بريّان في أن يتخلص من جوفر بسهولة عظيمة. لقد أبقى له شرفه وكفّ يدَه. والفرنسيون بطبعهم ذوو لباقة وحسن تخلّص. لهذا نرى الحكومة الفرنسية تخترع لـ «جوفر» لقب «مارشال فرنسا» وتحيله إلى الاستيداع.

وكانت هذه نهاية غير مشرّفة على كل حال، مهما طلا وجهها بريّان بأصباغ التزويق.

وبظهور نيفيل وادعائه أنه قد عثر على ما سماه «سر النصر» (وإن لم يشهد بذلك الاكتشاف أحد غير صاحبه)، أُهيل التراب على سمعة جوفر، وطواه عالم النسيان. وحين تذكره الفرنسيون بعد الحرب، كانوا يقولون: «هنا كبّدنا غرور جوفر وعناده الأحمق كذا وكذا من الجنود». أما تلاميذ الكليات العسكرية فيسخرون قائلين: «كان جوفر غبياً إلى درجة أنه لم يفطن إلى تغيّر طبيعة الحرب، حتى وهو المسؤول الأول في جيش ذاق مرارتها».

فولكنهاين

هذا هو الرجل العسكري الوحيد الذي كانت خططه وتحركات جيوشه تثبت أنه من غير طينة أقرانه. وهو الجنرال الوحيد الذي حدّد ما كان ينشده من حربه، وسار حتى آخر لحظة من تولّيه القيادة، في طريق ذلك الهدف. إنه قهر الروس، لكنه عارض في تعقبهم. وسحق بروزيلوف، لكنه أمر بعدم التوغّل في الأراضي الروسية. واجتاح صربيا، فضمن انحياز بلغاريا، وأمّن صمود الدولة العثمانية، واحتجز ٤٠٠,٠٠٠ جندي من الحلفاء في سلانيك.

كل هذه تشهد له.. لكنه أخطأ في عناده في فردان والسوم. ومع أنه لم ينكسر في أيّ منهما فهو أيضاً لم يحظ برضا غليوم حين جابهه القائد بأن «النصر النهائي في البرّ غدا مستحيلاً».

غليوم يتحرك

أضف إلى ذلك أن لدندورف عن طريق رئيسه هندنبرغ ظلّ يوغر صدر غليوم على فولكنهاين.. وجاءت فردان والسوم في جانب لدندورف. ثم عقبَ ذلك إعلانُ رومانيا الحرب على ألمانيا في ٢٧ آب (أغسطس). فحمّل غليومُ قائده الأعلى مسؤولية ذلك. ومع أنه من غير العدل



فولكنهاين (الرابع إلى اليمين) ينتصر في رومانيا

أن يتحمل فولكنهاين مسؤولية قبول حكومة رومانيا الرشوة من الانكليز، فإن غليوم قرر التخلص منه كقائد عام في ألمانيا. لهذا نراه يعمد إلى استدعائه إلى برلين. وقد شعر فولكنهاين بما يعتمل في صدر مليكه، فقدم استقالته.

وبعد ذلك تم تعيين هندنبرغ كقائد عام، وإن كان لدندورف هو الذي كان يمارس القيادة الفعلية مستتراً وراءه. ولم ير غليوم أن فولكنهاين قد استنفد مقدرته العسكرية، فعهد إليه حملة رومانيا.

فما هي قضية رومانيا؟

حتى ٢٧ آب (أغسطس) من سنة ١٩١٦ ظلت رومانيا على الحياد وظل الجانبان المتحاربان يقومان بالدسائس كي تنضم تلك البلاد إليهما. ولكن هذه المملكة، شأنها شأن بلغاريا وإيطاليا، كانت تود ثمن انحيازها إلى أي من المعسكرين. فما هو الثمن؟

كانت رومانيا تشكو من أن المجر (وهي أحد طرفي الامبراطورية النمساوية) تستولي على مقاطعة منها، فرومانيا تريد تلك الرقعة من الأرض. ولكنها طوال سنتي ١٩١٤، ١٩١٥ والنصف الأول من سنة ١٩١٦ ظلت تشهد انتصار دول الوسط (بزعامة

ألمانيا) في شتى الميادين. إذن، فهي لا تجرؤ على الانضمام إلى الحلفاء خشية أن يتم النصر النهائي للألمان، فتلقى رومانيا عقابها.

مشجعات رومانيا على الحرب!

أما في سنة ١٩١٦، وبعد صمود الفرنسيين في فردان، ونجاح الحلفاء في هجوم السوم، وانتصار بروزيلوف على الجيوش النمساوية (قبل قدوم الألمان) في الجبهة الشرقية ـ فقد تهيأ لملك رومانيا أن كفة الحلفاء ستكون الراجحة في الحرب. لهذا ودّ التقرب إليهم ومفاوضتهم سراً. وطبيعي أن يلاقي ذلك المسعى هوى في نفوس ساسة الحلفاء، فوعده هؤلاء باقتطاع الأراضي التي يطالب بها من المجر. هذا كما استطاع سفراؤهم رشوة الوزارة الرومانية وبعض القادة العسكريين في البلاد.

وعلى أساس تقدير الملك وبتأثير الرشوة، أعلنت رومانيا الحرب على ألمانيا في ٢٧ آب (أغسطس)، كما ذكرنا.

* * *

كان هذا الوقت في شدة الحراجة بالنسبة لألمانيا. فحملة الروس على غاليسيا لم تزل في عنفوانها، وفردان لا تزال صامدة، وهجوم السوم في أوج شدته.. لهذا وجدنا هندنبرغ الذي أصبح قائداً أعلى للقوات الألمانية يغيّر خطة سلفه فولكنهاين في الغرب والشرق.

هندنبرغ في خطط جديدة!

في الغرب

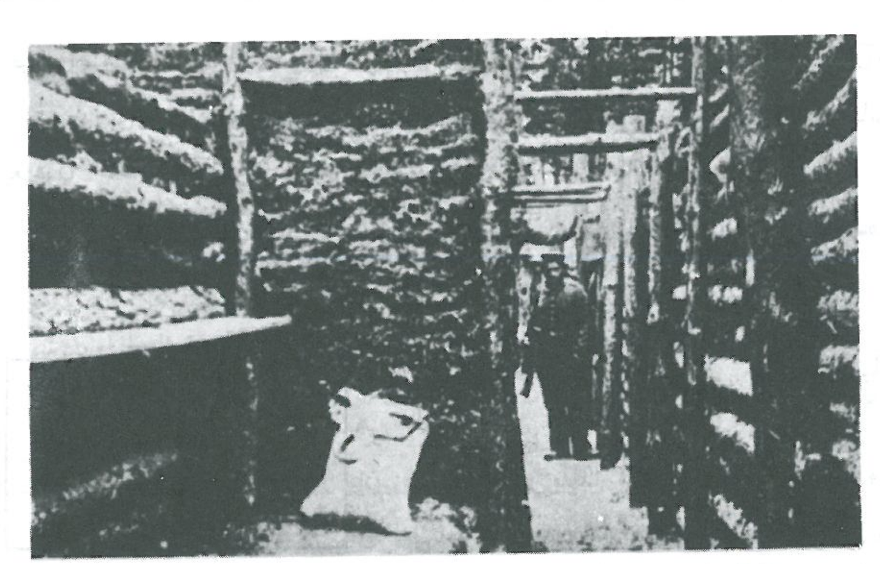
أما في الغرب فقد ألغى أمرَ فولكنهاين بضرورة الدفاع عن كل شبر يستولي عليه العدو، كما عمد إلى التقليل من كثافة المواقع الأمامية الألمانية في الجبهة، وتحول إلى خطة بناء خط شديد المناعة وعسير على القوات المهاجِمة أن تتخطاه. ذلك هو خط هندنبرغ، الذي ركّزه الألمان تبعاً لضرورات الاستراتيجية لا خضوعاً لحدود الأراضي المحتلة من فرنسا. ولهذا نجدهم يُخلون بعض القرى وحتى المدن الفرنسية الصغيرة، بعد مقاومة طفيفة للغاية. كانوا لا يهتمون إلا بالحقائق الصلبة في «أين يجب أن يكون خط الدفاع»، بخلاف الفرنسيين الذين يهمهم «تحرير» كل فدان من أرض بلادهم، بحكم المشاعرالوطنية.

في الشرق

وأما في الشرق، فقد قرر هندنبرغ أن يضرب ضربته. لهذا توجهت الجيوش الألمانية إلى غاليسيا فصدّت تقدم الروس أول الأمر، ثم سحقت جيوشهم فيما بعد. كل ذلك لمساعدة النمسا التي أثبتت عجزها عن الوقوف على قدميها، بعد أن هاجمها الروس والإيطاليون في نفس الوقت. وإذا كان بروزيلوف قد انتصر فإن الإيطاليين قد خسروا ٣٠٠ كيلومتر من أرض بلدهم. كما أن حوالى ٣٠,٠٠٠ منهم قد استسلموا بكل جُبن، للقائد النمساوي. وهذا شأن الطليان.

فيالق الألمان عبر رومانيا

وحين انتهزت رومانيا هذه الظروف وأعلنت الحرب، صار لزاماً على الألمان أن يؤدبوا ملكها، فجاء فولكنهاين حيث اصطدم بالجيوش الرومانية في ترانسلفانيا. وقد ساعدت الرومانيين طبيعة الأرض، فتمكنوا من الصمود فترة أمام فولكنهاين. لكن جيشاً آخر بقيادة المارشال «مكنزن» كان



خط هندنبرغ في الجبهة الغربية

قد زحف في هذه الأثناء على رومانيا، واستطاع، بمساعدة البلغار أن يحتل «دوبرجا» ويأسر قوة رومانية كبيرة هناك.

وحينئذٍ حاول الجيش الروماني الدفاع عن داخل البلاد، إذ أن مكنزن قرر التوجه إلى بخارست نفسها، وكان قد غدا على بعد ٤٠ ميلاً بعد سقوط «كونستانزا» في يديه في ١٨ تشرين الأول (أكتوبر). فاغتنم فولكنهاين الفرصة، واجتاز ترانسلفانيا بعد أن سحق الجيش الروماني المقاوم وسار باتجاه بخارست. وحين سقطت بخارست في يد فولكنهاين ومكنزن، تم النصر للألمان في جميع المملكة الرومانية. وكان ذلك نجاحاً كبيراً لفولكنهاين.

أسباب السقوط

لكن، لماذا سقطت رومانيا ذات الجيش الذي يبلغ ٥٩٠ ألف جندي في فترة لا تتجاوز ٤ أشهر؟

لذلك أسباب كثيرة أهمها ما يلي:

١ ـ كان ملك رومانيا قد اتفق مع الحلفاء على أن تقوم قواتهم المرابطة في سلانيك بالهجوم (عبر اليونان) على بلغاريا في نفس الوقت الذي يهاجم فيه الرومانيون النمسا. لكن قيادة الحلفاء في سلانيك اعتذرت عن تنفيذ الاتفاق، خشيةَ أن يفشل هجومها. فوقف الرومانيون وحدهم في الميدان.

٢ ـ إن الجيش الروماني كان فاسد الإدارة، ضعيف التسليح، ذا قادة أغبياء من

حيث أصول التعبئة العسكرية، فهم لم يُبقوا له احتياطاً أكثر من ٥٠ ألف رجل.

٣ ـ كانت الرشوة تنخر جسد القيادة العامة الرومانية إلى درجة أن الألمان كانوا يعرفون الخطوات التي سيقوم بها ذلك الجيش.

٤ ـ كان الألمان والبلغار أقوى بما لا يقاس من الجيش الروماني وحده.

* * *

البترول.. والتخريب!

وهناك مسألة يجدر بنا ألا نُغفلها في حرب رومانيا، هي البترول.

إن «كونستانزا» بلد شهير باستخراج البترول ومعامل تكريره. ومن شأن سقوط تلك المدينة في يد الألمان أن يقوي الإنتاج الحربي لديهم، فيما لو تسلموا معامل التكرير صالحة للعمل. وهذا ما يخشاه الحلفاء، وبخاصة وهم يعلمون أن الإنتاج الحربي في كل من فرنسا وبريطانيا كان يتحمل فوق طاقته في ذلك الحين.

الفيلد مارشال مكنزن يخرج من الكنيسة بعد قداس في بخارست

إذن، ما العمل؟

على هذا التساؤل أجابت الاستخبارات الانكليزية: «في وسعنا أن نخرّب منشآت البترول». إن ساسة بريطانيا لم يفكروا آنذاك في أنهم يدمرون ثروة الشعب الروماني. كان كل ما يهمهم أن لا يستولي العدو على وقود لماكينة حربه.

وحين تتكلم الاستخبارات في دولة من الدول، وعن قضية في أرض دولة أخرى، فاعلمْ أن عمل الجواسيس والعملاء سيظهر عما قريب. كان الحلفاء يفرشون لأغراضهم بالذهب. والقابلون للاستئجار كثيرون دوماً في أي بلدٍ متأخر مثل رومانيا، ومرافقون دوماً لوجود النظام الملكي.

وهكذا أشعل جواسيس الانكليز النار في نفط كونستانزا، وظلت النار تلتهمه مدة طويلة.. وبهذا لم يستفد الألمان من ذلك النفط إلا قليلاً.

هندنبرغ يواجه الواقع في القيادة

لم يخطىء قادة الحلفاء، السياسيون منهم والعسكريون، حين قدّروا أن تغييراً في خطط الألمان سيتم بعد أن تغيرت القيادة العليا في برلين، إذ تسلمها هندنبرغ. وكانوا يوقنون أن لدندورف هو الذي سيكون القائد الفعلي، وإنْ لبس هندنبرغ فروة الأسد. وبالفعل، وكما ذكرنا آنفاً، حصل ذلك التغير في الميدان الشرقي والغربي على السواء. ولكنه كان لصالح الألمان أيضاً. فخاب فأل روبرتسون ونيفيل، وإسكويث وبرايان.

لكن، أهمُّ من تغيّر وجه ألمانيا الخارجي، كان ذلك التغير الداخلي فيها. ففي برلين أدرك هندنبرغ الآن صواب نظرة فولكنهاين في أن النصر الكامل أصبح مستحيلاً على أي من الطرفين المتحاربين. كما ارتد أيضاً إلى رأي سلفه في أن «حرب الغواصات الواسعة النطاق جداً، هي التي قد تؤثر في سير الحرب». وأهم من ذلك، أن لدندورف غدا مستعداً لأن يخطو خطوة إيجابية في سبيل الحصول على «سلم تتم فيه المصالحة ببعض الشروط الموافقة لألمانيا».

من الذي دفعه إلى ذلك؟ المستشار بتمان

ربما كان من الانصاف القول: إن مستشار ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وهو «بتمان»، كان أوعى سياسيي أوروبا في تلك الفترة. فهو لم يكن يؤمن بأن الحرب ستنتهي إلى هزيمة نهائية، لألمانيا



النفط الملتهب في كونستانزا..
والدخان يبدو خلف المئذنة والمسجد

ولا لأعدائها. ولهذا أبقى في رأسه كلمة «الصلح».

ولما كان وضعه كمستشار لدولة كبرى منغمسة في الحرب، لا يسمح له بالإفصاح عن آرائه أو العمل لها بصورة علنية، فقد سارَّ بها بعضَ خلصائه، وكان ينتظر من الجنرالات والأدميرالات أن يتوصلوا إلى تلك الآراء بأنفسهم آخر الأمر.

وحين وجد من فولكنهاين عناداً، عندما أصدر أوامره بمحاولة استرجاع كل شبر في السوم وفردان، عمل بتمان على ابعاده. وكان يأمل من المجيء بهندنبرغ ولدندورف أن يجدهما أكثر تعاوناً معه، وأقرب إلى الاقتناع بوجهة نظره.

حياد
الولايات المتحدة

لكن تقدير بتمان خاب تماماً. فبعد جوتلند (كما أسلفنا) تحولت استراتيجية الحرب في نظر ألمانيا إلى سلاح الغواصات، واستعماله في حرب واسعة النطاق. وكان هذا مما يخشاه بتمان. فهو يبذل كل

جهد يستطيعه لابقاء الولايات المتحدة على الحياد. ويرى أن ذلك سيغدو غير ممكن، إذا أغرقت الغواصات الألمانية سفناً أمريكية.

وهكذا تبدّى التناقض في سياسة ألمانيا إبان الحرب.

فالقيادة العامة تمنّي القيصر بإماتة بريطانيا جوعاً، بعد أن تقضي الغواصات على أسطولها.. أما المستشار فيخوّفه من انضمام الولايات المتحدة إلى الحلفاء، إذا ما نشط سلاح الغواصات وتجاوز حدوده.

وحين يصطدم السياسيون بالعسكريين، ينتصر العسكريون في الغالب، وبخاصة إذا كانت الظروف آنذاك ظروف حرب.

وطبيعي أن ينعكس هذا الموقف الألماني المتناقض على الحرب بكاملها. إذ أن هذا التناقض سيبرز مثله في كل دولة مشتركة في الحرب. لنأخذ بريطانيا مثلاً:

الحل الوحيد هو المصالحة

بريطانيا

كان في بريطانيا سياسيون سياسيون يدركون تمام الإدراك أن إحراز نصر نهائي في الحرب قد غدا مستحيلاً. وكان هنالك بعض القادة العسكريين أيضاً من هذا القبيل. وكانت الفئتان تقولان: «كما أننا لا نستطيع النصر على العدو كذلك فإن العدو لا يستطيع الانتصار علينا. إذن، فالحل الوحيد هو قبول المصالحة. لكن أية مصالحة؟ إن الألمان يريدون أن يتم ذلك على أساس «الوضع الراهن». فما هو «الوضع الراهن» الذي يعنونه؟ نحن نقبل بأن تعني كلمة «الوضع الراهن» الحدودَ الدولية التي كانت يوم إعلان الحرب سنة ١٩١٤. أما الألمان فيجعلونها حدود مواقع الخنادق الحالية في خريف سنة ١٩١٦. وما أعظم الفرق بين التحديدين!».

الألمان المصالحة أيضاً

ولننتقل الآن إلى أفكار طائفة «المصالحة» من الألمان.

يقول هؤلاء:

«نعم، لن ينتصر الحلفاء. ولكنّا لن ننال نصراً نهائياً عليهم أيضاً. إذن، تبقى المصالحة. ونحن نقبل هذه على أساس الحدود الحالية. فالأرض التي استولى عليها جنودنا يجب أن تبقى في حوزتنا لأننا أخذناها «بحق الفتح». وهذه الأرض من شأنها أن تحمي ظهورنا ضد حرب انتقامية يشنها الحلفاء فيما بعد. نعم، إننا قد نتنازل عن بعض المناطق المحتلة، ولكننا لن نتنازل مطلقاً عنها جميعاً. فبولندا، مثلاً ضرورية لنا كدولة واقية بيننا وبين روسيا. ونفوذنا في بلجيكا يجب أن يُحتفظ به توسيعاً لتجارتنا البحرية».

ومن مجمل ما تقدم نستطيع أن نفهم أن العقلاء من الجانبين في الدول

المتحاربة، كانوا، حتى حين يحاولون الخلاص من ورطة الحرب، يرتطمون بصخرة المستحيل. فكيف يرى المتطرفون يا ترى؟

ماذا يرى روبرتسون ولويد جورج!

يرى روبرتسون وهايغ، ثم لويد جورج، أن المواطنين البريطانيين لن يرضوا بأقل من إحراز نصر نهائي على ألمانيا. فقد دخلوا الحرب على هذا الأمل. أما إذا فشل العسكريون والسياسيون في تقديم هذا النصر، فإن مراكزهم تغدو في خطر. وهم يغلّفون «الخوف من ضياع مراكزهم»، بدعاوى «الخوف على هيبة بريطانيا».

ومثل ذلك يرى نيفيل ولدندورف وقيصر روسيا.

ماذا كانت النتيجة من هذا الموقف؟

لقد استمرت الحرب..

ومع استمرارها استمر التناقض الجذري يفعل فعله. فغدت ألمانيا، برأي بتمان، لا تنشد نصراً نهائياً، وإنما اقصاء روسيا من الميدان، سواء تم ذلك عن طريق المفاوضات أو التحطيم العسكري. ولما كان التحطيم العسكري في حال بلاد شاسعة كروسيا، يغدو مستحيلاً، فقد ظلت المفاوضات هي السبيل الوحيد لذلك الغرض.

بتمان ومفاوضة روسيا

إليك تصويراً لرأي بتمان بهذا الخصوص:

«ليست روسيا شديدة الاهتمام بأن ينتصر حلفاؤها في الغرب، كما أنها توقن أنها عاجزة عن الحصول على نصر في الميدان الشرقي. إن كل ما تأمل فيه حكومة القيصر هو «حفظ شرفها» أمام شعبها. ولما كان الألمان لا يطمعون في ضم أراضٍ زراعية في الشرق بقدر حرصهم على إبقاء المناجم والمناطق التعدينية التي احتلوها من فرنسا، في أيديهم، فإنه يمكن ارضاء حكومة القيصر فيما لو عرضوا التخلي عن الممتلكات الروسية المحتلة».

على هذا الأساس تقدّم بتمان بعملية «جس نبض» لحكومة روسيا. لقد عرض أن يرجع الألمان في الشرق إلى حدود سنة ١٩١٤. وكان القيصر على وشك

الاستجابة لهذا العرض السخي من عدوٍ منتصر، لكن ظروفاً جديدة في ألمانيا سدّت عليه الطريق.

ماذا يرى غليوم!

أما تفكير القيصر الألماني حينذاك فقد لخصه تقرير نشره البلاشفة فيما بعد. ومجمله:

«إن انتصار روسيا في ميدانها يكاد يكون مستحيلاً، والشعبُ ناقم قد تستغل نقمته عناصر مشاغبة من المثقفين والعسكريين المشتركين في الحرب، ولا يهم البلاط القيصري أن تنتصر بريطانيا وفرنسا ونظرياتهما في أن يحكم الشعب نفسه. وما دامت الروسيا ستستعيد كامل أراضيها. . فلا مانع من مفاوضة الألمان في مسألة عقد الصلح».

رأي لدندورف

كانت الظروف الجديدة في ألمانيا هي ازدياد نفوذ لدندورف في القيادة العامة، حيث رفض هذا القائد فكرة الانسحاب من أراضٍ احتلها هو ورئيسه هندنبرغ. إذ ما الذي يبقى من مجده العسكري في تلك الحال؟! هذا علاوة على أن فكرة الحصول على مصْدرٍ لمجنَّدين جدد، كانت مستحوذة عليه آنذاك. وكان يقدّر أن بولندا يمكن أن تكون ذلك المصدر.

إغراء البولونيين بالخدمة!!

لكن، ما الذي سيغري ألوف البولونيين بالخدمة في جيوش ألمانيا؟ هكذا سأل لدندورف نفسه. وفي كلمة واحدة ظن أنه عثر على «الطُّعم» إنه، «وعدٌ باستقلال بولندا».

وأُعطي ذلك الوعد في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦. . فلا البولنديون آمنوا بجديّة الألمان فيه، ولا روسيا آمنت بأنه مجرد لُعبة. أما البولنديون فلم يتجنّد منهم إلا ١٤٠٠ رجل، بينما كان لدندورف يأمل أن يحصل على نصف مليون. وأما الروس، فقد رفضوا أية فكرة في مفاوضات الصلح بعد وعد الاستقلال المذكور، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون بولندا أرضاً روسية لا يجوز فصلها.

وهكذا أصبح موقف لدندورف في الميدان الشرقي مضحكاً. فالجنود (الألمان) هناك غدوا يحاربون (روسيا) من أجل تنفيذ الوعد باستقلال (بولندا)، التي يرفض أهلها المشاركة في الدفاع عن استقلالهم!!

بتمان ومفاوضة الحلفاء

بعد أن أفشل بروز لدندورف خطةَ بتمان في عرض المصالحة مع روسيا، التفت المستشار صوب بريطانيا وفرنسا. أما ما دفعه إلى محاولة عرض التفاوض معهما فهو، كما أسلفنا، ما كان يراه من انحراف القيادة العامة في بلاده نحو تطبيق مبدأ «حرب الغواصات الشاملة»، وخشيته من أن يؤدي ذلك إلى انضمام الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء.

وفي ١٢ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٦، أصدرت الحكومة الألمانية «مذكرة سلم» تورد فيها عرضاً غامضاً لانهاء الحرب ضد الحلفاء.

مفاهيم بتمان من الغموض

لم تأتِ المذكرة على شروط معينة، مهما كانت. فقد كان المستشار بتمان يعني من غموضها أشياء كثيرة أهمها:

١ ـ احتفاظ ألمانيا بمناطق الفحم والتعدين الفرنسية.

٢ ـ إبقاء بلجيكا خاضعة للنفوذ الألماني، وإن كانت مملكةً مستقلة في الظاهر.

٣ ـ الحصول على الكونغو البلجيكية في أفريقيا.

٤ ـ جعل بولندا درعاً لألمانيا ضد هجومٍ روسيّ محتمَل، وإبقاءها منطقة نفوذ ألمانية.

وقد رفضت بريطانيا وفرنسا تلك المذكرة رفضاً باتاً.

* * *

وإذا كانت معضلة «العجز عن إحراز النصر» قد خلقت تناقضاً ظاهراً في سياسة ألمانيا، ومحاولات جدية للخلاص من تلك المعضلة، فهي أيضاً قد انتجت مثل ذلك في بريطانيا وفرنسا. ففي فرنسا برز «نيفيل» و«سر النصر!!» الذي ادّعاه، كما برز برايّان وسعيه للخلاص من ورطة الحرب بثمن يحفظ له رئاسة الوزارة في بلاده. وفي بريطانيا برز التناقض بين اسكويث المتردد، ولويد جورج المتطرف. وأهم من ذلك كله: تدخّل الولايات المتحدة كوسيطة في الصلح.

ما هو تطرف لويد جورج؟

في أواخر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٦ صرّح الناطق بلسان حزب الأحرار في مجلس العموم البريطاني، أثناء انعقاد الجلسة قائلاً: «إننا سنخسر الحرب». فردّ عليه لويد جورج: «كلا. لن يتم ذلك. إن علينا أن نضرب العدو حتى يستسلم». وأيد زعيم حزب المحافظين كلام لويد جورج. فشجّع الموقفُ لويد جورج على أن يطلب من رئيس الوزراء (اسكويث) أن يجعله مسؤولاً أول عن شؤون الحرب.

وبدا أن اسكويث قد وافق على ذلك. لكنه عاد فغير رأيه وقرر التخلص من لويد جورج. ولما كان اسكويث يعتقد بأنه حجر الزاوية في أية وزارة جديدة، فقد قدّم استقالته إلى الملك. كل ذلك ليطرد لويد جورج من الوزارة. إلا أن الملك حين تشاور مع رؤساء الأحزاب في البرلمان، وجدهم أميَل إلى قبول تكليف لويد جورج بتشكيل الوزارة، فعهد إليه بذلك.

وفي ٥ كانون الأول (ديسمبر) شكّل لويد جورج الوزارة ونال ثقة البرلمان، حيث ضمن تصويت أكثرية حزبي الأحرار والمحافظين إلى جانبه.



عجوزا استعمار.. لكن النصر حلو..
لويد جورج.. وتشرشل

سنجلب النصر

وفي اليوم ذاته أعلن بأنه سيجلب النصر، مع أن الأوساط السياسية العليا كانت آنذاك تتحدث عن «مفاوضات الصلح». وبذلك فرض لويد جورج على نفسه الالتزام بنظرة: أن الحرب يمكن أن تُكسب. فلما أصدرت الحكومة الألمانية «مذكرة السلم» في ١٢ كانون الأول (ديسمبر)، أي بعد أسبوع واحد من رئاسة لويد جورج ـ وجد الرئيس نفسه في موقف لا يسمح له بالنظر في تلك المذكرة. لهذا نجده يواجه مجلس العموم في ذلك اليوم بخطاب كله شتم وسباب وبذاءة لـ «بتمان»، ودون أن يخوض في بحث المذكرة. وبذلك انطبعت صورة عامة في أذهان الناس تعتبر أن وزارة لويد جورج إنما جاءت للرد على سياسة بتمان.

الولايات المتحدة والتفاوض

كان الحال خلاف ذلك في الولايات المتحدة، إذ وجد الرئيس ولسون في «مذكرة سلم» ألمانيا، فرصة سانحة لتدخله كوسيط. ونحن نعرف من قبل، أن الولايات المتحدة ظلت حريصة على حيادها على الرغم من شعورها بالمضايقة من الحصار البحري البريطاني، ومن إغراق الغواصات الألمانية سفينة «لوزيتانيا» البريطانية.

وانطلاقاً من «الفرصة السانحة لتخليص العالم من ويلات الحرب» (كما قال الرئيس ولسون)، وجهت حكومة الولايات المتحدة إلى ألمانيا والحلفاء في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) دعوة للتفاوض من أجل الصلح.

وحينذاك فقط فكّر لويد جورج وبرايّان في ردٍّ يقدمانه للرئيس ولسون، ويكون مقبولاً لدى شعبيهما وجنرالات الحرب في الميدان.

وفي ١٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٧ كان الجواب الذي تسلمه الرئيس ولسون يضم المطالب التالية:

شروط.. فيها مجاملات

١ ـ أن يتم انسحاب الجيوش الألمانية من جميع الأراضي التي احتلتها إبان الحرب منذ سنة ١٩١٤.

٢ ـ أن يجري التعويض على بلجيكا وعلى حساب ألمانيا.

٣ ـ أن تضمن ألمانيا احترام الاتفاقيات الدولية بشأن الحدود في البر والبحر



تلامذة كلية ايتون الارستقراطية.. يشتغلون أيضاً للمجهود الحربي.. هكذا شاء لويد جورج

بحيث يتعذر عليها القيام بهجوم غير عادل على أية دولة أخرى.

لم يستطع أصحاب الرد أن يذكروا استقلال بولندا ووعْد الألمان بذلك، خوفاً من إزعاج الحكومة الروسية بهذا الصدد. وحين تسلّم الأمريكيون ذلك الرد، لم يقتنعوا به. إذ كان الرئيس ولسون ينزع إلى المثالية في أفكاره. لهذا نراه يقترح «حق الشعوب الصغيرة في تقرير مصيرها» كمبدأ أساسي يجب أن يُنظر إليه في عالم ما بعد مفاوضات الصلح. وطبيعي أن ألمانيا لن تخسر شيئاً، حتى لو قبلت ذاك المبدأ.

الامبراطوريات العتيقة هي الخاسرة وموقف عجيب!!

لكن، ما الذي يحدث لإمبراطورية النمسا ـ المجر؟ إنها تتفكك، بل ربما زالت من أساسها.

وكذلك روسيا. هل تظل بولندة خاضعة لها في تلك الحال؟

ومثلُها الدولة العثمانية. ألا تتحول إلى انقاض متبقية من إمبراطورية خرِبة وعتيقة!!

والحق، أن هذا الاقتراح لم يكن يروقُ لبريطانيا وفرنسا. فقد دخلت الدولتان الحرب ضد ألمانيا أولاً وأخيراً. إنهما تحاربان الامبراطورية النمساوية والدولة العثمانية لأن هاتين الدولتين حليفتان لألمانيا، لا لسبب غيره. والآن، ومع حق تقرير المصير، المقترَح، تجد الحليفتان الغربيتان نفسهما تعملان لتحطيم النمسا وتركيا، لا ألمانيا. فيا لها من نتيجة عجيبة!! هل يرضى الشعب البريطاني والآخر الفرنسي أن يدفعا الثمن الباهظ الذي كلفتهما إياه الحرب ـ من أجل تحرير صربيا، والتشيك، والسلاف، والعرب، من حكم آل هابسبورغ وسلاطين الأتراك!!

إن مثل هذا لم يطرق خلدَ لويد جورج أو أي سياسي أو عسكري سنة ١٩١٤. حينذاك كان الهدف ينحصر في «النصر على ألمانيا». لكن، ها هو الآن ينقلب إلى «اقصاء النمسا وتركيا من الحرب»، فيا لـ«ولسون» من محوّر للأهداف!!

* * *

ماذا يطلبون؟

لو تم إجراء المفاوضات في ذلك الحين، لتغيّر وجه التاريخ الذي تلا. ولربما كانت الحرب العالمية الثانية لم تقم سنة ١٩٣٩. و.. و.

لكن، ليس من مهمة دارس التاريخ أن يقدّر

ما كان من المحتمل أن يحدث، فدعنا نرجع إلى الوقائع لنرى الموقف من زوايا مختلفة:

الجنود في الجبهة يطلبون إنهاء الحرب على أية صورة.

والمواطنون في كل بلد متضايقون جداً من أوضاعهم الآنيّة.

والعسكريون فئتان: فئة أدركت استحالة النصر لها أو عليها، فهي تحاول الحفاظ على شرفها العسكري والتحايل من أجل عقد مفاوضات الصلح. وفئة أخرى بليدة الادراك، لا تزال تحلم بإمكانية سحق عدوها، مثل نيفيل و«سرّه» وهايغ و«خطة حملة الفلاندرز» لديه.

السياسيون هم الذين يعقدون الأمر

فلويد جورج مثلاً، ورّط نفسه في التزامه بـ «جلب النصر». وبرايان يخشى مجابهة الفرنسيين بالحديث عن الصلح، بينما «الالزاس واللورين» و«شمال شرق فرنسا» لا تزال خاضعة للألمان. و«بيتان» يطمع في الحصول على «توسع» لألمانيا على حساب بلجيكا وبولندا..

وأخيراً، وليس آخراً، يأتي ولسون من أمريكا فيقترح مبدأ «تقرير المصير»، مبقياً بذلك لألمانيا قوتها، ومحطماً النمسا وتركيا. وهما الحليفتان الأضعف للمعتدين الألمان.

فهل يُعقل بعد ذلك أن تنجح النوايا الحسنة؟!

وإذا كنا قد أغفلنا، حتى الآن، واقعَ من يطلب الصلح، فمن الواجب أن نقول: إن شروط ألمانيا كانت مرفوضة في نظر الحلفاء، ومطامح الحلفاء ترفضها ألمانيا.. ولن يقبل أي من الطرفين بشروط الآخر إلا حين يكون القابل في وضع هو أقرب إلى الانهزام الكلي. لكن، حينذاك لن يقبل من يكون في وضع هو أقرب إلى الانتصار.

وهذا ما يزيد تعقيد المشكلة..

فماذا يفعل الساسة للتخلص منها؟

لقد غدا الاستمرار في الحرب أقل تعقيداً من إنهائها. فاستمر الساسة في الحرب، كما أسلفنا. وهذا ما يطلق عليه المؤرخون «معضلة ١٩١٧».

الفصل الرابع

١٩١٧

السنة الحاسمة

لا نكاد نتجنّى على الحقيقة إذا قلنا: إن ١٩١٧ هي السنة الحاسمة في الحرب العالمية الأولى، آخذين بعين الاعتبار أن معارك ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦ مع ضخامة الخسائر فيها، لم تكن قد غيّرت نوع الحرب عن سابقاتها في العصور السالفات. أما ما يدفعنا إلى ذلك القول فهو، حدثان اثنان وقعا في سنة ١٩١٧، فغيّرا مجرى الحرب بكامله، بل مجرى تاريخ البشرية اللاحق لتلك السنة. وهذان الحدثان هما:

١ ـ قيام الثورة البلشفية في روسيا، وتحوّل الامبراطورية الاقطاعية هناك إلى «اتحاد جمهوريات اشتراكية سوفياتية» وطفرة التصنيع فيها.

٢ ـ دخول الولايات المتحدة ساحة الحرب، بعد أن ظلت منعزلة عن التدخل في السياسة الأوروبية والعالمية من قبل.

ومن غير هذين الحدثين تصدق حكاية «لو عاد نابليون».

لو عاد نابليون!

«لو عاد نابليون إلى ساحة القتال في فرنسا في الحرب العالمية الأولى، لوجد أن طريقته في رسم الخطط هي التي يجري عليها الجنرالات القادة، وإن كانوا قد ضخموا محتوياتها من حيث السلاح

والجنود(*). أما لو تطلع إلى خارطة أوروبا ونوعية حكم الدول فيها، لأبصر قيصراً في روسيا وامبراطوراً في النمسا وملكاً في بريطانيا، وآخر في البلجيك وثالثاً في ايطاليا، وسلطاناً في الآستانة. ولما راعه أنْ تحوّلَ أحد مماليك مصر الذين كانوا أيام حملته، فغدا حفيداً لقائد ارناؤوطي جاء من البانيا، وهو الآن يتلقب بـ «خديوي».

فهل يفعل نابليون في زيارته شيئاً؟

لا شك أنه سيضحك ملء شدقيه، ثم يضع كفه في جيب صدارته كما كان يفعل في حياته، ويلتفت إلى سائق عربته ويقول:

«لقد تقدمنا في العالم الآخر(**) كثيراً طوال هذا القرن الذي غبتُ فيه عن هذه الدنيا، لكن أنظر إلى هؤلاء (ويشير إلى سكان أوروبا) إنهم لا يزالون حيث كانوا..».

وبعد ذلك يأمر السائق بالرجوع إلى العالم الآخر، احتقاراً لعقلية القادة العسكريين الذين رآهم نابليون في الميدان.



هذا صوت يرتفع ضد الحرب ومجازرها
وحتى في وسط برلين. إنه كارل ليبكنخت

(*) اشارة إلى اعتماد مبدأ «الكم» في الجيوش.

(**) لا شك أنه يعني التقدم في مجال سلمي.. إذا كان هنالك تقدم ما، وإلا، أترى نابليون يقود جيشاً من الملائكة أم الهالكين!



إن صولجان البلشفة يهز أوروبا ويرعبها.. سنة ١٩١٧ (لينين)

نحن نرد على هذا القول

«قد يصح أن يفعل نابليون ما افترض له المؤرخ إذا كانت الزيارة في مطلع سنة ١٩١٧، أما إن كانت بعد ذلك بشهور، فلا شك أن نابليون سيقف ذاهلاً من التغير الذي طرأ. إنه سيتطلع إلى روسيا فيجد حكومة للبلاشفة. وهذه أول حكومة من نوعها في التاريخ، وبمبادىء لا يمكن أن يتعرف عليها نابليون. وإذا كان عام ١٩١٦ قد تقبّل حبْسَ برتراند رسل في بريطانيا وكارل ليبكنخت في ألمانيا، لأن الرجلين أعلنا وقوفهما ضد الحرب وقاما يدعوان لذلك في ساحات لندن وبرلين، فإن عام ١٩١٧ لن يفعل ذلك. إنه سيأتي بلينين ليوقف الحرب كرئيس دولة مشتركة فيها، لا كخطيب في الميادين.

وسيتطلع نابليون إلى أمريكا، فيجد الولايات المتحدة دولة جبارة قد مدت إصبعها إلى السياسة الأوروبية، ولسبب جديد.

وفي ألمانيا سيجد حرباً جديدة أيضاً هي حرب الغواصات.



مجلس «سوفيات جميع روسيا»..
إنه يعلن إنهاء الحرب

أما إذا أدار وجهه إلى مصر، تلك البلد التي غزاها فقاومه الإنكليز والسلطنة العثمانية هناك، فإنه سيجد أن المصريين لا يساعدون السلطنة، وأنهم لم يثوروا كما قدّر جمال باشا، أيام حملة الأتراك على قناة السويس.

وحتى في فرنسا، سيرى نابليون أن روح الاندفاع الهجومية التي عَهِدها في أيامه، قد فارقت الفرنسيين إلى غير رجعة. وها هو بيتان يرتكز في مجمل خطته الحربية على الدفاع.

ومهما كانت الحال، فنحن نعلم أن نابليون لن يعود، فما بالنا نقلق بتقديراته! لقد طوته «سانت هيلانة» في سنة ١٨٢٠، ونحن الآن في ١٩١٧. فعلينا أن نرى ١٩١٧ لا غيرها.

وما دمنا قد ذكرنا الحدثين البارزين في تلك السنة، فإنه ينبغي أن نتكلم عن طبيعتهما باختصار، استباقاً لتفصيل ذلك فيما بعد.

لينين.. وولسون مثاليان

يرى الكثير من المعلّقين على أحداث سنة ١٩١٧ أن لينين، رجلَ الثورة الروسية، وولسون، رئيسَ الولايات المتحدة آنذاك.. كانا ينطلقان من نزعة مثالية، وإن اختلفت نظرة الواحد منهما عن نظرة الآخر. ويقولون: «كان لينين يَعِد بخلق جنّة في الأرض، غافلاً عن أن الكمال الذي يسعى إلى بلوغه مستحيل، وكان ولسون يَعِد بعالم يقوم على أساس «القوة للحق»، غافلاً أيضاً عن أن هذا كمال وأن هذا الكمال الذي يتصوّر بلوغه مستحيل».

ثم يعطفون على ذلك:

«ولهذا نجد أن مثالية ولسون قد فشلت تماماً حين اصطدمت مع ألاعيب «سياسة الواقع» كما فهمها لويد جورج وكليمنصو، وأن مثاليّة لينين قد فشلت أيضاً حين برز التناحر بينه وبين زملائه(*)، وحتى شعبِه الذي جاء لينين ليخدمه».

(*) قد يصح هذا عن ستالين لا لينين.

قول مردود

١. الفلسفة

والواقع أن الكثير من قول هؤلاء مردودٌ.

فإذا كانت المثالية بمعناها العام تصح نسبتها إلى ولسون، فهي متعذرة في حال لينين. ذلك أن المثالية مذهب فلسفي، تنطلق منه تصرفات معتنقه جميعها. وهذا صحيح بالنسبة إلى ولسون. أما لينين، فقد سار في درب مذهب فلسفي آخر، يناقض فكرة المذهب الأول. بل إنه جاء ليثبت فشل ذلك المذهب.

فلينين يعتمد على «المادية»، خالقاً بذلك تطبيقاً جديداً لفلسفة ماركس وإنجلز اللذين يقولان عن هيجل «لقد جعل الفلسفة المادية تمشي على رأسها بدلاً من سيرها على قدميها».

٢. فشل الاثنين: ولسون وأسباب دخول أمريكا الحرب

هذا من ناحية. أما من ناحية فشل الاثنين، فهو غير صحيح. فولسون قد دخل الحرب لأن رؤوس الأموال الأمريكية الكبيرة التي كانت بريطانيا وفرنسا قد أخذتاها من الرأسماليين الأمريكيين أضحت في سنة ١٩١٧ مهددة بالخطر.. إذ كانت كفة ألمانيا هي الراجحة. وفي انتصارها المحتمَل تضيع رؤوس الأموال الأمريكية المقرَضة. أضف إلى ذلك، أن الصناعة الأمريكية والتجارة الأمريكية ازدهرت في سنوات ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦، وكان ازدهارها نتيجة لطلبيات الحلفاء من الأجهزة الحربية والمواد الاستراتيجية. فلو لم تعلن أمريكا الحرب، وانتصر الألمان من جراء ذلك، لواجهت الرأسمالية الأمريكية أزمة خطيرة.

ومجمل القول: إن طبيعة اقتصاد أمريكا وعلاقاتها مع الدول المتحالفة هي التي دفعت ولسون إلى إعلان الحرب على ألمانيا ودول الوسط. وليس يؤثر في ذلك أن ولسون قد جاء بمبادئه الـ ١٤ فيما بعد، فما أسهل الوعد الذي يعرف المرء عُسْر

تنفيذه!! وبخاصة أن ولسون يعجز عن تغيير طبيعة الاقتصاد في بلاده، بينما أن تلك الطبيعة لا تعجز عن تغيير ولسون بإزاحته من منصبه، مثلاً.

٣. لينين واعلانه حرباً

أما لينين، فقد أعلن الحرب أيضاً، ولكنه أعلنها على الحرب نفسها. لقد انسحب من الحرب العالمية الأولى ليواجه حرباً على الجهل والفقر والنظم الاقطاعية، ورجاة التقدم عن طريق التصنيع، وتغيير علاقات الانتاج في مجتمع جديد. وقد كان من العسير أن يحكم المرء في نجاح لينين أو عدمه في العقد الأول الذي تلا قيام الرجل ونظامه في بلد القياصرة. إذ أن ذلك الحكم سيكون غير منصف أولاً، ومتأثراً بعوامل كثيرة، داخلية

وودرو ولسون يعلن أمام الكونغرس قطع العلاقات مع ألمانيا

وخارجية، ثانياً. فأوروبا لم تترك لينين وشأنه في بلده، بل تدخلت محاولةً إثبات فشل الرجل فيما يسعى إليه.

ومهما كانت الحال، فإننا نرى أن ولسون قد فشل، على الرغم من نيّاته الطيبة، لأنه طلب من بريطانيا وفرنسا أن تحطّما نفسيهما، لمجرد اتّباع الحق ونشر العدالة (بمفهومه) في العالم. أما لينين فقد تأخر نجاحه ـ ولم يفشل ـ لأسباب كثيرة خارجة عن إرادته، ولم يكن له بها طاقة آنذاك.

ولنعد الآن إلى مساق الحرب.

* * *

لويد جورج.. ولدندورف حتى الضربة القاضية

لاح في مطلع سنة ١٩١٧ أن العام عامُ تغير شامل. وقد مر معنا في السابق تغيير القادة العسكريين في الدول المتحاربة في أواخر سنة ١٩١٦، ثم جاء لويد جورج وبرايان بتغيير في أسلوب الحرب بعد ذلك بشهور. كان المأمول أن يغدو لويد جورج في بريطانيا، ولدندورف في ألمانيا الشخصيتين اللتين ستطبعان ماجريات الحرب في ذلك العام. وكان كلاهما يرفع شعار «اضرب العدو حتى سحقه»، أو كما وضعها لويد جورج «حتى الضربة القاضية».

وكانت الحرب بأكملها قد غدت الآن: «مبارزة ثنائية» بين ألمانيا وبريطانيا. أما فرنسا وحليفاتها، والنمسا وحليفاتها، فكانت مجرد دول على الهامش، كل وظيفتها أن لا تعيق الجانب الذي هي فيه عن احراز النصر.

هذا ما كان يدركه لويد جورج ولدندورف. وهو ذاته ما كان يغفل عنه الجنود في الخنادق وربات البيوت الألمانيات وهن يفتشن عن جذور اللفت، ونظيراتهن الانكليزيات وهن يقفن في صف طويل تحت المطر لتسلم مخصصات عائلاتهن من السكّر.

احتراف الحرب..

إذن، كان التغيير في الجبهة هو الارتداد من الاندفاع الحماسي، بحجة صيانة الوطن والحفاظ على عزة علَمه، إلى احتراف القتال لمجرد السأم من البقاء في الخنادق. وكان التغيير في أحوال المدنيين في البلاد المتحاربة، هو: الانكفاء من فوضى الاقتصاد إلى نظم التخطيط والتقنين.

كان لويد جورج ولدندورف يدركان ذلك: فعمد كل منهما إلى «اخضاع كل مرافق بلده لحاجات المجهود الحربي». فالعمال، حُولوا إلى مصانع الذخيرة، والمواصلات (مهما كانت سبُلها) أُخضعت لتنقلات الجيوش، والانتاج الزراعي صار تحت اشراف لجانٍ شُكّلت لهذا الغرض.

ضرورة التنسيق

كان لويد جورج يعتقد جازماً أن الحرب لا يمكن كسبها ما لم يتم التنسيق بينه وبين حلفائه لضمان توفير جميع الموارد الممكنة لخدمة الحرب. وبما أنه لم يكن يثق بامكانية إحراز ذلك النصر في الميدان الفرنسي فقد حول وجهه شطر جبهة أخرى.

ولهذا دعا رئيسُ الوزارة البريطانية حلفاءه لعقد مؤتمر في روما.

وكان الهدف الذي يسعى إليه من ذلك المؤتمر ينطوي على شقّين:

١ ـ تنسيق المجهود الحربي بين الدول المتحالفة.

٢ ـ اقناع القيادة الايطالية العامة بهجوم عام على النمسا. وانعقد المؤتمر

ماذا كانت النتيجة؟

الشق الأول التنسيق

إليك ما حصل: حين طلب لويد جورج تنسيق اقتصاد كل بلد وتوجيهه لخدمة الحرب، أظهر المؤتمرون كل حماسة واندفاع. وكانت خُطبهم تبدي أن هذه الفكرة «العبقرية» هي التي راودتهم منذ شهور، لكنهم ودوا أن يتريثوا خشية أن تعتبر الدول الأقوى، منهم، ذلك التنسيق محاولةً لإلقاء العبء على كاهلها، (وهم يعنون بذلك بريطانيا، لأنها تمدهم بالفحم والسلاح). أما من حيث اخراج هذه الحماسة إلى حيّز التنفيذ، فلم يتفق المؤتمرون على أية طريق.

إذن، قبض لويد جورج مجرد كلام في الهواء. هذه نتيجة الشق الأول.

الشق الثاني اقتراح مرفوض

حين طلب لويد جورج من الجنرال كادورنا، القائد الأعلى الايطالي، فتح جبهة جديدة بجنود بريطانيين وفرنسيين وايطاليين، وتحت قيادة كادورنا نفسه، رفض الجنرال الفكرة من أساسها. وفي تحليل اقتراح لويد جورج ورفضِ كادورنا لذلك الاقتراح، يرى المرء كثيراً من التناقضات. وهي:

منطلق لويد جورج

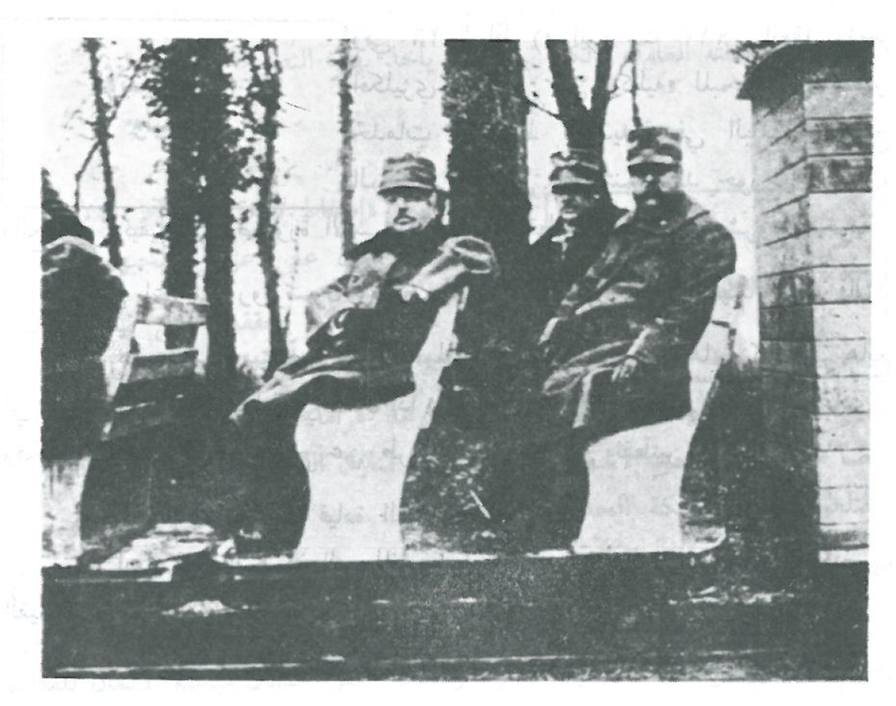
لم يكن لويد جورج يرى في أيٍ هجوم للحلفاء، يتم في الجبهة الفرنسية، إلا فرصةً للألمان للقضاء على المهاجمين. وهو لا يثق بالجنرالات البريطانيين في فرنسا، وبخاصة في هايغ. لهذا فهو يود جعل الجبهة الفرنسية ثانوية، بأي ثمن، حينذاك يتيسر له الخلاص من هايغ. لكن هايغ يتمتع بعطف الملك جورج الخامس، وها هو جلالته يمنحه لقب «فيلد مارشال» كتحدٍ لرئيس الوزراء!!

ولويد جورج لا يثق أيضاً بالجنود الفرنسيين، وإن كان عظيم الثقة بجنرالاتهم. لهذا يسعى إلى جعل هايغ والجنود الفرنسيين يخضعون في قيادتهم إلى جنرال ايطالي.

هذا هو تفكير لويد جورج.

منطلق كادورنا

أما تفكير كادورنا فهو على النحو التالي: لقد فشل الفرنسيون والبريطانيون في طرد الألمان من المناطق الفرنسية التي احتلوها، على الرغم من ضخامة التضحيات المادية والبشرية التي قدمتها كل من بريطانيا وفرنسا. وحين يهاجم الايطاليون وحلفاؤهم النمسا، سينتصرون حتماً. لكن ألمانيا ستخف إلى مساعدة حليفتها. وحينذاك يصيب القوات الايطالية ما أصاب الروس في غاليسيا. وقد لا يفي الإنكليز والفرنسيون بوعودهم بالمساعدة، نظراً لهجوم ألماني في فرنسا، مثلاً. فيبقى الميدان الايطالي المقترَح قبالة جيوش النمسا والجيوش الألمانية المسعفة. بهذا تخرب أراضي ايطاليا، أو شمالها على الأقل.



الجنرال كادورنا، القائد الإيطالي العام في عربة مكشوفة من قطار جبلي

وهكذا نرى أن كادورنا كان غير واثق من حلفائه، كما أنه يعترف بفشل منتظر للخطة بكاملها.

عودة خائبة

إذن، ها هو لويد جورج يعود إلى بريطانيا من مؤتمره خائباً. فإلى أين تتجه أفكاره الآن؟ طبعاً، إلى الميدان الغربي.

ونحن نعرف أن هايغ ونيفيل كانا يودان التحضير لهجوم عام في ذلك الميدان. لكن خطط كلٍ منهما كانت منفصلة عن الآخر. أما الآن، وبفعل كراهية لويد جورج لـ«هايغ» وعدم ثقته في مقدرته العسكرية.. فقد أوعز إلى نيفيل أن يسير قُدماً في تحضير خطته. وأكثر من ذلك، افهمه أن هايغ سيكون تحت قيادته.

وطبيعي أن روبرتسون لم يكن يوافق على ذلك. ومثلُه أيضاً هايغ، الذي كان نيفيل أدنى منه رتبة عسكرية.

لويد جورج.. ونيفيل

وفي ٢٦ شباط (فبراير) سنة ١٩١٧ انعقد مؤتمر انكليزي - فرنسي في «كاليه» للبحث في تنسيق خدمات الخطوط الحديدية في البلدين لصالح المجهود الحربي. فاغتنم لويد جورج الفرصة، وألح على نيفيل في ضرورة الاسراع بتقديم الخطوط العريضة لمشروع هجومه.

وحين اعترض روبرتسون وهايغ، ميّع لويد جورج اعتراضهما، بأن قال:

«إن هذه القيادة ستقتصر على العملية الحربية القادمة وحدها»، كما خيّر هايغ في أن يتصل بالقيادة العامة في لندن إذا رأى أن جيشه قد أصبح في خطر غير عادي. وهكذا، توصل لويد جورج عن طريق المراوغة إلى نقطتين:

١ - اقصاء هايغ عن قيادة الهجوم الجديد.

٢ - ابعاد ثورة البرلمان البريطاني فيما لو قرر رئيس الوزراء اعفاءه من منصب القيادة

والآن.. ما هي خطة نيفيل؟

كان هذا الجنرال واهماً في قوة الحلفاء وضعف الألمان على السواء. فمن حيث قوة الحلفاء، كان يرى أن الجيش الفرنسي يستطيع دحر الألمان في أراس (هذا مع أن معنوية الجيش الفرنسي كانت منهارة تماماً)، وأن الجيش الإنكليزي بمقدوره الاستفادة من الثغرة التي ستُفتح، ومطاردة الألمان حتى يُخلوا رقعة كبيرة من شمال شرق فرنسا، إن لم يُخلوا المنطقة كلها. وحين تحرّى الحقائق عن جيشه، قرر أن يقوم الإنكليز بالهجوم. وذلك سيراً على نظرية جوفر «على حلفائنا البريطانيين أن يقوموا بالقتال الحامي».

صورة مسبقة للميدان!

ومما سبق نستطيع القول: لقد رسم نيفيل لنفسه صورة عن الوضع في الجبهة، وهو الآن يريد اثبات وجود تلك الصورة بالفعل. وهذا خطأ كثيراً ما نبّه إلى ضرورة اجتنابه نابليون، وإن كان هو نفسه قد وقع فيه أحياناً. لقد قال نابليون: «على القائد أن يُبعد من ذهنه كل صورة مسبقة عما سيحدث، وأن يضع في تقديره كثيراً من الاحتمالات، حتى المتناقضة منها، حين يباشر رسم خطته العامة». لكن نيفيل لم يأخذ بهذه النصيحة. ولهذا لزمه أن يدفع الثمن.

مختصر الخطة!

كان من رأيه: «إسقاط لاون Laon في ٢٤ ساعة، ثم مطاردة الألمان على عرض الجبهة».

غير أن الألمان لم يحققوا أمل نيفيل. كان خطهم الجديد قد تكامل الآن، فلم يفعلوا أكثر من أن ينسحبوا إليه. وقد تركوا في انسحابهم أرضاً حراماً، خرّبوها إلى درجة ان غدت أرضاً ميتة. لقد قطعوا الأشجار فيها، ونسفوا منازل القرى، ودمروا جسور الطرق، واقتلعوا عوارض سكة الحديد... و... و..

ومجمل القول، كانت هذه الأرض الحرام عبئاً جديداً على جيوش الحلفاء أن تواجهه. فالتقدم فيها محفوف بخطر تفجُّر الألغام المبثوثة في كل شبر من الأرض، وخطرِ التسمم من استعمال مياه الآبار، وكذلك خطر احتمال مباغتة الألمان للقوات المتقدمة.

فشل خطة نيفيل ومحاولة اقصائه

وبانسحاب الألمان إلى خط هندنبرغ الحصين، غدَوا في مركز أقوى مما كانوا قبل الانسحاب، وأصبح الهجوم عليهم في خنادقهم، بل قلاعهم الجديدة، لا يعدو كونه انتحاراً مرسوماً.

وهكذا فشلت تقديرات نيفيل، ومعها خابت آمال لويد جورج. وبدا أن الألمان يُحسنون فهم عقليات أعدائهم. وفي هذه الأثناء تغيرت الوزارة الفرنسية، فأُبعد بريان، سندُ نيفيل، وجيء بـ «ريبو» رئيساً للوزارة. واختار «ريبو» كوزير للحرب في وزارته عالماً رياضياً اسمه المسيو «بينليف». وكان وزير الحرب الجديد قليل الثقة في نيفيل، فود استبداله، إلا أن وضعاً حرجاً ظهر من ذلك.

قائد ذو منصبين

لقد غفِل الحلفاء أن نيفيل كان ذا منصبين متداخلين.

أولهما: منصب القائد العام الفرنسي.

وثانيهما: منصب القائد العام للحلفاء في الميدان الغربي.

فإذا كان يحق للوزارة الفرنسية أن تنزعه من المنصب الأول، فليس يحق لها وحدها أن تتصرف بصدد المنصب الثاني. ولهذا نرى نيفيل يهدد وزارة بلاده بتقديم استقالته فلا تجرؤ حينذاك على إحراجه. وفي تقديم استقالة نيفيل كان لسان حاله يخاطب ريبو قائلاً:

«إن فشل الهجوم الأخير لن يزيد إلى اخفاقات الحلفاء السابقة شيئاً كثيراً. أما قبول استقالتي فمعناه ثورة الرأي العام في فرنسا أولاً، وخروج القوات الإنكليزية من كونها تحت القيادة الفرنسية ثانياً. والوزارة الفرنسية حريصة جداً على ألا يحدث ذلك».

وانطلاقاً من صحة ما عرضناه، رضخ ريبو وبقي نيفيل. أما لويد جورج فقد كانت خيبته عظيمة، حين وجد أن عدم ثقته بجنرالاته قد أورثه ورطة كبيرة، وأنه كان يراهن على جواد خاسر.

على هذه الحال نترك لويد جورج وخيبته لننتقل إلى ادميرالات ألمانيا فنرى مخططاتهم سنة ١٩١٧.

في المانيا.. ١٩١٧

عودة الى رأي فولكنهاين

سبق أن قدّمنا أن لدندورف، وبالتالي رئيسه هندنبرغ، قد عاد إلى رأي فولكنهاين المعزول، في ضرورة اطلاق يد ادميرالات البحرية للقيام بحرب غواصات شاملة. وسبق أن أشرنا إلى تخوّف المستشار بتمان من ذلك، ومحاولته التوصل إلى حل صُلحيّ للحرب قبل مباشرة العسكريين الألمان في مخططهم الأخير.

أما الآن.. فقد ثبت فشل بتمان (كما بيّنا)، وصارت الكلمة العليا والأخيرة لسلاح الغواصات.

الغواصات لا تحترم علماً!

وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) أقدم الألمان على خطوة نهائية وحاسمة. لقد أعلنوا أن غواصاتهم ستتعقب جميع السفن التي تبصرها في شرق المحيط الأطلسي، دون النظر إلى العلَم الذي ترفعه تلك السفن، وسواء كانت الدول التابعة لها حيادية أو مشتركة في الحرب ضد ألمانيا.

وكان لهذا الإعلان وقعُ الصاعقة على رؤوس شركات الملاحة والحكومة الأمريكيتين. فأولاً وأخيراً ما هي الحكومة الأمريكية إلا نائباً عن الشركات الكبرى في بلادها لحفظ الأمن، وإبقاء أصحاب رؤوس الأموال في وضع مريح. وها هي ألمانيا تهددهم الآن.

ولسون يقطع العلاقات الدبلوماسية

لهذا نجد ولسون في ٢ شباط (فبراير)، مضطراً إلى قطع علاقات بلاده الدبلوماسية مع ألمانيا، وبضغط من مجموعة الرأسماليين الأمريكيين. إلا أنه مع هذا، لم يُعلن الحرب على الألمان، إذ كان،

والحق يقال، يتمنّع في ذلك، ناظراً إلى الحرب كوسيلة وحشية لإثبات الدعوى في الحق، ومترفعاً عن غمس بلاده في عفن السياسة الأوروبية.

قضية في المكسيك

لكن قباطنة الغواصات الألمانية لم يسمحوا له بالبقاء في ترفّعه. فقد أغرقوا السفن الأمريكية التي صدفوها. وزاد الطينَ بلّةً أن «زيمرمان» وزير الدولة في حكومة ألمانيا، عمد إلى محاولة الاستفادة من فكرة جهنمية. لقد اتصل بحكومة المكسيك، وعرض عليها أن تتولى ألمانيا مدّها بالسلاح والمساعدات الحربية الأخرى، إذا قام المكسيكيون بمحاربة الولايات المتحدة، بحجة استرداد كاليفورنيا والمقاطعات الأخرى إلتي كان الأمريكيون قد اقتطعوها من أراضي المكسيك.

وهذه فكرة حمقاء، ولن يتدنى إلى هذا المستوى إلا ما يسمونه «المكتب الثاني» أو «وكالة الاستخبارات» في دولة من الدول.

ومن سوء حظ الألمان ان الإنكليز التقطوا رسالة الشيفرة الموجهة من برلين إلى السفير الألماني في مكسيكو. وحين فكوا رموزها عرفوا محتواها، فنقلوه إلى الحكومة الأمريكية.

يهودي خائن

كان ولسون عديم الثقة في سياسة بريطانيا، ولهذا، اقنع الإنكليزُ الحكومةَ الأمريكية أن تشتري لها عميلاً في البعثة الدبلوماسية الألمانية في المكسيك. وقد تم ذلك حين باع كاتب يهودي نسخة من تلك البرقية إلى الأمريكيين، ثم عملت الصحافة الأمريكية على نشر الوثيقة والتعليق مشدّدة على مدى خطورتها، حتى أنها صورت البرّ الأمريكي في خطر.

ونحن نعرف الآن أن العناصر اليهودية هي التي كانت وما زالت مسيطرة على الوسط الصحفي في أمريكا. كما نعرف أن إدخال الولايات المتحدة الحربَ كان صفقة بين اليهود في بريطانيا وبين الحلفاء، وان دفع ثمن تلك الصفقة قد جاء في سنة ١٩١٧ على شكل وعد اللورد بلفور.. وسيأتي ذلك في حينه.



الجيش الأمريكي يتمرن على القتال، وتمرينه في لحوم جيرانه «المكسيكيين»

ولسون يتحرك

وقد تزايد الضغط على ولسون طالباً إعلان الحرب. فاتخذ الرئيس خطوتين: أولاهما الاستعداد لدحر المكسيك فيما إذا نجحت ألمانيا في اقناعها بمحاولة استرداد أراضيها المغصوبة، وثانيتهما إعلان الحرب على ألمانيا في ٦ نيسان (أبريل). والواقع أن ولسون كان حزيناً لاضطراره إلى «الرجوع إلى البربرية، والتخلي عن الموقف الذي يسمح لنا بتمييز الحق من الباطل»، كما قال في خطبته أمام أعضاء الكونغرس في ذلك اليوم.

ويلاحظ النقّاد أن الأمريكيين الذين كانوا يكرهون فعلاً الانغماس في الحرب أول الأمر، قد انقلبوا متعصبين للحرب عندما انغمسوا فيها. وتفسير ذلك بسيط. إنهم اعتبروها حملةً صليبية، لأنهم كانوا مقتنعين أن الحق في جانبهم. ألا يؤيد ذلك أن الغواصات الألمانية هي المعتدية على أرواح بحّارتهم وأموال تجّارهم!! وأنّ «زيمرمان» يود خلق المشاكل لهم على ترابهم نفسه!!

لماذا دخلت الولايات المتحدة الحرب؟

نقاد أمريكيون

لقد كُتب الكثير عن ذلك، لكن قلّة من الكتّاب هم الذين تحرّوا الحقيقة المجردة، واستطاعوا الوصول إليها بعد أن نفضوا عنها غبار العاطفة، أو الملَق، أو التشويه المقصود. وقد قال بعضهم، وأكثر هؤلاء من المؤرخين الأمريكيين أنفسهم: ان أمريكا دخلت الحرب نصراً للديمقراطية على طغيان الألمان، وعلى أمل جعل تلك الحرب هي آخر الشرور، وكمقدمة للحياة في عالم تعمّه العدالة والسلام.

وفي هذا التعليل مثاليّة مضحكة، وتزييف ظاهر. إذ، لماذا لم تحاول أمريكا أن تنصر «الديمقراطية» المعنية، طوال سنوات ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦؟ ألم يكن «الطغيان الألماني» ظاهراً بارز المعالم آنذاك؟ و ، ألم يكن دخولها الحرب في سنة ١٩١٤ أقدر على انقاص عدد ضحايا ذلك الطغيان، ودعم «الديمقراطية»؟

أما أملُ جعل تلك الحرب حرباً أخيرة في العالم، فقبولُ رأي زاعميه ليس أفضل من القول «اقتُل المرض بالمرض» و«أصلح الخطأ باقتراف خطأ جديد». وفي ذلك الزعم انسانية حقاً، لكنها من النوع الشديد الغباء. فهل اقتطعت أمريكا أراضي المكسيك بعد دحر جيشها ـ وفي حرب أيضاً ـ لتجعل تلك الحرب هي الحرب الأخيرة، أيضاً؟ وهل لم تجد أمريكا ميداناً تجود فيه بالفائض من «انسانيتها» فاضطرت إلى التفتيش عن ذلك الميدان في أوروبا؟؟ أين كان زنوج الولايات الجنوبية؟ ألم يكن من الانسانية أن تفكر فيهم حكومةٌ يدفعون لها الضرائب ولا تعترف أنهم من البشر؟ حقاً إن هذه «الانسانية» التي تعشق الغريب، وتهجر القريب، لعجيبة!!

مع النقاد أيضاً..

أما نقاد آخرون فيرون أن شعور الولايات المتحدة بالخطر هو الذي دفعها إلى دخول الحرب، ويقولون: «إن الولايات المتحدة تكره قيام حرب بينها وبين المكسيك، مع أنها واثقة من النصر في

تلك الحرب. كما أنها لا يسعها أن تسمح بإغراق سفنها والمواطنين الأمريكيين البحّارة. ولو لم تعلن الحرب، لكان ذلك طعنة لعزتها القومية، وانتقاصاً علنيًّا من كرامتها».

وهذا أيضاً تعليل سخيف. فحين اغرقت غواصة ألمانية سفينة لوزيتانيا البريطانية بركابها الأمريكيين، لم تفعل حكومة الولايات المتحدة أكثر من أن ضرب أحد موظفي مكتب الرئيس ولسون، نسختين من احتجاج، على الآلة الكاتبة. لقد سُمعت قرقعة الآلة الكاتبة حينذاك، لا قصف مدافع الأسطول.

وأما احتمال قيام المكسيك بحربٍ ما، فاحتمال لا يأخذه بعين الاعتبار إلا المأفونون. إذ أن المكسيك ابلغت الولاياتُ المتحدة أنها لن تفعل مثل ذلك. هذا، علاوة عن أن الولايات المتحدة كانت تعلم حق العلم أن جارتها أعجز من اتخاذ هذه الخطوة آنذاك، لانشغالها بمجموعة من المشاكل الداخلية التي خلقتها الشركات الأمريكية العاملة فيها.

وحتى، دون النظر إلى كل ما سبق، ألم تفتضح الخطة بكاملها وتنشرها الصحف؟ فهل من المعقول أن يباشر المكسيكيون تطبيق خطة حربٍ تم كشفها من قِبل الخصم!!

نقاد ألمان

ويبقى رأي آخر جاء به المؤرخون الألمان، ونظنه أقرب إلى الصواب. لقد قالوا: «إن الولايات المتحدة دخلت الحرب لتحفظ ثرواتها، وتزيد اثراءً فيما بعد». ثم فصّلوا ذلك بصورة، مفادها ما يلي:

منذ ما قبل سنة ١٩١٧ كانت الولايات المتحدة منحازة بصورة عملية إلى جانب الحلفاء. وقد حاولت الحكومة أن تحافظ على الحياد المطلق أول الأمر، فمُنعت البنوكُ من فتح اعتمادات لحساب الدول المتحاربة جميعاً. لكن تلك المحاولة لم تنجح. إذ سرعان ما احتج رجال الأعمال على اجراء حكومتهم، وافهموها بشكل صريح أنها بعملها هذا تفوّت على الاقتصاد الأمريكي فرصة ثمينة للازدهار، قد لا تعود. ولما كانت الحكومة الأمريكية في مجملها مؤلفة من رجال الأعمال وأصحاب المصالح هؤلاء، ويهمها جداً أن تزيد ارباحُهم ـ فقد تراجعت عن تفكيرها وخطوتها السابقة.

ومن ثم أخذ سيل من القطن والنحاس والقمح والقروض المالية يعبُر المحيط

الأطلسي إلى الدول المتحالفة. وأخذت المصانع الأمريكية تشتغل ليل نهار لتوريد الطلبيات التي يوصي عليها الحلفاء. ومن شأن ذلك أن ينشّط الاقتصاد، فازدهرت الحركة التجارية والصناعية، الداخلية والخارجية بتأثير ذلك. وكانت القروض تُعطى بفائدةٍ عالية، وعلى أساس أن يتم استردادها بعد الحرب. لكن، من الذي يقدّم هذه القروض؟ إنها طبقة الرأسماليين الأمريكيين، أي المسيطرين على الكونغرس نفسه.

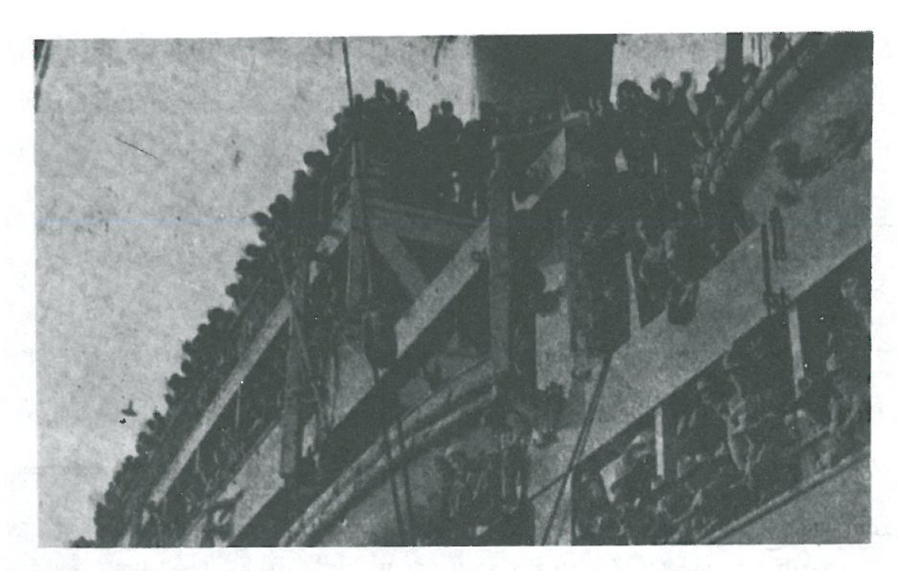
والآن، ونحن في ربيع سنة ١٩١٧، بدت كفة ألمانيا هي الراجحة بتأثير حرب الغواصات. فإذا استطاعت الغواصات ايقاف التدفق التجاري بين الولايات المتحدة والحلفاء، كان معنى ذلك نكبة الولايات المتحدة في أكثر من ناحية. إن ازدهار صناعتها وتجارتها سينقلب أزمة بطالةٍ وبؤس في تلك الحال. وبريطانيا وفرنسا ستغدوان أقرب إلى الهزيمة أو الاستسلام لألمانيا، وعندئذ: من يدفع القروض الضخمة التي استدانتاها من الرأسماليين الأمريكيين؟ طبيعي أن ألمانيا المنتصرة لن تفعل ذلك. وطبيعي أن الحلفاء المهزومين لن يكونوا في وضعٍ يمكّنهم من الدفع. إذن، ستذهب تلك القروض مع الريح. وهل في هذا ما تعمل له حكومةٌ تخدم أصحاب المصالح في بلدها!!

رأي أخير

وزبدة القول، لقد دخلت الولايات المتحدة الحرب، لأن طبيعة نظامها الاقتصادي أجبرتها على ذلك. وتتمثل تلك الطبيعة في الانتعاش الموقت الذي يخشى الأزمة، والقروض التي توجب ضمان سدادها، هي وأرباحها العالية النسبة.

الولايات المتحدة طرف حربي غير نشيط

لم يستبشر الفرنسيون والبريطانيون بانضمام حليف جديد إلى حكومتيهم. أما ساسة البلدين وبعض العسكريين فيهما فقد فعلوا ذلك. والواقع، ان الولايات المتحدة كانت عامل إعاقة، لا تسريع في الحرب، أول الأمر. نعم، كان أسطولها ضخماً، ولكنها لم تكن تمتلك جيشاً برياً حربياً بمعنى الكلمة. وحين توجّب على القيادة العامة الأمريكية أن تجنّد من شبابها جيشاً جديداً، واجهتها عقبة التدريب والتجهيز بالسلاح الخفيف المطلوب. وكانت مصانع الذخيرة في الولايات المتحدة قليلة العدد، وضعيفة طاقة الانتاج، إذ لم يسبق لها أن موّنت حرباً شاملة كهذه التي تشهدها في ربيع سنة ١٩١٧. فتوجّب عليها الآن



الجنود الأمريكيون يصلون..
نحن هنا يا «لافايت»

أن تكبُر. وحتى البنادق جرى تسليمها أول الأمر، من البريطانيين والفرنسيين إلى الأمريكيين، لا العكس. أما الدبابات والطائرات، فلم تشترك في الحرب أيٌ منهما أمريكية. وحتى القروض التي كان الحلفاء ينالونها غدت الآن صعبة المنال، فالأمريكيون يودون استخدام مواردهم لنفسهم. لقد احتاجوها الآن.

وهكذا نرى أن أمريكا بدخولها الحرب إنما قدمت ورقة رابحة للحلفاء، ولكنها سند غير مستحق الأداء. فكان على الحلفاء أن يصمدوا حتى يحين موعد قبض ذلك السند، وعندئذ يغتنون فعلاً.

* * *

روسيا وربيع ١٩١٧

وفي نيسان (أبريل) من سنة ١٩١٧ بدا أن الحلفاء لن يتمكنوا من الصمود. فقد كانت دولة حليفة كبيرة على وشك الخروج من الحرب. إنها روسيا. ففي شتاء سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٧ ساءت الأحوال الاقتصادية إلى درجة كبيرة في امبراطورية القيصر. وكان أهم مظاهر هذا التردي نقصان الأغذية إن لم نقل فقدانها في المدن. ففي بطرسبرج (بتروغراد) العاصمة، مثلاً، قامت أكثر من مظاهرة صاخبة من الجائعين، كانوا يطلبون الخبز، والخبز فقط. ولكن الجواب

الذي كثيراً ما تلقوه في السابق، وهو الرصاص، لم ينفع الآن. ذلك أن الجنود أيضاً اشتركوا في الشغب. أما، لماذا اشتركوا، فلأسباب كثيرة جداً لا محل لتفصيلها الآن، وإنما نورد أهمها تلميحاً. وهي:

١ ـ الانكسارات المتكررة في الجبهة.
٢ ـ فساد الادارة الحكومية والقيادة العسكرية.
٣ ـ المبادىء الجديدة التي بثها البلاشفة فيما بينهم.
٤ ـ الخشية من ارسالهم إلى جبهة يواجهون فيها مذابح الألمان.

وقد رفض القوزاق هذه المرة أن يساندوا السلطة الرسمية، فقام الثائرون بالسيطرة على المدينة. وكان للجنود البحارة فضل كبير في ذلك.

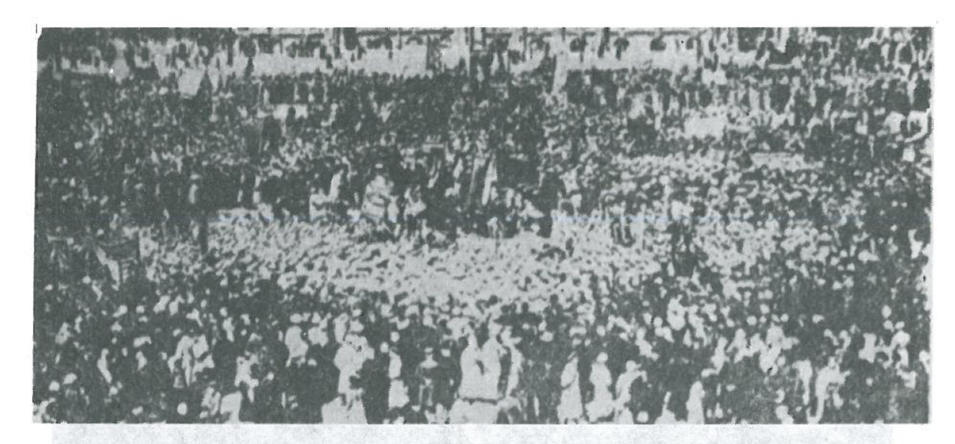
وقد حاول القيصر نيقولا الثاني العودة من مقر اقامته إلى بطرسبرج فألقي عليه القبض في الطريق. وأعاده موظفو السكة الحديدية إلى مقر الأركان. وهناك تشاور مع القادة فنصحه هؤلاء أن يتنازل عن العرش. فاضطر إلى تنفيذ تلك النصيحة، وانتهت بتنازله أسرة رومانوف.

لكن، من الذي يتولى السلطة؟

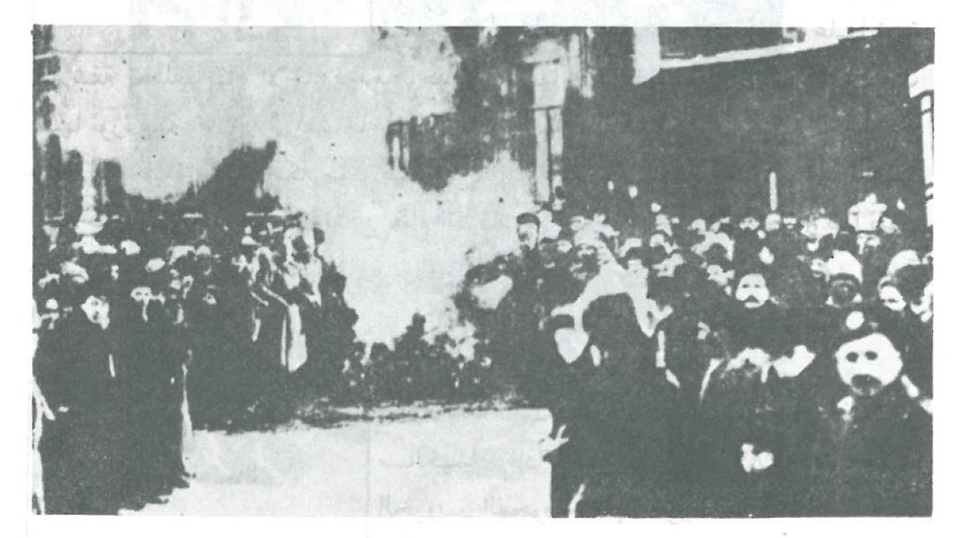
لقد تسلمها مجلس مؤلف من مفوضي الجنود والعمال، وسموا أنفسهم «السوفييت». وقد عهد ذلك المجلس إلى حكومة ليبرالية بزعامة كيرنسكي بتصريف شؤون البلاد. ولم يدُر أي حديث عن الانسحاب من الحرب أول الأمر، لا بين أعضاء الحكومة الجديدة، ولا في مجلس السوفييت، وهذا ما دعا البريطانيين والفرنسيين إلى التهليل لتلك الثورة. إذ ظن هؤلاء أن نسخة جديدة من الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ هي التي يقدمها التاريخ في روسيا سنة ١٩١٧.

هل من نابليون جديد!

ولما كان الحلفاء يعلمون أن ثورة ١٧٨٩ نقلت فرنسا من دولة ذات جيش ممزق واقتصاد منهار، إلى أعظم قوة حربية في أوروبا، فقد استبشروا بقرب سحق ألمانيا في الجبهة الشرقية. لكن استنتاجاتهم هذه كانت خاطئة تماماً. لقد حاولوا تفسير التاريخ، لكن الناس كما هي العادة، دائماً يفسرونه لصالحهم هم، فيأتي التفسير خاطئاً. كان الحلفاء يقولون: «الآن زالت عنا







الثورة الروسية.. ها هم البحارة، والجنود، والشعب.. الذين فجروها



الحرس الأحمر
رجال الثورة البلشفية الجديدة

صفة مساندة النظم الرجعية والاقطاعية في روسيا، وهذه ثورة ليبرالية. وستكون طاقتها الحربية، بمجرد أن تتفرغ للتنظيم، عظيمة جداً. ألا نذكر نابليون من ثورة فرنسا! إن نابليوناً جديداً سيبرز الآن، لكنه سيكون إلى جانبنا هذه المرة، وضد غليوم».

أين طبيعة التغير إذن؟

بهذا فشل الحلفاء، بمن فيهم ساستهم الكبار، في ادراك طبيعة التغير. لقد غفلوا عن أن التاريخ لا يثبت مكانه ولا يتقهقر، وإنما يسير قُدماً. وتغافلوا عمداً عن أن طبيعة المبادىء التي قامت عليها ثورة البلاشفة تختلف كل الاختلاف من حيث أهدافها، عن طبيعة المبادىء التي قامت عليها ثورة سنة ١٧٨٩. «فقد جاءت ثورة ١٧٨٩، (كما يقول لينين) لتنقل الحكم من طبقة إلى طبقة ويظل الكادحون مستغَلّين، أما ثورة سنة ١٩١٧ فقد جاءت لتجعل الكادحين أسياد أنفسهم.. وتدفن نظام الطبقات في مجتمعها إلى الأبد». أو كما يقول ستالين: «إن الثورة الفرنسية ثورة بورجوازية، ولذلك سرعان ما انحرفت عن خدمة الشعب».

تغاير المسالك

وطبيعي ما دامت أهداف الثورتين متغايرة، أن تتغاير مسالكهما. فإذا كانت ثورة سنة ١٧٨٩ قد خلقت الحروب الهجومية، فإن ثورة سنة ١٩١٧ جاءت لتقبُر تلك الحروب.

هذا ما تمخضت عنه ثورة سنة ١٩١٧ فيما بعد. أما في ربيع سنة ١٩١٧ فقد كان الأمر لا يزال غامضاً. فالحكومة الروسية الجديدة لا تزال تائهة.. وأكثرية أعضاء مجلس السوفييت لا يزالون طوباويين.. إن طريق ثورتهم لما تتضح معالمها بعد.

حدث شخصي وعالمي أيضاً

في هذه الأثناء تم حدث شخصيّ، إلا أنه عالمي أيضاً، كما ثبت ذلك بعد بضعة شهور. فما هو ذلك الحدث؟

لقد وصل لينين إلى بطرسبرج، تلك المدينة التي ستحمل اسمه من الآن فصاعداً، فتغدو «لينينغراد».

فمن هو لينين هذا؟

١ ـ رأي أشياعه

يرى أشياعه أنه بطل ملهَم، يتصف بالعبقرية في الادراك كما في التنظيم، ويقولون: ها كم انجيلَه في تفسير كتاب «رأس المال» لـ «كارل ماركس».. وانظروا تطبيقه للفلسفة المادية في سياسة الاتحاد السوفياتي. ألا ترون أنه فكر في كهربة سُدس الكرة الأرضية في وقت كان العالم ينظر



يوم وصول لينين إلى بطرسبرج. (وهو الذي يحمل المظلة)

فيه إلى الاتحاد السوفياتي عبر منظار النظام القيصري؟ ألم يبلغكم أن منشور القوميات، والآخر المتعلق بالسلام، والثالث الذي فضح الاتفاقيات السرية بين بريطانيا وفرنسا بصدد اقتسام تركة الدولة العثمانية.. كل هذه من أعماله المجيدة! انظروا إلى الشعب كيف رحّب به، وادرسوا كيف استطاع ذلك الشعب أن يتنظم فيردّ أوروبا بكاملها حين حاولت التدخل في بلاده إلى جانب الروس البيض من عفونات القياصرة.. و.. و.. الخ.

٢ ـ رأي مبغضيه

ويرى مبغضوه من أصحاب المصالح التي هددها نظامه الجديد غير ذلك في لينين. ويقولون:

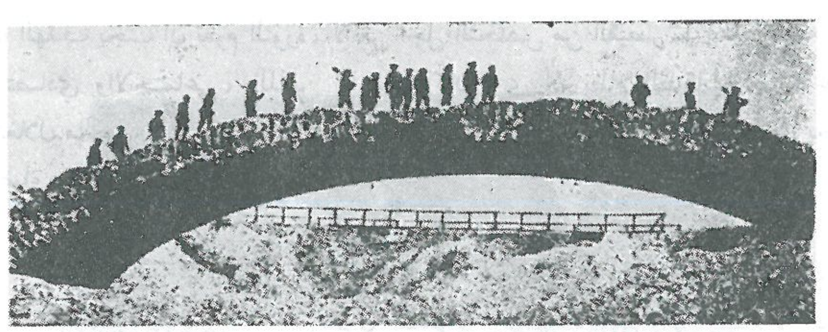
كان هذا الرجل يعاني مجموعة من مركبات النقص(*) التي تبلورت في نفسه فساقته إلى انتهاج طريق العنف في الحياة. فالقيصر شنق أخاه. وهو يهودي متنصّر في طبيعته شراسة اليهود في فتح «أريحا» التوراتية. إنه يريد أن ينتقم لأخيه، ولذلك يسخّر فكره في خدمة الحقد. وهو في الحق على قدر كبير من الذكاء، لكنه يستعمله بنفسية ملتوية، وأسلوب شديد الخبث والدهاء. «وهو يهوى الخراب(**)، لذلك خرب النظام الاجتماعي الأزلي في بلده». لقد جاء يساوي بين الناس لأنه سبق له أن فشل في أن يكون أحد كبرائهم. أما نظرياته والآراء التي بثّها في ما كتب أو قال، فليست إلا واسطة لنشر الدمار في العالم.

انظروا إلى العنف الذي قضى به على خصومه، والدماء التي برّر إراقتها حين دافع أصحاب المصالح عن حقوقهم. من أوصاه بمصلحة العمال والفلاحين وهو لم يكن عاملاً أو فلاحاً؟ أما انسحابه من الحرب، والذي يمجده متّبعوه، فقد كان عن جُبن فيه وخوفٍ من ثورة معاكسة، لا تقديراً لنعمة السلام وضنّاً بالأرواح. إذ كيف يضنّ بالأرواح في جبهة القتال من يُزهقها في شوارع مدن روسيا وأرياف أوكرانيا!.

* * *

ومهما كان الرأي في لينين، فإنه يهمنا الآن انه وصل لينينغراد في ١٦ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٧. فكيف وصل؟ وماذا هناك؟ ومن ساعده؟

(*) من هذا القبيل رأي الكاتب عباس محمود العقاد ويشدد على أن لينين خنق هرة في صباه.
(**) هذه عبارة نوري السعيد رئيس وزراء العراق أيام العهد البائد.



الجنود البريطانيون يعبرون الجسر فوق قناة السوم، في المرحلة الأخيرة من معركة السوم (راجع سابقاً)

القيادة الألمانية وتسفير لينين

كان لينين، كما ألمحنا، طريد «عدالة» القيصر، فهو منفي في زيوريخ من سويسرا. وقامت الثورة في بطرسبرج(*)، وتسلمت السلطة حكومة ليبرالية أعلنت أنها ستزيد الحرب ضراوة ضد الألمان. وفكرت القيادة الألمانية في ذلك. ثم تساءلت:

«إن لينين قد ينجح في إشغال روسيا بأحداثها الداخلية فتضعف قوتها في الميدان الشرقي مما يسهّل على قادتنا التوصل إلى صلح في تلك الجبهة، وبالشروط التي نرضاها. فلماذا لا نعرض عليه السفر إلى هناك! فحتى لو لم ينجح في إبعاد روسيا من الحرب فإن فوضى الاقتتال بينه وبين مناوئيه في بلاده سوف تخفف عن كاهلنا الكثير من جدّية الحرب».

على هذا الأساس اتصلت القيادة الألمانية بلينين وعرضت عليه تسفيره إلى بطرسبرج. إلا أنه كان رعيّةً لدولة معادية لألمانيا، فلا يحق له السفر بحرية عبر الأراضي الألمانية. لذا وُضع تحت تصرفه قطار مغلق سريع اجتاز به وسط ألمانيا ثم بولندا حتى الحدود الروسية، ومن ثم إلى بطرسبرج.

الحرب للاصلاح!

وهناك، وجد حكومة روسيا الجديدة تتخبط في طريقها.. وجدها تصرّ على المضي في الحرب. وكان من رأيه هو، أن الحرب يجب أن تكون لإصلاح الأحوال الاجتماعية في روسيا. فمن أجل

(*) لينينغراد حالياً.

هذا الهدف يجب أن تقوم الثورة، لا من أجل التخلص من القيصر ثم إبقاء النظامين، الاقتصادي والاجتماعي، اللذين عايشاه. كان يرى أن نظام الطبقات القائم على استغلال مالكي وسائل الإنتاج، للفلاحين والعمال، هو أساس كل داهية. لهذا يجب القضاء عليه، ودفنه في «مزبلة التاريخ»(*).

الجيش الأحمر والممثل تروتسكي

لكن هذا الدفن يحتاج إلى قوة منفذة، ويجب أن تكون عسكريةً. لهذا بدأ لينين في إنشاء «الجيش الأحمر»، وسيطر عليه.

وقد ساعده في ذلك حليف قوي هو تروتسكي، أخطبُ أهل عصره على الإطلاق. فقد عاد تروتسكي من الولايات المتحدة، حيث كان قد ذهب إلى نيويورك ليتقاضى عمولة عن فيلم اشترك في تمثيله. والحق، أن الرجل كان ممثلاً من الدرجة الثانية. أما حين اعتلى مسرح الحياة الحقيقي، فقد أثبت أنه منظم عسكري قدير.

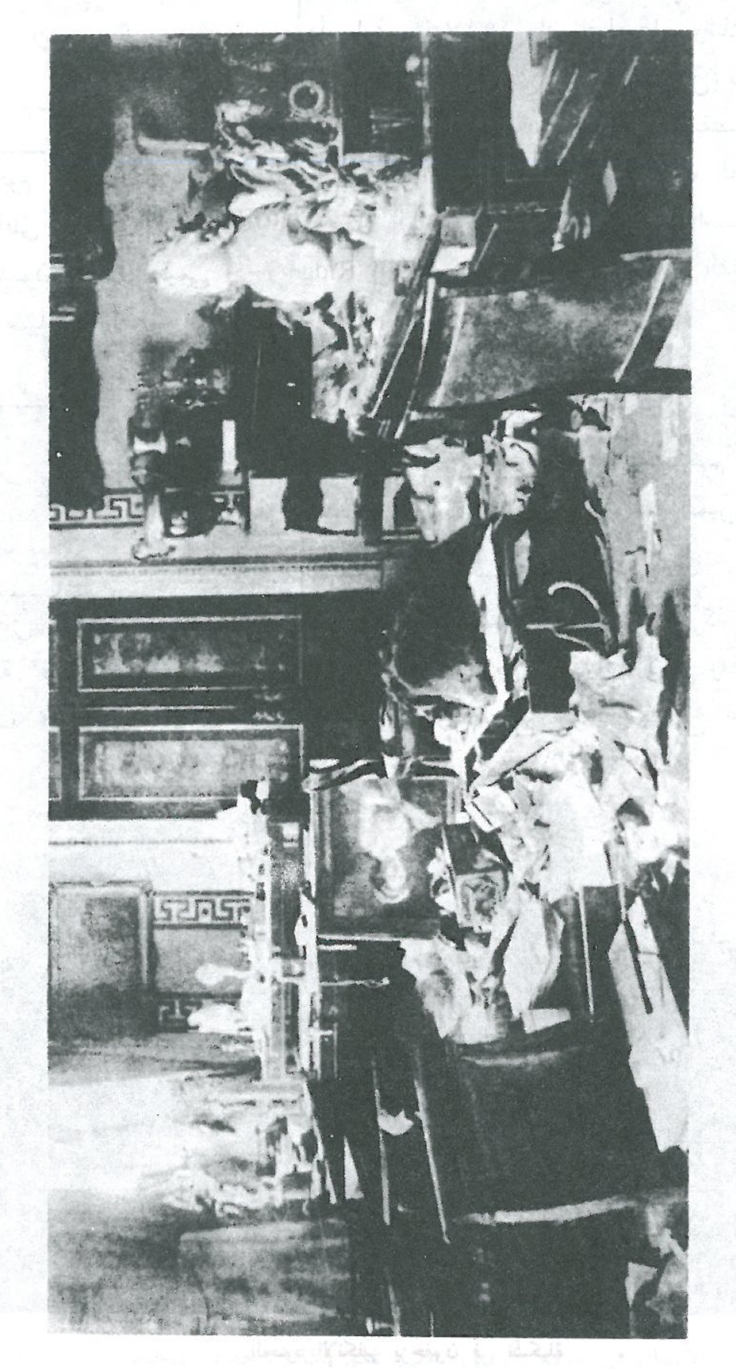
وبفعل لينين وتروتسكي بدا أن مسرح الحرب العالمية الأولى قد انعكست عليه ظلال جديدة. وكانت تلك الظلال قادمة من أنوارٍ مسرحية ساطعة قدرت أن تكسف الممثلين جميعاً. إن ثورة روسيا سنة ١٩١٧ لهي أهم في التاريخ البشري من الحرب العالمية الأولى بكاملها. ذلك أن الحرب اشتعلت ثم خمدت نارها بعد بضع سنوات. أما ثورة سنة ١٩١٧ فقد اشتعلت فتغيّر معها وجه التاريخ، وإلى الأبد، كما يلوح.

* * *

ولننظر الآن إلى الجبهة الغربية.

في هذه الآونة كان القليل من الناس في الدول المتحالفة من ينظرون بعين الاهتمام إلى الثورة الروسية الثانية. كانوا يقولون: «دعوا روسيا تنظم نفسها قليلاً، ثم ترون ما يفعل الروس في جبهتهم». وبعد ذلك يضيفون: «أما الآن، فلينصبّ اهتمامنا على الجبهة الفرنسية».

(*) هذا تعبير لينين.



غرفة مكتب القيصر ألكسندر الثاني في قصر الشتاء بعد أن خربها الثوار في نوفمبر ١٩١٧

الهجوم في اراس

والحق أن هذا كان ما ينبغي. ففي غضون نيسان (أبريل) سنة ١٩١٧ كان نيفيل على وشك أن يباشر هجومه المرتقب. وفي ٩ نيسان (أبريل) بدأ الإنكليز الهجوم على أراس Arras. وكان المقصود من هذا الهجوم مجرد التمويه على الألمان كي لا يفطنوا إلى الاستعدادات الضخمة في المناطق الأخرى، فيتهيأوا للدفاع. وكان الهجوم أول الأمر ناجحاً، إذ استطاع الجنود الكنديون احتلال «فيمي ردج» Vimy Ridge، وهي واحدة من التلال القليلة القائمة في سهل الأراضي الواطئة.

فردان جديدة

لكن ما شهدناه في فردان تكرر الآن. إذ سرعان ما جلب الألمان إمدادات كافية لمواقعهم فتعزّز خط الدفاع لديهم، وتعذّر على المهاجمين اقتحامه.

نعم، لقد أخلى الألمان رقعة ضيقة من الأرض، لكن هذه كانت نتيجة بخسة للمعركة. اذ تحولت تلك المعركة إلى مذبحة فعلية. فقد كانت خسائر البريطانيين ١٥٠ ألفاً، ما بين قتيل وجريح ومفقود، بينما كانت خسائر الألمان ١٠٠ ألف فقط، ومعظمهم جرحى بجراح طفيفة.



الجنود الإنكليز يزحفون في تشكيلة «رتل - منفرد» إلى القمة.. حيث حصدهم الألمان في «أراس»



دبابة منقلبة في معركة أراس

التمويه للمباغتة!

كل هذا كان لمجرد التمويه على الألمان، عن موقع الهجوم الكبير المزمَع في «آين Aisne». وكل هذا الثمن دفعه الحلفاء في سبيل الحصول على عنصر المباغتة. فهل تم لهم ذلك؟

كان الألمان في موقع «آين»، على علم بكامل خطة الهجوم الفرنسي المنتظر.

إذ انهم أسروا «رئيس عرفاء» فرنسياً كان يحمل معه كامل تفصيلات خطة نيفيل على شكل خريطةٍ حربية خاصة.

وإن المرء ليتساءل: وهل من المعقول أن يحمل «شاويش» نسخةً من خطة القائد العام لجيشه؟! كثيرٌ من المؤرخين يرون أن بعض كبار الضباط في هيئة قيادة نيفيل، ومن خصومه، هم الذين عملوا على إيصال الخطة إلى الألمان، وعن طريق الأسير المذكور. وقد يصح هذا التفسير.

واستفادةً من معلومات تلك الخريطة، جعل الألمان مراكز مدافعهم ورشاشاتهم في نقاط محددة. بل إنهم جلبوا تعزيزات كبيرة لقواتهم في الموقع المعين. حتى إذا ما أطلّ ١٦ نيسان (أبريل) كان عدد الفرق الألمانية يناظر عدد الفرق الفرنسية المهاجِمة.

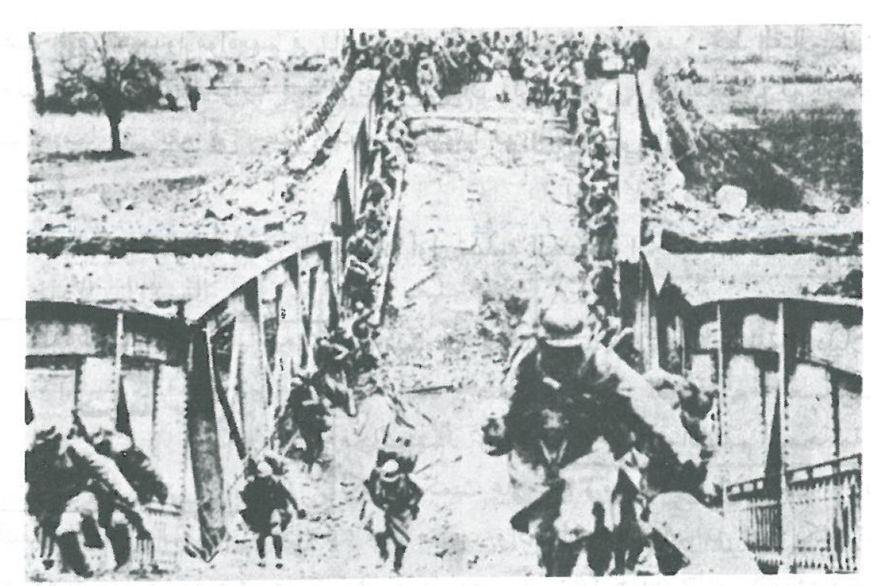
القصف.. بداية الهجوم

وشرعت مدفعية نيفيل في قصف خطوط العدو. لكن ذلك القصف لم ينجح حتى في إخماد مدافع «الماشين غان» الألمانية. فقد ظلت هذه تلعلع حاصدة طوابيرالفرنسيين المتقدمين. وكان من جراء ذلك أن الـ ٦ أميال التي كان نيفيل يقدّر أنه سيخترقها في الخط الألماني، قد انمسخت فغدت ٦٠٠ متر. وحتى هذه الـ ٦٠٠ متر أرهقت كاهل الفرنسيين لكثرة ما كبّدتهم من قتلى ومشوّهين.

هكذا، إذن، فشل نيفيل و«سرّه» الذي لم يشأ في السابق أن يُطلع عليه أحداً. لقد ثبت الآن أن سرّه هو «لا سرّ»، وإنما اتّباع لنظرية جوفر في إحداث المذابح الجماعية في رقاب جيشه.

الفشل.. ومجيء بيتان «نظرية فابيوس الروماني»

ومع أن هجوم نيفيل استمر فيما بعد ١٤ يوماً، إلا أن فشله ظهر منذ البداية. لقد صمد الألمان. وبصمود الألمان دقّت ساعة التخلص من نيفيل و«سرّه». ففي آخر نيسان (أبريل) نفسه جيء بـ «بيتان» ليحل محله في القيادة. وكان من رأي القائد الجديد اتّباع خطة «فابيوس الروماني». وتقوم هذه الخطة آنذاك على انسحاب الجيش الروماني أمام فيالق هنيبعل القرطاجي، كي يتوغل الافريقيون في التقدم، ثم يناوشهم الرومان من كل جهة. هذا



هجوم فاشل
الجنود الفرنسيون يطبقون خطة الجنرال نيفيل

في الزمن القديم. أما في حال بيتان، فتقوم الخطة على: «علينا الانتظار حتى يقدم الأمريكيون والدبابات». هذا هو الشعار الذي رفعه بيتان.

نيفيل مظلوم!

والحق أن نيفيل عومل معاملة سيئة. نعم، إنه فشل، ولكن فشله لم يكن بمقدار إخفاقات جوفر، أو هايغ في أراس. وهو قد خلّص من العدو رقعة أكبر مما فعل كل منهما، وبإصابات أقل نسبياً.. إذن لماذا خسر شرفه على هذه الصورة؟ ذلك لأنه وعَد بالحصول على أكثر مما وعَد جوفر أو هايغ. وبعد ذلك بانَ عجزه فلم يتسامح معه الناس.

والواقع أن نيفيل قد جعل الجيش الفرنسي يتحمل فوق طاقته. كان الجيش منهاراً تماماً، ومع ذلك استخدمه نيفيل وأبعد الانهيار.

ثغاء الغنم في ميدان المعركة!

وما كاد يشيع خبر إقصاء هذا القائد، حتى عمّت الفوضى وانتشر التمرد. إن كتيبة فرنسية تقدمت إلى القتال وجنودها يثغون كالأغنام المسوقة إلى مسلخ، كما رفضت ٥٤ فرقة إطاعة الأوامر بعد هذا بقليل،

وعدةُ ألوف هجروا مواقعهم في الجبهة، وفرّوا. وأميـال كثيرة مـن خط القتال كانت خالية من أية نقطة للحراسة فيما لو تقدم الألمان. لكن هؤلاء، ويا للغرابة، لم يحسّوا بشيء مما كان يقع في جبهة عدوّهم. ولهذا لم يفكروا في الاستفادة من الفرصة المواتية.

هذا هو الموقف الذي طالع بيتان أول تسلُّمه المنصب الجديد.. فماذا يعمل؟

صرامة بيتان!

لقد شمّر عن ساعد الجد، واتخذ الصرامة له دليلاً: مئة ألف جندي دخلوا المحـاكم العسكريـة فحاكمتهم. و٢٣ ألف جندي أدانتهم المحكمة، لكنها حكمت على ٣٤٢ منهم فقط بالإعدام. إلا أن التنفيذ الرسمي لم يتم إلا في ٥٥ فرداً منهم، وإن كان عدد أكبر من هذا بكثير تم إعدامه بصورة غير رسمية. ويذكر «هنري باربوس» أن ٢٥٠ جندياً قتلتهم المدفعية غير المسؤولة.

لكن كل هذه الشدة في المعاملة ما كان لها أن تؤتي ثمراً، لولا مساعفة عامل نفساني واحد. لقد أيقن الجنود أنه لن تكون مذبحة جديدة. كما أن بيتان ضاعف لهم فترة الإجازة ورفع مستوى التموين والإعاشة.

وتدريجياً، عاد الجيش الفرنسي ليكون قوةً دفاعية ناجحة، من جديد. أما روحه الهجومية السابقة فقد فارقته الآن إلى الأبد.

* * *

لم يكن ظل أحداث روسيا وحده هو المعلَم الخطير الذي يهدد بقاء الحلفاء في ربيع سنة ١٩١٧. بل كان هنالك ظل آخر يبعث على الرعب بصورة أشد. إنه شبح الغواصات الألمانية.

الغواصات

لقد بدا في ذلك الفصل من السنة ذاتها أن بريطانيـا على وشك أن تركع، إذ روّعتها الغواصات المعادية حتى صارت الأمهات في لندن يخوّفن أبناءهن بـ«الألمان الذين يقتلون من قاع البحر». والحق، أن الغواصات فعلت ما كان ينتظره الأدميرالات الألمان وزيادة. ففي شهر نيسان (أبريل) وحده أغرقت تلك الغواصات ما حمولته مليون طن من السفن البريطانية

والأخرى المحايدة. كانت سفينة واحدة من كل «أربع» تغادر المرافىء الإنكليزية لا تعود، بل يبتلعها جوف المحيط. ورفضت السفن الأمريكية والأخرى المحايدة أن تنقل السلع إلى الموانىء البريطانية. وبدا أنه من المستحيل تعويض السفن المغرَقة ببناء سفن جديدة بدلاً منها.

ما رأي الأدميرالية البريطانية؟

كان جليكو الآن قد غدا المسؤول الأول عن الأسطول في مقر الأدميرالية. وكان الرجل متشائماً للغاية، حتى انه في حديث له مع الأدميرال سمس Sims الأمريكي صرح قائلاً:

«من المستحيل علينا أن نستمر في الحرب إن ظلت الخسائر تسير على هذه الوتيرة». وحينذاك سأله الأدميرال «سمس» عما يرى كحلّ للمشكلة فقال: «لا يبدو هنالك حل على الإطلاق».

فهل يرضى لويد جورج بالتسليم؟ كلا. إن لديه حلّاً، وهو «القوافل البحرية».

القوافل!!

أثارت هذه الفكرةُ الأدميراليةَ، إذ كانت الأخيرة ترى استحالة تنفيذها. وقد احتج الأدميرالات بأن المدرعات المتوفرة غير كافية لحراسة قوافل السفن التجارية بحكم أن هذه المدرعات مضطرة للبقاء في حراسة الأسطول نفسه في «سكابافلو». هذا، علاوة عن أن السفن التجارية، وهي غير



رصاص الألمان ينتظر المتقدمين الفرنسيين

مسلحة، لا تلتزم خط سير ثابت. وودوا أن يدعّموا حججهم هذه فجمعوا قباطنة السفن التجارية في مبنى الأدميرالية وانتزعوا منهم الموافقة على رأيهم في استحالة نجاح فكرة لويد جورج.

لقد قدّروا أن ٢٥٠٠ سفينة تغادر المرافىء البريطانية في الأسبوع الواحد. وانطلاقاً من هذا التقدير المبالغ فيه، قرر الأدميرالات أن حراسة هذا العدد الضخم مستحيلة.

لويد جورج يتحدى!

لكن، هل يثني ذلك لويد جورج عن تصميمه في كسب الحرب؟ هل يقف تشاؤم جليكو حاجزاً يتكسّر عليه مجد لويد جورج المنتظَر!!

سارع لويد جورج إلى الاتصال بإدارة الشحن العامة، طالباً إليها تحديد الرقم فيما يتعلق بالسفن الكبيرة التي تغادر بريطانيا كل أسبوع. وحين كان الجواب المحدد هو ١٤٠ سفينة ـ أما الباقي فهو عبارة عن سفن ساحلية تنتقل بين موانىء بريطانيا نفسها أو إلى موانىء فرنسا الشمالية ـ تسلّح لويد جورج بذلك. فهرع إلى مبنى الأدميرالية حيث اتصل بصغار الضباط واستقى منهم المعلومات التي تنفعه في مشروع فكرته.

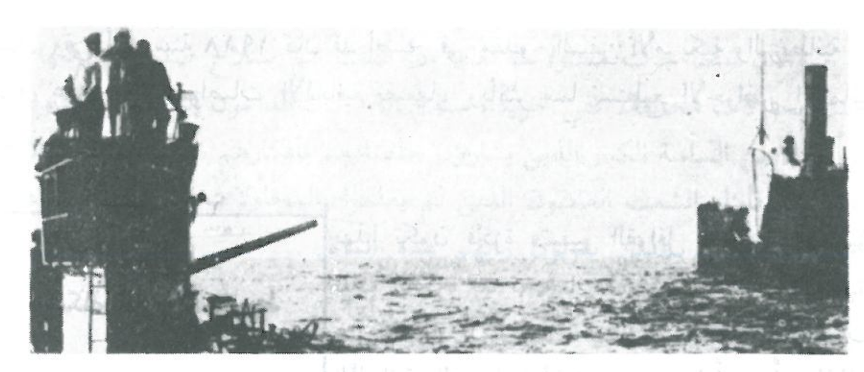
وفي ٢٦ نيسان (أبريل) قصد لويد جورج غرفة اجتماع الأدميرالات حيث أصدر أمره باتخاذ الترتيبات اللازمة لتسيير القوافل التجارية بحراسة مدرعات الأسطول. ولم يستطع الأدميرالات الاعتراض، إذ كان لويد جورج مسلحاً بمنصبه كرئيس للوزراء، وبتأييد وزارة الحرب بكاملها. لهذا رضخت الأدميرالية، بل وجد القادة البحريون أنفسهم ميّالين إلى تنفيذ الفكرة التي طالما رفضوها.

وفي ١٠ أيار (مايو) سارت القافلة الأولى، ثم والى لويد جورج إصدار أوامره حتى تم تطبيق هذا الإجراء على جميع النقل البحري في المحيط الأطلسي.

صوابية الفكرة..

والحق أن هذه الفكرة أثبتت روعتها لأسباب كثيرة.

فمن حيث ضمان السلامة، ليست السفينة المنفردة بأعسر في العثور عليها من قافلة ذات مئة سفينة. ومن حيث سهولة الإغراق فإن القافلة







إلى الأعلى صورة قافلة بحرية إنكليزية، دونها غواصة ألمانية تستعد للعمل، ثم عملية الاحراق والغرق

المحروسة جيداً تشكل هدفاً خطيراً على الغواصات المهاجمة أكثر مما تفعل السفينة الواحدة أو السفن المتفرقة.

لهذا نجد أن نسبة الخسائر البريطانية تناقصت بعد تسيير القوافل من ٢٥٪ إلى ١٪، ولم يكد يحل شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٧ حتى كانت الأحواض البريطانية والأمريكية قادرة على بناء سفن جديدة على وتيرة أعلى مما تغرقه الغواصات الألمانية

منها. وفي أول سنة ١٩١٨ كان قد أصبح في مقدور السفن الأمريكية والبريطانية أن تغرق عدداً من الغواصات الألمانية نفسها، وبأكثر مما تستطيع الأحواض الألمانية تعويضه.

مشكلة البحر المتوسط

بهذا تكون فكرة «تسيير القوافل البحرية» وتطبيق تلك الفكرة قد نجحتا. لكن هذا القول لا ينطبق على البحر المتوسط. فهناك استطاعت الغواصات الألمانية والنمساوية أن تحصد حصاداً جيداً. ولذلك أسباب:

فبريطانيا مضطرة إلى تموين جيوشها في سلانيك وفلسطين. كما أنها مضطرة أيضاً لامداد كل من فرنسا وإيطاليا بحاجتهما من الفحم والمواد الاستراتيجية الأخرى. وليس في مقدور بريطانيا أن تحرس كل هذه السفن. لذلك دفعت الأدميرالية البريطانية الثمن غالياً. وقد يعترض أحدهم قائلاً:

«كان على بريطانيا أن تستغني عن البحر المتوسط بكامله، كما فعلت في الحرب العالمية الثانية». لكن هذا القول ما كان لينطبق على الحرب العالمية الأولى، إذ أن هامش حياة بريطانيا نفسها آنذاك يغدو ضيقاً للغاية. فقد وقع في سنة ١٩١٧ انه لم يكن في بريطانيا من القمح ما يكفيها لأكثر من شهر واحد. وكان إغراق سفينة واحدة موسوقة بالسكر معناه منع تحضير المربّيات على ربات البيوت الانكليزيات.

لكن هذا أخيراً زال عن طريق تسيير القوافل البحرية. والفضل في ذلك يعود إلى لويد جورج شخصياً. وبفضل هذا الإجراء تسنى لبريطانيا أن تستمر في تحمل مضايقات الحرب، ثم أن تخرج منها كدولة كبرى أيـضاً.

* * *

في الصيف ضيعت اللبن..

وحل صيف سنة ١٩١٧، وبحلوله ظهر للعيان أن الألمان والحلفاء قد فشلا في استراتيجيتيهما الأخيرتين. فالغواصات لم تضطر بريطانيا إلى الركوع، وهجوم نيفيل من طرف الحلفاء لم يؤد إلى تقهقر فوضوي عام في الجبهة الألمانية. إن نصراً حاسماً لم يحرزه أي من الجانبين. وبذلك بدا الموقف المربك الذي واجهه المتحاربون في أواخر سنة ١٩١٦ يعود إلى الظهور من جديد.

والآن أيضاً جرت محاولات لعقد مفاوضات تتم بسلاح صلحي. لكنها الآن كانت محاولات مختلفة. ففي خريف سنة ١٩١٦ كان الداعون إلى تلك المفاوضات نفراً قليلاً من الساسة الكبار الذين يسارّون خلصاءهم بأفكارهم خلف أبواب موصدة. أما الآن، فأبناء الشعب العاديون الذين لم يعلموا بالمحاولات السابقة ـ ولم يطلب رأيهم أحد ـ هم الذين يقولون رأيهم هذه المرة.

ولنعد إلى محاولة الصلح هذه من أولها..

عودة إلى محاولات الصلح

في النمسا

في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦ توفي امبراطور النمسا فرانسيس جوزيف. فخلفه على العرش الامبراطور شارل الشاب. ورأى هذا حالَ بلاده، وكان يائساً من إمكانية انتصار حليفته ألمانيا، كما أنه شديد المضايقة من هيمنة لدندورف على الشؤون العسكرية في الامبراطورية، ففكر في الخلاص من كل ذلك. لهذا نجده في آذار (مارس) سنة ١٩١٧ يقوم بمحاولة جس نبض للحكومتين الفرنسية والبريطانية، بصدد عقد صلح منفرد معهما. لكن ذلك لم يأتِ بنتيجة ما.

كان الحلفاء يودون من الامبراطورية النمساوية أن تقف ضد ألمانيا بعد انفصالها عنها. وكان الامبراطور شارل يعجز عن الوعد بذلك. لأنه، على الرغم من لقبه الامبراطوري كان واقعاً تحت النفوذ العسكري الألماني. أليس لدندورف هو الذي يضع الخطط لجيش الامبراطورية! إن له في الجيش أعواناً كثيرين من الضباط، صغارهم وكبارهم. فالامبراطور لا يجرؤ على عدم أخذ هؤلاء بعين الحسبان..

أضفْ إلى ذلك أن الإيطاليين وحدهم هم الذين يباشرون الحرب الفعلية ضد النمسا. وهؤلاء قد ظلوا عاجزين تماماً عن الحاق خسارة كبرى بقوات الامبراطورية العسكرية. كما أن الساسة والجنرالات الايطاليين لن يوافقوا على أن ينهي الحلفاء الحرب مع النمسا، دون أن يغامروا بمناصبهم في بلدهم. أليس هؤلاء الساسة هم الذين لجأوا إلى الشعب على البرلمان الإيطالي فاضطروه لإعلان الحرب؟ أليست فرنسا قد استأجرت موسوليني وعصابته لأجل ذلك؟! إن هؤلاء الساسة قد أثاروا أحلام الإيطاليين في انتزاع التيرول، ورد «مجد روما» إلى سابق عنفوانه في البحر المتوسط.. فهل يرضى الشعب الآن أن يتقبل صلحاً مائعاً، بعد أن دفع ضحايا باهظة جداً؟

لهذا أصر الإيطاليون على تنفيذ بنود «اتفاقية لندن» التي بموجبها تم إعلان الحرب.

والواقع أن عرْضَ الامبراطور شارل الصلحَ الانفرادي لم يكن في حقيقته يتعدى «توبة» رجل على فراش الموت، فهو يعترف بخطاياه للكاهن، راجياً إليه أن يسأل له الغفران. ذلك أن استقلال الامبراطورية كان قد اختفى منذ عهد بعيد.

ويحضرنا بهذه المناسبة، وفي سياق التعليق على واقع الحال النمساوي عبارة مشهورة عن نابليون لا مانع من إيرادها. لقد قال: «هؤلاء آل هابسبورغ يسبقهم الزمن على الدوام، سواء في سداد الديون التي بذمّتهم أو تعبئة جيوشهم وتحريكها، أو رسم سياساتهم التي تأتي متأخرة كل مرة».

ويبدو الآن أن آل هابسبورغ كانوا يسيرون مصداقاً لتلك العبارة.

في روسيا والدول الأخرى

ذكرنا في السابق أن محاولات التوصل إلى صلح قد جاءت الآن من الشعب لا من دهاليز قصور الساسة الكبار. فقد تحرك في سنة ١٩١٧ رؤساء أحزاب المعارضة في الدول المتحاربة بتأثير ضغط المواطنين على أحزابهم، كما تحرك القادة الاشتراكيون وفقاً لمنهاج تفكيرهم ومبادئهم، وأفرادُ الطبقة الوسطى من أصحاب الحوانيت ووكلاء المصانع. ومع أن فكرة «مقاومة الحرب» ظهرت أول ما ظهرت على يد القادة الثوريين الجدد في روسيا، إلا أنها سرعان ما انتشرت انتشاراً واسعاً في أوساط شعوب الدول الحليفة.

لقد شعر القادة الروس أنهم لن يكون بوسعهم الاستمرار في الحرب إلا إذا وجدوا لذلك مسوّغاً مقبولاً. فما هو هذا المسوّغ؟ إنه قيَم عليا يطلبونها من الدول المتحاربة. وما هي هذه القيَم؟ إنها أهداف الحرب. وحين تساءلوا ما يجب أن يحدَّد هذه الأهداف، أجابوا: **«لا ينبغي أن يكون هنالك مطامع إقليمية لأي من الطرفين المتحاربين، ولا يجوز أن يتقاضى طرف من آخر أية تعويضات للحرب»**. وأعلنوا ذلك.

بريطانيا وفرنسا في حرج

الآن أصبح موقف فرنسا وبريطانيا حرجاً للغاية. **لكن هذا لم يخلّف أثراً فعّالاً في شعبي البلدين**. أما حين نشر الروس وثائق المعاهدات السرية التي **وجدوها في أرشيفات حكومتهم، فقد افتضحت نوايا** بريطانيا وفرنسا الحقيقية، وبانت الأهداف غير الشريفة التي كانتا تسعيان إليها.

حينذاك زالت القشرة الرقيقة من دهان «مقاومة العدوان الألماني على حياد البلجيك» و«الدفاع عن الديمقراطية والعدالة»، التي تسترت بها بريطانيا أمام شعبها حين ساقته إلى الحرب. ومثلها زال أيضاً في حال فرنسا.

لو أنهم مخلصون!

لقد افتضح أمر معاهدة سايكس ـ بيكو المتعلقة بتقسيم ممتلكات العثمانيين في آسيا. كما افتضح أمر التعويضات التي كانت بريطانيا وفرنسا تودان أن تتقاضياها من ألمانيا إذا انهزمت في الحرب.

ودون النظر إلى أثر هذا الافتضاح عند البريطانيين والفرنسيين، فإننا نحن العرب، كان يجب أن نعي لكل ذلك. لقد نشر البلاشفة أسرار بريطانيا وفرنسا، وكان من واجب زعمائنا، لو أنهم مخلصون، أن يحتاطوا لما يترتب على افتضاح تلك الأسرار.. لكن!!

* * *

لا غالب ولا مغلوب..!!

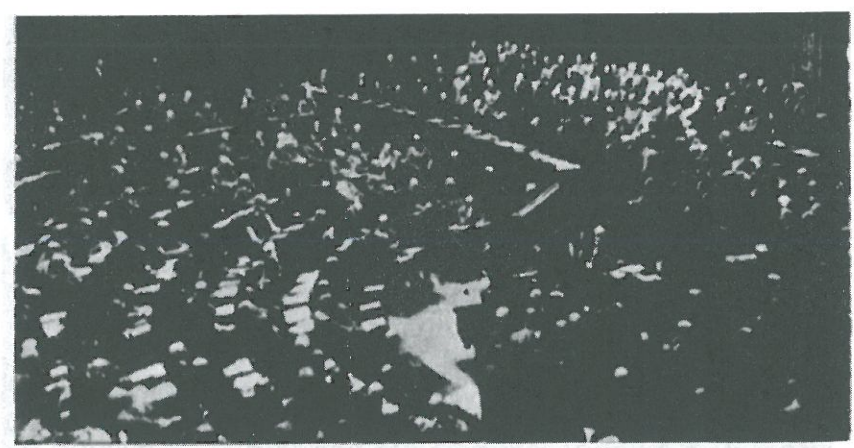
كان المعنى الحقيقي للشعار الذي رفعه الروس، وهو «حربٌ دون مطامع توسعية اقليمية» أنه «لا نصر لأيّ من الطرفين المتحاربين على الآخر».

ومن شأن الأخذ بذلك أن يُسقِط الحكومات التي قامت على أساس «جلب النصر» كحكومة لويد جورج مثلاً. فماذا تفعل؟

لقد بدا أن استعمال العنف الصارم هو السبيل الوحيد لإخماد صوت السلام. فاعتُبر كل داعٍ إلى السلم، حتى ولو كان معتدلاً في دعوته، انهزامياً، ومستسلماً للعدو، بل خائناً. هذا في بريطانيا.

أما في فرنسا، فقد كانت تمردات الجيش تسيطر على الحكومة الفرنسية وتضطرها إلى سلوك سبيل معين. فلو أُعلنتْ أية إشارة إلى «مفاوضات صلح»، حتى ولو كان ذلك من قبيل الشائعة لا أكثر، لانفرط عقد الجيش الفرنسي وانحلّ من نفسه.

لكن كل هذه المحاذير لم توقف أفكار الناس عن الانشغال بنشدان السلام.. فقد تزايدت الأوساط التي باتت مقتنعة بأن إحراز النصر مستحيل على أي من الجانبين المتحاربين. وبرزت أوساط أخرى تشك في صوابية الحرب من أساسها. والنتيجة



المستشار ميخائيل يقبل قرار الصلح من الريخستاغ كما «يفهمه هو»

التي يمكن الخروج بها من جمع ذينك الرأيين هي: «أسرِعوا أيها الساسة إلى التفاوض لنشر السلام».

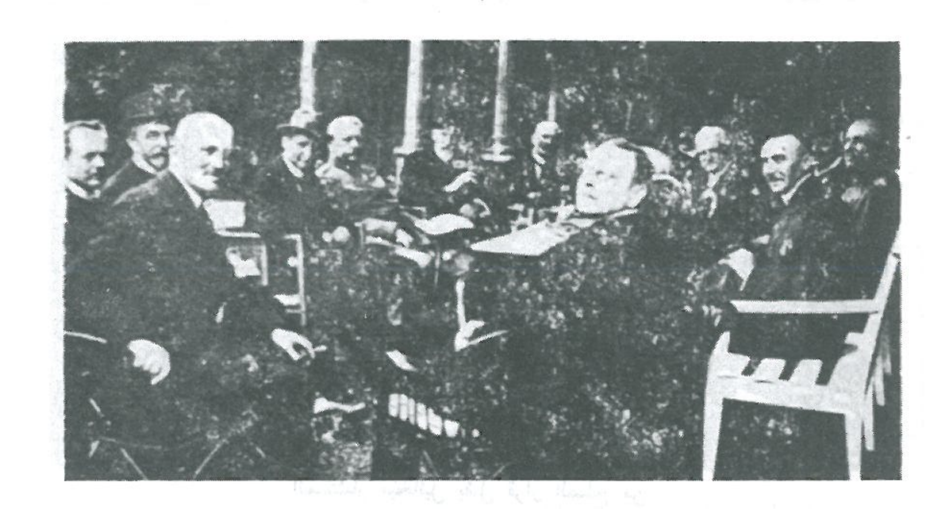
السلام.. وظروف ألمانيا

مثل هذه الأفكار برز في ألمانيا أيضاً. لكن ظروف ألمانيا المحليّة طبعتها بسِمة مغايرة. ذلك أن شتاء سنة ١٩١٧ كان شديد الوطأة، فزاد تذمر الشعب من الضائقة الاقتصادية الخانقة، وانتشرت الاضرابات الواسعة في البلاد، وتمرّد البحّارة في «كييل Kiel». وكان ضحية كل ذلك هو المستشار بتمان.

كان هوفمان هو القائد الذي خلَف لدندورف وهندنبرغ في الإشراف على الجبهة الشرقية. وكان يرى أن النصر مستحيل، ويصرّح بذلك للساسة الذين يزورونه في قيادته. وحين جاء إلى برلين أعلن رأيه الأخير، وشنّ هجوماً على بتمان، معتبراً إياه هو القابع وراء سياسة العناد والاستمرار في الحرب. لكن هوفمان وجد لدندورف وهندنبرغ يساعدانه في هجومه على بتمان. فما تفسير هذه الظاهرة؟

كيف غدا بتمان هو الضحية؟

ذلك بسيط واضح، فـ«هوفمان» يهاجم «بتمان» لاعتقاده أن مفاوضات الصلح لن تتم ما دام «بتمان» مستشاراً، بينما لدندورف يساعد في ذلك الهجوم لاعتقاده أن مفاوضات الصلح قد تتم إذا ظل بتمان



المستشار ميخائيل يتلقى تعليماته الفعلية من هندنبرغ ولدندورف، مع أنه أعلى منهما مركزاً

هو المستشار. أما بتمان، فلم يجد من غليوم ما يسنده. لذلك اضطر إلى تقديم استقالته في تموز (يوليو) سنة ١٩١٧.

وبتجريد الرايخستاغ من شخصية سياسية بارعة مثل بتمان، خسرت ألمانيا الرجل المدنيّ المفكّر على رأس حكومتها.

مستشار جديد!

وحين طلب غليوم إلى هندنبرغ أن يرشح له اسم مستشارٍ جديد، تقدم القائد باسم ميكال (ميخائيل) Michaelis. وكان هذا منظماً قديراً في شؤون التموين، لكنه غير كفؤ لمواجهة موقف دقيق، كموقف ألمانيا آنذاك، من الناحية السياسية. ولهذا سرعان ما غدا ألعوبة بيد هندنبرغ ولدندورف.

وكان عزاء الرايخستاغ عن فقدان الصفة المدنية فعلاً في منصب المستشارية، انْ سُمح له باتخاذ قرار يؤيد الصلح دون مطامع اقليمية أو تعويضات.

لكن ذلك القرار كان عديم الأثر في البلدان الأخرى، إذ فُسّر بأن الدافع الوحيد إلى اتخاذه هو اعتقاد الألمان في أن النصر غدا مشكوكاً فيه من طرفهم.

* * *

الروس وكره الحرب. كيرنسكي

ومثل هذا الشك وجد تربة خصبة في روسيا. فقد نمت مشاعر الشعب نحو كره الحرب، وانحلّ الانضباط في الجيش، وتفشّت النقمة والتذمر بين الناس. وفي هذا الوقت أصبح «كيرنسكي» وهو الاشتراكي اليميني اللامع رئيساً للحكومة. فتصوّر أن بمقدوره سوْق الروس إلى الحرب عن طريق خطبه البليغة واستثارة الهمم. لكن هذا التصور كان خاطئاً. فبعد هجوم قصير لبضعة أيام، قام به الجنود الروس على الخطوط الألمانية ولاقوا نجاحاً معقولاً ـ استطاع الألمان القيام بهجوم معاكس شديد العنف كاد يبلّغهم أبواب «ريغا». وعند ذلك فقدَ الجنود الروس كل حماسة فيهم للقتال. فأخذوا يفرون من الجيش ويعودون إلى أهليهم دون أي انتظار لنتيجة الحرب. وبهذا أخفق كيرنسكي. فقد كان يحاول إعادة الروح الحربية إلى نفوس الروس، لكنه الآن قد حطّم الجيش الروسي!!(*).

وهذا ما مكّن الألمان من نقل فرق كثيرة من الجبهة الروسية لاستعمالها في ميادين أخرى.

مؤتمر استوكهلم

والآن، أدرك كيرنسكي أن الفرصة الوحيدة التي بقيت له هي عقد صلح منفرد. فعرض على بريطانيا وفرنسا أن تسمحا له بذلك كحليفتين. غير أنهما رفضتا خوفاً من أن يتخذ شعباهما ذلك مثالاً يطالبان به. وبرفضهما صلحاً منفرداً، دفعتا روسيا في أحضان ثورة جديدة. وكحلّ وسط للموقف الأخير، دعا الاشتراكيون الروس إلى عقد مؤتمر عام للأحزاب الاشتراكية في أوروبا، في مدينة استوكهلم في السويد. وكان مقرراً أن يلتقي هناك الاشتراكيون الروس والألمان والفرنسيون والبريطانيون وغيرهم. لكن هذا لم يحدث. إذ أن الروس والألمان هم الذين وفدوا. أما الاشتراكيون الفرنسيون، فقد رفضت حكومتهم صرف جوازات سفر لهم. وأما الاشتراكيون الانكليز، فقد مُنحوا جوازات سفر، غير أن تعليمات سرية صدرت لأصحاب السفن بعدم نقلهم. وهكذا فشل المؤتمر.

(*) تجد خير وصف لذلك في ملحمة الكاتب السوفياتي شولوخوف الموسومة «الدون الهادىء»، تعريب عمر الديراوي ـ دار العلم للملايين ١٩٦٦.

كيرنسكي يحمس الجنود الروس في الميدان

لماذا خيف الاشتراكيون؟

ولنا أن نتساءل الآن: لماذا تصرفت بريطانيا وفرنسا على هذه الصورة الشائنة؟ لقد فعلتا ذلك خوفاً من انتصار المبادىء الاشتراكية المتعلقة بِـ:

أولاً: إنهـاء الحرب على أساس عدم الاستحواذ على أراض جديدة.

ثانياً: الانصراف للصراع الطبقي في الداخل.

فالبند الأول يناقض على خط مستقيم المعاهدات السرية. والبند الثاني يقضي قضاء مبرماً على الطبقة الحاكمة في البلدين.

أدركت الشعوب حقيقة الحرب

وبعد انعقاد المؤتمر وفشله زادت شكوك روسيا في نوايا الحلفاء الخبيثة. ومثل هذا نفثته صدور ذوي الأفكار اليسارية في كل من بريطانيا وفرنسا. ومن هذه اللحظة ثبت للشعوب قاطبة أن الحرب كانت حرباً استعمارية بين طرفين يتنازعان الغنائم، وان مصلحة الشعب العادي من بسطاء الناس ليست هي التي تأخذها الطبقات الحاكمة بعين الاعتبار. كما تحقق العمال على

الخصوص من أن سوْقهم إلى مجازر الحرب لم يكن يهدف إلى رفع مستواهم بقدر ما يهدف إلى إبقاء الطبقة الحاكمة في بلادهم في مناصبها، واستمرار الرأسماليين في تكديس ثرواتهم على حساب إنتاج العمال. وحينذاك انقسم كل شعب، من حيث التفكير في الاستمرار في الحرب أو عدمه، إلى فريقين:

أ - فريق القبعات العالية، وهم الارستقراطيون، ورجال السياسة، وأصحاب رؤوس الأموال. وهؤلاء يرون ضرورة متابعة الحرب خوفاً من عواقب الصلح.

ب - فريق قبعات الخاكي، وهم العمال، وزارعو الأرض، وصغار أصحاب الحرف، وذوو الرتب الصغيرة في الجيش.. وهؤلاء يرون مصلحتهم تقضي بوضع حدٍ للحرب، والتفرغ لمحاسبة الفريق الأول.

ومع أن هذا التصنيف بدا واضحاً في جميع الدول المتحاربة، إلا أنه لم يثمر إلا في روسيا. ذلك أن لينين كان يرتدي قبعة متواضعة، وهو الآن يود استثمار قبعته هذه. وقد فعل.

وليس من مجانبة الصواب القول: ان بريطانيا وفرنسا في خوفهما من نجاح مؤتمر استوكهلم، وتصرفهما الغبي آنذاك - قد ساعدتا لينين في الوصول إلى هدفه المنشود.

* * *

الحرب وحش مشوه السمعة

لم تكن الحرب في حاجة إلى من يشوه سمعتها في بريطانيا. فقد تكفّل الجنرالات بهذه المهمة، وقاموا بها خير قيام. ففي صيف عام ١٩١٧ كانت الاستراتيجية البريطانية - إذا أمكن تسميتها «استراتيجية» أصلاً - في أحط مستوى شهدته في تاريخها. كان هايغ، الذي تولى القيادة الفعلية للحرب في الجبهة الغربية ثلاث سنوات، لما يزل عاجزاً عن إدراك التغير في طبيعة تلك الحرب. لقد ظلت خبرته محدودة تماماً.

وكان جوفر قد زال. ولحق به نيفيل. إن لدندورف أدرك أن أساليب حربية جديدة يجب أن تُستخدم. أما هايغ، وهو الأعلى رتبة من لدندورف، فقد ظل يتشبث برأيه السخيف، في أن هجوماً جباهياً هو الذي سيحرز النصر.

كان هايغ قد ذاق مرارة الفشل في معركة «السوم»، ودفع الثمن غالياً، لكنه مع

ذلك لم يَعتبر. وقد علّل فشله ذاك بقوله: «إن إصرار جوفر على تحديد نقطة الهجوم هو الذي سبب الفاجعة في السوم، لا مبدأ الهجوم الجباهي». ثم أضاف إلى ذلك تبريراً آخر، هو: «لقد كانت الجيوش البريطانية غير مرنة في حركتها آنذاك، كما كانت تنقصها الممارسة الكافية للحرب».

والآن، لم يكن هايغ يشعر بالحسرة على تدهور الجيوش الفرنسية. كلا، ربما انه كان مغتبطاً لذلك. فهو يود الاستئثار بفخر النصر لجيوشه هو. ولهذا نجده لا يتشاور مع الفرنسيين إلا بعد أن حزم أمره وقرّر التحضير لهجوم رئيسي جديد.

أين سيكون الهجوم؟

منذ مدة طويلة وهايغ يلح في ضرورة مهاجمة الألمان من جناحهم الشمالي الغربي. وهو الآن ينظر إلى «إيبر Ypres» حيث ظل الجنود البريطانيون يواجههم الموت من جبهتين.

في «إيبر» هذه، تصوّر هايغ أنه يستطيع أن يضع الحجر الأساسي في النصر كاملاً. فبعد الاستيلاء على قلعة إيبر، قدّر الجنرال أن جيوشه الهابطة على الألمان من الشمال سيكون بوسعها اختراق الخط الألماني بكامله وإنهاء الحرب.

والواقع أن إيبر هذه بدت نقطة هجوم رائعة من حيث موقعها على الخريطة الحربية التي نشرها هايغ في غرفة قيادته. لكن الخرائط في العادة لا ترسم الصعوبات العسكرية المحتمل مواجهتها. فمن حيث الرسم الجغرافي لم يكن على هايغ إلا أن يستولي على ٣٠ ميلاً، كي يغدو في «أوستند» في بلجيكا. ومن هناك يقفز قفزة أخرى فتكون مفاتيح الخطوط الحديدية البلجيكية في يده. وهو يعرف أن تلك الخطوط هي الشريان الأول الذي يعتمد عليه الألمان في إمدادهم بالرجال والتموين في الجبهة الغربية. فلو تم للحلفاء الاستيلاء عليها لاضطر الألمان، إما إلى الاستسلام، أو الانكفاء إلى داخل حدود ألمانيا نفسها.

هذا من حيث الرسم الجغرافي.

ومن حيث الواقع العسكري

أما من حيث الواقع العسكري، فالأمر مغاير لذلك. فإلى الشمال من مواقع هايغ الحالية كان البلجيكيون قد دمّروا السدود المائية في بلادهم فغدت المنطقة اما مستنقعات ضحلة، أو قيعاناً كثيفة الوحل تتعذر



«وايبرز» ايبر سنة ١٩١٧..

الحركة فيها. إذن، هنا كان الجناح الألماني في مأمن ضد أي هجوم.

أما الجناح الآخر المقابل للجيوش الفرنسية، فقد كان مطمئناً إلى عجز هؤلاء عن القيام بأي هجوم. حتى لقد بلغ استخفاف الألمان بالفرنسيين حداً جعلهم يحوّلون الفرق التي تم الاستغناء عن خدماتها في ميدان روسيا، إلى الجبهة الإيطالية، لا ضد الجيوش الفرنسية.

عناد هايغ وتبريراته للهجوم

حين طُلب إلى هايغ من لندن أن يقدّم حججه التي تؤيد ضرورة القيام بهجومه المزمَع، أخذ الجنرال يخترع تبريرات كثيرة، أهمها ثلاثة:

١ - إن بيتان يطلب قيام الجيش الإنكليزي بهجوم يصرف الألمان عن انتهاز الفرصة وسحق الجيش الفرنسي المتمرد والمنهار.

٢ ـ إن جليكو، الأدميرال الأول في البحرية البريطانية، يلح في ضرورة احتلال أوستند لتسهيل تحطيم مراكز الغواصات الألمانية القريبة.

٣ ـ إن الجيش الإنكليزي يقف وحده في الميدان، فيجب أن يحصل على إكليل النصر قبل قدوم الأمريكيين لمقاسمته ذلك الفخار.

لنناقش هذه الدعاوى كلاً على حدة:

أ ـ أما من حيث الارتكاز على طلب بيتان، فكان ذلك القائد الفرنسي أوضح في تقاريره أكثر من مرة، أنه يطلب من الجيوش الانكليزية مجرد القيام بمناوشات صغيرة، يهدف بيتان من ورائها مجرد كسب الوقت، ليعيد تنظيم جيوشه ثم يقوم بالمساهمة الجدية في الحرب بعد ذلك.

ب ـ ومن حيث الاستناد إلى رأي جليكو، فإن هايغ هو الذي أقنعه باتخاذ هذا الرأي، إن لم نقُل لقّنه إياه. وعن طريق التغرير أيضاً. إذ انه قدم للأدميرال حقائق مزيفة عن الموقف، وأخفى عنه تقارير دوائر الاستخبارات العسكرية الخاصة بتلك المنطقة.

جـ ـ وأما من حيث الرغبة في الاستئثار بمجد النصر دون الأمريكيين فـ:

أولاً: إن القائد حين يرسم خطة ما لا يجزم بنجاحها. إذن، كان النصر من أساسه غير مضمون.

ثانياً: كيف يجوز لقائد في مركز هايغ أن يبديَ هذه النزعة تجاه دولة حليفة، تزعم حكومته انها تقاتل إلى جانبها في سبيل نفس الأهداف والمثل العليا!!

ومهما كان الحال، فهكذا تصرف هايغ.. كان مقتنعاً بأن الهجوم هو السبيل الوحيد لكسب الحرب، وان الهجوم الذي يزعمه هو الوحيد القادر على ذلك. لقد خدعته خريطته الحربية!!

ما هي آراء جنرالات الحلفاء الآخرين؟

كان روبرتسون يرى أن «قتل بضعة ألوف من الألمان هو الناتج الوحيد المحتمل من ذلك الهجوم». وكان بيتان يقول: «من المستحيل أن نقاتل الألمان والوحل في نفس الوقت، وأن ننتصر على أي منهما». أما فوش، فله في ذلك رأي طريف. إنه يقول: إن هذا الهجوم لن يكون أكثر من «زحف البط».



جاسوس ألماني أسر في معركة الوحل

لكن كل هذه الانتقادات ما كانت تزيد هايغ إلا عناداً.

أين لويد جورج؟

وهنا قد يتساءل القارىء: أين لويد جورج الذي يرى جميع هذه الانتقادات؟ ألا يستطيع إلغاء الفكرة بكاملها، وهو من نعرفه حين فرض سير القوافل البحرية قسراً عن إرادة الأدميرالية البريطانية بكاملها؟ وهذا تساؤل حق. لكن لويد جورج الآن، هو غيره يوم فرضَ إرادته على الأدميرالية. إنه الآن يعاني متاعب كثيرة أهمها:

١ ـ ليس له حزب قوي يسنده في البرلمان. وأعضاء حزب المحافظين شديدو الإيمان بالجنرالات، بطبيعتهم. لهذا، فإنهم قد يخذلونه فتنفرط وزارته، إذا ما جابههم بتصرف يخالفونه الرأي فيه.

٢ ـ إن الفشل الذي لاقاه نيفيل، وعكسَه عليه ـ كمؤيد له في الحكومة البريطانية ـ لا يزال يمحق نفوذه الأدبي في البرلمان والشعب على السواء.

٣ ـ إن الملك يسند هايغ.

٤ ـ إن وزارة الحرب البريطانية منشقة على نفسها، فليس هناك من يسند لويد جورج فيما لو أقدم على خطوة صارمة تجاه هايغ ومشروعه.

٥ ـ لقد جاء لويد جورج أساساً، ليجلب النصر، وها هو هايغ يصرّح بأنه سيفعل له ذلك، فما هو موقف لويد جورج إن عارض في الحصول على ما جاء من أجل الحصول عليه!!

كل هذه الأسباب مجتمعة اضطرت لويد جورج إلى الرضوخ والقبول بفكرة كان واثقاً من خطأها.

بداية الحملة ونسف إجرامي!

في أوائل حزيران (يونيو) ١٩١٧ أحرز هايغ نجاحاً لحملته، لكنه لم يكن من صنعه هو. ذلك النجاح هو نسف مسّين Messines. وهي حاشية صخرية مشرفة كان يحتلها الألمان وتشرف على جميع تحركات الجيوش الإنكليزية في المنطقة. والفضل في نجاح عملية النسف هذه يعود إلى السير «هربرت بلومر». إذ أن هذا المهندس الحربي قد ظل عامين جاهداً في تنفيذ خطة رسمها لتخليص ذلك الموقع من أيدي الألمان عن طريق نسفه. وقد كان نقر الصخر عميقاً بلغ ١٠٠ قدم تحت الأرض في بعض الأنفاق. وكثيراً ما كان الجنود الألمان في خنادقهم العميقة كذلك، يُسمَعون وهم يتكلمون، من قِبل مهندسي الألغام الإنكليز الذين يعملون تحتهم مباشرة. ومع هذا لم تنكشف عملية التلغيم.

الانفجار سمعته لندن!

وقد وُضع في الأنفاق ما زنته مليون رطل إنكليزي من المتفجرات. حتى إذا ما كان يوم ٧ حزيران (يونيو) تم تفجير هذه الألغام الجهنمية، فدُمّرت الخنادق الألمانية بكاملها في ذلك الموقع. وكان صوت الانفجار رهيباً، حتى أن لويد جورج سمعه من غرفته في رئاسة الوزارة في لندن.

وبعد ذلك التفجير تقدم الجنود الإنكليز فاحتلوا تلك الحاشية الصخرية المشرفة، ولم يعملوا حتى على انتشال جثث الألمان من بين ركام الصخور وحطام إسمنت الخنادق. هذه هي الحرب، لا إنسانية فيها.

إلا أن هذه العملية لم تكن شهادة حسنة لهايغ. فإذا كان احتلال ربوة واحدة

يحتاج إلى جهد عامين كاملين ومليون رطل من المتفجرات، فمتى يتم الوصول إلى برلين؟! إن معنى ذلك حرباً تستغرق عدة قرون لا سنوات!!

عملية مباغتة وحاسمة ومضمونة

ومع هذا، ومع أن هايغ لا فضل له فإننا نراه يلمّح في تقاريره بعد «مسّين»، إلى أن الحرب يجب أن تتم بهذه الصورة: «عملية مباغتة وحاسمة ومضمونة النجاح»، فهل يستطيع هو أو أي قائد غيره، السير على هذا المنوال في أي حرب؟ سنرى.

مسلحاً بهذا النجاح الصوري شدد هايغ على الحكومة البريطانية والقيادة داعياً إلى ضرورة الموافقة على حملة ايبر. وضماناً للنجاح في التشديد، أخفى عن الحكومة البريطانية حقيقة قوة الألمان التي يريد مهاجمتها، وحقيقة الوحل الكثيف في المنطقة. ولما كانت الوزارة منشغلة بأمور وتنظيم القوافل البحرية.. فقد رأت من الصواب أن تبلّغ هايغ أن يقوم بالاستعدادات الضرورية لحملته، بينما تدرس الموضوع لتُنهي إليه قرارها بشأنه.

وعندئذ انتهز هايغ الفرصة، فأبلغ الوزارة أن الاستعدادات قد كملت في ٢٥ تموز (يوليو)، فبعثت إليه الوزارة بتمنياتها بنجاحه. لكن الواقع أن هايغ تسرع في خطواته خشية أن تعيد الوزارة النظر فتُقرر إلغاء الحملة من أساسها. ولهذا كان عليه أن يدفع ثمن هذا التسرّع.

مباشرة الهجوم

كانت الاستعدادات التي اتخذها هايغ من جانبه هي الاستعدادات الكلاسيكية في مواقعه السابقة: حشدُ مدفعية ثقيلة، وجلب أعداد هائلة من الجنود. ولم يكن الألمان من جانبهم غافلين عما يُضمَر لهم. كانت دوائر استخباراتهم العسكرية قد حذّرت قيادتها وشرحت لها نسخة مطابقة للأصل عن كامل الخطة المعادية المراد تنفيذها. فحشدت القيادة مليون جندي، جواباً على ذلك. وكان البريطانيون مليوناً أيضاً، فتعادلت القوتان من حيث العدد. فما الذي ظل يغري هايغ في هذه الحال؟!

إنه يقول: «من الواجب أن نستفيد من ٣ نقاط:

١ ـ ارتفاع معنويات جنودنا مقابل انهيار معنويات الألمان.

٢ ـ وجود عنصر الدبابات لدينا كاحتياط، وفقدان ذلك عند الألمان.

٣ ـ براعة القيادة التي نأمل التفوق فيها عليهم».

تقويم وحقائق

والواقع أن تقديرات هايغ بهذا الخصوص كانت تصورات خاطئة: فمن حيث المعنويات كان الألمان آنذاك، كما ظلوا طوال الحرب، أعلى معنوياتٍ من الجنود البريطانيين والفرنسيين والروس، حتى وقتَ انتصار هؤلاء. والجندي الألماني كما قال لندندورف «لا معنوية تهبط له. إنه دائماً عالي المعنوية». ومع أن هذا قول مبالغ فيه، إلا أن فيه بعض الحقيقة.

وأما من حيث عنصر الدبابات، فقد سبق أن ثبت فشلها في «السوم» كما أن فقدان الألمان لهذا السلاح لم يؤثر على الإطلاق. أضف إلى هذا أن عدداً فعالاً من الدبابات لم يكن متوفراً بعد، وان الدبابات تعجز عن الإفادة في الأرض العميقة الوحل.

وأخيراً، من جهة «براعة القيادة». فالحق أن هايغ كان مغروراً ـ إن لم نقل أحمق ـ حين زعم أنه يرقى إلى مستوى لندندورف في الاستراتيجية أو التكتيك.

وخير ردٍ على زعمه أن يتذكر نتائج معارك الحلفاء السابقة، سواء في الجبهة الغربية أو الميدان الشرقي. وسيكون هذا الرد مفحِماً.

احتمال النجاح ما الذي يؤيده؟

في ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٧ عقدت كامل هيئة وزارة الحرب في بريطانيا اجتماعات مطوّلة للبحث في حملة هايغ، واستدعي القائد من فرنسا ليكون حاضراً أثناء مناقشة اقتراحاته. وعند ذاك أيضاً، أبدت الوزارة شكّها في نجاح الحملة. وكانت الأسئلة التي وجهت إلى هايغ هي:

١ ـ ما الذي يجعله يعتقد بالنجاح مع أن جميع الحملات السابقة قد فشلت؟

٢ ـ إذا كان الألمان «منهاري المعنوية» كما يزعم، فهل لا يكون من الحكمة

انتظار الأمريكيين ليقدُموا بدماء نشيطة، بينما يجري نقل الفرق البريطانية إلى الميدان الإيطالي، فتواجه عدواً أقل خطورة من الألمان؟

٣ ـ ألا يرى أن أوستند هدفٌ يكاد يكون مستحيلاً؟

وقد أجاب هايغ بما يؤيد آراءه، وأخفى تقارير دوائر استخباراته العسكرية التي كانت تكاد تصرخ في وجهه «أنت حر في أن تكذب، لكنك لست حراً أن تكذب الآن». كما أخفى عن الوزارة أن القيادة الفرنسية متحفظة تماماً تجاه حملته المقترحة.

«معركة الوحل»

بعد أن تمت الاستعدادات المتطلبة، أصدر هايغ أمره بالهجوم في ٣١ تموز (يوليو)، وهكذا بدأت معركة إيبر، أو معركة الوحل، كما أطلق عليها لويد جورج. وقد بان منذ أول يوم أن هايغ فاشل تماماً في خطته، إلا لدى هايغ نفسه ونفرٍ من ضباطه الذين نالوا رتبهم بفضل الرياء والملق. فقد كان أعظم تقدم أحرزه المهاجمون لا يتجاوز نصف ميل. أما خط الدفاع الألماني المقصود بالهجوم، فلم يصله الجنود البريطانيون أبداً. وقد هطل المطر بغزارة، وحفّرت قنابل المدفعية الأرض ما بين خطي القتال، فتحولت هذه إلى وحل يبلغ عمقه خَصْر الرجل. وكان الجنود يحاولون التقدم فلا يكادون يقطعون بضع عشرات من الأقدام حتى يغوصوا في الوحل، إما بفعل رشاشات الألمان، أو ينهكهم التعب فيفضلون أن يدفنهم الوحل.

وحين لجأ هايغ إلى سلاح الدبابات، تولى الوحل جعْلها هدفاً ثابتاً لرماة الألمان، إذ غرّزت هذه، فاصطاد القناصة الألمان رجالها واحداً واحداً.. هناك غدا الوحل مزروعاً بنادق، وانقلبت جثث المدفونين بُصيلات كبيرة وإن لم تخرج منها زنابق جميلة، بل روائح نتنة جداً. أما الأعتدة العسكرية المتلَفة، فكانت مصدر ربح وفير لأصحاب المصانع في بريطانيا وأمريكا.

وقد استمر الهجوم طوال أسبوعين، لكن نتيجته كانت سخيفة للغاية: التدمير بالمدفعية من بعد، وقتل عدة ألوف من الألمان. لهذا تجد هايغ نفسه يأمر بالتراخي في القتال. لكن هذا لم يجد قبولاً لدى لويد جورج، فقرر أن يزور الجبهة بنفسه ليطلع على الأوضاع فيها. وقبيل اليوم المحدد لتلك الزيارة جمّع هايغ أسرى الحرب الألمان في هذه المعركة والمعارك السابقة، وعرضهم على لويد جورج، مصوّراً له أن

الألمان لن يلبثوا حتى ينهاروا ويستسلموا. وعلى الرغم من هذه الخديعة ظل لويد جورج يشك في حكمة هايغ، حتى لقد قال عنه: «آه، إنني أراهن على جواد خاسر».

لا هدف.. هو الهدف

عاد لويد جورج إلى لندن، فاستشار السير جون فرنش، القائد السابق في فرنسا، فنصحه بضرورة إنهاء الحملة بكاملها لأنها خاسرة. ولكن لويد مع هذا لم يود أن يثير هايغ والملك عليه. فقام هايغ بهجوم من طراز «زحف البط» في تشرين الأول (أكتوبر)، ثم بهجوم آخر في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر). . كل هذا لإسقاط موقع كانت المدفعية قد جعلته أنقاضاً.

وبعد ذلك توقفت حملة هايغ. . لقد نجحت في أهدافها. أما ما هي تلك الأهداف، فقد أجاب لويد جورج عن ذلك السؤال بقوله: «أن «لا ـ هدف» هو «هدفٌ» أيضاً. ويبدو لي أن السير هايغ مولع بكلمة «لا شيء».

النتيجة

والواقع أن مع لويد جورج كل الحق في هذه السخرية اللاذعة من هايغ. فقد غدت مواقع البريطانيين بعد المعركة أشد حَرجاً مما كانت عليه قبلها. والدليل على ذلك أن البريطانيين انسحبوا سنة ١٩١٨ مما كسبوه من أرض في هذه المعركة، دون قتال، عندما آثروا تقصير خطوطهم احتياطاً لهجوم ألماني مرتقَب.

لكن، إذا كان هايغ قد فشل في إثبات مقدرته الحربية فهو لم يفشل في إزهاق أرواح عدد كبير من جنوده. إن ٣٠٠ ألف رجل بين جريح وقتيل هم حصيلة «عبقرية» هايغ هذه المرة. أما خسارة الألمان فقد كانت بدورها كبيرة أيضاً. فهي ١٥٠ ألف رجل.

تعليق.. ونقد

ومن عادة المعلقين العسكريين أن يهتموا بنسبة الخسائر في الطرفين المتحاربين فهل كانت هذه النسبة في صالح هايغ؟!

يقول السير جون فرنش عن هذه المعركة: «إنها أكثر معركة عمًى، وأكثر عمًى إيذاءً». وهذا صحيح من جانب هايغ. فهل يقتنع بذلك هايغ نفسه؟! سنحاول أن نعرف ذلك.



كمبري.. المدينة التي أفرحت معركتها البريطانيين ثم أحزنتهم

طلب رئيس هيئة أركان حرب الجنرال هايغ أن يزور أرض الميدان في يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر)، فرافقته دورية إلى هناك. وحين غرّزت سيارته في الوحل صاح وهو يبكي: «يا إلهي. . وهل بعثنا جنودنا ليقاتلوا في هذه الأرض!!» فأجابه الضابط المرافق: «قدّامك وحلٌ أعمق يا سيدي» . فانفجر رئيس أركان الحرب « وحق الجحيم، إنها مقبرة رائعة للجنرال! » .

ونُقلت هذه القصة إلى هايغ، فقال: «سنعيد الكرة في الربيع القادم». ولم يكن الجنرال يمزح في قوله هذا، بل أعد خطة فعلية لذلك. وكان من حسن حظ الجنود أنها لم تنفَّذ.

* * *

كانت «معركة الوحل» هي المعركة الأخيرة التي تمت محاربتها على الأسلوب القديم. إذ ثبت بعدها للألمان والحلفاء ـ ما عدا هايغ ـ أن أسلوباً جديداً في الحرب يجب أن يتّبع.

وكان ظاهراً أن هذا الأسلوب يجب أن يعتمد في أساسه على سلاح الدبابات. لكن هذا السلاح قد فشل تماماً في معركة الوحل. إذن، كان ينبغي استعماله في أرض صلبة لا يغوص فيها.

الدبابات و«كمبري»

وفتشت قيادة سلاح الدبابات عن موقع له هذه الميزة، فاختارت كمبري Cambrai، على ٤٥ ميلاً إلى الجنوب من ميدان معركة الوحل. وحين عرض القائد المختص هذه الفكرة على هايغ، رفضها الأخير محتجاً بأنه ليس لديه قوات مشاة احتياطية كافية.

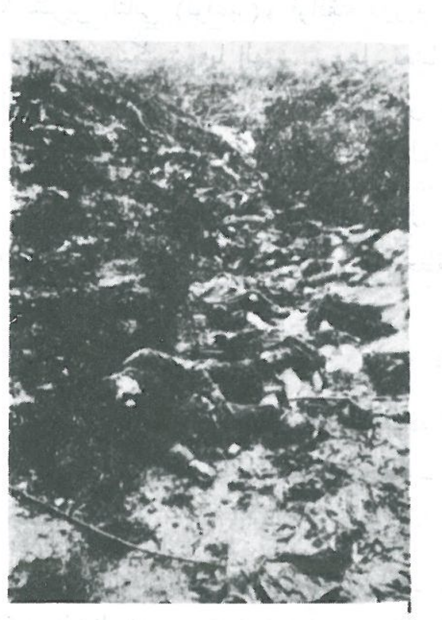
وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) بعد أسبوعين من نهاية معركة الوحل قامت الدبابات بهجوم جديد.

فرحة.. وخيبة

على شكل كردوس كثيف ومجمّع النار، زحفت ٣٨١ دبابة في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ على مدينة كمبري التي كانت في يد الألمان. وكان الهجوم فجأة ودون أي تمهيد بالقصف المدفعي. وذُهل الألمان.. واجتازت الدبابات خطوطهم الدفاعية الثلاثة واحداً بعد الآخر.. وتوغلت في مواقعهم ٥ أميال. واستطاعت أن تأسر ١٠ آلاف ألماني، وتستولي على ٢٠٠ مدفع، كل هذا مقابل ١٥٠٠ قتيل من رجالها. فكانت هذه المعركة نصراً كبيراً للانكليز.



جيوش ايطالية هاربة بعد انسحابها



آثار معركة «كابوريتو» موت وفناء

ولما كان الإنكليز قد فشلوا طوال سنة ١٩١٧ في كل عملية عسكرية تقريباً.. فقد عمت الفرحة بريطانيا الآن. أخذت أجراس الكنائس في لندن ترقص بوحشية، شاكرة الرب على مساعدته لبريطانيا في قتل أعدائها. وأخذ لويد جورج يرسم خطته لتضخيم مصانع الدبابات وكذلك مغالطة مهندسيها في أجورهم.. و.. و.

كل هذا في اليومين الأول والثاني من المعركة. أما في يوم ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر)، فقد صدرت الأوامر إلى سلاح الخيّالة البريطاني ليقوم بتطهير المواقع التي تم الاستيلاء عليها.. لكن الرشاشات الألمانية المختبئة استطاعت أن تمحو أي شيء اسمه «سلاح الخيّالة البريطاني» هذا.

فغُصّ لويد جورج في فرحته. وندب هايغ حظه كثيراً. لقد كان يود أن يقع أي شيء يردّ له اعتباره في نظر الشعب البريطاني.

استعداد لهجوم جديد

وبينما أخذ الإنكليز يعدّون العدّة لهجوم جديد بالدبابات.. كان الألمان يجلبون لقواتهم إمدادات جديدة.. وانقضى أسبوع كامل، والجانبان يتربص الواحد منهما بالآخر ويستعد.

وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) قام الألمان بهجوم عنيف، استطاعوا به أن يستردوا كامل المنطقة، ويعطّلوا كثيراً من الدبابات، ويكسبوا نصف ميل من مواقع أعدائهم قبل الهجوم الأخير. وحينذاك أصاب الخرس أجراس الكنائس.

وكان ذلك خيبة أمل للجميع. فمن هو الملوم يا تُرى؟ سرعان ما أصدر الجنرالات حكمهم في ذلك. لقد قالوا: «إنهم الجنود وصفّ الضباط. فقد كان عليهم أن يزحفوا خلف الدبابات ويثبتوا أقدامهم في الموقع».

الجبهة الايطالية

حقنة من ٦ فرق!

إذا نحّينا انتصار الدبابات الموقت، في كمبري، فإنه يمكن القول ان الألمان هم الذين سيطروا على عام ١٩١٧ في الحرب. وآخر مكاسبهم في هذا العام ما تم في الجبهة الإيطالية. ونحن نعرف أن الموقف الحربي بين إيطاليا والنمسا ظل لصالح النمسا منذ أول الحرب. لكن أي انتصار حاسم لم يُحرز في تلك الجبهة، فالإيطاليون يهاجمون، فيفشلون، وينكفئون بخزيهم وحسراتهم.

ومع هذا، فإن لدندورف ود الآن أن يحقن حلفاءه النمساويين ببعض المقوّيات. لهذا نجده يرسل إلى الميدان الإيطالي ٦ فرق ألمانية، سحبها من ميدان روسيا، كما أسلفنا.

كاربوريتو وانهيار الطليان!

وفي ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) قامت هذه الفرق الست، بالاشتراك مع ٩ فرق نمساوية، بالهجوم في كاربوريتو Carporetto من الجبهة الإيطالية، فماذا كانت النتيجة؟ انهارت الجيوش الإيطالية وتلاشت جبهتها تماماً، وجدّ الجيش الإيطالي في التقهقر والهرب حتى غدا على بُعد ٧٠ ميلاً من نقطة الهجوم.

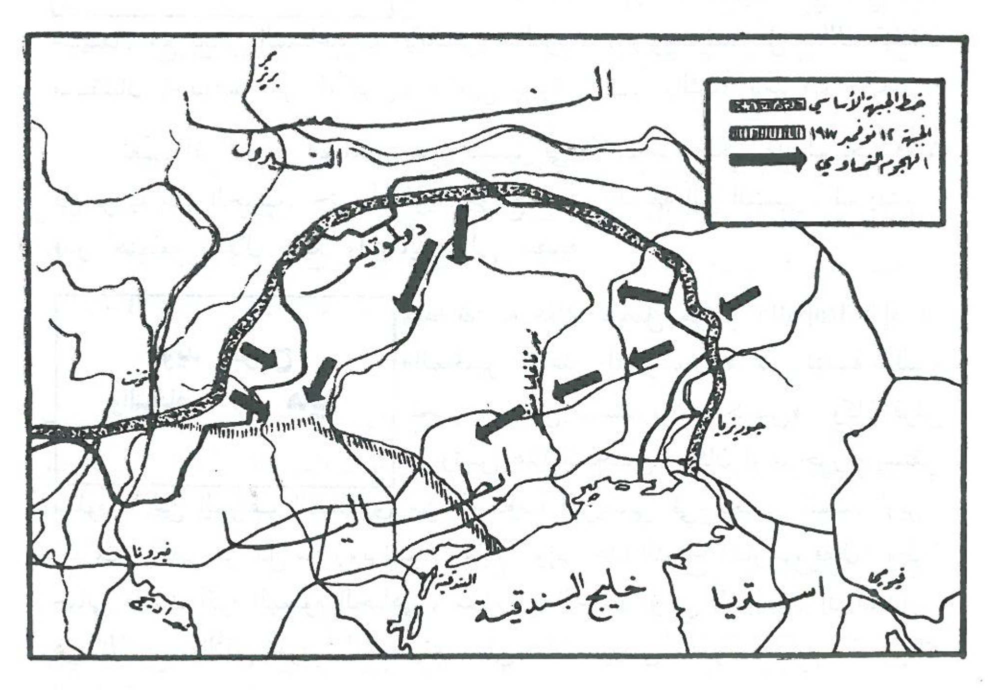
وكانت هذه الحركة مفاجأة للألمان. فها هي الحرب تغدو حربَ حركة من جديد. ها هي معركة «المارن» تتكرر. . إذ ليس عند الألمان والنمساويين من وسائل النقل ما يمكّنهم من اللحاق بالعدو الذي أسلم ساقيه للريح. فخيولهم هي الواسطة الوحيدة في منطقة جبلية وعرة قبل أن يهبطوا إلى السهل. وليست هذه الخيول قادرة على قطع ٧٠ ميلاً في يوم واحد.

أما النتيجة من حيث الخسائر، فقد تكبد الإيطاليون ٢٠٠ ألف قتيل، كما فر من جيشهم ٤٠٠ ألف رجل. وكان من قبيل الطعنة إلى هايغ، انه كان قد نُقل إلى الجبهة الإيطالية ٥ فرق إنكليزية و٦ فرق فرنسية. فذاقت هذه وتلك نفس الكارثة.

الهزيمة وما عقبها!

وبعد هذا التقهقر المفجع، توقف الإيطاليون عند نهر بياف Piave. وكان مما أذهل الحلفاء ـ الساسة والعسكريين قاطبة ـ أن الجيش الإيطالي استرد معنويته سريعاً، وتماسكت الجبهة من جديد. لكن الجنرال كادورنا، القائد الإيطالي الأعلى، لقي جزاءه، إذ طُرد من منصبه شر طردة، ثم عُيّن «دياز» بدلاً منه. ولم يكن هذا أكثر «نبوغاً!» من صاحبه، لكن كرشه كانت أقل اندلاقاً.

ومهما كان الحال، فقد تميزت هزيمة الإيطاليين بشيء عجيب. فبدلاً من انهيار معنويات المدنيين الطليان، ارتفعت تلك المعنويات ووجدت فكرة القتال صدى لها في نفوسهم.



خريطة الجبهة الإيطالية حتى أول سنة ١٩١٨. لاحظ التقهقر الفظيع في جانب كادورنا

مؤتمر رابللو والتنسيق

وهناك شيء آخر ولّدته تلك الهزيمة. فقد تداعى رؤساء وزارات الدول الحليفة على أثرها إلى اجتماع شخصي عقدوه في رابللو Rapallo في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧.

وفي هذا الاجتماع استعاد لويد جورج انتقاده القديم الذي أثاره في مؤتمر روما. لقد أعلن: «ان الحلفاء سيخفقون في الحرب طالما أن التنسيق بينهم معدوم»، ووافقه المجتمعون دون مناقشة هذه المرة. ولهذا، اتخذ المؤتمر قراراً بضرورة اجتماع رؤساء وزارات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا كل ٣ أشهر في فرسايل، على أن يمثل الكولونيل هاوس الأمريكي الرئيسَ ولسون معهم. ومن هؤلاء الأربعة كان يتألف ما أسموه «المجلس الأعلى للحرب».

لا تنسيق وإنما سياسة عامة

والواقع، أن اجتماعات هذا المجلس لم تكن لأكثر من بحث السياسة العامة للحرب، لا لتنسيق الجهود أو التحركات الحربية بين الجيوش. ففي إيطاليا مثلاً، ظلت القيادة الإيطالية منفردةً، هي التي تسيّر جبهتها، مع بعض المساعدات الإنكليزية والفرنسية. وفي فرنسا ظل هنالك قيادتان مستقلتان إحداهما عن الأخرى، الأولى بإمرة بيتان، والثانية بإشراف هايغ.

نعم، لقد تم بين الحلفاء بعض التنسيق في الاقتصاد، ولكن هذا لم يكن فعّالاً في توجيه سير الحرب. حتى أن لويد جورج، وهو الداعية إلى التنسيق، لم يهتم به قدر اهتمامه بإذلال هايغ والتحايُل على منصبه.

لويد جورج والتخلص من هايغ

وقد تم له ذلك بفضل مؤتمر Rapallo. إذ ان «المجلس الأعلى للحرب» قد عيّن لنفسه بطبيعة الحال «مجلس مستشارين عسكريين». وكان فوش هو رئيس هذا المجلس. وكان لويد جورج يستقي معلوماته عن الموقف العسكري من المندوب البريطاني في مجلس المستشارين. وبذلك تخلص من كل من روبرتسون وهايغ. وإلى هذا النجاح أشار مرة فقال: «طيلة حياتي ظللت أكره الهجوم الجباهي، سواء في الحرب أو في السياسة. إن المداورة هي الأنجح والأقل تعرضاً للخسارة». وفي هذا تعريض ظاهر بـ«هايغ» وهجوماته الجباهية ثم فشلها.



الجيش الروسي يتراجع بعد اندحاره في منطقة ريغا

قد يتساءل البعض عن السبب الذي جعلنا نحذف اسم روسيا من دول الحلفاء حين اجتماع المندوبين في رابللو. وإيضاح ذلك بسيط.. كانت «روسيا الجديدة»، قد خرجت من الحرب. فبعد هزيمة الروس الكبرى في تموز (يوليو) سنة ١٩١٧، حاول كيرنسكي أن يعيد الأمور إلى نصابها. ولما كان هذا الحاكم ضد الأفكار الجديدة، فقد ألقي القبض على عدد كبير من الاشتراكيين. وحتى لينين نفسه اضطُر إلى الاختفاء في فنلندا.

لكن محاولة كيرنسكي لم تنجح في المجال العسكري، إذ استمر الجيش الروسي في فوضاه، بل إنه أخذ يضمحل بفعل الفرار وكثرة التمردات. وهذا ما أغرى الألمان بالقيام بهجوم جديد في مطلع شهر أيلول (سبتمبر) استطاعوا فيه إسقاط مدينة «ريغا»، وتكملة حلقة اتصال جيوشهم ببعضها. وكان هذا الاشتباك هو الأخير بين الألمان وبين حكومة روسيا ذات النظام القديم.

وقد كان لنجاح الألمان هذه المرة معقّبات كثيرة. ها هو كورنيلوف(*)، القائد العام للجيوش الروسية يتحول في تفكيره من واجب صدّ العدو الغازي إلى مهمة خنق الثورة الشعبية الداخلية. لقد أدار ظهره للألمان وأعلن عداءه للثورة ورجالها. لهذا رسم خطة كاملة للزحف على بطرسبرج.

(*) كان يتواطأ معه جنرالات ما سمي فيما بعد بالروس البيض وإتمانات القوازق.. ثم ساعدته أوروبا في «حرب التدخل» ضد الثورة.

كيرنسكي.. الثعلبان

ولقد شجعه كيرنسكي على ذلك أول الأمر. وكان كيرنسكي يهدف من تشجيعه إلى الاستفادة من عناصر انتهازية كانت لا تزال في الحكومة. إذ ظن أن كورنيلوف سيقضي على رجال الثورة، ثم يسلّم الحكم له، هو وطبقته. وكان كيرنسكي من الطبقة البورجوازية الكبيرة، التي تهادن(*) الرجعية إذا تأملت أن تعود عليها تلك المهادنة بالتخلص من الاشتراكيين أو الشيوعيين.

لكن كيرنسكي سرعان ما تأكد من أن كورنيلوف لن يقضي على البلاشفة وحدهم، بل على النَسَمة الليبرالية، والمظاهر الديمقراطية المستحدثة في روسيا، أصلاً. وحينذاك أعلن الإنذار ودق ناقوس الخطر.

تسليح العمال

وبناء على تعليمات كيرنسكي نفسه جرى تسليح عمال المصانع، وأطلق سراح تروتسكي وغيره من القادة البلاشفة، من سجونهم. وقد استعد العمال المسلّحون للاصطدام بجنود فصائل كورنيلوف الزاحفين، لولا أن هؤلاء الجنود رفضوا مهاجمة المدينة، ثم انضم قسم كبير منهم إلى العمال المقاوِمين وفرّ قسم آخر إلى قراهم ومدنهم في البلاد.

وحيال خيانة كورنيلوف، تم طرده من منصبه(**) ثم ألقي عليه القبض وطُرح في السجن. وهكذا غدت قوة العمال المسلحين الخاضعين لتوجيهات القادة البلاشفة هي القوة الوحيدة في المدينة، وإن ظلت حكومة كيرنسكي موجودة بشكل صوري.

الثورة الأخيرة
ثورة العمال في التاريخ

انقضت ٦ أسابيع في بطرسبرج، والقوة الفعلية بيد البلاشفة بينا حكومة كيرنسكي الصورية تمثل الوجه الرسمي للبلاد. وخلال هذه المدة عاد لينين متخفّياً من فنلندا، وأصدر تعليماته الخطية إلى أعضاء حزبه بضرورة الاستيلاء على الحكم. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، إذ أن المسؤولين العسكريين في الحزب كانوا لا يودون التعجيل بذلك. وحتى تروتسكي نفسه، ظل

(*) وهذا الخطأ كثيراً ما وقعت فيه «الثورات القومية» في نضالها للتحرر من الاستعمار.

(**) تحسن قراءة «الدون الهادىء» - ميخائيل شولوخوف.



لوحة الأيام الأولى لثورة أكتوبر للرسام غ. سافيتسكي

قانعاً بإلقاء الخطب أو «توعية الكادحين»، كما كان يطلق على خطبه.

لكن كيرنسكي كان متضايقاً جداً من الموقف الراهن، ولهذا نجده يتسرع في قدح زناد الثورة ضده. كان قد سبق أن انعقد اجتماع للجنة المركزية لحزب لينين(*)، وتم فيه بحث قضية الاستيلاء على الحكم. وحين التصويت فاز اقتراح ضرورة الاستيلاء بعشرة أصوات ضد صوتين. وكان كامنيف وزينوفييف هما العضوين اللذين عارضا في ذلك: فاحتجا على القرار في الصحف.

عند ذاك تصوّر كيرنسكي أن العاصفة على وشك الهبوب، فقرر أن يبادىء بالمهاجمة. وهكذا أصدر أمره بإغلاق جريدة «برافدا» صحيفة البلاشفة، في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر). وبهذا وضع لنفسه حداً. إذ أن تروتسكي أصدر أمره إلى «الحرس الأحمر» بإنقاذ مكاتب الجريدة وحراستها. وتم الاصطدام الرسمي حينذاك.

أنت خائن..

وفي تلك الليلة وُضعت خطة الاستيلاء على الحكم، والتي كانت معدة من قبل، موضعَ التنفيذ. إذ تسلم البلاشفة دائرة البريد، ومحوّل التلغراف، ومحطات السكة الحديدية في المدينة. وغادر كيرنسكي بطرسبرج، وهو يرفع على سيارته علَماً أمريكياً، قاصداً الأقاليم لإثارة الجيش فيها ضد السلطة الجديدة في العاصمة. لكن قطعات الجيش في الأقاليم طردته حين رأت العلمَ الأجنبي فوق سيارته. لقد صاحت في وجهه «أنت خائن».

وهكذا ضاع كيرنسكي في «مزبلة التاريخ»، كما قال تروتسكي مستعيراً عبارة لينين آنذاك.

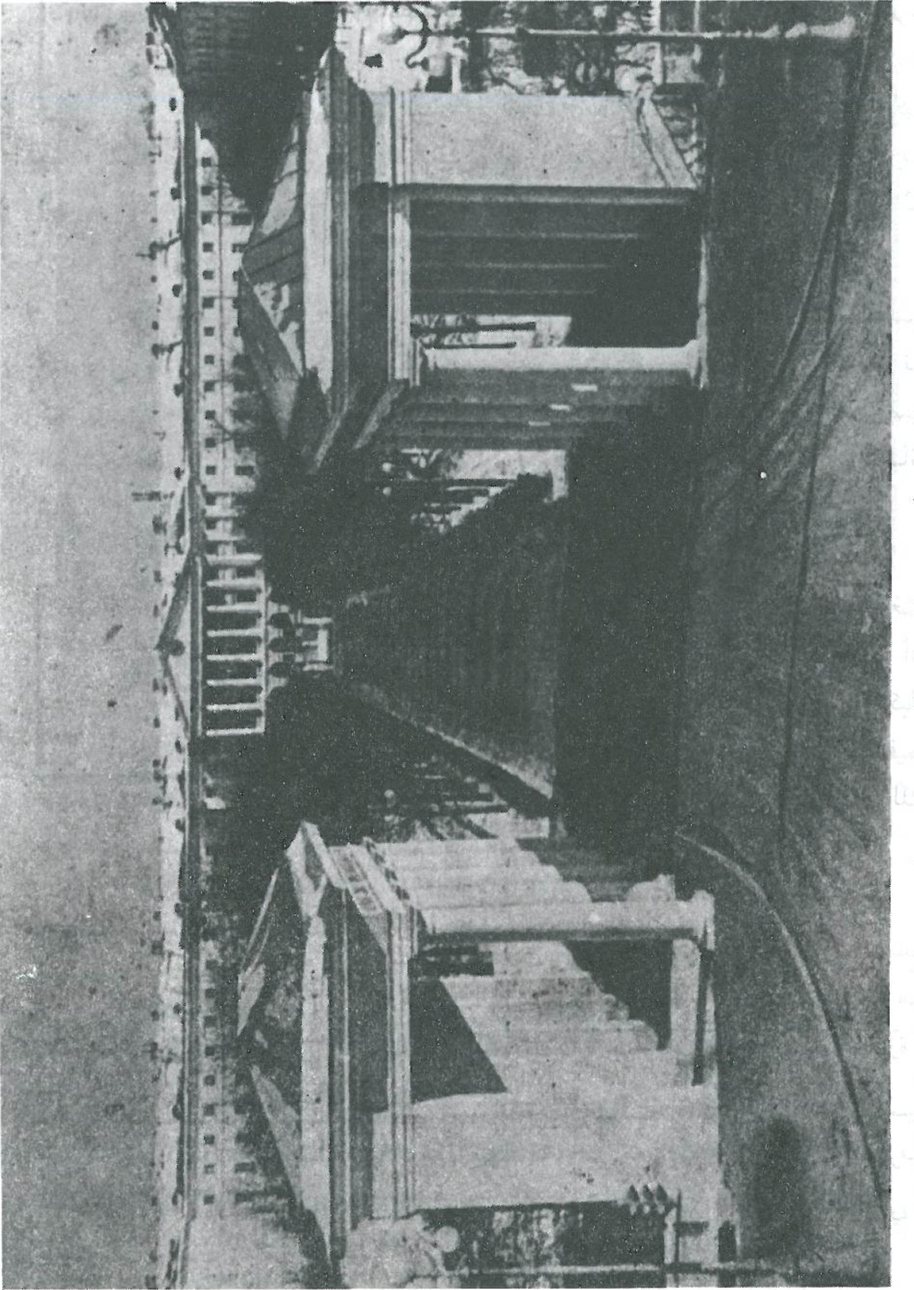
وفي ٧ تشرين الثاني احتل الحرس الأحمر وبحّارة الدارعة «أورور»(**) «قصر الشتاء»(***) وألقي القبض على أعضاء حكومة كيرنسكي بشكل سلمي. إن أحداً من أعضاء الحكومة لم يلحقه أذى.. أما أفراد الحرس الأحمر فلم يُقتل منهم إلا ٦ أشخاص، اثنان منهم قتلهم رفاقهم دون قصد.

هكذا تمت ثورة البلاشفة في مرحلتها الأخيرة في روسيا. فكانت أول ثورة من نوعها في التاريخ، ولربما أعظم ثورة أثراً في تحويل مجراه فيما بعد.

(*) كان اسمه الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

(**) ومعناها «الفجر».

(***) حيث كانت حكومة كيرنسكي الموقتة مستقرة بعد خلع القيصر.



«قصر سمولني» حيث اجتمع «سوفييت جميع روسيا»

كانوا عمالاً وفلاحين.. ويصنعون تاريخاً!!

وفي مساء اليوم نفسه اجتمع مجلس سوفييت «جنود وعمال وفلاحي جميع روسيا» في «سمولني» وأقروا الاستيلاء على الحكم وتشكيل وزارة يرشح أسماءها لينين. وفي هذه الوزارة كان لينين رئيساً وتروتسكي وزيراً للخارجية. لكن الموظفين المدنيين رفضوا إطاعة أوامر تروتسكي حين صدرت إليهم، فاضطر الحرس الأحمر إلى فتح خزائن البنك القيصري، وهو بنك روسيا، ثم السيطرة على دوائر وزارة الخارجية وتنفيذ الأوامر.

والآن جاء دور لينين ليكسب مؤازرة الشعب، فأعلن في أول اجتماع له بمجلس السوفييت قائلاً: «الآن علينا أن نشرع في بناء الاشتراكية». ولما كان العمال قد تم كسبُهم لصالح الثورة من قبلُ، فقد جاء دور الفلاحين. وتختلف قضية هؤلاء عن قضية العمال، فطبيعة الفلاح متعلقة بالأرض، وهو في عقليته مستقر يكره التجديد، شأنه شأن أرضه الثابتة في محلها ومواسمها. فكيف يضمن لينين تأييد هؤلاء؟

الأرض لزارعيها

لقد أصدر «مرسوم الأرض»، وفيه يقول: «الأرض لزارعيها». وكان معنى ذلك في روسيا آنذاك، أن على الفلاحين العاملين في أراضي الاقطاعيين وكبار الملاّك أن يستولوا على أراضيهم ويوزعوها فيما بينهم. وطبيعي أن يستجيب الفلاحون الروس لهذه النعمة الهابطة عليهم. لذلك نجدهم يسندون الثورة بكل قواهم في الحرب الأهلية التي تلت.

تصنيع وكهربة.. ومنشور السلام

ولما كان لينين يتصور الاشتراكية على أنها «تصنيع وكهربة البلاد»، فهو بطبيعة الحال ينشد فترة من السلام الطويل كي ينصرف لهذه المهمة الجبارة.

بيدَ أن الحرب كانت قائمة آنذاك، وروسيا مشتركة فيها. إذن فإن «تصنيع البلاد وكهربتها» تتعارض مع الموقف الراهن. فالحرب إرهاق للاقتصاد أولاً، وحجر عثرة إن لم نقل صخرة، في طريق الإصلاح الداخلي، ثانياً.

لهذا نجد لينين في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) يقرأ في مجلس السوفييت «منشورَ السلام». ومجمل هذا المنشور أن يوقَف اطلاق النار فوراً في جميع الجبهات، ثم



الروس يمدون أيديهم لتناول جريدة «برافدا»

يعقب ذلك مفاوضات بين ممثلي الدول المتحاربة. أما أهداف تلك المفاوضات فيجب أن تنحصر ضمن نقطتين أساسيتين:

أولاهما: عدم القيام بأي توسع إقليمي من دولة على حساب أخرى.

وثانيتهما: لا تعويضات في الحرب.

ما معنى «عدم التوسع»؟

وكان من المعقول أن تقبل فرنسا وبريطانيا بهذا المنشور لو اقتصر تطبيقه على القارة الأوروبية وحدها. لكن لينين أراد من نقطته الأولى أوسع مما تُبدي العبارة المذكورة آنفاً. فقد ضمّن عبارة «عدم التوسع» أن تتنازل الدول الأوروبية عن مستعمراتها في القارات الأخرى أيضاً. وأصرّ على أن هذا التنازل هو الأساس الذي سيرسّخ السلام المنشود.

فهل تقبل بذلك فرنسا وبريطانيا وإيطاليا؟

كلا، طبعاً. فالرخاء الاقتصادي في كل من الدول الثلاث لا يمكن توفيره بدون الجحيم الاجتماعي المفروض على مستعمراتها. كما أن هذه المستعمرات إذا قُدّر لها أن تتحرر من مستعبديها، لن تفكر في إعطائهم ثرواتها أو السماح لهم بالتحكم في مواردها الاقتصادية.

هذا من ناحية. أما من الناحية الأخرى، فإن الاتفاقيات السرية التي كانت بريطانيا وفرنسا قد عقدتاها بشأن تقسيم ممتلكات العثمانيين في آسيا ستغدو حبراً على ورق، إذا ما قدّر لمقترحات لينين أن ترى النجاح.



تروتسكي قائد الجيش الأحمر، المنتصر
يتجاهل خطر ستالين (الأول من اليمين)

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن لينين قد فطن إلى هذه الحقائق وأيقن أن الدول الاستعمارية هي التي ستعارض في تطبيق منشوره، لكنه كان يأمل، (وهذا خطأ في تقديره)، ان عمال هذه الدول وفلاحيها سيهبّون ثائرين ضد حكوماتهم ويطيحون بها. لذلك نراه يناشد «حَمَلة أفكار الثورة الفرنسية» في فرنسا، و«مقاومي بسمارك» في ألمانيا، و«اللوائحيين» في بريطانيا.

وعلى أساس إشعال هذه الثورة الطبقية المتصوّرة، أخذ تروتسكي بعد ذلك بأيام يفضح المعاهدات السرية بين دول الحلفاء من راديو بطرسبرج.

مواقف الدول المتحاربة من ثورة أكتوبر!

ألمانيا

والآن. ماذا كان موقف كلٍ من الدول المتحاربة؟ لنأخذ ألمانيا.

نحن نذكر أن الخشية من فتح جبهتين، في الشرق ضد روسيا وفي الغرب ضد فرنسا، هو أخشى ما كانت تخشاه ألمانيا منذ مطلع الحرب. ونحن نذكر أن عاملاً مهماً في إعلان ألمانيا الحرب من أساسها هو هذا التخوّف. وها هو الآن لينين يعرض على القادة الألمان أن يتخلصوا من الجبهة الشرقية. فهلّا يستقبلون عرضه بكل ترحاب! انطلاقاً من هذا الاعتبار نقول: كانت ألمانيا أول من استجاب لعرض لينين. لقد وافقت على الهدنة. لكنها، لم تأخذ قضية إخلاء الأراضي التي احتلتها جيوشها أثناء الحرب، مأخذ الجدّية والاهتمام. ولا قضية عدم دفع التعويضات كذلك.

الحلفاء

إذا كانت ألمانيا قد وجدت في العرض تخليصاً لها من ورطتها، فالأمر مغاير لذلك في بريطانيا وفرنسا. فهاتان الدولتان واجهتا أمراً مربكاً. ها هو لينين يعرض نفس المُثل والقيَم التي ادّعتا صراحة أنهما تحاربان من أجلها. لذلك فإن رفض العرض معناه إثارة الشعب في البلدين. أما القبول به فمعناه بدء زحف الأفكار الاشتراكية بشكل محتوم على البلدين أيضاً. ولما كانت الحرب قد غدت مكروهة منذ زمن بعيد، ولما كانت المكاسب المنتظرة منها ستزول فيما لو نجح لينين في «سِلمِه»، فإننا نجد حكومتي البلدين تتخبطان. فهما لم تكونا تعتقدان أن ألمانيا ستقبل بمبادىء السلم الجديدة دون أن تقهراها، كما أنهما لا تنويان تطبيق هذه المبادىء على حقيقتها حتى لو قبلتا بها في الظاهر.

وزاد الأمرَ تعقيداً، أن الاشتراكيين البريطانيين والفرنسيين هتفوا مؤيدين انتصار البلاشفة في روسيا، وإن كانوا لم تعجبهم طريقة الوصول إلى ذلك الانتصار. كما أن

التقزز من الاستمرار في الحرب لم يكن مطلباً يحظى بتأييد الطبقة العاملة في البلدين، وحدها. فها هو اللورد لانسدون، وهو عضو في مجلس اللوردات البريطاني ووزير خارجية أسبق، ينشر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) مقالاً في جريدة «الديلي تلغراف» يقول فيه:

«**إن الاستمرار في هذه الحرب جريمة في حق الفرد والإنسانية، فليس من الممكن أن يتم النصر فيها لأحد الفريقين إلا على حساب تدمير الحضارة العالمية. ولا أظن عاقلاً يسمح بذلك. لهذا فإن المفاوضات بين الطرفين المتنازعين هي الوسيلة الوحيدة لإنهاء هذه الحرب**».

ومع أن صاحب المقال لم يبيّن مرامي المفاوضات التي يحبذها، فإن ما نشره لقي صدى عظيماً في نفوس الإنكليز والفرنسيين، مما حدا بالأفكار السوداء المعشعشة في رؤوس دهاة الإنكليز أن تخرج من مكامنها. فها هو وزير في وزارة الحرب البريطانية هو اللورد ملز، يقترح رسمياً أن: **تتنازل ألمانيا عن الأراضي التي احتلتها في الجبهة الغربية، لقاء موافقة الحلفاء على الصلح الذي يضمن لها حرية التصرف تجاه البلاشفة الروس.**

وهكذا منذ ذلك التاريخ، أثبت الإنكليز والفرنسيون(*) بعدهم، أن عداء الاشتراكيين ومبادئهم ومحاولة القضاء عليهم هو همهم الأكبر، والهدف الذي يتسامحون بكل شيء في سبيل الوصول إليه. وسيكون لهذا أثره الكبير في «حرب التدخل» ضد روسيا، ثم سير الحرب العالمية الثانية، بعد عقدين من السنين.

* * *

ومثل هذا التخبط ظهر في فرنسا، وإن كان بصورة أكثر حدّة. كان الاشتراكيون الفرنسيون أصلب عوداً وأعمق جذوراً في الأوساط الشعبية الفرنسية. وكانوا يزدادون ترسخاً كلما اقترب عام ١٩١٧ من نهايته. وفي شهر أيلول (سبتمبر) من ذلك العام خرج وزراؤهم من الحكومة. وبهذا انفرط عقد «وحدة الأمة الفرنسية، المقدسة» أثناء الحرب. وكان هؤلاء الاشتراكيون يدعون حكومتهم إلى قبول عرض لينين. بل إنهم بالغوا في مثاليتهم حين أعلنوا أن استفتاء عاماً يجب أن يُجرى في الألزاس واللورين قبل ضمهما إلى فرنسا.

(*) وذلك بحكم أن الدولتين كانتا تمثلان زعيمتي الاستعمار في العالم آنذاك.

هياج الرأي العام ضد الاشتراكيين

ولما كانت هاتان المقاطعتان قد ظلتا عنواناً لمذلّة فرنسا منذ «حرب السبعين» فقد هاج الرأي العام ضد الاشتراكيين هؤلاء. وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) نفسه، خذل مجلس الأمة الفرنسي رئيسَ وزرائه بينليف، فاستقال. وعند ذاك كان أمام رئيس الجمهورية «بونكاريه» الخيار بين اتجاهين:

الأول: تكليف كـايّو Caillaux بتشكيل الوزارة، وهو أميَل إلى سلم صُلحي.

والثاني: تكليف كليمنصو بتلك المهمة. وهو داعية متطرف إلى الاستمرار في الحرب.

وهنا تدخلت الظروف الشخصية في سياسة الدولة. إذ أن بونكاريه نفسه كان من اللورين، وهو متعصب لتلك المقاطعة. ولهذا، وعلى الرغم من شدة كرهه لـكليمنصو، نراه يعهد إليه بشؤون الحكم.

دكتاتورية: «أنا أعلن الحرب»

كان معنى ذلك «خلق دكتاتورية حربية». إذ أن رئيس الوزارة الجديد حين واجه ممثلي الشعب يوم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ كان خطابه قصيراً جداً وحاسماً جداً.

لقد قال: «تسألونني عن السياسة التي ستتبعها حكومتي، وها أنا أوجزها لكم في عبارة واحدة، إنها «أنا أعلن الحرب». سياستي الداخلية هي «أنا أعلن الحرب»، وسياستي الخارجية «أنا أعلن الحرب»، وطوال بقائي في هذا المنصب، وفي كل مجال يخضع لصلاحيتي أقول لكم: «أنا أعلن الحرب»».

والحق أن هذا العجوز كان دموياً. فبدلاً من النظر بعين التقدير إلى كبار الشخصيات من الساسة الفرنسيين وممثلي الشعب، نجده يحتقرهم. ها هو يؤلف وزارته من أذناب مخلصين له كالسلوقيّات. وها هو يتهم «كـايّو» وأمثاله من دعاة السلم والمصالحة، بالخيانة العظمى والاتصال بالعدو **لخدمته على أرض فرنسا**، ثم يلقي بهم في السجن، ويقدّمهم إلى محاكمة علنية **قاصداً من ذلك التشهيرَ بهم**، وإثارة العواطف الرخيصة لدى الشعب كي **يوازره في دكتاتوريته**.

* * *



كليمنصو، النمر الفرنسي العجوز
«إنني أعلن الحرب، إنني أحارب»..

في هذه الفترة، وبعد الاجراءات السابقة، غدا من المستحيل أن تنظر الحكومة البريطانية أو الفرنسية بصورة جدية في عروض الصلح. ولهذا رُفض بحث الموضوع من أساسه حين اجتمع «المجلس الأعلى للحرب» في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) نفسه. وبدلاً من تقدير موقف لينين وأعضاء حكومته، انصبّت عليهم التُهم بأنهم خانوا قضية الحلفاء وغدروا بالجيوش في الجبهة الغربية وجبهة ايطاليا.

لويد جورج.. وكليمنصو

والواقع أن لويد جورج كان يشارك كليمنصو في آرائه، لكنه لم يكن صادراً في تلك المشاركة عن وطنية متطرفة مثل كليمنصو. وإنما عن تقديره لاحتمال خسرانه رئاسة الوزارة أولاً، وإمكانية تحطيم سمعته السياسية التي قامت على أساس «سأجلب النصر للبريطانيين» ثانياً.

وهناك عامل آخر يجمع بين الشخصيتين، فكلاهما كان يعشق السلطة، ويكره الاشتراكيين في بلاده. وكانا يقدّران أنهما سيستطيعان القضاء على هؤلاء في بلديهما

إذا استمرا في الحرب ونجحا فيها. أما إذا لحق بهما الفشل فمعنى ذلك أن انتقادات الاشتراكيين لهما ستكون مصيبة جداً.

وانطلاقاً من موقف رئيسي الوزراء، تم اتخاذ قرار سريع حاسم في الاجتماع، مفاده: «نحن نرفض عرض السلم الذي تقدم به البلاشفة». هذا مع أن أي بحثٍ لتفاصيل ذلك العرض، لم يجرِ أبداً.

الدول الأخرى وعرض لينين

وربما تساءل البعض عن موقف الدول الأخرى المشاركة في الحرب من عرض لينين. وحينذاك نقول: كانت ايطاليا «لا في العير ولا في النفير» في نظر الحلفاء. ومثلها كانت النمسا والدولة العثمانية وبلغاريا في نظر ألمانيا.

* * *

عرض لينين وثمراته الصلح!

الآن، وقد رفض الحلفاء الغربيون عرض نظامِ الحكم الجديد في روسيا، اضطُر هذا الحكم إلى المضيّ قُدماً في التفاوض مع ألمانيا لعقد صلح منفرد. وبعد مساومات كثيرة من جانب الألمان، ومساومات مقابلة بالتهديد بالانكفاء إلى الحرب من جديد، من جانب الروس ـ تم التوصل إلى عقد اتفاقية لوقف الحرب بين الطرفين. وكان ذلك في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧.

وما أن نُفّذت بنود هذه الهدنة المؤقتة حتى شُرع في مفاوضات تهدف إلى السلام تمت في مدينة برست ليتوفسك Brest Litovsk. وكانت شروط الصلح ماسّة بكرامة الروس في نظر بعض أعوان لينين، لكن هذا استطاع السيطرة على الموقف حينذاك. وقد أثبت التاريخ فيما بعد أن موقفه كان أكثر حكمة وأبعد نظراً.

ويقتضينا الانصاف للمفاوضين الروس أن نقول: لقد اشترطوا على الألمان أن لا يقوموا بنقل أية قوات من الجبهة الروسية إلى الجبهة الغربية في فرنسا. وكأن العسكريين الروس بذلك، كانوا يبيّنون أنهم لا يزالون يعطفون على حلفائهم السابقين، فهم لا يقبلون بزيادة المصاعب في وجوههم. وعلى هذا الشرط وافق القائد



كليمنصو.. يتمشى في خطوط الميدان (الثالث من الأمام)

الألماني هوفمان. لكنه خرقه بطريقة أقرب إلى المخادعة. إذ أنه نقل ما شاء من تلك القوات إلى حيث طلبت القيادة العامة في برلين، قبل توقيع عقد الصلح. وبهذا لم يخلّ بالشروط لفظاً، وإن كان قد حطّمها واقعاً.

الصلح في نظر بريطانيا وفرنسا

الواقع أن بريطانيا وفرنسا لم تنظرا إلى اشتراك روسيا في الحرب، ومنذ البداية، بعين التقدير الذي يتطلبه حليف من حليف. كانتا تريدان منها أن تُشغل ألمانيا لتخفيف الضغط عنهما في الميدان الغربي. وكانتا تؤمّلان أن تُنهَك ألمانيا قبل الانتصار على روسيا، فيسهل عليهما إذ ذاك قهرُ ألمانيا، وإبعاد روسيا عن مركزها كشريكٍ وندٍ لكلٍ منهما. والحق أن الدولتين لم تكونا تكرهان ألمانيا قدر كراهيتهما لإمكانية انتصار روسيا، ثم تقدّم ملايينها الكثيرة للأخذ بنظم الحياة الحديثة وتهديد مصالحهما من جراء ذلك. كانتا تودّانها مرتعاً للتأخر وللديون وللاستثمارات الكبيرة التي كانت لرعاياهما في الأراضي الروسية.

إذن، هذه جذور كراهية قديمة. ومع أن الحرب قد خفّفت من بروزها، إلا أنها ظلّت خامدة لم تنطفىء نارها على كل حال.

لكن.. ها هي روسيا في شتاء ١٩١٧ تطعن الحلفاء، (في نظرهم) طعنة نجلاء، فهل من المعقول أن تتسامح بريطانيا وفرنسا في ذلك؟ علينا أن نرى..

* * *

حين أعلن لينين الروسي عرضَ السلام، توجّس البريطانيون والفرنسيون خيفة من أفكاره لكنهم لم يعملوا بشكل صريح على استنكارها.

نعم، لقد أحبطت الحكومتان مؤتمر استوكهلم، ولكنهما فعلتا ذلك بصورة لم تثر عليهما شعبيهما. ومهما كان الحال، فقد انقضت الزوبعة.

أما حين جاء كليمنصو ذو النزعة الهجومية، فقد اختلف الأمر، كما رأينا. ومع هذا لم يكن العداء مستحكماً تجاه الروس و«سلمِهم». لكن.. الآن تم عقد الصلح، وكفّت الجيوش الروسية عن القتال، بل تحولت القوات الألمانية التي كانت تشغلها تلك الجيوش، إلى الجبهة الغربية نفسها، فماذا يفعل لويد جورج وكليمنصو؟

لقد احنقهما تصرّف حكومة لينين والسوفييت، وعدّا ذلك خيانة وغدراً لهما كرفيق في السلاح. وعملا جهدهما في نشر نوع من النقمة والشعور بالكراهية في نفوس المواطنين الإنكليز والفرنسيين تجاه نظام روسيا الجديد. لكن كل هذا عبارة عن بضاعة «عواطف» لا تفيد في ساحة القتال.



الألمان يفرضون شروطهم على روسيا

إذن، ماذا يفعلان؟

عمدت بريطانيا وفرنسا إلى تقسيم روسيا إلى مناطق نفوذ، فخُصّصت أوكرانيا لفرنسا، وجُعلت منطقة القوقاز من نصيب بريطانيا. أما الهدف من هذا التقسيم فهو اضطلاع كل دولة منهما بالقيام بأعمال التخريب والتجسس وإثارة المشاعر المعادية في المنطقة المخصصة لها تجاه حكومة السوفييت.

ما معنى ذلك؟

معناه أن بريطانيا وفرنسا اللتين كانتا حليفتين لروسيا ضد ألمانيا قد غدتا الآن عدوّتين لروسيا ذاتها. إنهما تودّان تدمير نظامها الجديد بأي ثمن. وبما أنهما كانتا مرهقتين بالحرب ضد ألمانيا، فلا أظن أي عاقل يرى تصرفهما هذا قريباً من الصواب. أليس يزيد إلى عبئهما الذي يكاد يقصم الظّهر، عبئاً جديداً لا يقل خطورة وإعناتاً!!

مرامٍ بعيدة

ومما تجدر الاشارة إليه أنه كان في تقسيم المناطق بين الحليفتين بعض المرامي البعيدة. فبريطانيا اختارت القوقاز لسببين:

١ ـ وجود النفط، وأملها في حرمان روسيا من ذهبها الأسود الذي بفضله وحده تستطيع حكومة لينين أن تصنّع البلاد وترفع مستوى الحياة فيها.

٢ ـ يقين لويد جورج من سهولة قهر تركيا واقتطاع الأراضي التي يختارها من ممتلكاتها الآسيوية. وكان قد اختار العراق وولاية الموصل القريبة من ذلك الموقع.

بهذا كانت بريطانيا تود إبعاد روسيا مهما كان الحال عن طريقها الاستراتيجي إلى إيران والهند.

أما اختيار فرنسا لأوكرانيا فبدافع من خصب الأخيرة وكونها منطقةً زراعية كان للفرنسيين كثير من الاستثمارات المالية فيها والعلاقات التجارية الواسعة معها.

* * *

كان هذا التقسيم الخيالي هو اللبنة الأولى في «حرب التدخل» ضد النظام



الألمان يعدون جثث قتلاهم من قبل، في روسيا

الجديد في روسيا، الحربِ التي تطاولت حتى ١٩٢١، وإلى أن غدت حرباً أهلية، نُكبت فيها روسيا بالانقسام على نفسها، وخسران المجهودات العظيمة التي كان يمكن توجيهها نحو ترقية البلاد.

ولما كانت «حرب التدخل» هذه ليست من مساق الحرب العالمية الأولى، الآن، فإننا نحيل من يود التوسع في هذا البحث إلى المصادر الروسية التي عالجت موضوعها بإسهاب. ولكنّا نود تنبيهه إلى ضرورة الاطلاع على المصادر المعادية أيضاً، كي يستطيع أن يكوّن لنفسه رأياً أقرب إلى الانصاف بعد تحرّي الحقائق.

* * *

أسباب حنق كليمنصو وزميله

والآن، ما هي الأسباب الحقيقية لحنق كليمنصو ولويد جورج؟

إن كلاًّ من الرجلين يمثل الطبقة الحاكمة في بلاده. وهي في الحالين، الطبقة الرأسمالية الكبيرة، وبقايا الاقطاعية العسكرية هناك. إذن، فمن الطبيعي أن يقاوما باستماتة كل نظام

جديد. فكيف إذا كان هذا النظام يدعو إلى تحطيم طبقتهما على اعتبار أنها طفيليّة تسمُن من هُزال الطبقات الأخرى!!

أضف إلى ذلك أن روسيا نفسها كانت لقمة سائغة للاستثمارات الفرنسية والبريطانية والألمانية، وها هو النظام الجديد مصمم على استرجاع تلك اللقمة وتحويلها لأفواه أصحابها الحقيقيين.

وهذا علاوة على أن ظرف الحرب هو اسوأ الظروف في نظر بريطانيا وفرنسا، للقيام بالثورة على القيصرية الحليفة في روسيا.

كما أن فضح المعاهدات السرية، والذي قام به تروتسكي، ثم الشروط المقترحة لايقاف الحرب، مثلَ «عدم التوسع الاقليمي وعدم دفع تعويضات» ـ ليس من شأنهما أن يتفقا مع مطامح بريطانيا وفرنسا الاستعماريتين.

كل هذه الأسباب مجتمعة، دفعت بريطانيا وفرنسا إلى تصرفهما الأحمق، ومحاولتهما إجهاض الثورة الروسية الجديدة.

خطأ صرف!

ومن الغريب أن تقدير الدولتين للظروف الحربية في الجبهة الروسية كان خطأ صرفاً. فقد انطلق تفكير كليمنصو ولويد جورج وجنرالاتهما من فرضية خاطئة، مُفادها أن الجيش الروسي كان قادراً على الصمود في وجه الألمان لو لم يأت لينين وحكومته. والواقع أن هذا غير صحيح. فالجيش الروسي كان قد اضمحل، إن لم نقل، تلاشى. لم يكن لدى تروتسكي، وهو القائد الجديد، أية قوة فعلية بمقدورها حتى أن تعيق تقدم الألمان. ولهذا كان انسحاب الحكومة السوفييتية الجديدة من الحرب، لا يقدّم ولا يؤخر، من حيث تأثيره على الجيوش الألمانية، أو الجبهة الغربية. كان الشعب الروسي قد كره الحرب، وانهارت معنوية مقاتليه، وما كان ليطاوع حكومته لو شاءت الاستمرار في القتال. وعلى هذا الأساس كان ما فعله لينين، ليس إلا تقريراً للواقع، لا غدراً بحلفائه.

إذن، كان مجرد الحقد هو الذي أعمى الزعيمين الغربيّين عن تقدير خطوة لينين والنظر إليها بعين الانصاف والتقبّل.

ما هي نظرة ولسون إلى ثورة أكتوبر؟

كان ولسون حانقاً أيضاً على لينين، ولكن لسببٍ أنبل من زميليه. لقد وجد الأمريكيون في «عرض لينين السلمي» نفسَ ما كان ولسون سيقترحه لو لم يُسبق إليه. وكان الرئيس الأمريكي يرى أن روسيا وحكومتها الجديدة قد تستأنف الحرب ضد ألمانيا لو كانت القيَم التي يدعو إليها الحلفاء أرفع مما هي. ولهذا نجده يعلن نقاطه الأربع عشرة في ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨. ونجدها أقرب إلى أفكار لينين حول السلام مما هي إلى نصوص المعاهدات السرية بين بريطانيا وفرنسا.

غير أن كل هذه المثالية الطوباوية عند ولسون لم تمنعه أن يتضايق من لينين ونظامه الجديد، لأنه يتعارض أصلاً مع نظام أمريكا ويدعو إلى قلب حياتها رأساً على عقب.

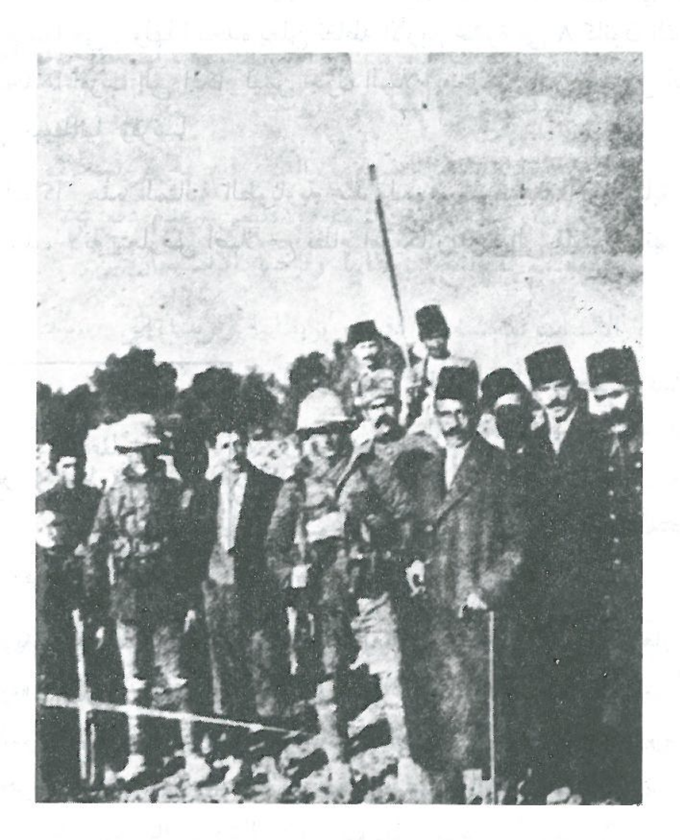
للرب عشر وصايا فقط

وكما أن لينين الثوري لم يحظَ برضا الأوساط الحاكمة في بريطانيا وفرنسا، كذلك كانت نقاط ولسون الـ ١٤ خيبة أملٍ في نظرهما. فعند إبلاغ كليمنصو بتلك النقاط قال: «إن الربّ له عشر وصايا لا أكثر». وفي هذا نوع من السخرية المبطنة والاستهزاء المبيَّت.

أما لويد جورج، فقد آثر عدم التعليق العلني، وتحول إلى رفع شعار «ان الحق سيهزم القوة». لكن، ما هو الحق الذي كان يعنيه لويد جورج؟ هذا أمر يخص الملفات السرية في «داوننغ ستريت»، وتراه شعوب المستعمرات البريطانية حين تحاول التحرر!

* * *

الموقف أواخر ١٩١٧



«الجنرال اللنبي يدخل مدينة القدس،
يسلمها له رئيس بلديتها»

علينا الآن أن نلقي نظرة سريعة على الموقف الراهن في الحرب في أواخر سنة ١٩١٧، فنقول:

نحن نواجه الوضع التالي: لقد خرجت روسيا من الحرب. وإيطاليا تسرع مهرولة نحو الاندحار على يدي الجيوش النمساوية والفرق الألمانية المؤازرة. والخيبة تسيطر على الحلفاء في الجبهة الغربية، لأن الألمان خرجوا من العام وهم أقوى مما

دخلوه ـ وبخاصة بعد فشل هجوميْ نيفيل وهايغ، الرئيسيّين. وحملة سلانيك في مواقعها، محصورة، لم تتقدم خطوة واحدة. ورومانيا قد سقطت في يد الألمان بضربة من مكنزن وفولكنهاين. والأمريكيون لم يقدُموا بعد.

إذن فالرجحان في كفة الألمان على كل حال.

لكن خبراً جاء من فلسطين، جبّر قلب لويد جورج الكسير. ففي كانون الأول (ديسمبر)، دخل الجنرال «اللنبي» مدينة القدس، بعد أن أخلاها الأتراك مهزومين.

وقبل ذلك بأسابيع كانت الحكومة البريطانية قد أصدرت تصريحاً لليهود بتسهيل «جعل فلسطين وطناً قومياً لهم» على يد وزير خارجيتها اللورد بلفور. وهذا هو وعد بلفور المشؤوم الذي سنعرض له في فصل لاحق.

وهكذا انتهى عام ١٩١٧ في الجبهات الأوروبية، وروسيا وأمريكا تكادان تتفقان في نظرتهما إلى الحرب، وإن لم تحاولا الاتفاق فعلاً. كما أن بريطانيا وفرنسا وألمانيا ينظران إلى روسيا في الشرق وأمريكا في الغرب بعين غير مطمئنة.

وما دمنا قد فرغنا من سير الحرب لهذا العام في جبهات أوروبا، فإنه يغدو علينا أن نلتفت إلى سيرها في جبهات آسيا، أي ضد الدولة العثمانية.

الجبهة في البلاد العربية

ثلاث جبهات

لقد خلّفنا سير الحرب العالمية الأولى في الجبهة الآسيوية عند نقطتين، أولاهما ارتداد الأتراك بقيادة جمال باشا عن قناة السويس بعد فشل الحملة، وثانيتهما انتصار الأتراك في سليمان باك على الإنكليز وارتداد هؤلاء نحو كوت العمارة التي كانوا قد احتلوها كآخر مرحلة من مراحل تقدمهم صُعُداً في شط العرب. وسنحاول الآن أن نصل ما انقطع من أخبار الجبهتين. لكن جبهة ثالثة ستصادفنا في عام ١٩١٧، هي جبهة الحجاز أو الثورة العربية هناك. وسنبدأ أولاً بالعراق.

العراق: صمود.. استسلام

في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٥ اضطر تاونسند قائدُ الحملة الانكليزية ـ الهندية على العراق إلى التراجع صوب كوت العمارة، نتيجة للضغط التركي الذي كان آخذاً في التزايد. وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) كان الأتراك قد تمكنوا من تطويق القوات الانكليزية في الكوت. ولما كانت الكوت موقعاً غير كامل التحصين، كما أنه غير كفؤ للصمود في وجه المدفعية التركية بقيادة الضباط الألمان، ولما كان الجنرال «نكسون»، القائد العام للحملة قد سمح لستة آلاف من الجنود العرب الذين انخرطوا في جيشه لقاء الأجر(*)، أن يبقوا مع المحاصَرين في الكوت ،فقد ضاقت الحال بأهل المدينة، ونفدت المؤن، وانتشر الشغب بفعل الجوع.

ومع هذا ظل تاونسند صامداً على أمل أن تتقدم امدادات جديدة عبر النهر فتستطيع إنقاذ موقفه المتدهور. لكن الأتراك في هذه الأثناء لم يكونوا غافلين عن تقوية مراكزهم. لقد أخذوا يحصّنون الجسور المهمة على نهر دجلة، أو ينسفون بعضها

(*) وهم من البدو الذين لا مفهوم للوطنية لديهم .

تحسباً للطوارىء. كما أنهم ركّزوا مدفعيتهم واستمالوا العراقيين إلى جانبهم، فأمِنوا الانتفاض ضدهم.

واغتناماً للفرصة، قام «نور الدين بك» القائد التركي، بالهجوم على قوات تاونسند أيام ٩، ١٢، ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥، قاصداً من ذلك تحطيم معنوياتهم. وقد توصل إلى هدفه بالفعل. فاستنجد تاونسند بقيادته مصرّحاً أن المؤن التي في حوزته لن تكفيه طويلاً، فهو يطلب القيام بهجوم بحري وبري، يستطيع بفضله الانسحاب أو الفكاك.

وأجيب القائد المحصور إلى طلبه، إذ شرع الجيش الإنكليزي في التقدم في ٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦. لكن اصطداماً واحداً مع الأتراك في موقع «الشيخ سعد» أقنع الإنكليز بعجزهم عن إنقاذ المحصورين منهم. وحين فشلت المحاولة ـ وكان الأتراك قد دمروا سور الكوت من الجهة الشمالية الغربية، وبحيث أصبح يتعذر ترميمه أو الدفاع عنه ـ بعث تاونسند إلى قيادته يقول: «إن المؤن تكفي لـ ٥٥ يوماً فقط».

وطوال هذه المدة ظل الإنكليز يحاولون القيام بهجومات صغيرة، لكنها تفشل كل مرة. واجرأ هذه المحاولات ذلك الهجوم المفاجىء الذي باشره غورينغ في ٢٢ شباط (فبراير)، واستولى فيه على «الصانعية». لكنه عجز في ٧ آذار (مارس) عن الاستيلاء على موقع «السين» الحصين، مع أن قواته ارتفعت إلى ٣٠ ألفاً من جيش حكومة الهند.

وفي ٩ نيسان (أبريل) قام الإنكليز بمحاولتهم الأخيرة لاختراق خطوط الأتراك، لكن هؤلاء صبّوا نيرانهم الكثيفة بإحكام، كما أن فيضان النهر في ذلك الوقت من السنة غمر الأرض، فخلق للإنكليز عقبة كبيرة أثناء الزحف. ولهذين السببين ارتدت القوة الإنكليزية المهاجِمة بعد أن خلّفت في الميدان ٤٠٠٠ قتيل، وفي فترة من الوقت لم تتجاوز ٥ ساعات.

بعد ذاك أيقن الإنكليز أن أية محاولة جديدة لانقاذ الكوت أو مباشرة الزحف من جديد على بغداد، ستكون دون جدوى. وفي هذه الأثناء كان الأتراك يضيّقون الخناق على تاونسند. حتى إذا ما رأى نور الدين بك أن النصر قد تم ضمانه، بعث إلى تاونسند يعرض عليه الاستسلام.

وهكذا استسلم تاونسند في ٢٩ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٦ دون قيد أو شرط،

وبعد أن كان قد عرض على القائد التركي مليون ليرة ذهبية يدفعها له كفدية، إذا سمح له ولجنوده بالانسحاب بعد تسليم مدافعهم والتعهد بعدم الاشتراك في حرب ضد الأتراك إلى الأبد. لكن القائد التركي رفض ذلك.

وباستسلام تاونسند نَقلت القوات التركية حوالي ١٣,٠٠٠ أسير إلى الأناضول، منهم ٥ آلاف من الإنكليز، فكان في ذلك أكبر مذلّة واجهتها بريطانيا في تاريخها العسكري، مما أثار الرأي العام بصورة عَنيفة في لندن، واضطر الحكومة إلى انتداب لجان تحقيق على مستوى رفيع لتحديد القصور الذي وقع، والأشخاص المسؤولين عنه.. لكن كل هذا ما كان لينفي المذلّة والهوان.

جبهة القناة

كانت الغارة الفاشلة التي قام بها الأتراك على القناة سنة ١٩١٥ بمثابة إشعارٍ للإنكليز كي يأخذوا حيطتهم. فقد ظل الأتراك ما بعد ذلك وحتى شهر نيسان من سنة ١٩١٦ يقومون باستعدادات ضخمة تمهيداً لمعاودة الكرّة في الهجوم على القناة وطرْد الإنكليز من مصر إذا استطاعوا ذلك.

ولم يكن الإنكليز غافلين عن هذا الأمر بطبيعة الحال، فقد ورد في تقارير قيادتهم السرية: «إن الأتراك قد يعاودون الهجوم على القناة من جديد، ولهذا فإن جبهة فلسطين يجب أن يتم تعزيزها بالطائرات والمشاة والخيالة. والقيادة تقدّر عدد القوات الواجب توفيرها لهذه الجبهة بـ ١٠٠ ألف رجل، مع ضمان ابعاد أية انتفاضات داخلية لصالح الأتراك، في مصر».

أما تقدير قوة الأتراك المحتمَلة، فقد وردت في تقرير إنكليزي آخر يقول: «من المؤكد لدى القيادة في مصر أن الأتراك قد نشروا قواتهم في فلسطين وصحراء سيناء، وأن هذه القوات ترتفع إلى حوالى ١٥٠ ألف رجل. هذا علاوة على أن أهل البلاد يؤيدونهم على الرغم من فساد الادارة التركية، وكثرة الفارّين من الجيش من الجنود العرب».

ثم يستطرد ذلك التقرير قائلاً: «ومن المؤكد أن الفصائل الألمانية ـ النمساوية التي جُلبت إلى هذه الجبهة ليست كبيرة العدد، لكن تدريبها وكوادر الضباط فيها من مستوى رفيع».

في هذا الوقت كانت دائرة الهندسة العسكرية في الجيش البريطاني الموجود في مصر منهمكة في مد خط حديدي يوصل قواتها بفلسطين. وكان الإنكليز يقدّرون أن تمديد هذا الخط سيساعدهم بصورة فعّالة في التقدم عبر فلسطين إذا ما تطورت الحرب واستدعت ذلك.

وفي ٢٣ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٦ هاجمت قوة تركية كبيرة قوةً انكليزية في موقع «أوغراتينا»، وأحاطت بها من كل جانب، فاضطر الإنكليز إلى التسليم. واعتبر الأتراك هذا نصراً جديداً ملحقاً بانتصاراتهم في سليمان باك وحصارهم الناجح لكوت العمارة في العراق. وبتأثير ذلك ارتفعت معنوياتهم، فتقدمت قوة تركية أخرى إلى «القطية» وتمكنت من أسر الحامية الإنكليزية هناك. أما القطية هذه فكانت نهاية الخط الحديدي الذي كان الإنكليز يمدونه من «القنطرة».

وقد أفزع سقوط «القطيّة» في يد الأتراك، القيادةَ الإنكليزية في مصر، فصدر الأمر بتعزيز موقع «روماني» في سيناء، وكان هو نهاية الخط الحديدي آنذاك. وإليه انتقلت القوات الاسترالية الشديدة الشراسة. لكن الأتراك لم يهاجموا «روماني» بل اكتفوا بإرسالهم طائراتهم فوق القناة لإسقاط «المناشير» التي تحاول استثارة همم المصريين وتحرضهم على الثورة في سبيل «الخليفة السلطان، رافع راية الدين والملّة». وعلى هذا كانت الطائرات الإنكليزية تجيب بالظهور في سماء العريش وقصف السكان المدنيين فيها.

على هذه الصورة ظلت الجبهة هادئة حتى ٥ آب (اغسطس) من ذلك العام. وكانت هناك أحداث أخرى تشغل بال الأتراك في هذه الفترة. فقد أعلن شريف مكة الثورة عليهم في الحجاز.. وهم لا يريدون القتال على جبهتين، ما لم يُضطروا إلى ذلك.

الزحف على روماني

بعد سقوط القطية، رسم «فون كرس» الألماني، وكان قائدَ الحملة، خطته للتقدم على روماني وتجريد الإنكليز من إمكانية الاستفادة من سكة حديدهم فيها ولهذا أمر في ٥ آب (اغسطس) بالهجوم على ذلك الموقع بعد أن مهد لهجومه بتركيز نيران المدفعية الثقيلة عليه. وقد استطاع فعلاً أن يضطر الأستراليين إلى التقهقر، لكن الامدادات الغزيرة والسريعة التي وفرتها القُطر الحديدية مكّنت الأستراليين من استعادة مواقعهم، ثم الصمود قبالة هجوم

جديد. وبفضل تلك التعزيزات اضطُرت القوات التركية إلى التراجع آخر الأمر. لكن تراجعها كان منظّماً لم تخسر فيه إلا بضعة مدافع. ونحن نعلم أن المدفعية الثقيلة هي السلاح الفعّال في مثل هذه المعارك، فإبقاؤها بمنجاة من العدو معناه نصرٌ. . حتى ولو كان ذلك مرافقاً لانسحاب اضطراري.

الزحف على العريش

بعد معركة روماني أخذ الإنكليز يستعدون للزحف على العريش. ففي أواخر صيف سنة ١٩١٦ كان هنالك حوالى ٧٠ ألف جندي بريطاني في مصر، أكثرهم من الهند وأستراليا ونيوزيلندا. هذا علاوة عن حوالى ٢٠ ألف جندي هم حامية الجانب الغربي من القناة. وقد بسط القائد الإنكليزي «موري» وجهة نظره بخصوص ذلك قائلاً:

«إن بقاء جيوش الامبراطورية في مصر ملتزمةً جانب الدفاع عن القناة لن يفيد إلا العدو. فهو يستطيع الاستفادة من الوقت، وتجميع القوات الكبيرة في فلسطين. كما أنه يستطيع بهذه القوات أن يغير المرة تلو المرة على شاطىء القناة، إما عبر صحراء سيناء، أو عن طريق الساحل الفلسطيني، مستفيداً من سهولة المواصلات في فلسطين. أما خير طريقة لتجريده من الاستفادة المحتملة، فهي أن تأخذ الجيوش الامبراطورية جانب الهجوم، سالكة الطريق الساحلي، بذلك تحرمه من امكانية الهجوم في سيناء لأنه يتعرض إذ ذاك لخطر الالتفاف والتطويق من جهة الشمال ثم الشرق، كما تضطره إلى توزيع قواته على جبهتين».

ولهذا رأى «موري» ضرورة الاستيلاء على العريش علّه يستطيع اتخاذها نقطة تجمّع وانطلاق في هجومه المقترَح.

وحين اطّلعت القيادة في لندن على وجهة النظر هذه علّقت على ذلك:

«لقد أصبحت مباداة العدو بالهجوم في الاتجاه المقترح ضرورية الآن. إذ أنها بالاضافة إلى الميزات التي ينوّه بها الجنرال يمكن أن تغدو عاملاً مساعداً لتشتيت قوات العدو بعد أن أعلن شريف مكة الثورةَ في الحجاز».

وهكذا وافقت القيادة البريطانية على القيام بالحملة. وحينذاك أخذ الأستراليون الذين صمدوا في روماني يناوشون الأتراك المتراجعين ويزحفون وراءهم، حتى اضطر الأتراك إلى اللجوء إلى العريش في ١٢ آب (اغسطس) سنة ١٩١٦. وكانت القوات

التركية التي وصلت العريش لا تتجاوز ١٠ آلاف من أصل ٢٠ ألفاً كانوا في بداية الحملة. أما القوات الإنكليزية فقد بلغت الآن ٤٠ ألفاً.

احتلال العريش

ومع هذا التفوق في العدد، فقد تهيّب الانكليز القيام بهجوم على فلسطين نفسها، وإنما هدفوا إلى حماية خطهم الحديدي ومدّه إلى العريش ورفح. لهذا نجدهم يتقدمون بحذر، وبعد شهرين تقريباً من معركة روماني.

ففي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٦ صدرت الأوامر الانكليزية باحتلال العريش. وتقدم صوبها الأستراليون، فوجدوا المدينة خالية من الأتراك. لقد انسحب هؤلاء.

كان الانسحاب خديعة. . لو نجحت لقضت على معظم القوة الإنكليزية المهاجمة. فإلى الشمال الشرقي من العريش وادٍ فيه الماء الذي تحتاجه أية قوة تود التقدم من هناك. وكان الأتراك قد أقاموا مواقعهم في ذلك الوادي. وحين زحف الانكليز إليه، حصرهم الأتراك في مسيل الوادي وأبقوهم دون ماء طوال يومين. وبهذه الوسيلة استطاعوا تكبيدهم خسارة كبرى، لم يعوّضها إلا الإمدادات الجديدة التي استطاعت طرد الأتراك من مواقعهم، وأسرت ١٢٠٠ مقاتل.

لا أتراك في سيناء

وبالاستيلاء على العريش، اضطر الأتراك إلى سحب جميع مواقعهم في سيناء فاحتلها الانكليز. بهذا غدت شبه جزيرة سيناء خالية من الأتراك لأول مرة منذ بداية الحرب. ومعنى هذا القول أن كل خطر على قناة السويس قد زال. ومن شأن زوال هذا الخطر أن يحرر القوات البريطانية المختزَنة في مصر، ويجعلها قادرة على المشاركة في القتال.

وهذا ما حدث فعلاً. . فمن العريش، تقدم الانكليز فاحتلوا رفح، في ١٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٧. ومن ثم مدوا إليها سكة الحديد، وتقدموا من بعدُ في العمل إلى خان يونس التي بلغتها السكة في أواخر آذار (مارس). وباحتلال خان يونس أصبح الإنكليز على مقربة من غزة التي تعتبر نقطة حربية من الدرجة الأولى في جنوب فلسطين.

معركة غزة

بعد الانسحاب من سيناء وخان يونس، جعل الأتراك خط قتالهم يمتد ما بين غزة وبئر السبع. ولكن ثغرات كثيرة كانت تُضعف هذا الخط، ففي غزة مثلاً لم يكن هنالك أكثر من ٤ آلاف جندي بقيادة فون كرس. وكانت هذه القوة معسكرة في رابية «المنطار» وموقع «التيه» المشرفين على غزة. وعلى طول الخط إلى بئر السبع كانت القوات الانكليزية المتقدمة من سيناء قادرة على اجتياز النقب وإسقاط بئر السبع، فيما إذا تمكن جناحها الأيسر من احتلال غزة.

على أساس هذا الموقف رسم «دوبل»، قائد القوات البريطانية العاملة شرقي القناة، خطته الحربية. وبحكم سلامتها وافق عليها «موري»، رئيسه الأعلى، في ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٩١٧.

وقد تقرر للهجوم يوم ٢٥ آذار (مارس)، على أن يتم الهجوم في مرحلتين: الأولى تنجح في احتلال وادي غزة، والثانية تقوم بتطويق المدينة وعزل حاميتها عن إمكانية تلقّي الامدادات من الشرق. أما القوة المهاجِمة، فلم تكن تقل عن ٢٠ ألف جندي.

ولقد خدم الحظ وحده الأتراك هذه المرة، إذ أن غلطة وقع فيها دوبل هي التي اضطرت جنوده إلى التراجع عن المناطق التي احتلوها فعلاً من وادي غزة. ذلك أن كتيبة الصحراء، وهي إحدى كتائبه المهاجِمة، تأخرت بضع ساعات قبل أن تنجز مهمتها، فظن دوبل أن إمدادات تركية قد حطمتها.

ولما كان جنوده متضايقين من شدة الحر والعطش، ولما كان المدفعيون الألمان والرماة الأتراك قد استبسلوا في مراكزهم في الوادي، فقد قرر دوبل أن يسحب قواته ويتراجع.

فاغتنم الأتراك هذه الفرصة، وعززوا قواتهم في ذلك الموقع. وبهذا انتهت المرحلة الأولى من الهجوم بتقهقر الانكليز إلى المواقع التي بدأوا منها. أما خسائر المعركة فكانت ٤٠٠٠ من الانكليز و٢٥٠٠ من الأتراك.

هذا من حيث احتلال الوادي. أما من حيث الاستيلاء على رابية المنطار، فقد استطاعت كتيبة نيوزيلندية أن تقتحم التحصينات الطبيعية التركية هناك. لكن خبر سقوط الرابية لم يبلّغ إلى دوبل إلا عن طريق القيادة في القاهرة، ولذلك جاء متأخراً، وبعد أن كان قد أصدر أوامره بتراجع قواته.

الانكليز يتقدمون في العراق حتى كوت العمارة، ويستسلم «تاونسند». وفي سيناء يحتلون العريش ورفح وخان يونس وغزة سنة

وهكذا كانت الحملة فشلاً ذريعاً للإنكليز، مع أن موري أبرق إلى لندن بالنجاح، وتسلّم تهاني الملك ولويد جورج على انتصاره!

ليس هذا فحسب، بل إن القيادة في لندن طلبت إليه أن يحوّر خطته، بحيث تتضمن الاستمرار في الزحف على جنوب فلسطين واحتلال مدينة القدس. وكانت القيادة في ذلك متأثرة برغبات لويد جورج الشخصية أكثر من تأثرها بحقيقة الموقف الحربي لجيوشها.

غزة.. ثانية

بعد هذا الفشل قرر موري أن يطلب إمدادات جديدة من القيادة، فسارعت هذه إلى توفير ما طلب. وكانت تأمل أن ينال القائد نصراً في الشرق يخفّف به من الألم الذي سبّبته اندحارات جيوشها في فرنسا.

وفي ١٧ نيسان (أبريل) أعاد موري الكرة على غزة والوادي. وكان ينوي إسقاط الموقعين في ثلاثة أيام، وعن طريق القيام بكماشة صاعقة. ففي اليوم الأول تفاجىء قواته مواقعَ الأتراك في الوادي وتتخندق هناك. وفي اليوم الثاني تقوم قوات تأتي عن

طريق الساحل بتركيز القصف بالمدفعية على المنطار ومواقع الوادي معاً. أما في اليوم الثالث، فتندفع كتائبه لاحتلال غزة بالسلاح الأبيض.

وقد وفرت له البحرية البريطانية والفرنسية بارجتين تقصفان المدينة من عرض البحر، كما كان يعتمد على ذخيرة كبيرة من قنابل الغاز قرر أن يستعملها عند الحاجة.

لكن كل هذه التقديرات كانت سليمة في مخيّلته فحسب.

أما الذي حدث، فهو أن الانكليز وصلوا أطراف الوادي فعلاً في ١٨ نيسان (أبريل) وهو اليوم الأول، وخندقوا هناك. لكنهم كانوا الآن غير مزودين بالماء، وفي مدى نار المدفعية التركية، وضمن حدود منطقة الرمي بالبنادق. إلا أن الأتراك لم يحركوا ساكناً. إنهم لم يقاوموا تقدم العدو. وفي ١٩ منه، صبّت المدفعية الانكليزية الثقيلة قذائفها على المنطار المشرف على غزة، وعلى جانبي الوادي حيث يقبع الأتراك.

لكن موري حين حاول الهجوم في ذلك المساء علم أن مدفعيته لم تنجح إلا في إلحاق أضرار طفيفة بالتحصينات التركية، سواء في المنطار أو مواقع الوادي. ومع هذا أصدر أمره بالهجوم.

وحينذاك فتكت المدفعية الألمانية بقواته، واصطادهم الرماة الأتراك من كل ناحية. هذا علاوة عن أن العطش شارك في إنهاكهم وتبديد طاقاتهم.

وقد أطل صباح ٢٠ نيسان (أبريل)، وفي الجبهة ٦٤٠٠ قتيل وجريح إنكليزي مقابل ٢٥٠٠ من الأتراك، ودون استيلاء الإنكليز إلا على رابية شمشون القريبة من غزة.

وعند ذاك تأكد موريّ من فشل هجومه الثاني، فأصدر أوامره إلى قواته بالبقاء في مواقعها والدفاع عنها دون أن تحاول التقدم ياردة واحدة. ولما أبلغت القيادة في لندن بهذه النتيجة، تغيّرت لهجتها، فطلبت من موري مجرد المقاومة فيما إذا هاجمه العدو، لا الاستمرار في الزحف على أمل إسقاط جنوبي فلسطين ثم الوصول إلى المدينة المقدسة.

وعلينا الآن أن ننتقل إلى الحجاز، قبل أن نتابع سرد أحداث حملة فلسطين والعراق من جديد. فإلى هناك.

جبهة الحجاز

كنا نودّ أن يقتصر تأريخنا للثورة العربية في الحجاز على الناحية العسكرية منها، وما ذلك إلا إجلالاً لتلك الثورة عن اعتصارها في حيز ضيق من الصفحات، واعتبارها حدثاً ثانوياً في مساق الحرب العالميةالأولى. غير أن تقييدها بالنظرة العسكرية سيكون تشويهاً لها. وهذا ما يدفعنا إلى الاقتضاب في بسط مراحلها وأسبابها وحركاتها، ناصحين من يود التوسع في الاطلاع أن يرجع إلى كتاب «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس. والكتاب معروف للجميع. وهو الذي سنعتمد عليه إلى حدٍ ما حين نجد بغيتنا فيه.

الثورة

«كان من قبيل المصادفة أن نشبت الثورة العربية في اليوم نفسه الذي توفي فيه كتشنر، وهو يوم الاثنين ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦. وقد بدأت في نطاق أضيق جداً مما رسم الشريف حسين في البداية. فقد كانت خطته الأولى أن يثير الاضطرابات في وقت واحد في بلاد الشام والحجاز معاً، وأن يحدث ذلك في آن واحد مع نزول جيوش الحلفاء إلى البر في موقعٍ ما قرب الاسكندرونة، وبذلك يحصر الأتراك بين نارين مما يشلّ حركة قواتهم بين حلب ومكة، ثم ينشر الثورة شرقاً، ويسدّد اليهم الضربات في العراق. غير أنه «اضطر» إلى التخلي عن هذه الخطة بسبب «رفض» الحلفاء لها، «واكتفى» بإعلان الثورة في الحجاز تمهيداً للهجوم على المواقع التركية في بلاد الشام».

ما هي أسباب الثورة وظروفها؟

أ. الفساد

كانت الدولة العثمانية عامةً ينخر فيها الفساد منذ زمن طويل، وكانت الإدارة في الولايات العربية أشد ما تكون سوءاً. وحين هبّت نسمة الثقافة على شمال الجزيرة العربية ما بين تركيا وسيناء، تحسس الشباب العرب واقعهم المرير، ووعوا أن قوميّتهم يجب أن تغدو أرفع من الحال الراهن. وكان من نتيجة هذا الاستشعار الذي تفتّح ما بين ١٨٧٥ و١٩٠٨ أن تأسست في الولايات العربية جمعيات سياسية سريّة أخذت تبثّ روح الوطنيّة بين أفراد الشعب. ولما كانت الحريات في بلادهم نفسها مكبوتة، فقد انتقل نشاط تلك الجمعيات بصورة علنية إلى أوساط الشباب الذين يتلقون علومهم في أوروبا وبين الضباط العرب في الجيش العثماني.



جمال باشا، قائد الجيش الرابع في سوريا.. شنق أحرار العرب ثم سلم القدس

وأهم هذه الجمعيات «اللامركزية» و«العربية الفتاة» و«العهد». لكن هذه الجمعيات كانت تهدف إلى شبه استقلال ذاتي للولايات العربية ضمن السلطنة العثمانية ومع الخضوع للخلافة.

وفي هذه الأثناء كانت هناك أحزاب تركية. منها ما يعطف على أماني العرب وأفكار مثقفيهم، ومنها ما يناصبهم أشدّ العِداء. وأهم هذه الأخيرة «جمعية الاتحاد والترقي» التي انقلبت آخر الأمر لحمل فكرة «الطورانية»، تلك النزعة القومية المتطرفة التي حاولت، جنوناً منها، الأخذ بـ«تتريك العرب». والتي لو تأخرت من حيث تأريخها الزمني قليلاً، لأمكن اعتبارها أمّاً غير شريفة للنازيّة، مع الفارق.

وبالتناقض المحتوم بين الطورانية، وإبراز الكيان العربي في الدولة العثمانية، غدا الاصطدام بين دعاة الفكرتين أمراً لا مناص منه.

ب. المطامع الشخصية

كان هناك ٥ زعماء عرب في الجزيرة، وكل من هؤلاء يطمع في توسيع ملكه على حساب الآخرين ودون نظر لليد التي يمكن أن تساعده في ذلك. أما هؤلاء الخمسة فهم:

١ ـ الإدريسي في عسير، وكان أميَل إلى القبول بالدالّة ثم التعاون الإنكليزي المتسلل إليه عن طريق عدن. وهي تتبع في نشاطها تعليمات حكومة الهند، وترمي من مساعدتها للإدريسي إلى إنهاك القوات التركية المحاربة في عسير والأخرى الموجودة في اليمن. ولهذا نجد الادريسي يرفض إعلان «الجهاد» الذي طلبه خليفة الآستانة حين أعلنت الحرب، كما نجد موقع بلاده يحرم الأتراك من الاستفادة من البحر الأحمر.

٢ ـ ابن سعود في نجد والمنطقة الشرقية من الجزيرة: وهو أيضاً أميل إلى جانب الانكليز، فحكومة الهند هي حليفته الأولى التي أمدّته بالمال وبعض السلاح ومكّنته من استرجاع مُلك آبائه المسلوب في الرياض ومقاطعة الأحساء. وهو الآن يتخوف من ناحيتين: الأولى ابن الرشيد في «حائل»، والثانية الشريف حسين في مكة. كما أنه يود توسيع رقعة «سلطنة نجد» على حساب الشريف في الحجاز. ولقد كان هذا الموقف المربك هو الذي منعه من قبول فكرة «الجهاد» المذكورة آنفاً، أيضاً. بل لقد شكر الشريفَ حُسين حين رفض الأخير فكرة الجهاد، وبذلك أراحه من الوقوع في التناقض، بين الوهّابيّة المتعصبة للإسلام، وبالتالي (أدبياً) لخليفة المسلمين، وبين مقتضيات السياسة الآنيّة في سلطنته.

٣ ـ ابن الرشيد في حائل، وهو لا يجد قبولاً لدى حكومة الهند، ولا إسناداً من شيوخ الكويت الذين هم تحت حماية الإنكليز. كما أنه ينقم على ابن سعود انتصاره على أسرته، ويودّ استرجاع مجد آبائه. وانطلاقاً من هذا نراه يؤازر الأتراك ويقبل «جهادهم»، على أمل زحزحة ابن سعود من مواقعه، ثم يتفرغ لتوسيع إمارته على حساب الحجاز.

٤ ـ الشريف حسين في مكة: وهو رجل أعادته الدولة العثمانية من الآستانة بعد ضيافة إجبارية فرضوها عليه هناك. فهو عليم بدسائس البلاط التركي ونوايا رجال عهده المتصارعين. كما أن مركزه الديني في «الحرمين الشريفين» وكرجل من «العترة النبوية الشريفة» يميزانه عن بقية الزعماء العرب فيما لو استطاع أن يوحّد الولايات العربية من الدولة العثمانية، تحت قيادته. إنه بذلك يبني لنفسه مُلكاً ولأمته مجداً، كما يغدو بمقدوره أن يقضي على منافسيه في نجد والرياض وعسير. وقد رفض «الجهاد» أيضاً.

٥ ـ الإمام يحيى في اليمن: والحق أن مطامعه الشخصية تنحصر في طرد الأتراك من اليمن، وإقامة دولة «الزيود» في تلك المنطقة.

الشريف حسين .. شريف مكة
أعلن الثورة. وصار ملكاً في أواخر سنة ١٩١٦
ثم خليفة لم يبايعه أحد ١٩٢٣

ولو أردنا المقارنة بين هذه الشخصيات لوجدنا الانصاف يقتضينا القول إن شريف مكة كان أكثرهم دهاء وتطلّعاً إلى أماني العرب القومية، حتى مع اصطباغ تلك الأماني في نظره بالمطامح العائلية.

ج. نفوذ وتدخل الدول الأجنبية

كان حاكم عدن التابع لحكومة الهند على اتصال دائم بالإدريسي، يعمل على إبقاء النفور بينه وبين الأتراك، ولا يدع الجو يصفو بينه وبين شريف مكة.

وكان السير ريجنالد ونجت، المندوب

السامي في السودان، يحاول عن طريق علي الميرغني(*) «زعيم الختمية» أن يجتذب شريف مكة إلى جانب الانكليز، وأن يقطع كل جسر يمكن أن يصل الأخير بالأتراك.

وكان كتشنر قبل وفاته، منذ سنة ١٩١٣ يحاول إثارة النقمة في نفس الشريف حسين على إذلال الأتراك للعرب، وحين أُعلنت الحرب وكان كتشنر في لندن حينذاك فبقي هناك (كما أسلفنا)، عهد بالمهمة إلى «مكماهون» و«ستورز».

وكان الفرنسيون على اتصال دائم بلبنان وسوريا يعملون جاهدين، عن طريق «الامتيازات الأجنبية» التي يتمتعون بها في أراضي الدولة العثمانية، على إثارة نفوس المثقفين العرب ضد دولة الخلافة.

كل هذه التدخلات، خلقت، مع غيرها من العوامل، جوّاً مواتياً لأفكار الثورة على الأتراك، ولم يبق إلا تحديد ساعة المباشرة.

د. تصرفات جمال باشا في سوريا، وخيانته

كان جمال باشا وزيراً للبحرية في الآستانة، وكان من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، التي تدّعي العطف على الأماني العربية. وفي أوائل الحرب عُيّن والياً مطلق الصلاحية على ولاية سوريا بحدود التقسيمات الإدارية العثمانية.

وكان المأمول أن يعمل جمال على اكتساب قلوب العرب لحاجة الدولة إليهم في الحرب. وقد حاول ذلك فعلاً أول الأمر. بيدَ أنه أبى الا أن يعكّر الجو بين الطرفين. فبالإضافة إلى المظالم الكثيرة التي كان العرب يشكونها من إدارة الدولة قبل الحرب، جاء جمال بنفسيّة الطورانيّ الحقود، فأعلن خضوع متصرفية لبنان للأحكام العسكرية، وشنق القافلة الأولى من أحرار العرب سنة ١٩١٤ دون ما يستوجب ذلك. وفرض على ولايته نظاماً تعسّفياً بحجة ظروف الحرب، كما أخذ يكيد لعزل شريف مكة وقتله.

وبعد أن خسر حملته الأولى على قناة السويس في شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ عَمَد إلى اعتقال وشنق خيرة الشباب العرب في بيروت ودمشق والقدس وغزة والموصل في أيار (مايو) سنة ١٩١٦. وكان قبل هذا قد أبعد الضباط العرب في الجيش التركي عن الولايات العربية، وجلب مكانهم ضباطاً أتراكاً من أشرس ما ضمّ جيش السلطنة.

(*) كان هذا في خدمة الانكليز بفعل الذهب.

لقد أعدم جمال أولئك المتنوّرين العرب بكل وحشية، ورغماً من توسط الشريف حسين وأبنائه أكثر من مرة، في محادثات شفهية والتماسات تحريرية من الآستانة. وهنا تتكشّف خيانته...

فحين نشر البلاشفة الروس سنة ١٩١٨ ما وجدوه في حوزة حكومتهم من وثائق سرية، أعلنوا أن جمال باشا كان على اتصال بالحلفاء. وإنه كان يعرض عليهم القيام بانقلاب ضد الدولة وتدمير حكومتها، لقاء الاعتراف به ملكاً على العثمانيين. ولما كان جمال يعرف أن الساسة العرب لن يقبلوا بذلك وإنما يودون الاستقلال لبلادهم في تلك الحال، فإنه ودّ أن يستبق الحوادث فأعدم من ظن أنه يخشى على خطته من معارضتهم. هؤلاء هم شهداء سنة ١٩١٦ في بيروت ودمشق والقدس. وهؤلاء هم الذين أطلقوا الرصاصة الأولى في الثورة العربية من على أعواد مشانقهم، ودون أن يكون بينهم حجازي واحد.

هذه العوامل مجتمعة، مضافةً إلى الأوضاع العامة في دولة بني عثمان التي كانت في دور الاحتضار، هي التي دفعت العرب لأن يثوروا طالبين حقهم في أن يكون لهم مركز تحت الشمس.

* * *

والآن: ما هي مراحل الثورة؟

لما كانت الحجاز هي نقطة الانطلاق المسلّح في الثورة، فمن الواجب أن نوليها بعض الاهتمام المتزايد فيما يتعلق بمراحلها.

منذ سنة ١٩١٣ كانت الحيرة تداعب الأمير عبد الله، الابن الثاني للشريف حسين بصدد إعادة المجد العربي، بعيداً عن تحكّم الأتراك. وفي الأسبوع الأول من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٤، قابل الأميرُ اللورد كتشنر ـ وكان معتمداً بريطانياً في مصر ـ في القاهرة، في طريقه (الأمير) من مكة إلى القسطنطينية. ولننقل الآن من «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس ـ ط ١، ١٩٦٢ (فرنكلين ودار العلم للملايين) ص ٢٠٦ ما يقول:

«اتصل الأمير عبد الله بكتشنر متظاهراً(*) بأنه يرد زيارة مجاملة. وحضر اجتماعهما المستر (الآن السير) رونالد ستورز، وكان آنئذٍ السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني. فسرد عبد الله لكتشنر تفصيلات عن العلاقات المتوترة بين

(*) إذن كان الأمير هو الذي ابتدأ الاتصال بالانكليز لا إنهم أقنعوه بذلك.



جمال باشا قائد الجيش الرابع في ولاية سوريا.. شنق أحرار العرب. وتآمر مع الإنكليز لتدمير الدولة العثمانية

السلطات التركية والشريف. وكان يعرف أن الاتحاديين قرروا، سراً، أن يعزلوا والده، فأتاح لكتشنر أن يفهم من حديثه أن يحتمل نشوب ثورة في الحجاز إذا نفذ الأتراك عزمهم. وحاول بأسلوب حذِرٍ أن يعرف من كتشنر موقف الحكومة البريطانية إذا ما نشب صراع سافر بين الأتراك والعرب. ومع أن كتشنر لم يتقيد معه بشيء في جوابه، إلا أن جوابه كان مثبّطاً. وقد ألقى جوابه على أنه رأيه الشخصي قائلاً انه من غير المحتمل أن تتدخل بريطانيا ما دامت سياستها التقليدية هي الصداقة مع تركيا. ورجّح، في الوقت نفسه، أن لدى زائره من الحديث أكثر مما يمكنه أن يبوح به في مقابلة رسمية، ولذلك أوعز إلى ستورز أن يرد الزيارة لعبد الله بعد يومين وأن يتيح له فرصة الاعراب عما في نفسه إعراباً كاملاً.

وكان عبد الله في حديثه مع ستورز أكثر وضوحاً. إذ كان ستورز يعرف اللغة العربية بعض المعرفة، وكانت له القدرة على التحدث في الموضوعات الصغيرة زمناً

التقسيمات الإدارية لمنطقة نفوذ جمال باشا، مضافاً إليها الحجاز.
لاحظ أنه لم يكن هناك شيء اسمه فلسطين ولا شرق الأردن

طويلاً، وكان يشارك عبد الله في هواية واحدة على الأقل، وهي الشغف بالشطرنج. فتصادق الرجلان فوراً، وعلى هذا الأساس من الألفة - وهو أمر يندر حدوثه بين الانكليز والعرب - شعر عبد الله بالطمأنينة والحرية وأفاض في الحديث عن الحجاز، وأخبر زائره بأكثر مما أفضى به لكتشنر عن خطورة الحالة هناك. وحدّثه عن الاعدادات التي يتخذها والده لمواجهة ما لا مفرّ من حدوثه من قطيعة نهائية بينه وبين الأتراك. كما حدّثه بإسهاب عن أهداف الحركة العربية وأماني قادتها وازدياد دواعي يأسهم. ثم سأله - بصراحة يتميز بها عبد الله - عن احتمال مساعدة كتشنر للشريف في الحصول على مدافع رشاشة. وكان جواب ستورز، بطبيعة الحال، مثبّطاً كجواب رئيسه، فانتهى بذلك حديثهما.

وفي نهاية نيسان (أبريل) مر عبد الله بالقاهرة مرة أخرى، ولم يقابل كتشنر، ولكنه اجتمع اجتماعاً آخر بستورز، أوضح فيه ستورز أكثر من ذي قبل انه لا يمكن توقّع أي تشجيع من قبل الحكومة البريطانية، ثم عاد عبد الله إلى الحجاز. ومع أن هذه المحادثات لم تنته إلى نتيجة عملية، غير أنها كانت ذات أثر فعّال في سير الحوادث. فقد نبهت كتشنر إلى ما في العداء بين الأتراك والعرب من قوة وعمق، وإلى أن رغبة العرب في الاستقلال رغبة صادقة. فحفزه كل ذلك إلى أن يبدأ - بعد بضعة شهور - بالخطوة الأولى من سلسلة خطوات انتهت أخيراً باشتراك العرب في الحرب حلفاء لانجلترة على الأتراك».

هذه هي المرحلة التمهيدية الأولى من مراحل الثورة. ثم عقبها سيل من المراسلات بين الشريف وحسين ومكماهون، (خَلَفِ كتشنر). ومجمل هذه الرسائل (التي لا مجال لتفصيلها هنا) أن الشريف حسين يود من الحلفاء أن يساعدوه حين يعلن الثورة، وأن «يضمنوا له المُلك على الولايات العربية، التي كانت خاضعة للعثمانيين آنذاك»، بعد نهاية الحرب. أما مكماهون، فيراوغ في الاعتراف للشريف بـ«مَلِك العرب»، ويجعل «حدود» الولايات المقترحة غامضةً جداً، وقابلة لكل تفسير. وبخاصة فيما يتعلق «بالولايات التي إلى غربي حلب ودمشق والتي لا يمكن القول انها عربية محضة»، كما جاء في إحدى رسائل مكماهون. ومن هنا نبعتْ مشكلة الانتداب ثم «وعد بلفور».

وقد استمرت تلك المراسلات طوال سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ وإلى أن بوشر بالثورة نفسها.

وإذا كانت المرحلة الأولى قد تمت مع الإنكليز في مصر، فإن المرحلة الثانية قد نبعت ما بين مكة ودمشق.

* * *

وفي ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ كان الأمير علي نجل شريف مكة خارجاً من مكة على رأس متطوعين من العرب للاشتراك مع والي الحجاز في حملة جمال باشا الأولى على قناة السويس (تمت الحملة في شباط (فبراير) سنة ١٩١٥). إلا أنه عثر بطريق الصدفة على حقيبة تضم الأوراق السرية الخاصة بالوالي التركي. وكان ضمن هذه الوثائق واحدة تتحدث عن ضرورة «نصب كمين سياسي للشريف حسين ثم عزله والتخلص جسدياً منه ومن أنجاله ان أمكن». فهال الأمر الأميرَ علياً، وقفل، راجعاً محتجاً بالمرض، من المدينة المنورة إلى مكة. وهناك أطلع والده جليّة الخبر. فبعث هذا ولده « فيصل » إلى الآستانة ليعمل على استيضاح الحقيقة وعزْل والي الحجاز، وإبقاء « خيط معاوية » مع الأتراك.

وفي الآستانة كان فيصل حاسماً في مطالبه. فقد أفهم الحكومة هناك أن العرب لن يقاتلوا مكرهين، ومع وجود عدم الثقة هذه، وفي ظروف إدارية فاسدة للغاية من الولاة الأتراك. وكان جواب الآستانة أن طمّن أنور باشا، وزيرُ الحربية، خاطره، وأمر بعزل والي الحجاز، وكذّب الوثائق من أساسها في الظاهر، لكنه رفض شفاعته في المعتقلين العرب آنذاك. (وهم شهداء ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦).

وزيادة في الخداع، أوعز أنور باشا إلى جمال باشا، قائد الجيش الرابع في ولاية سوريا، أن يستقبل فيصل بحفاوة عند مرور الأخير بدمشق في طريقه إلى مكة.

وهذا ما تم فعلاً حين وصل فيصل إلى دمشق في أيلول (سبتمبر) من ذلك العام، غير أن الظروف كانت قد تغيرت آنذاك. فالحملة على قناة السويس قد فشلت، وأمرُ الخليفة العثماني بإعلان الجهاد لم يؤتِ النتائج المرجوّة في شبه جزيرة العرب، وجمال باشا موقن أن الشريف حسين يراوغ في إرسال متطوعين للالتحاق بالقوات التركية في فلسطين.

كل هذه العوامل جعلت جمال باشا لا يطمئن إلى فيصل وإن كان هو الآخر ينوي مراوغته قبل التخلص منه.

وفي دمشق اتصل جماعة الأحرار العرب في منزل آل البكري، وعن طريق

الدكتور عبد الرحمن شهبندر بفيصل، وكشفوا(*) له أنهم يعملون لثورةٍ تطرد الطغيان التركي من البلاد العربية، لكنهم الآن في الحرب، سيناصرون الأتراك ضد الحلفاء. أما إذا انهزم الأتراك، وهذا شبه مؤكد، فإنهم سيؤلفون قوة عسكرية على شكل عصابات تمنع الاحتلال الأجنبي، وتبقي حرية العرب للعرب.

ووافق فيصل على ذلك، واستفسر عن إمكانياتهم، فكانت الإجابة «انها حسنة، ونحن في غير حاجة إلى أيما شيء من الحجاز، وإنما ننتظر انتظام التوقيت للشروع في العمل».

بعد هذا، انتهز فيصل فرصة غياب جمال باشا في بيروت ـ وكان قد وعده بأن يعود إلى دمشق ومعه ١٥٠٠ جندي من الأعراب حين يتم تدريبهم وتجهيزهم ـ وسافر إلى الحجاز. وهناك تداول الأمر مع والده وشقيقه عبد الله في الطائف، واستقر الرأي على ضرورة «انضمام» الشريف حسين إلى الثوار العرب في سوريا.

وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ عاد فيصل إلى دمشق زيادة في الايهام لجمال باشا، وبغية التفاهم على الاستعدادات الأخيرة للثورة مع رجالات العرب في دمشق. ولم يمضِ إلا شهر واحد حتى قدم أنور باشا بنفسه إلى دمشق. وطلب من شريف مكة الشخوص إليه لمقابلته فيها. لكن هذا اكتفى بالاعتذار(**) وبهدية مناسبة، كما بعث له شروطاً يطلب التعهد بها لقاء المؤازرة له في الحرب. وأهم هذه الشروط:

١ ـ العفو العام عن شهداء ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦، الذين كانوا قيد الاعتقال والمحاكمة بعد.

٢ ـ جعل سوريا ولاية تابعة لنظام اللامركزية.

٣ ـ الاعتراف بالشريف حسين أميراً على الحجاز يتوارث ابناؤه إمارته.

وبلّغت الشروط إلى أنور، فاستشاط غضباً على «تابع» يتجرأ أن يفرض على «الدولة العليّة» شروطاً.. وفي أحرج الظروف، ومع إثارة الشكوك في التهديد بالانتفاض منحازاً إلى جانب العدو.

لهذا رفض أنور وساطة الشريف في قضية المعتقلين، واعتبر «لا مركزية سوريا»

(*) وهكذا كانت الخطة مرسومة قبل الاتصال بشريف مكة، فمنظمو الخطة من الضباط السوريين هم أصحاب الفضل في الثورة.

(**) اعتذر بالمرض وكبر السن.

تجـاوزاً من الشريف لحدوده، وشدد الطلب في ضرورة إرسال المتطوعين العرب.

وإذا كان هذا قد أرضى أنور، فإنه والحال هذه، لم يرضِ جمال باشا.. إنه الآن شدد في مراقبة فيصل في دمشق، بل احتجزه في ضيافة إجبارية. ورسم خطةً يبعث بها جيوشاً تركية إلى الحجاز بحجة إمداد القوات المحاربة في اليمن. وجعل ينشر الشائعات عن أن متطوعي العرب قادمون في الطريق، من باب التضليل.

والآن صار موقف الشريف (صار ملكاً في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦) حرجاً للغاية، فابنه فيصل رهينة في دمشق، والوالي التركي الجديد يتقدم إلى الحجاز برفقة قوة عسكرية ضخمة، والإنكليز لا يزالون يراوغون في التعهد بالمساعدة والاعتراف بالحدود التي يعرضها عليهم، فماذا يفعل؟

لقد سيّر ولده علياً إلى المدينة مع بعض المتطوعين العرب، ذراً للرماد في العيون. ومن هناك طلب إلى رؤساء الجند أن يبرقوا إلى جمال باشا راجين إرسال فيصل من دمشق ليتولى قيادتهم. كما بعث هو إلى جمال وأنور بضرورة عودة فيصل أيضاً.

وانطلت الحيلة، وعاد فيصل إلى الحجاز بإذن جمال. وكان ذلك بعد إعدام مَن



الأمير فيصل اتصل بـ «العربية الفتاة» وأعلن مع «علي» الثورة في المدينة المنورة

جاء للتوسط بشأنهم في عاليه (شهداء ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦)، وعلى نية العودة على رأس «المجاهدين» المتمركزين في المدينة المنورة.

وفي ١٥ حزيران (يونيو) ليلاً سنة ١٩١٦، أعلن الشريف حسين الثورة العربية على الأتراك، وإلى جانب بريطانيا وحلفائها.

هل بدأت الثورة!

ها هي القوة التركية بقيادة «خيري بك» تصل المدينة المنورة، وها هو الأمير علي يتلقى من والده أمراً بضرورة منع تقدمها إلى مكة مهما كانت النتيجة. وها هو فيصل قد عاد من دمشق.. إذن، لماذا تؤجّل الثورة؟

على هذا الأساس تشاور فيصل وعليّ وأبلغا والدهما أن يكرر طلبه بقيام قوات الحلفاء بمظاهرة حربية على الساحل السوري.

ولنقتبس وصف الحادث من جورج أنطونيوس، نقلاً عن جريدة حجازية:

«وعند شروق الشمس في اليوم الخامس من حزيران (يونيو) ركب الأخَوان إلى قبر حمزة(*) حيث احتشد ١٥٠٠ جندي في معسكرهم وهم الذين جنّدهم الشريف، وأعلنا، باسم الشريف حسين أمير مكة، استقلال العرب عن الحكم التركي. ثم انطلقا يعدو بهما فرساهما ومن خلفهما أولئك المجندون وانضموا إلى رجال البدو في المكان المتفق عليه إلى الجنوب الشرقي من المدينة.

لقد بدأت الثورة العربية.

أما في مكة فقد حُدد يوم السبت التالي العاشر من حزيران (يونيو) موعداً للثورة. ولم يكن يحتل البلد حينئذٍ سوى جزء من حاميتها العادية يبلغ نحواً من ١,٤٠٠ جندي، إذ أن الوالي ومعظم الجنود كانوا قد انتقلوا، في بداية فصل الحر إلى الطائف مصيف الحجاز. وأطلق الشريف إشارة الهجوم في الفجر، فتعرضت الثكنات ومراكز الحامية التركية في وقت واحد للهجوم بإطلاق نيران البنادق، إذ لم يكن لدى القوات العربية أية مدفعية.

واحتدم القتال العنيف ثلاثة أيام إلى أن استسلمت المواقع التركية الصغيرة، أما الثكنات الرئيسية وقلعة «جياد» فقد استمرت مقاومتها ثلاثة أسابيع أخرى لأنها كانت

(*) عم الرسول وشهيد أُحد.

مجهزة بمدفعية ثقيلة. وفي تلك الأثناء أرسل السير ريجنالد ونجت سريتي مدفعية من سرايا الجيش المصري في السودان، فأخذ منهما مدفعان إلى مكة وكان لهما الأثر الحاسم في اضطرار باقي القوات التركية إلى التسليم».

وأوفى وصفٍ لسقوط مكة استطعت العثور عليه هو الوصف المنشور في جريدة «القِبلة»(*) التي ظهرت في مكة بعد ذلك بقليل، في اعدادها الصادرة من ١٥ إلى ١٨ شوال سنة ١٣٣٤ هـ (من ١٥ إلى ١٧ آب - أغسطس - ١٩١٦).

«في الساعة التاسعة والدقيقة ١٢ قبيل الصبح من ليلة السبت الموافق ٩ شعبان ابتدأ اطلاق النار بشدة على الثكنات العسكرية في مكة المكرمة(**) (والحميدية) دار الحكومة. وحوصرت الجنود التركية في حصونها وشرعت قلعة (جياد) المرتفعة فوق جبل منيع هنالك مشرف على كافة أحياء مكة ومنازلها تطلق القنابل المتوالية على مكامن العربان ومتاريسهم، وعامة المنازل، خصوصاً دار الإمارة الجليلة التي اتخذوها هدفاً لأكثر مقذوفاتهم. وهكذا بقي الفريقان يتبادلان الرصاص والقلعة تقذف بالقنابل حتى الساعة الثالثة صباحاً، فخابر رؤساء الجند «بثكنة جرول» دار الإمارة الجليلة «تلفونياً» يطلبون توقيف القتال وارسال سيادة القائمقام للمفاهمة عن أسباب الحادثة والمذاكرة في حسمها لصيانة الأرواح والدماء فأجيب طلبهم وأُرسل القائمقام إليهم، فصرح لهم بأن البلاد قد جاهرت بطلب استقلالها وأن المشكلة لا تنحسم إلا بخروجهم من الثكنات وتسليمهم كافة الأسلحة لقائد العربان، فلم يذعنوا لقوله وأصروا على المقاومة والدفاع بكل ما في المستطاع. وأمروا قائد القلعة بتشديد قذف القنابل على الأمة. فخرج سيادته وبلّغ جلالة الشريف جوابهم فأمر بإعادة القتال فكان أشد هولاً مما كان قبل المفاوضة، واستمر إلى أن دخل الليل فخفّت وطأته. وبلغ ما أطلق من القنابل في ذلك اليوم مائتين وثلاثين قنبلة وما أطلق في كل أيام مدافعتها ما يربو على ألفي قنبلة ولكنها بحمد الله تعالى لم تهدم بيتاً واحداً. وقدّرت خسارة الترك في هذه الواقعة بمائة وخمسين بين قتيل وجريح، ولم يخسر العربان فيها سوى ثمانية بين قتيل وجريح.

وفي صبح يوم الأحد بعد طلوع الفجر استؤنف القتال وعاد اطلاق النار حول كافة مراكز الجند بالرصاص والقنابل. وفي الساعة الخامسة قبل الظهر من ذلك اليوم

(*) كانت الجريدة خاضعة للشريف.. فهي تعبر عن وجهة النظر الرسمية.

(**) وهكذا قام القتال في المدينة المقدسة.. بأمر الشريف حسين!

هاجمت جيوش الشريف مركز «باش قرقول» الكائن حول «الصفا» واستولوا عليه قسراً وأسروا حاميته.

أصبح القتال في يوم الاثنين كما كان في اليومين الماضيين إلا أنه اشتد وعظم أمره حول «الحميدية» دار الحكومة التي كان وكيل الوالي (وهو ضابط عسكري) متحصناً بها، لأن حاميتها كانت تواصل اطلاق الرصاص بشدة من غير تعقل ولا تدبر على كل من يظهر لعينها من أبرياء المارة، حتى الضعفاء والعجزة والنساء والأطفال والمصلين بالمسجد الحرام. فحملت فصيلة من جنود الشريف عليها حملة شعواء حتى أسقطتها قهراً، وأرغمت حاميتها على التسليم. ثم سيقت مع وكيل الوالي ومن كان في معيته من الضباط بغاية الاعزاز والاحترام إلى دار الإمارة، وأنزلوا في غرفة الأسرى التي رأوا فيها من طيب المجاملة وحسن المعاملة وإكرام المثوى أحسن ما يراه أسرى الحرب في البلاد المتمدنة، بالرغم مما ارتكبوه من الفظائع المخجلة أثناء قيامهم بالمدافعة، كقتل الأبرياء وإزهاق نفوس الأطفال والنساء. ولما وصل وكيل الوالي إلى دار الامارة مع الأسرى وفهم حقيقة النهضة وأسبابها ومقاصدها كتب بخطه كتابين: احدهما إلى الثكنة الكبرى والآخر إلى القلعة، يخبرهما بما كان من مصيره ومصير حاميته وينصح بالتسليم، فلم تجدِ كتابته هذه نفعاً، لأن الثكنة جنحت إلى التسويف والمماطلة. والقلعة علقت مصير أمرها على مصير الثكنة وطفقت تشدد اطلاق الرصاص والقنابل على الأحياء والمنازل والمسجد الحرام حتى تعطلت العبادة فيه تماماً، وتعذر على الطائفين والعاكفين والمصلين دخول المسجد والقرب من البيت العتيق، لأنها كانت تتصيدهم فيه عمداً. ولم تقف جرأة حاميتها عند هذا الحد حتى تجرأت على رمي الكعبة المشرفة «زادها الله إجلالاً ومهابة» بقنبلتين، وعززوهما بثالثة في مقام الخليل إبراهيم، فهرع الألوف من المسلمين تحت وابل الرصاص وشظايا القنابل المتفجرة لاطفاء النار التي اضطرمت بأستار الكعبة المشرفة معرضين أرواحهم العزيزة لمخاطر الموت الذي كان ماثلاً أمامهم. وهكذا بقيت الحال على هذا المنوال في الثكنة والقلعة أياماً عديدة لأن العربان لم يستطيعوا مهاجمة جنود الأتراك وهم في منعة حصونهم - لعدم وجود السبيل إليهم - وجنود الأتراك لا يجرؤون على الخروج عن حصونهم بقدر شبر واحد. حتى وصلت المدافع الوطنية(*) برجالها من جدة وأخذت تقذف بالقنابل على القلعة فحطمت جانباً منها اتخذه جنود الشريف سبيلاً إليها فهاجموها بحماسة شديدة بين طلقات الرصاص، وفتحت مقذوفات القنابل

(*) يقصد المدافع الانكليزية.

واستولوا عليها قهراً بعد قتل ضابطين وجندي من الأتراك. ولم يصب أحد من المهاجمين بأذى في هذه الواقعة المهمة، ما عدا واحداً منهم جرح في فخذه جرحاً خفيفاً.

سقطت (قلعة جياد) في ضحوة يوم الثلاثاء الموافق ٤ رمضان على الكيفية التي سبق توضيحها، واستولى جنود الشريف على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع صغار ونحو ثمانية آلاف بندقية مختلفة الأنواع من الطراز القديم والحديث، وعلى كمية وافرة جداً من البارود والرصاص وقنابل المدافع. وذلك بعد ثباتها في المدافعة خمسة وعشرين يوماً ارتكبت حاميتها في خلالها من فظائع قتل الأبرياء ومحاربة المسجد الحرام ومطاردة أهله عنه، ورمي البيت العتيق بمقذوفات النار وإحراق المنازل بالقنابل المتفجرة، وتصيد الناس في الشوارع وحول الكعبة بالرصاص، ما تسودّ به وجوههم في الغد يوم يحاسبون عليه. فعم لسقوطها البشر والفرح بين عموم الناس وتلألأت وجوههم سروراً لسلامتهم من شرورها ونجاتهم من أخطارها، لأنها كانت هي العلة الوحيدة في وقوف حركة بعض أرباب الأشغال وذوي المصالح العامة المرتزقة وسلب راحة السكان التي حولها والحوانيت التي في حيها. أما دولاب الحركة العمومية في البلاد فما زال ولله الحمد بعد وقوع الحادثة على ما كان عليه قبلها، إذ لا فوضوية تقطع الناس عن أعمالهم، ولا اضطراب يُكره القوم على مزايلة أشغالهم وترك أسباب معايشهم من ابتداء الحادثة في مكة المكرمة إلى انتهائها».

«وبعد فراغ رجال المدفعية من مهمة اسقاط القلعة وإسكات مدافعها توجهوا إلى (ثكنة جرول) وانضموا إلى الجيوش المحاصِرة هناك وأحاطوا بها من كل جهاتها وطفقوا يطلقون قنابل التحطيم لفتح طرق المهاجَمة. وكانت الحامية التركية فيها تخادع جنود الشريف برفع العلم الأبيض وطلب مفاوضة القائد كلما حمي عليهم الوطيس واشتدت بهم وطأة النار الحامية لتتمكن من الاستراحة في خلالها. ولتحتاط في تلك البرهة بما تراه ضرورياً لثباتها في داخل الثكنة المنيعة، حتى إذا تم لهم ما يريدون بدأوا بإطلاق النار واستأنفوا القتال. وهكذا ظلوا يماطلون ويخادعون (وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) وقواد العرب يحاربونهم ولا يعبأون بهم ولا يكترثون بخداعهم. كان جلالة الشريف يوصي جيوشه جماعات وفرادى بعدم التسرع في أمورهم وخصوصاً في شأن الهجوم الذي يعرضون به أرواحهم للتلف غير مضطرين إليه، لأن من أهم مبادئه الحرص الشديد على الأرواح والدماء، مع العناية بمن يقع في أيديهم من الأسرى وملاطفتهم ومجاراة الضباط الطائشين قدر المستطاع. وعلى هذا المنوال بقي العرب يحتملون أذى تسويفهم ومماطلتهم وتلاعبهم حتى تحطمت

النوافذ وتفتحت السبل ولم يجدوا لهم مناصاً من مهاجمتهم بالسلاح الأبيض الفتاك. وهموا بهم لولا لطف الله بهم فرجعوا في تلك الساعة الرهيبة إلى رشدهم وآبوا إلى صوابهم ورضخوا إلى التسليم من غير قيد ولا شرط. ونادوا بذلك ورفعوا علم السلام فأجيبوا إلى ذلك وما كنا نظن أن في الإمكان إجابتهم إلى طلبهم حينئذٍ، وقد فات الوقت، واشتد حنق القبائل وأخذوا يمزجون بعضهم في بعض تحفزاً للهجوم. ولكن سرعة وصول الأمر إلى القبائل بالسكون، وتذكّرهم لما كان يوصيهم به جلالة الشريف لمثل هذه المواقف هو الذي أخمد ثائرتهم وخفف من غلوائهم في ذلك المأزق الحرج. فتوقف القتال تماماً وخرج فريق من الضباط وهم يحملون علماً أبيض إلى وسط المعسكر العربي لمقابلة القائد ومفاوضته في شأن التسليم وكيفيته. فقابلهم بما يليق بهم وأكرم مثواهم بما جعلهم يعجبون بآداب العرب ومكارم أخلاقهم. ثم رجعوا إلى الثكنة ومعهم عدد من عظماء الأشراف وشرعوا يسلمون إليهم الأسلحة والذخائر والمهمات وما كان بالثكنة عدا ما هو خاص بأشخاص الضباط والجنود من النقود والأمتعة (حتى خيولهم الخاصة) كما صدر بذلك الأمر. وعلى هذه الكيفية جرى تسليم الثكنة لجيوش الشريف في مساء الأحد الموافق ٩ رمضان بعد دخول الليل. وقدر ما خسره الأتراك في مدة محاصرتهم بالثكنة وراء متاريسهم فيها - من رصاص العرب الذين أثبتوا تفوقهم العظيم في اتقان فن الرماية - بواحد وعشرين قتيلاً وستة وسبعين جريحاً، غير خسارتهم الأولى في بداية الحادثة. ثم سيق الباقون منهم إلى الأماكن المعدة لهم بـ«الشهداء» وفي بعض المنازل بداخل البلدة وعددهم ثلاثون ضابطاً وألف ومائة وعشرون جندياً. أما الغنائم من أنواع الأسلحة والأدوات اللازمة للجيش فكثيرة. وبسقوط الثكنة قضي على الجيش التركي في مكة واستولت جنود الشريف على كافة مراكز الجند والمخافر ودار الحكومة وكل ما لها من المباني والمؤسسات فيها».

وهوجمت جدة في اليوم الذي نشبت فيه الثورة في مكة، ولكن الهجوم عليها كان من الخارج. فقد حاولت جماعة مؤلفة من ٣,٥٠٠ بدوي ينتمون إلى قبائل بني حرب الكبيرة بقيادة الشريف محسن أن يقتحموا البلدة عنوة. ولم تكن لديهم مدفعية كذلك، فكان موقفهم غير متكافىء مع موقف الحامية التركية المؤلفة من ١,٥٠٠ من المحاربين الأشداء المتفوقين عليهم في الأسلحة، فكان لا سبيل أمامهم إلا أن يقنعوا بفرض الحصار. واشترك في هذا الحصار الفاروقي وكان قد أوفد من القاهرة. وقصفت السفن الحربية البريطانية بقذائفها مواقع الأتراك الخارجية وألقت الطائرات البحرية قنابلها خارج أسوار البلدة. وبعد ذلك ببضعة أيام جاءت أنباء من القائد التركي

في مكة أنه لن يستطيع ارسال إمدادات إلى الحامية، فاستسلمت يوم ١٦ حزيران (يونيو) ١٩١٦.

وفي تلك الأثناء توجهت قوة الأمير عبد الله إلى الطائف وحاصرتها، واتجهت قوة أخرى شمالاً واستطاعت أن تستولي على رابغ، وينبع. وتم الاستيلاء على «قنفدة» بمساعدة الأسطول البريطاني. واستغرق حصار الطائف وقتاً طويلاً، إذ أن عبدالله ـ بالرغم من وجود المدفعية المصرية معه ـ لم يكن يريد أن يهاجم تلك المدينة ليستولي عليها عنوة، فقد كان واثقاً من أن النتيجة ليست موضع شك، فرأى أن يتريث ـ وكان في ذلك حكيماً ـ ورفض جميع ما عرضه الأتراك لعقد هدنة، حتى سلّمت الحامية تسليماً غير مشروط في اليوم الحادي والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر)، وكانت الجائزة الكبرى لهذا النصر استسلام والي الحجاز غالب باشا مع رجال الحامية.

وبذلك وطدت الثورة نفسها، ووقع في حوزتها ستة آلاف أسير، وغنمت كثيراً من المواد الحربية، وأصبحت المدن الرئيسية في الحجاز في يد الشريف ما عدا المدينة المنورة.

الثورة والمشاعر في أوروبا المتحاربة

كان الانكليز على اتصال وثيق بالشريف حسين، فهم على علم بالثورة منذ خطواتها الأولى. وطبيعي أنهم رحبوا بذلك لاغراضهم الخاصة. فهم أولاً: أبقوا قضية التعهد باستقلال الولايات العربية تحت زعامة الشريف حسين أمراً غامضاً يستطيعون تفسيره كيفما شاؤوا. وهم ثانياً، حطّوا من هيبة الخلافة الإسلامية في نظر العرب والهنود. وبذلك ظنوا أنهم سيحصلون على حجة منطقية للهنود المسلمين الذين يحاربون خليفة الإسلام (مع أن الهنود سخطوا على الشريف حسين أنه تجرأ على الخلافة الإسلامية فعقرها).

وهم، ثالثاً، استطاعوا بـ ٢,٢٧٥,٠٠٠ جنيه ذهبًا يدفعونها كإعانة للشريف حسين، أن يطمئنوا إلى إشغال الأتراك عن احتمال إعادة الكرة على قناة السويس، أو خلق «كوت العمارة» ثانية في العراق. كما ضمنوا قطع الاتصال بين القوات التركية في شمال الحجاز وسوريا وفلسطين وبين القوات التركية في شمال الحجاز وسوريا وفلسطين وبين القوات التركية الأخرى في عسير واليمن.

لقد نظروا من وجهة اقتصادية وعسكرية معاً، فالإعانة التي يمنحونها إلى متزعّم الثورة وجنوده لهي أقل بكثير من نفقات الحملات التي تغدو ضرورية فيما لو لم تقم تلك الثورة. أما كل تعهداتهم ونواياهم تجاه حليفهم العربي الأخير، فقد كانوا يعرفون مقدماً انها اتفاقيات بين قوي منتصر وضعيف شارك جزئياً في الانتصار. وهذا ما تم بالفعل بعد نهاية الحرب.

وما نقوله عن الإنكليز ينطبق بطبيعة الحال على الفرنسيين، وإن كان في مدى أضيق نسبياً، وبدون مشاركة فعلية من طرفهم.

الثورة والمشاعر في الاستانة

وكان وقع الثورة على جمال باشا والآستانة مفزعاً. لقد أخفت الصحافة الخبر أول الأمر، ثم أُوعز إلى الحقيقة بعد شهرين، ولكن، بصورة تستثير الاستخفاف والقرف. فقد قيل: «إن عاصياً دنيئاً



الجوع. . والموت
شبح مرعب ينشر رداءه في ربوع الولايات العربية

تمرد على الدولة في الحجاز، فتولى القائد العسكري أمر تأديبه. وها هو ولده علي، يهرب من جدة ويلتجىء إلى باخرة إنكليزية في البحر الأحمر. وهذا جزاء حليف الكفّار ضد سدّة خليفة الأمة الإسلامية».

لكن الحقائق لا تلبث أن تتكشّف. فسقوط مكة في يد الثائرين ما لبث أن صار واقعاً راهناً لدى القادة الأتراك. ولهذا أشير إلى الحادث من جديد، ولكن بلهجة التهديد والوعيد هذه المرة.

أما جمال باشا، القائد التركي القريب من المنطقة، فقد سلك سبيل البطش تجاه المتنفّذين العرب. لقد أخذ يعتقل ويحاكم ويعذّب بصورة وحشية أين منها إجراءات محاكم التفتيش عند الكاثوليك في أسبانيا. وقد صادر المؤن في البلاد ونشر الجوع، حتى غدت البلاد على وشك أن يفنى سكانها جوعاً.

وزاد الطين بلّة أن العـام السابق كان ماحلاً لندرة سقوط الأمطار وزحْف ارهاط الجراد القادم من الصحراء على زروع سوريا وفلسطين. فتضافر كل ذلك على رسم صورة «سفر برلك» في أذهان الناس عن تلك الأيام، وجعل تلك الصورة وخطوطها المآسي والنكبات، وأكْل لحوم الحمير بله الكلاب، إن لم نقُل، جثث بعض الموتى من البشر، كما حدث في «جونية» من لبنان.

الثورة والمشاعر في برلين

أما وقع النبأ عند الألمان، فقد كان مذهلاً حقاً. كان هؤلاء بعد صمودهم المنتصر في الجبهات الغربية، يودون مساعدة حليفتهم تركيا أملاً في قصم ظهر التجارة والإمدادات البريطانية القادمة من الهند، وفي إثارة شرق أفريقيا، والهند ،إذا قدروا ، على **سلطات الاستعمار البريطاني**.

غير انهم الآن، غدوا هم الخاسرين. فالبعثة الألمانية التي كان مقرراً أن تنشىء محطة لاسلكية في الحجاز للاتصال بأعوان الألمان في مستعمراتهم بشرق أفريقيا، قد اضطرت إلى الرجوع. هذا كما أن جبهة جديدة (هي جبهة الثورة) قد فُتحت الآن على حليفتهم وحرمت قوات تلك الحليفة من مزية التركيز. . إذ انها غدت مضطرة إلى التشتت وانقطاع الاتصال.

الثورة والمشاعر عند العرب

أ. سوريا وفلسطين

ويبقى أن ندرس استجابة العرب أنفسهم للثورة. في ولاية سوريا، كانت العواطف ملتهبة ضد الأتراك ومساوئهم، ولكن الحكم التعسفي الرهيب الذي نشره جمال باشا جعل ذلك التجاوب يكاد يضمحل أثره. نعم، كان المثقفون(*) يودون لو استطاعوا دفع جماهير الشعب لمساندة تلك الثورة، ولكن الشعب بكامله كان منشغلاً بالتفتيش عن لقمة العيش، والنجاة من زنزانات جمال.

هذا إلى أن طول حكم العثمانيين لهذه المنطقة، ومقدار الجهل المخيم على أهلها، وانعزال الحجاز الطبيعي عن أهلها (بحكم تغاير البيئة) ـ كل ذلك جعل الشاميين ينظرون إلى القائمين بالثورة نظرة لامبالاة أول الأمر. كانوا لا يصدقون أن الثورة قد تنتصر.

مصر

أما في مصر، فقد غلبت العاطفة الدينية على الشعب فيها. نعم، لقد قام فيها من بارك الثورة وأيّدها في الصحف، وبتشجيع من الإنكليز، لكن الناس العاديين ظلوا ينظرون إلى الثورة في وجه «خليفة المسلمين» كمروقٍ من حظيرة الدين، وتفضيل للحليف غير المسلم على الحاكم المسلم. لقد اعتبروا الثورة نوعاً من الصفقة التي جرى تسديد ثمنها بالبنادق والجنيهات والوعود بعرش متوارث وصديق للإنكليز.

لكن للمصريين آنذاك بعض العذر في هذه النظرة المشوّهة. فقد ظلّت تركيا أولاً، ثم أسرة محمد علي، ثم الإنكليز يعملون جهدهم على إبعاد أي فكرة تسمح

(*) هؤلاء هم زعماء الثورة الحقيقيون.

بنشر تعاطف المصريين مع إخوانهم في ديار الشام وشبه الجزيرة العربية. اضف إلى ذلك، النفورَ الذي ولّدته حملات محمد علي ضد الوهابيين، عند المصريين وعرب الجزيرة على السواء.

العراق

أما في العراق، فقد كان مركز الأتراك أقوى من أن يسمح بتجاوب المناطق الخاضعة لهم مع الثورة. كما أن حكومة الهند، التي كانت تعدّ مشاريع استعمارية للعراق بشكل خاص، لم تودّ أن يستشعر العرب في منطقة نفوذها المحتمَلة أي نزعة لوحدة العرب. وكانت تعلم أن تأييد العرب للثورة، حيثما تم، معناه نوع من التجمع العربي تحت زعامة موحدة، ولهدف واحد هو الاستقلال. كما كانت ترى أنه إذا كان من الممكن ازاحة تلك الزعامة الواحدة من الطريق، بطرد الشريف حسين أو الإيعاز إلى لندن بقطع الاعانة الممنوحة له فيُفلِس، فإنه يستحيل ازاحة الهدف الواحد من أذهان العرب فيما لو تم تعيين ذلك الهدف. لهذا نجدها لا تشجّع على استقبال الثورة بروح الاستبشار والمساندة.

الجزيرة العربية

ويبقى معنا داخلُ الجزيرة. أما ابن سعود فقد أيّد الثورة، بحكم صداقته لحكومة الهند ومرتّبه منها على صورة إعانة، وبحكم كرهه لحليف تركيا عدوه ابن رشيد، ودفعاً لاصطدامٍ كان يقدّر أنه سيقع بينه وبين شريف مكة. وكان هذا الأخير لا يخفي طموحه في لقب «ملك العرب»، بينا يخشى ابن سعود هذه الدعوى.

وأما الإدريسي، فقد أصبح مغلوباً على أمره، فآثر السير مع الشريف حسين في ثورته.

وأما الإمام يحيى، فكان همه أن يُبعد الآخرين عن بلده. لذلك نجده أيّد الثورة لأنها تمنع الأتراك من إرسال امدادات إلى جيوشهم في اليمن.

* * *

ولنعد الآن إلى مجرى الثورة.

بعد سقوط مكة ثم جدة، حاول الأتراك تعزيز قوتهم الكبيرة نسبياً في «المدينة»،

وكانت هذه القوة حسنة التسليح، ومعظم رجالها من المغاربة الذين اشتهروا بالبسالة في الحرب. فهاجمها فيصل وعلي وعبد الله أبناء الملك حسين.. لكن القوة التركية صدّتهم وصمدت فيها. وهنا برز دور الأمير عبد الله، فقد هاجم أطراف «المدينة» بجرأة أذهلت القيادة التركية. كما أن الأمير فيصل وجّه قواته إلى ميناء «الوجه» على البحر الأحمر ليمنع اتصال القوات التركية هناك، وعددها ١٠٠٠ رجل، بقوات المدينة. وقد ساعد الإنكليزُ في هذا الهجوم، واحتل العرب بمساعدة «لورنس» تلك المدينة وأسروا ثلثي حاميتها.

بهذا تأمّن الملك حسين ضد أي هجوم يقوم به الأتراك على مكة.

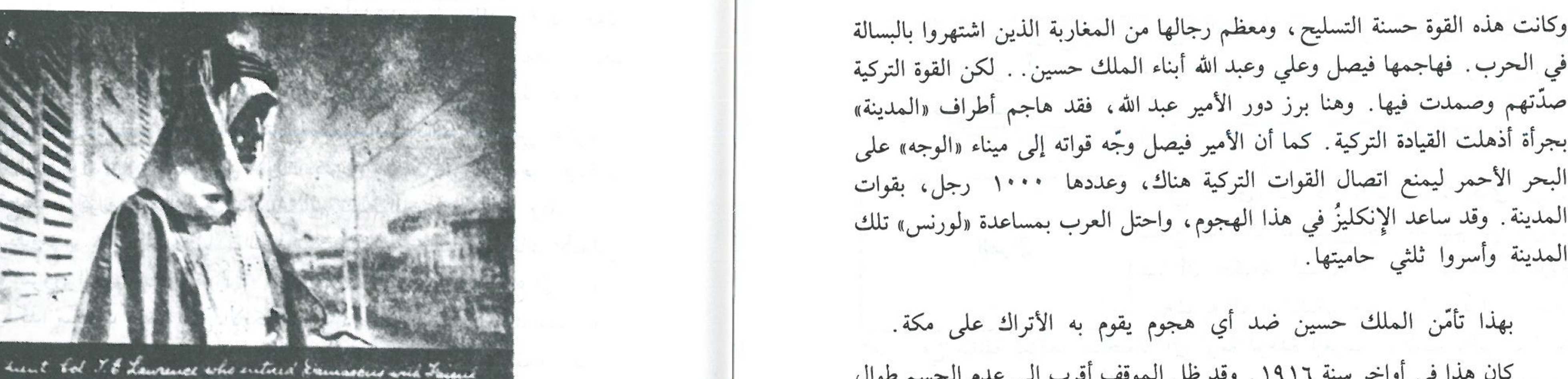
كان هذا في أواخر سنة ١٩١٦. وقد ظل الموقف أقرب إلى عدم الحسم طوال سنة ١٩١٧، إذ كان الأمير فيصل منشغلاً بجمع كلمة القبائل العربية، وفضّ منازعاتهم، واستلال الأحقاد القبلية السابقة من نفوسهم.

والحق أن فيصلاً كان مثالاً في الاخلاص لخدمة الأمة العربية بعمله هذا، إذ قام بهذا العمل الجليل دون مطمع شخصي أو مداهنة مبطّنة يرمي من ورائها إلى الزعامة.. لقد كان نبيلاً.

العقبة

ولسنا هنا نود أن نُغفل ذكر رجل بدوي لا يقلّ فضله على الثورة العربية عن فضل فيصل. إنه شيخ الحويطات، عوده أبو تايه. ذلك أن «عوده» ـ كان رجلاً من بسطاء الناس لا مطمع له في جاه أو في منصب، وإنما هو يخدم أمته لمجرد أنه فرد من تلك الأمة، فهو يقوم بواجبه!

لقد اجتمع الشيخ عوده إلى الأمير فيصل في «الوجه» وهناك عرض عليه أن يقوم برجال قبيلته المسلحين بمهاجمة العقبة واحتلالها. وبعد موافقة فيصل، جمع عوده ٥٠٠ من قبيلته في «باير» حيث لحق به الشريف ناصر ولورنس؛ وفي ٣٠ حزيران (يونيو) اتجهت هذه القوة نحو الجنوب مارة بـ«الجفر»، ثم توجهت نحو الغرب فاجتازت سكة حديد الحجاز، وتوقفت مدة تكفي لنسف بضعة جسور، وتخريب كيلومتر واحد من الخط. وفي الثاني من تموز (يوليو) هاجمت القوةَ التركية التي تحمي مركز «أبو الأثل» على الطريق الممتد بين معان والعقبة. فهزمت الأورطة، وعددها ٦٠٠ تركي، وقتلت منهم ٣٠٠، بينما خسر عوده رجلين لا غير.



لورانس ـ الكولونيل الذي فعل «حبه للاستطلاع» الأعاجيب

وعندئذ بقيت ٤ مراكز تركية حتى العقبة، فاحتلها عودة في ٤ أيام، حتى غدا مجموع أسراه ٧٠٠ رجل وعدد الأتراك الذين قُتلوا ٦٠٠ رجل. ومن ثم تقدم عوده بعربانه فاحتل العقبة. وبهذا انتقل ميدان الحرب من الحجاز إلى فلسطين وسوريا.

العقبة وألمانيا

كانت القيادة الألمانية قد أرسلت فولكنهاين، القائد العام السابق المعروف، على رأس بعثة عسكرية رفيعة الرتب إلى الآستانة، لتتولى قيادة العمليات الحربية في الولايات العثمانية العربية. وكان فولكنهاين هو الذي عمل على قهر الإنكليز في الهجومين اللذين شنّوهما على غزة. لكن سقوط العقبة المفاجىء أقامه وأقعده. لقد غدا يود إحباط التحالف الإنكليزي الحجازي بكل ما أوتي من قوة. وتطلّع إلى سياسة جمال باشا في منطقته، فوجدها خاطئة. لذلك ضغط على الآستانة أن تُصدر عفواً غير مشروط عن جميع العرب الذين حملوا السلاح ضد الدولة العثمانية، على شرط أن يكفّوا عن نشاطهم المعادي. كما جعل الطائرات الألمانية تُسقط المناشير بذلك الإعلان في جميع المناطق العربية. وكان يأمل من ذلك أن يجرد الحلفاءَ (الإنكليز) من حليفٍ جديد. لكن كُره العرب للأتراك، وحكمة فيصل، والدهاء الإنكليزي عملت على خيبة هذا القائد. لقد كثر الآن فرار العرب من الجيش التركي، وصار البدو ينقلبون على الأتراك أثناء المعركة. هكذا حدث في بئر السبع من فلسطين مثلاً.

الانكليز والعقبة

في حزيران سنة ١٩١٧ تسلّم اللنبي قيادة حملة فلسطين، فقرر أن يستفيد من سقوط العقبة. وبعد أن درس خطة محكمة للهجوم على خط «غزة ـ بئر السبع» التركي، طلب امدادات كبيرة من حكومته. فلبّته القيادة على الفور. وفي ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٧ بدأ هجوم الإنكليز على غزة بقصف مركز من المدفعية البحرية. ثم تقدم الجيش البري، وكان عدده ١٠ آلاف يقاومهم ٨ آلاف من الأتراك المنهَكين. وعند ذاك رأى القائد الألماني «فون كرس» ضرورة الانسحاب، مقرِّراً أنه من الحكمة أن ينقل خط الدفاع إلى «يافا ـ القدس». وهكذا سقطت غزة. لكن الإنكليز حين دخلوها وجدوا المدينة مقفرة من الناس، وليس فيها أي شيء يمكنهم أن يستفيدوا منه. وكان هذا العمل انجازاً عبقرياً يندر الحصول عليه في التاريخ العسكري. لقد كان انسحاب القائد الألماني أعجوبة في التكتيك والاستراتيجية.

وعند ذاك طلب اللنبي أن يزوره الأمير فيصل، ففعل، وتم الاتفاق بينهما على ضرورة قيام القوات العربية بنشاطات في فلسطين وشرقي الأردن وسوريا على أن تطمئن إلى مساعدة اللنبي لحركاتها.

أما هدف اللنبي من ذلك فهو تسهيل حملته على القدس. وأما خطة فيصل في العمل، فهي تدمير خط الحجاز الحديدي لمنع الأتراك من تعزيز قوات المدينة أو التفكير في مهاجمة القوات العربية في المواقع الجديدة.

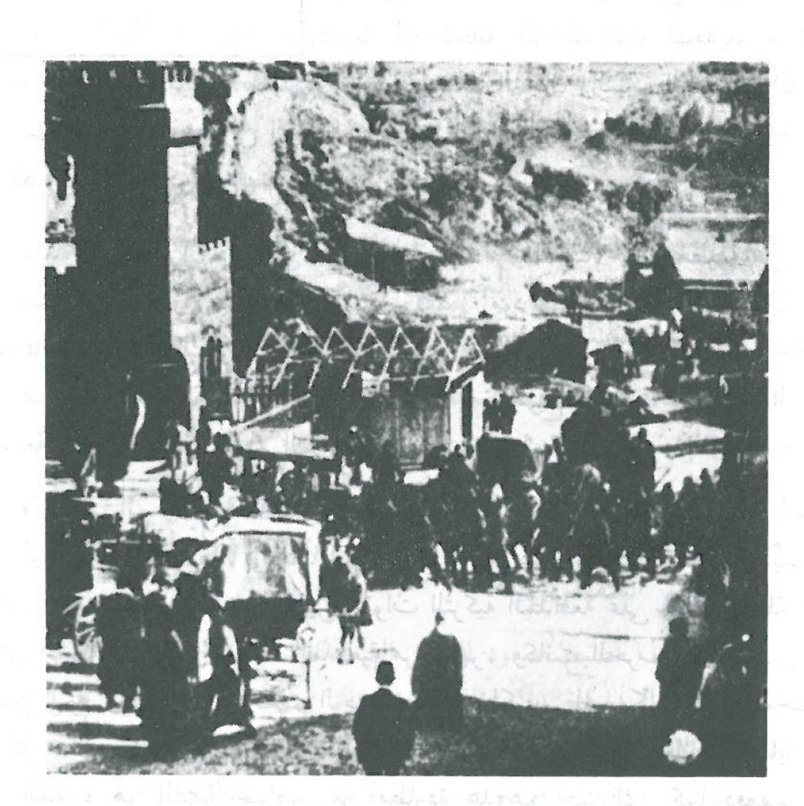
اللنبي والقدس

بعد سقوط غزة تقدم جيش اللنبي على الطريق الساحلي فاحتل يافا في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) دون مقاومة تذكر. وكان الأتراك قد اضطروا إلى الانسحاب إلى «نهر العوجا» في ميمنتهم وإلى المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس للدفاع عنها، من جهة اليسار.

واستمر تقدم الإنكليز في الجناحين، فنشبت معركة «النبي صموئيل» في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر)، ثم ظل الإنكليز يحتلون المعاقل الجبلية واحداً بعد الآخر، حتى استطاعوا تطويق القوات التركية من ٣ جهات. وحينذاك أمر فولكنهاين بالانسحاب من المدينة، فدخلها اللنبي في ١١ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧، وأعلن الأحكام العرفية، وضمن سلامة الأماكن المقدّسة.

هجوم معاكس

حاول الأتراك بعد سقوط القدس أن يقوموا بهجوم معاكس يستردون به المدينة. وكانت خطة فولكنهاين أن يكون الهجوم من ناحية العوجا، وخط «يافا ـ القدس»، إلا أن اللنبي فطن لذلك، وكان قد أرسل قوة من عنده تحت جنح الظلام إلى منطقة العوجا، فمنعت الأتراك من مساندة جناحهم الآخر، كما أن الطائرات الإنكليزية والقصف البحري من الساحل.. كل ذلك احبط هذا الهجوم، فاضطر الأتراك إلى التخلّي عن محاولتهم. ومع أن فولكنهاين لم ينهزم، إلا أن الإنكليز لم يتخلوا أيضاً عن المواقع التي احتلوها.



الأتراك ينسحبون من القدس بعد أن حكموها أربعة قرون من ١٥١٧ ـ ١٩١٧

خسائر حملة فلسطين

تختلف المصادر التركية والمؤرخ الإنكليزي الرسمي في إحصاء هذه الخسائر. وكل من المصدرين يميل إلى المبالغة في خسائر خصمه. أما الأرقام المعترف بها بصورة دولية فهي كما يلي:

منذ أول هجوم قام به الإنكليز على العريش حتى سقوط القدس في أيديهم، تكبدوا ١٨ ألف قتيل، و ٣٠٠٠ أسير تمكنوا من استعادة معظمهم. أما الأتراك فقد ارتفعت خسائرهم إلى ٢٥ ألف قتيل و ١٢ ألف أسير. لكن معظم الأسرى كانوا من العرب الذين لم يقاتلوا، بل استسلموا للجيش المهاجِم كُرهاً في الأتراك.

الانكليز في العراق

قلنا إن تاونسند اضطر إلى الاستسلام بعد حصاره في كوت العمارة، وقلنا إن هذه المذلّة أثارت سخطاً عميقاً في أوساط الشعب البريطاني على حكومته. وذكرنا أن لجاناً قد تشكلت لتحديد مسؤولية القصور.. وبعد أخذ وردّ طويلين بين كبرى تلك اللجان والقيادة البريطانية العامة، تقرر استبدال قائد الجبهة في العراق، وجعل ذلك الميدان تحت سلطة لندن مباشرة، أي اقصاء نفوذ حكومة الهند منه.

وقد عيّن الجنرال «ستانلي مود» قائداً عاماً مزوّداً بصلاحيات مطلقة من حيث التحركات العسكرية والاعتبارات السياسية. فقضى مود بقية عام ١٩١٦ يستعدّ لخوض معركة فاصلة مع الأتراك في العراق. لقد كدّس الذخائر التي كانت تنقلها سفن حكومة الهند عبر شط العرب، كما استفاد فائدة كبيرة من موقع الكويت وسواحل الخليج الخاضعة لبريطانيا في خزن المؤن والمعدّات الحربية.

وبعد أن اتم رسم خطة كاملة لجبهته المقبلة، ونال الموافقة عليها من لندن، أصدر أوامره بالتقدم صعداً في دلتا النهرين. وقد بدأ ذلك في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦. فأخذت المعارك تنشب بين القوات التركية المدافعة على ضفتي دجلة وبين الجيش الإنكليزي الذي تسنده المدفعية من النهر. وكانت الحرب سجالاً.. يتقدم الإنكليز اليوم ليرتدّوا من مواقعهم الجديدة غداً. ولكنهم ظلوا يكسبون أرضاً جديدة على كل حال. والحق، ان الغرور الذي أصاب الأتراك نتيجة لانتصارهم السابق في كوت العمارة هو الذي أعماهم عن مطاردة عدوهم حينذاك. كما دفعهم إلى الاستخفاف به هذه المرة.



المدافع الألمانية تجرها الثيران في شمال العراق

أما العرب في المنطقة، فقد كانوا غير ميّالين لمساعدة الأتراك، متأثرين في ذلك بأخبار ثورة شريف مكة في الحجاز، ومتجرّئين عليهم بعد سقوط مكة وجدة. هذا علاوة عن أن الذهب الإنكليزي فعل ما كان يُنتظر منه بين البدو.

وقد ظل التناوب في التقدم والارتداد مستمراً طوال شهرين، كان اثناءهما «مود» يعزز قواته، وكان الأتراك يستنجدون بمفرزة مدفعية يشرف عليها ضباط من الألمان. لكن، الواقع أن تسليح الجيشين كان غير متكافىء اطلاقاً.

وفي ١٧ شباط (فبراير) من عام ١٩١٧ هاجم الإنكليز موقع «الصناعية» التركي. فقذف الأتراك بمعظم قواتهم للدفاع عنه. وإذ ذاك استغلّ مود الفرصة فوجّه هجومه الرئيسي شطر موقع آخر.. لقد عبر نهر دجلة. لقد خدعهم. وحين حاول الأتراك التراجع وجدوا طريقهم مسدوداً، فاضطروا إلى الانسحاب اليائس إلى طريق بغداد. ولاحقهم الإنكليز وانقضّ عليهم العرب، فنهبوا مؤنهم، وقتلوا من استطاعوا من جنودهم المتقهقرين.

بعد هذا أصبح صعود السفن إلى الكوت أميناً، فتقدمت هذه وأنزلت جنوداً استولوا على المدينة.. بينما تابع الجيش البري الآخر زحفه شمالاً على طريق بغداد. وقد أسر الإنكليز ٤٠٠٠ تركي بين شمران والعزيزية في ٤ أيام ما بين ٢٣ - ٢٧ من الشهر نفسه. وبعد ٤ أيام أخرى وصل الإنكليز إلى منطقة نهر ديالى فكانوا على بضعة أميال من بغداد.

سقوط بغداد

لقد قدّر مود أن حالة الأتراك المعنوية وموقفهم العسكري آيلٌ إلى الهزيمة في جميع ممتلكاتهم في آسيا. . فهم قد خسروا في جنوب فلسطين، وخسروا في الحجاز، وها هي غارات لورنس وفيصل وعبد الله في سوريا وشمال الجزيرة العربية تقطع عليهم طريق البقاء في الولايات العربية. . فلماذا لا يسارع هو في تقليص النفوذ التركي في العراق! ان عليه أن يمحق أعداءه.

وهكذا صار.

فقد تابع بسرعة عجيبة إنزال ضرباته بالأتراك في جبهته. لقد بدأ هجومه في ١٧ شباط (فبراير)، وها هو الآن في ٧ آذار (مارس) يعبر نهر ديالى.

وقد قاوم الأتراك ذلك العبور باستماتة، وبخاصة أن الأوامر صدرت من الآستانة إلى قياداتهم بالدفاع حتى الموت. لكنهم عجزوا عن الهجوم المركّز بعد أن طوّقهم الإنكليز من شمال المدينة. . وفي ١٠ آذار (مارس) اضطر الأتراك إلى إخلاء بغداد مهزومين، فدخلها مود في اليوم التالي.

ومن بعد ذلك تابع الإنكليز زحفهم على شمال العراق، وأخذت المدن والمواقع تسقط واحدة إثر أخرى حتى تم طرد الأتراك من كامل البلاد، وبخاصة أن انتصارات اللنبي في فلسطين أقنعت حكومة الآستانة بعدم الجدوى من الدفاع عن الولايات العربية.

اللنبي يزحف شمالاً

مع نهاية كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧، كانت القوات التركية قد طُردت من بغداد في العراق، ومكة في الحجاز، والقدس في فلسطين. كان مود يزحف شمالاً إلى كركوك وخانقين، واللنبي يُعد العُدّة ليزحف شمالاً إلى نابلس وشرقاً إلى عمان. . ثم شمالاً إلى درعا ودمشق وبيروت وحلب، وفيصل يرسل الغارات من مقرّه في العقبة لتخريب خط حديد الحجاز وشلّ حركة الأتراك في المدينة المنورة، ومنع الامدادات من الوصول إليهم. . هذا هو الموقف في أول ١٩١٨.

وفي كانون الثاني (يناير) التالي سنة ١٩١٨ توجه اللنبي إلى شرق الأردن محاولاً أن يحتل قرية عمّان، على أن تؤازره مفارز قبلية تعمل تحت أوامر فيصل، غير أنه

فشل في ذلك وعادت إلى الضفة الغربية من نهر الأردن. وحين أدرك فيصل أن الاتصال بحلفائه البريطانيين لم يكن بعد ممكناً، قصر عملياته على منطقة معان وحاول أن يعزل تلك المدينة رجاء أن يحتلها في النهاية. وفي هذا الوقت قامت القيادة التركية، باشارة من الألمان، بعرض الصلح على فيصل. لكن هذه الخطوة السياسية فشلت بضغط من والده الملك حسين والإنكليز.

أما من الناحية العسكرية فإن الاجراءات التي قام بها الأتراك زادت مقدار خسائرهم. فاندحرت عند سيل الحسا في ٢٦ كانون الثاني (يناير) قوة تركية مؤلفة من ٨٠٠ جندي ولم ينجُ منهم أكثر من خمسين، وقتل ٥٠٠، وأسر نحو مائتين. وفي آذار (مارس) خرجت كتيبة قوية من عمان وطردت العرب من الطفيلة، وكان الأمير زيد قد احتلها قبل ذلك، ثم عادت فخسرتها ثانية في اشتباك دام عدة أيام. وضيّق العرب الخناق على حامية معان التركية، وتعددت الهجمات على سكة حديد الحجاز حتى لم تعد القطارات تسير عليه إلا مرة واحدة كل أسبوع، وأصبحت السفرة من دمشق إلى المدينة تستغرق خمسة أيام بعد أن كانت في الأحوال العادية تستغرق ثماني عشرة ساعة. ثم قرر الترك إخلاء المدينة المنوّرة (وكانت الحامية التركية فيها قد استطاعت هزم فيصل وعلي وعبد الله حين هاجموها بعد إعلان الثورة بقليل) وكانوا قد احتفظوا بها حتى ذلك الحين لأسباب سياسية لا عسكرية، فقد فقدوا مكة والقدس ـ وهما مدينتان من بين ثلاث مدن مقدسة في الإسلام ـ وتشبثوا بالثالثة بدافع الحفاظ على الهيبة والكرامة. وذلك أمر كان يكلفهم غالياً.

خسائر

كبدت ثورة العرب الأتراكَ خسائر لا طاقة لهم بها، فقد فقدوا بحسب التقديرات المعتدلة حتى نهاية آذار (مارس) سنة ١٩١٨ ـ ٤٨٠٠ قتيل و ١٦٠٠ جريح و ٨٠٠٠ أسير في المعارك التي دارت بينهم وبين العرب فحسب. وهذه الأرقام لا تشمل أعداد العرب الذين فروا من صفوف الأتراك. أضف إلى ذلك حامية لهم في المدينة المنورة عددها ١٢٠٠٠ وأخرى في معان عددها ٧٠٠٠ ونحو ٣٠٠٠ في مراكز مختلفة على الخط الحجازي ـ كلها قد عطّلها العرب وشلُّوا حركتها. أي ان عدد القتلى والأسرى والمعطلين من الأتراك يبلغ في مجموعه ٣٥٠٠٠. وكانت ربقة الضغط تضيق. كما أن مشكلة تموين الحاميات المحصورة وتزويدها بالمعدات كانت تتزايد صعوبة.

تخريب سكة الحديد

ووصل النبأ بعزم الأتراك على إخلاء المدينة إلى فيصل حوالى منتصف آذار (مارس) سنة ١٩١٧ فحفزه لورنس إلى العمل السريع، واتضح له أن غاية الأتراك هي أولاً ضمان سلامة الانسحاب لحامية «المدينة» الرئيسية والحاميات الفرعية على السكة الحجازية واستقدامها إلى معان. فإذا حققوا ذلك استغلوا تلك الحاميات في أغراض عدوانية مباشرة ضد قواته، أو اتخذوها مدداً للجيوش التي تسدّ الطريق إلى دمشق أمام اندفاع العرب والبريطانيين شمالاً. وبعد أن تشاور فيصل مع لورنس واستمد العون والتأييد من اللنبي رسم خطة لهجوم فوري غايته عزل معان وقطع المواصلات بينها وبين المدينة وإحباط خطة الأتراك.

* * *

تخريب الخط

كانت خطة فيصل أن يقسم قواته إلى ثلاث وحدات يهاجم بها السكة الحديدية في ثلاثة أمكنة مختلفة. وقد استغل بحكمةٍ العربات المصفحة ومفرزة من فرقة الهجانة المصرية اعارتها له السلطات الإنكليزية في القاهرة، فزوّد فصائل وحداته بالرجال اللازمين والعتاد الملائم لمهمتها. وبدأت الهجمات في الأسبوع الأول من نيسان (أبريل) فخرّبت الوحدة الشماليةُ الخطَّ الحديدي بين معان وعمان، وعملت الوحدة الجنوبية من جنوب معان حتى المدوّرة وخربت الخط تخريباً يستحيل إصلاحه. أما وحدة القلب فإنها احتلت خطوط الدفاع الخارجية عند معان وخربت الخط الذي يقع مباشرة إلى جنوب معان وشمالها.

مطامع.. وخراب!! بمشورة الانكليز

وفي العشرين من نيسان (ابريل) كانت معان قد عزلت، أي ان الطوابير الثلاثة خرّبت في مدى عشرة أيام خمسين جسراً وقنطرة و٣٠٠٠ مفصلة من الخط، وأسرت ٤٥٠ أسيراً وغنمت كميات وفيرة من الذخيرة. وبهذا أصبحت خطة الأتراك بإخلاء المدينة أمراً مستحيلاً.

وفي الجنوب كان الأميران علي وعبد الله يقومان بتخريبات واسعة في جبهة الأتراك في شهري أيار (مايو) وحزيران (يونيو)، فقد هزم عبد الله ابنَ الرشيد قرب تيماء. ولما أرسل الأتراك في تموز (يوليو) مفرزة قوية من المشاة والخيالة بطريق داخلية من «المدينة» مدداً لحليفهم، انقض عليهم عبد الله ووقع كل رجل في تلك المفرزة قتيلاً أو أسيراً.

مقارنة

وقد نكوّن فكرة عن مدى العمليات العربية في قطاع معان إذا نحن رسمنا مقارنة في الأعداد والمعدات: كانت للأتراك ثلاثة جيوش تقاوم البريطانيين والعرب على جانبي الأردن، فضلاً عن الحاميات المتركزة في معان وتعرف بالفيلق الثاني، وكان البريطانيون إلى الغرب من الأردن يقفون مواجهين لمجموعتين منفصلتين وهما الجيش السابع والثامن، وقائد الأول مصطفى كمال باشا، وقائد الثاني جواد باشا. أما في شرق النهر فكان العرب يواجهون الجيش الرابع ومقرّه عمان. ولدى الجيشين الأولين المواجهين للبريطانيين ١٧٠٠٠ بندقية، أما الجيش المواجه للعرب ـ في المنطقة التي تقع إلى الشرق من النهر ـ فيضم ١٤٠٠٠ جندي. وهذه الأرقام تشمل الفيلق التركي الثاني المتمركز في معان لكنها لا تشمل ١٢٠٠٠ جندي حصرهم العرب في المدينة وعلى السكة بينها وبين المدوّرة.

فيصل وحمايته ميمنة الانكليز

إذن فمن الهام أن نتذكر حين نريد أن نقدر القيمة العسكرية للحملة العربية أن فيصلاً حين احتل المنطقة الواقعة إلى الشرق من معان كان يحمي ميمنة الجيش البريطاني بفلسطين، كما يحمي خطّاً طويلاً من مواصلات ذلك الجيش ضد هجمات الأتراك في جوار الخليل وبئر السبع. وأن علياً وعبد الله كانا يحصران ويعطلان قوة كبيرة للعدو، كانت كما قال المؤرخ الرسمي الإنكليزي: «ذات أهمية بالغة للقيادة التركية ـ الألمانية في اللحظة التي وقع فيها اللنبي في حيرة وارتباك أو عند الهجوم النهائي». لقد كانت ثمة كتائب تركية تحارب العرب في منطقة عمان والحجاز أكثر من الكتائب التي كانت تقاوم الإنكليز بفلسطين.

* * *

خطة اللنبي وقواته

وباقتراب الصيف كانت خطط اللنبي تتكامل من أجل القيام بهجوم نهائي.

كان هنالك ـ كما قدمنا ـ جيشان تركيان، الثامن والسابع، أمام اللنبي وجيش ثالث هو الرابع في مواجهة العرب. ووراء هذه الجيوش الثلاثة جيش تركي رابع يسمى «الجيش الثاني» يحمي شمال سوريا بين حلب ودمشق. وكانت قوات اللنبي تتألف من ٨ فرق من المشاة و ٤ من الخيالة، من بينها لواء فرنسي ومفرزة ايطالية صغيرة، وقد رتبت في

مجموعتين: الفيلق العشرين والفيلق الحادي والعشرين، وفيلق من الخيالة. وهذا جعله يتفوق على أعدائه بنسبة ٢ : ١ - أو أكثر - من حيث القوة المقاتلة.

وكان من خطة اللنبي أن يقطع مواصلات الأتراك بين دمشق والجنوب قبل أن يشن هجومه؛ ومن أجل تحقيق ذلك الهدف لجأ إلى العرب..

درعا

كانت درعا هي النقطة الحيوية في مواصلاتهم لأنها محطة على السكة الحجازية، وعندها يتفرع من الخط الرئيسي خط فرعي يتجه إلى حيفا. فإذا عُزلت درعا استحال على الأتراك أن يسرعوا بإرسال الامدادات بالقطار إلى فلسطين، وأُقفلت دونهم أقصر الطرق للتراجع. وقد يكون تهديد الخط عند درعا سبباً يحمل القائد الألماني للجبهة على إرسال بعض احتياطيّه من منطقة الناصرة كي يحمي نقطة الاتصال «درعا» وبذلك تضعف المقاومة التي قد يقذف بها في وجه الجيش البريطاني.

التمهيد للحملة

لما أفضى اللنبي بسر الخطة إلى حليفه فيصل استثار لديه حمية ونشاطاً. وكانت قواته عندئذ قد احرزت تحسناً ملموساً في التدريب والإعداد، وقارب جيشه النظامي ٨٠٠٠ جندي. كذلك كان جيش فيصل قد زاد أيضاً بتلك الأعداد الضخمة التي قدمتها القبائل. فقد حشد نوري الشعلان، شيخ مشايخ «الرولى»، اتباعه استعداداً للهجوم النهائي. وتعهد شيوخ حوران وجبل الدروز سراً بأن يثيروا فتنة في الأرياف تتفق وزمان شن الهجوم. وكان نمو قوات فيصل مصحوباً بمظهر آخر مثله في الأهمية، وذلك هو التغيير في تكوين تلك القوات، فقد خلت الآن من بدو الحجاز، وأصبحت من سكان سوريا وفلسطين الذين سيحررون بيوتهم نفسها.

القاعدة.. الأزرق

وفي أوائل أيلول (سبتمبر) نقل فيصل قاعدته إلى الأزرق، على خمسين ميلاً إلى الشرق من عمان. وشن أول هجوم في ١٦ منه، أي بعد ثلاثة أيام من بدء الهجوم البريطاني، فقطع الخط بين درعا وعمان - طبقاً لخطة اللنبي. وفي ١٧ منه خرّبت جماعات أخرى من العرب ذلك

الخط الحديدي في نقاط تقع إلى الشمال والغرب من درعا، وكانت على وشك أن تقتحم المدينة نفسها حين وصلت امدادات ألمانية قوية جعلت تلك الجماعة تتوقف. واستمر العرب في تظاهرهم بالتهديد رجاء أن يبعدوا عدداً آخر من الكتائب الألمانية من منطقة الناصرة. وفي ١٨ منه قاموا بتخريبات أخرى على الخط، فعُزلت درعا في مساء ذلك اليوم، من كل جانب، عزلاً تاماً.

وفي وقت مبكر من اليوم التالي شن البريطانيون هجومهم على الجبهة الفلسطينية.

الخديعة

ابتدأ اللنبي أعماله الحربية بخدعة أراد بها ايهام الأتراك أنه سيركّز هجومه على الجيش السابع المتمركز في نابلس، وفي الجبهة الشرقية ضد جيشهم الرابع المستقر في عمان. لكن الهجوم الحقيقي كان ضد الجيش الثامن الذي يقف بين الساحل وقواعد تلال السامرة. وكان الهجوم صاعقاً، مما اضطر القائد التركي إلى التراجع في حركة محورية مشوشة تاركاً وراءه السهل الساحلي مكشوفاً.. عندئذ قذف اللنبي بخيالته في تلك الثغرة التي فتحت. وفي أقل من أربع وعشرين ساعة كان لواء من الخيالة قد وصل ضواحي الناصرة. وبعد بضع ساعات احتل لواء آخر «العفولة» على خط حيفا - درعا - دمشق. وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه أي ٢٠ من أيلول (سبتمبر)، دخلت بيسان فرقة أخرى. وهكذا كانت قوات اللنبي عند غروب شمس اليوم التالي تسيطر على الجوانب الثلاثة من المستطيل الذي حُصر في داخله الجيشان التركيان الثامن والسابع جميعاً.

أما القوات العربية التي كانت في منطقة التلال وراء نهر الأردن فإنها بعد أن احاطت بدرعا أخذت تضيّق الخناق على حامية معان. وفي هذا الوقت ثارت القرى العربية بكاملها. وقد استطاعت بضعة طوابير مبعثرة من الجيش السابع أن تتراجع نحو درعا، ولم يبق إلا الجيش الرابع في الأردن، والفيلق الثاني في معان والجيش الثاني في الشمال.. وكل هذه واجهت نفس المصير في الأيام التالية.

إلى دمشق

وقصة الأيام التالية هي قصة بقية الهزيمة التركية واحتلال دمشق ومن بعدها حلب.

أولاً: أخذت الكتائب في عمان ومعان تتراجع، وبدأ ذلك في الثاني والعشرين. وما كاد



اللنبي والكتائب البريطانية تدخل دمشق

يبدأ حتى اجتاز لواء بريطاني من الخيالة نهر الأردن وتقدم إلى عمان واحتلها في ٢٥ أيلول (سبتمبر). وكان على الجيش الرابع أن يتراجع مشياً على الأقدام لأن الخط الحديدي الواصل إلى درعا قد ضُرب، فتركه القائد البريطاني يواجه مصيره المحتوم وبقي في عمان ليكفل تسليم الفيلق التركي الثاني المنسحب من معان، وكان العرب قد احتلوها قبل سقوط عمان بيومين. وفي الشمال كان العرب يُطبقون على درعا فاحتلوها في السابع والعشرين بينما قامت مفارز أخرى يقودها عودة ونوري الشعلان باحتلال أذرع وغزالة، فأخذت ٣٥٠٠ أسير في يومين.

وفي الوقت نفسه شقّت الخيالة البريطانية طريقها عبر الأردن إلى جنوب بحيرة طبريا وشمالها، بينا حمى العرب النظاميون ميمنة أولئك الخيالة وهم يتتبعون أثر الجيش الرابع، كما قامت جماعات القبائل بهجوم شرس على الأتراك المنسحبين، وهي تعدو وتقاتل في تقدمها، وتتسابق لبلوغ دمشق ـ هدف الثورة ـ تسابقاً جنونياً.

وكان أول الواصلين الشريف ناصر ونوري الشعلان على رأس قواتهما. لقد

قطعا سبعين ميلاً في أربع وعشرين ساعة وقاتلا العدو في بعض تلك المسافة، وبلغا ضواحي دمشق مساء ٣٠ أيلول (سبتمبر)، ولكنهما لم يدخلاها.

وفي صباح اليوم التالي ـ أول تشرين الأول (أكتوبر) ـ دخلت المدينة مفرزة من الخيالة البريطانيين يتبعهم عن كثب الشريف ناصر ونوري الشعلان وحاشيتهما. وبعد يومين أتى اللنبي من القدس في سيارته بينما كان فيصل و ١٢٠٠ من أتباعه على ظهور خيولهم العاريات يدخلون المدينة التي كانت عاصمة الامبراطورية العربية فيما مضى من الأيام.

احتلال بقية سوريا

تم احتلال سائر سورية قبل أن ينتهي تشرين الأول (أكتوبر) نتيجة لحركتين حربيتين متميزتين، سارت الحركة الأولى على طول الساحل مارة بصور وصيدا إلى بيروت وطرابلس، وسلكت الثانية الطريق الداخلية من خلال حمص وحماة وحلب. ولم يقم العرب بدور في الأولى وإنما كان لهم نصيب وافر في الثانية.

وبدأ التقدم الساحلي في اليوم الثالث من حيفا وعكا اللتين احتُلتا بعد أن تغلغل اللنبي في البلاد بقليل، فسارت فرقة بريطانية على طول الطريق الساحلي واحتلت



شرذمة بريطانية كانت أول من دخل دمشق
إنها أمام المدخل الشرقي لـ «تكية السلطان سليم»



فيصل يلقى كل ترحيب في دخوله دمشق.
لكنه رضي أن يطرد منها!

صور في اليوم الرابع، وصيدا في السادس، وبيروت في اليوم الثامن. واستمرت مفرزة تغذ السير زاحفة إلى طرابلس واحتلتها بعد خمسة أيام.

حلب ومصطفى كمال

وفي الوقت نفسه كان اللنبي قد أصدر أوامره بهجوم شماليّ من دمشق إلى حلب، وكان هذا الهجوم يبدو أصعب من سابقه، إذ كانت القوات البريطانية تعاني الشعور بإرهاق الحملة القاسية. زد إلى هذا كله أن فئات تركية كانت متمركزة في نقاط مختلفة على طول الطريق. وكان المعتقد أن الأتراك قد جمعوا حشوداً قوية في الشمال لتدافع عن حلب، إلا أن هذه العقبات جميعاً ذُللت. وها هنا أيضاً كان النجاح ثمرة للتعاون بين القوات البريطانية والعربية.

وفيما كانت فرقة بريطانية تتقدم على طول الطريق الرئيسي، كان لواء من النظاميين العرب يحمي ميمنتها. كذلك قام الشريف ناصر على رأس قوة غير نظامية لمهاجمة حمص من الشرق، فوصلها في الخامس عشر، قبل وصول طلائع القوات البريطانية بيوم واحد، ووجد الأتراك قد انسحبوا. . وبعد يومين احتل حماة دون مقاومة أيضاً. إلا أنه واجه مقاومة صلبة في ضواحي حلب، حيث كان القائد مصطفى كمال باشا على رأس فيلق قوي جيد الاعدادات مؤلف من فرقتين. ورُسمت خطة هجوم مشترك تقوم به الخيالة البريطانية والنظاميون العرب في السادس والعشرين. . ولكن، في عصر الخامس والعشرين تغلغلت القوات العربية القبَلية في المدينة، وأمعنت في الحامية بعنف وشدة، فاضطرت قائدها إلى الانسحاب وإلى تنظيم تراجع

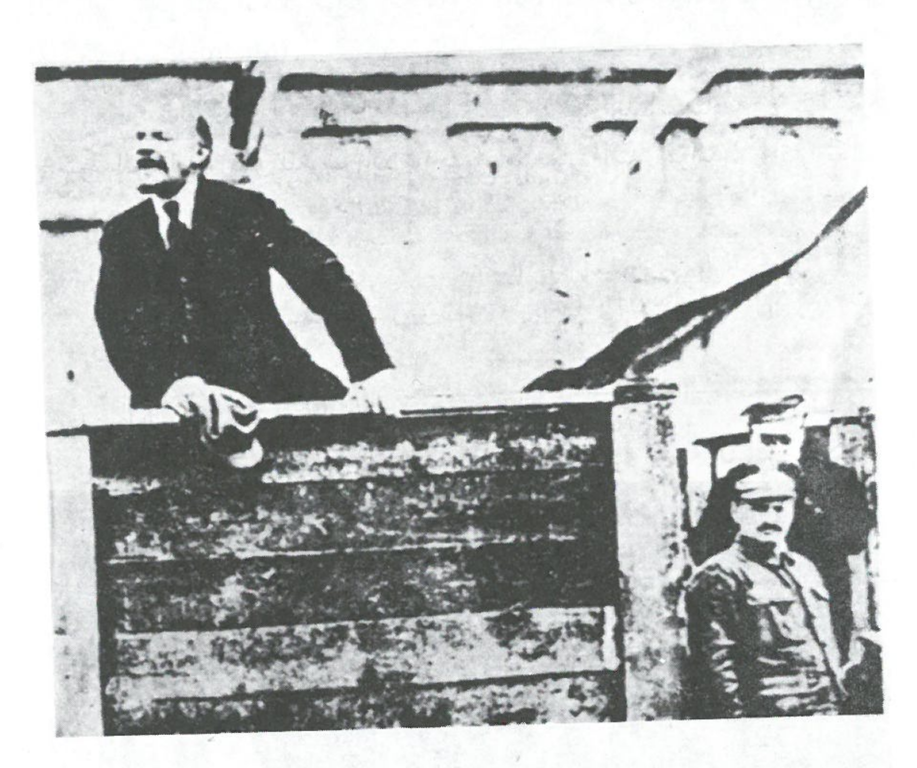
الفرقتين اللتين تحميان حلب في الجنوب. وفي صباح السادس والعشرين سارت الخيالة البريطانية والنظاميون العرب ودخلوا المدينة بينما كان لواء من الخيالة الهندية يصد هجوماً مصمماً عنيداً يقوم به مصطفى كمال باشا على بضعة أميال إلى الشمال من المدينة. وفي التاسع والعشرين احتلت مفرزة من قوات الشريف ناصر محطة السلمية، ملتقى السكك الحديدية التي تتفرع إلى القسطنطينية وسوريا والعراق، وكانت هي آخر مركز تحتله قوات الحلفاء شمالاً، لأن تركية وقّعت في اليوم التالي هدنة مدروس (Mudros).

وهكذا طُرد الاستعمار التركي من الأراضي العربية بعد استعباد ٤٠٠ سنة. وكان من سوء الحظ أنه قدّر للعرب أن يواجهوا استعماراً أشد شراسةً، وأكثر تكالباً.



اللنبي في زيارة إلى مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت

الوثائق السرية



لينين يخطب في الثورة موضحاً أسس سياسة حزبه

لقد ذكرنا أكثر من مرة أن البلاشفة الروس اذاعوا ما وجدوه في وزارة الخارجية لحكومتهم القيصرية سابقاً، من وثائق تفضح النوايا الشريرة لبريطانيا وفرنسا.. وقلنا ان لينين كان صاحب هذا الرأي.. أما الشخص الذي قام بتنفيذه فهو تروتسكي.. فما هي هذه الوثائق؟

إننا سنوردها كما أرّخ لها السفير البولوني السابق في مختلف عواصم الشرق الأوسط، والذي سمح له عمله الدبلوماسي بضبطها، كما أننا انتخبناه لنظرته المحايدة: إنه جورج لنشوفسكي.

اتفاقيات التقسيم السرية

اتفاقية القسطنطينية:

عقدت في ١٨ آذار (مارس) سنة ١٩١٥ اتفاقية سرية بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة أخرى بتبادل المذكرات بين سان بطرسبرج وباريس ولندن. فجرى الاتفاق على أن تضم روسيا إليها «القسطنطينية، وساحل البوسفور الغربي، وبحر مرمرة، ومضايق الدردنيل، وتراقية الجنوبية إلى خط اينوس - ميدية، وساحل آسيا الصغرى بين البوسفور ونهر سقارية ونقطة تقع على خليج أزمير تعين فيما بعد، ثم الجزر الكائنة في بحر مرمرة وجزيرتي امروز وتنيدوس».

وفي مقابل ذلك اعترفت روسيا بعددٍ من المطاليب التي تقدمت بها بريطانيا وفرنسا:

١) ما يختص بتركيا:

أ - جعل القسطنطينية ميناءً حراً للحلفاء وضمان الملاحة التجارية في المضايق.

ب - موافقة روسيا على الاعتراف بحقوق بريطانيا وفرنسا الخاصة في «آسيا التركية» بعقد اتفاقية منفصلة.

ج - اقتطاع البلاد الإسلامية المقدسة من تركيا ووضعها، بعد اضافة بلاد العرب إليها، تحت حكم إسلامي مستقل.

٢) ما يختص بإيران:

أ - وافقت روسيا على إدخال المنطقة المحايدة، المنصوص عليها في اتفاقية سنة ١٩٠٧ الإنكليزية - الروسية، ضمن منطقة النفوذ البريطانية.

ب - على أن هذه الاتفاقية كانت فيها تحفظات ثلاثة: أولها أن المناطق المصاقبة لمدينتي اصفهان ويزد يجب أن تدخل ضمن منطقة النفوذ الروسية، وثانيها أن

جزءاً من الطرف الشرقي للمنطقة المحايدة، الذي يجاور بلاد الأفغان، يجب أن يدخل ضمن المنطقة الروسية، وثالثها أن تكون لروسيا الحرية التامة في العمل ضمن منطقة نفوذها هي نفسها. (وكان التحفظ الأخير هذا يعني من الناحية العملية إلحاق المنطقة المذكورة بها في المدى الطويل).

وقد تعهدت روسيا، علاوةً على الترتيبات الإقليمية هذه، بمساعدة الحلفاء في حالة مهاجمتهم الدردنيل. وحينما أعلنت ايطاليا الحرب أبدت بدورها موافقتها على هذه الاتفاقية الروسية ـ الإنكليزية ـ الفرنسية.

معاهدة لندن

وفي ٢٦ نيسان (أبريل) ١٩١٥ عقدت في لندن معاهدة سرية وقعت عليها بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا. وكانت هذه المعاهدة ثمناً دفعه الحلفاء لايطاليا لقاء انضمامها لمعسكر الحلفاء.

ومن بين الامتيازات الإقليمية التي وعد بها الايطاليون، الامتيازات التالية في الشرق الأوسط:

١ ـ اعطيت ايطاليا سيادة تامة على جزر الدوديكانيز الستراتيجية الواقعة بالقرب من الساحل التركي، والتي كانت تحتلها ايطاليا منذ ١٩١٢ (المادة ٨).

٢ ـ نقلت إلى ايطاليا جميع الحقوق والامتيازات العائدة للسلطان في ليبيا بمقتضى معاهدة لوزان ١٩١٢ (المادة ١٠).

٣ ـ نصت المادة التاسعة، وهي أهم مادة، على ما يأتي:

تعترف فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا بأن ايطاليا لها مصالح في البحر الأبيض المتوسط بوجه عام، وفي حالة تقسيم القسم الآسيوي من تركيا جزئياً أو كلياً لا بد أن تحصل ـ أي ايطاليا ـ على حصة عادلة من منطقة البحر الأبيض المتوسط المتاخمة لولاية «أداليا» حيث كانت ايطاليا قد حصلت من قبل على حقوق ومصالح تكوّن عنها موضوع الميثاق الايطالي ـ البريطاني. وينبغي أن تخطط المنطقة التي ستخصص لايطاليا نهائياً في الوقت المناسب على أن تؤخذ بنظر الاعتبار مصالح فرنسا وبريطانيا العظمى الموجودة حالياً.

كما يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار أيضاً مصالح إيطاليا في حالة الاحتفاظ بوحدة

الامبراطورية التركية، أو عند اجراء تغييرات في مناطق نفوذ الدول.

وإذا ما احتلت فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا أية أراضٍ في القسم الآسيوي من تركيا خلال الحرب، فإن منطقة البحر الأبيض المتوسط المتاخمة لولاية أداليا ضمن الحدود المشار إليها أعلاه يجب أن تحجز لإيطاليا التي يجب أن يكون لها الحق في احتلالها.

وبعد أن تسلحت إيطاليا بهذه الضمانات أعلنت الحرب على تركيا يوم ٢٠ آب ١٩١٥.

اتفاقية سايكس ـ بيكو

عندما ضمنت الحكومتان البريطانية والفرنسية مطاليب روسيا وإيطاليا الرئيسية أقدمتا في سنة ١٩١٥ على اتخاذ ما يلزم من التدابير لوضع مطاليبهما في الأقسام الآسيوية من الامبراطورية العثمانية على أسس متينة. فعُيّن السير مارك سايكس وجورج بيكو لإجراء المفاوضات. ولا بد من الاشارة هنا إلى أن بريطانيا كانت في الوقت نفسه قد دخلت في مفاوضات مع الشريف حسين في الحجاز لتضمن مساعدته في الحرب ضد تركيا. وقد اشترط أن تكون هذه المساعدة متوقفة على اعتراف بريطانيا بأماني العرب القومية. وإذ كانت الحكومة الفرنسية شاعرة باحتمال عقد صفقة عربية ـ بريطانية لا غير، وتواقة إلى الحصول على جزء من الامبراطورية العثمانية لنفسها، ألحت على الاعتراف بمطاليبها. وكان مثل هذا التفاهم قد أشير إلى إمكان حصوله في اتفاقية القسطنطينية. ولما أقدمت بريطانيا وفرنسا على تحديد حقوقهما على هذه الشاكلة رغبتا في استحصال مصادقة روسيا عليها، ومن أجل هذا أرسل سايكس وبيكو إلى سان بطرسبرج في أوائل ربيع ١٩١٦. وهناك عرضا لائحة اتفاقيتهما. وحصلا على مصادقة روسيا القيصرية عليها، ولكن بعد أن كان الثمن، الاعتراف بمطاليب روسيّة أخرى. وقد اتخذت هذه الصفقة فيما بعد شكلاً رسمياً في ٢٦ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٦ باسم «اتفاقية سازونوف ـ باليولوغ». وأصبحت بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من التسوية العامة التي تمت بين روسيا وفرنسا وبريطانيا، والتي يشار إليها عادةً باسم «اتفاقية سايكس ـ بيكو». وقد عقدت اتفاقية سايكس ـ بيكو رسمياً في ١٦ أيار (مايو) ١٩١٦، فكانت تحتوي على الشروط الآتية:

١ ـ أن تحصل روسيا على ولايات ارضروم وطرابزون ووان وبتليس (المعروفة بأرمينيا

التركية)، وعلى منطقة تقع في القسم الشمالي من كردستان على الخط الممتد من موش وزعرت وجزيرة ابن عمر والعمادية إلى الحدود الإيرانية. وكانت هذه المنطقة تبلغ في مساحتها ٦٠,٠٠٠ ميل مربع ممتدة بين البحر الأسود ومنطقة الموصل ـ أورمية، وتحتوي على ثروات غنية بالنحاس والفضة والملح.

٢ ـ أن تحصل فرنسا على القطاع الساحلي المشتمل على سوريا، وولاية أضنة والمنطقة التي يحدها جنوباً الخط الممتد من عينتاب وماردين إلى الحدود الروسية المقبلة، وشمالاً الخط الممتد من ألاداغ والمارّ بقيسرية وآق داغ ويلدز داخ وزارة إلى إجين خربوط (وهي المنطقة المعروفة اعتيادياً باسم كيليكية).

٣ ـ أن تحصل بريطانيا على القسم الجنوبي من بين النهرين مع بغداد، وعلى ميناءي حيفا وعكا في فلسطين.

٤ ـ أن يتألف من المنطقة الكائنة بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية اتحاد لدول عربية صغيرة أو دولة عربية واحدة. وأن تقسم هذه المنطقة من جديد إلى منطقة نفوذ فرنسية وبريطانية. وتتألف المنطقة الفرنسية من داخلية سوريا وولاية الموصل من بلاد ما بين النهرين، أما المنطقة البريطانية فتمتد ما بين فلسطين والحدود الإيرانية.

٥ ـ أن تعلن الإسكندرونة ميناءً حراً.

٦ ـ أن تدوّل فلسطين.

ولما كان الاتفاق قد تم بينهم على التمسك بسرية هذه الاتفاقية كجزء مهم منها، فإن شروطها لم تبلَّغ إلى إيطاليا ولا إلى الشريف حسين.

اتفاقية سان جان دي مورين St. Jean de Maurienne

علمت الحكومة الإيطالية بشروط اتفاقية سايكس ـ بيكو في أوائل سنة ١٩١٧ على الرغم من سرّيتها في الأصل. وعلى أثر ذلك ضغطت إيطاليا على الدول الثلاث الأخرى لتعيّن بالضبط المطاليب الإيطالية في آسيا الصغرى التي أشير إليها إشارة مبهمة بكونها «المنطقة المتاخمة لولاية أداليا» في معاهدة لندن سنة ١٩١٥. وفي ١٧ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٧ اجتمع رؤساء وزارات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا في سان جان دي مورين ووضعوا هناك اتفاقية تخول إيطاليا الحق باقتطاع رقعة واسعة من

البلاد التركية الأصلية الواقعة في الجنوب الغربي من الأناضول (مدينة أزمير وولايتها وسناجق منتشه وأدميا وإيجيلي، والقسم الأعظم من ولاية قونية). وحصلت إيطاليا بالاضافة إلى ذلك على منطقة نفوذ في شمال إزمير.

وكانت اتفاقية سان جان دي مورين آخر وثيقة تم التفاهم بموجبها بين الحلفاء على تقسيم البلاد العثمانية. وكان لا بد أن يؤيدها الروس الذين لم يحضروا المؤتمر. ولكن لم يتم هذا التفاهم مطلقاً بسبب التبدل الثوري الذي طرأ على الحكومة في روسيا.

اتفاقية كليمنصو ـ لويد جورج

احتل البريطانيون منطقة الموصل إثر الحملة الحربية التي شنوها على بلاد ما بين النهرين. ولما كان معظم القتال الذي حصل في الشرق الأوسط قد خاض غماره البريطانيون وحدهم، فقد كانوا يعتقدون بأن شيئاً من التعديل لا بد أن يُدخل على معاهدة سايكس ـ بيكو تعويضاً لما فعلوه. وفي أثناء زيارة كليمنصو للندن في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨، توصل رئيس الوزارة الفرنسية ورئيس الوزارة البريطانية إلى اتفاقٍ وافقت فيه فرنسا على إدخال منطقة الموصل (الداخلة في المنطقة الفرنسية من قبل) في دائرة نفوذ بريطانيا. ووعدت فرنسا لقاء ذلك بحصة من ثروات النفط الموجودة في شمال ما بين النهرين.

وعد بلفور

بعد قبول الوزارة البريطانية النقاط الرئيسية في المسودة التي قدمها الصهاينة أرسل اللورد بلفور في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) [illegible] ١٩١٧ الكتاب التالي إلى اللورد روتشيلد:

عزيزي اللورد روتشيلد:

يسرني جداً أن أنقل لكم بالنيابة [illegible] صاحب الجلالة تصريح العطف الآتي على الأماني اليهودية الصهيو[illegible] على الوزارة فأقرته.

إن حكومة جلالته تنظر بعين [illegible] إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وستبذل أحسن مساعـ[illegible] لتسهيل بلوغ هذه الغاية. وليكن معلوماً بجلاء أنه

لن يعمل شيء من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين، أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخر والمركز السياسي الذي هم فيه.

وسأكون ممتناً إذا عرضتم هذا التصريح على الاتحاد الصهيوني ليطلع عليه.

المخلص: آرثر جيمس بلفور

اتفاقية فيصل - وايزمن(*) المؤرخة في ٣ كانون الثاني - يناير - (؟) ١٩١٩

«إن المصدر الذي اعتمدت عليه هو صورة فوتوغرافية للأصل. لقد ظهرت بضع روايات للاتفاقية في الصحف، إلا أن أيًّا مما وقعتُ عليه منها لا يمكن وصفه بالشمول.

والنص الذي ظهر في مجموعة الوثائق التي نشرها (د. هـ. ميلر) D. H. Miller يطابق في مجموعه الأصل باستثناء خلوّه من التحفظ الذي سطره فيصل على الاتفاقية نفسها.

لقد كُتبت هذه الاتفاقية باللغة الإنكليزية، أما تحفظ فيصل فقد أدرج بالعربية في الفراغ الذي يلي المادة الأخيرة مباشرة. وقد نالت الترجمة التقريبية التي قام بعملها ت. إ. لورنس في ذلك الحين رواجاً وبخاصة في صحيفة التايمز الصادرة في العاشر من حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٦، وفي تقرير لجنة التحقيق الملكية لفلسطين - بوصفها ترجمة موثوقة للأصل، ولكن الحقيقة أن «ترجمة» لورانس هذه ما هي إلا شرح يفتقر إلى الضبط، وهو مضلّل إلى حد ما.

والتأريخ المدرج على الاتفاقية هو الثالث من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩، ولكني تشككت في التأريخ. إذ يبدو محتملاً من الشواهد التي تضمّنها تحفظ فيصل أن الاتفاقية قد وقعت في تاريخ لاحق، لا يقع قبل ٤ كانون الثاني (يناير) على أي حال».

(*) نقلاً عن «جورج انطونيوس» ص ٥٩٢ ط ١٩٦٢ - دار العلم للملايين.
وكان وايزمن يمثل الوكالة اليهودية أو «اللجنة التنفيذية للصهيونية العالمية».

نص اتفاقية فيصل - وايزمن

إن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها، والدكتور حاييم وايزمن ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنها، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي، ويتحققان أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية:

١ - يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص، وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس ويحتفَظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما.

٢ - تحدَّد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدودُ النهائية بين الدولة العربية وفلسطين على يد لجنة يُتفق على تعيينها من قِبل الطرفين المتعاقدين.

٣ - عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧.

٤ - يجب أن تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع، والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتخاذ مثل هذه الاجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب، ويجب أن يساعَدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي.

٥ - يجب أن لا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة في ممارسة الحرية الدينية، ويجب أن يسمح على الدوام أيضاً بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفضيل، ويجب أن لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية.

٦ - إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين.

٧ ـ تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسَل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الامكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها، وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والامكانيات الاقتصادية في البلاد.

٨ـ يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملا بالاتفاق والتفاهم التامّين في جميع الأمور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح.

٩ ـ كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم.

وقع في لندن، انجلترا، في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩١٩.

(ترجمة تحفظات فيصل عن الانكليزية)

يجب أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه:

بشرط أن يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ المرسلة إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى. لكن إذا وقع أقل تعديل أو تحويل (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة) فيجب أن لا أكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ويجب أن لا أكون مسؤولاً بأية طريقة مهما كانت.

فيصل بن حسين
حاييم وايزمن

ملاحظة: أخفت الحكومة البريطانية مذكرة الأمير فيصل المشار إليها..



العلم في خدمة «شر الحرب».. «ضد الغازات في الميدان»

الفصل الخامس

١٩١٨

هرب الشرق من الشر
وانغمس الغرب فيه

مع بداية سنة ١٩١٨ لاح وكأن الحرب قد دارت على محورها، فها هي روسيا في الشرق قد خرجت من الحَلقة، لكن ها هي الولايات المتحدة في الغرب قد دخلتها. إن مبادىء جديدة تكتسح العالم، لقد هرب الشرق من الشر، وانغمس الغرب فيه. لكن هذا لم يكنِ ملحوظاً لدى شعوب الدول المتحاربة. وحتى الجنود في خنادقهم لاحظوا منه قليلاً، فالحياة في الجبهة ظلت رتيبة مملّة فقدت عنصر الحركة منذ زمن طويل. والحياة في الأسواق ظلت خاضعة لنظام الحصص والتوزيع.

أما بريطانيا فكانت منهمكة في إرضاء عمال مصانع الذخيرة، وتطبيق نظام توزيع اللحوم والأغذية المستوردة. وأما فرنسا، فلم تعانِ نقصاً في المواد الغذائية الأساسية وإنما في البنّ ومثيلاته من الكماليات. وأما ألمانيا والنمسا، فقد كفاهما القمح الذي كانتا تحصلان عليه من روسيا كلما احتاجتاه. بل إنهما الآن زادتا حصة الفرد من الخبز واللحم.

والغريب في الأمر مثلاً، أن بريطانيا التي كانت تهددها حرب الغواصات الألمانية في ربيع سنة ١٩١٧ لم تفرض قيوداً على التموين آنذاك، لكنها في شباط (فبراير) سنة ١٩١٨، أي بعد زوال كامل الخطر، شاء الموظفون البيروقراطيون فيها أن يكسبوا رواتبهم لقاء عملٍ ما، ففرضوا نظام توزيع السكر واللحم والزبدة وغير ذلك.

ولربما كان ما دفعهم إلى ذلك الخوفُ من استفحال السوق السوداء، وجشع التجار. ذلك أن التجار في كل مكان هم الذين يكسبون من الحرب. إن الجنود، وهم من الفلاحين والعمال وأبناء أصحاب المهن الصغيرة، يواجهون غول الحرب. والرأسماليون يزيدون ثرواتهم. ويكون هؤلاء الرأسماليون، إما أصحاب مصانع تستفيد من الحرب أو أصحاب أموالٍ يسارعون الآن إلى توظيفها في التجارة.

لن نعيش حتى نهاية الحرب

ومهما كان الحال، فقد ظلت الحرب طوال سنة ١٩١٨ تبدو وكأنه لا نهاية لها.. إنها امتداد طويل للسأم، فإذا تحرك ذلك السأم في ميدانٍ ما، فلفترة قصيرة ثم يعود إلى الخمود.

وحتى في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ سئل اللورد نورثكليف، صاحب مجموعة الصحف المعروفة في بريطانيا، عن المدى الذي يقدّره لاستمرار الحرب، فقال: «لا أظن أحداً منا سيعيش حتى نهاية هذه الحرب!». والمفروض طبعاً، أن يكون الصحافي الكبير أوسع اطّلاعاً من غيره، فكيف يقول الناس العاديون!

ويرى المؤرخون الرسميون للدول المتحاربة أن نصف الحرب قد تمّ الخلاص منه في آذار (مارس) سنة ١٩١٨، لكن على الورق على كل حال. فبعد توقيع الهدنة في الجبهة الشرقية، انغمس الألمان والبلاشفة في مناورات سياسية طويلة قبل انفضاض مؤتمر الصلح بينهما.

ولا مانع من إيراد وجهة نظر الجانبين؟

تروتسكي يداور هوفمان

كان الوفد الروسي يضم بعض «المثقفين» كما سماهم البلاشفة، وبعض الفلاّحين، والجميع برئاسة رجل عسكري، هو تروتسكي. وهو يهدف من المفاوضة إلى إخراج الألمان من الأراضي الروسية أولاً، وتثبيت سيادة البلاشفة على «روسيا الأم» ثانياً. لذلك فهو يصر على «أن رأي الشعب هو الحكَم بيننا»، ولكنه يوجّه إلى الألمانالسؤال «وكيف يمكن أن يقول الشعب رأيَه وأرضُه ما زالت تحتلها جيوشكم؟».

وكان الوفد الألماني برئاسة كولمان، لكنه واقع تحت تأثير هوفمان، القائد العسكري في الجبهة الشرقية. وهو يريد ضمان عدم نقض البلاشفة للهدنة ثم الصلح، وتوسّعَ المانيا إلى الشرق على حساب بولندا، وضمانَ استمرار تدفق القمح الروسي إلى النمسا وألمانيا.

ولما كان من العسير التوفيق بين رغبات الجانبين، فقد فشلت جلسات مؤتمر الصلح. وعند ذلك تغيّرت استراتيجية الجانبين:

أصبح تروتسكي يطمح إلى قيام ثورات «الكادحين» كما سمّاهم، في كل من النمسا وألمانيا.

وأصبح هوفمان يطمح إلى إمكانية انبعاث الرجعية القيصرية والإطاحة بنظام البلاشفة هؤلاء..

لقد صوتوا بأقدامهم!!

وحين عاد تروتسكي إلى لينينغراد للتشاور مع «الرفاق» بصدد فشل المؤتمر، وجد أغلبية اللجنة المركزية للحزب منساقةً مع تأييد استئناف الحرب. لكن لينين عارض في ذلك، وأقنع «الرفاق» أن الجنود الروس لن يحاربوا. وقد سأله أحدهم على أي أساس بنى هذا التقدير، فكان جوابه واقعياً ومضحكاً معاً. لقد قال: «إنهم صوّتوا ضد الحرب». وقال السائل: «لكنه لم يجرِ تصويت البتّة!»، فقال لينين: «بلى، لقد صوّتوا بأقدامهم».

والحق أن هذا التصويت العجيب الشكل، أي الفرار من الجيش، هو الذي أجبر روسيا منذ أول الطريق أن تنسحب من الحرب. فالروس كانوا لا يودون الحرب.

المناورة

حينذاك عاد تروتسكي إلى برست ليتوفسك للتفاوض. لكنه هناك جاء بخدعة غريبة.. لقد رفض شروط الألمان للصلح، كما أنه لم يُبدِ أي استعداد لمعاودة القتال. بهذا كان موقفه «لا صلح - لا حرب». وكان هذا ما أثار الجنرال هوفمان، إذ كان هذا كرجل عسكري، لا يفهم أي إنهاء للحرب إلا بمعاهدة صلح. لكن.. ها هو الآن، لا هو في حرب، ولا صلح. فماذا يفعل؟ لقد أعلن نقض الهدنة، وساق جيوشه باتجاه لينينغراد.

ولما لم تكن هنالك مقاومة، فقد نقل البلاشفة عاصمتهم إلى موسكو. ثم اتصل تروتسكي بالحلفاء مستفسراً عن مدى المساعدة التي يمكنهم تقديمها لروسيا لو قرّرت القتال. وكان موقف الحلفاء هذه المرة مربكاً.

إنهم لا شك يتمنون هزيمة ألمانيا بأي طريق، لكنهم أيضاً حانقون على البلاشفة. وقلّب عسكريو الحلفاء وسياسيوهم الأمر على مختلف وجوهه. وأخيراً قرروا:

موقف الحلفاء

«إن البلاشفة، بمبدأهم الجديد الذي يعتمد على صراع الطبقات، ويطلب تحرير المستعمرات في آسيا وأفريقيا وغيرها، لهو أشد خطراً على بريطانيا وفرنسا من روح العسكرية الألمانية. وإذا كان

بالوسع المساومة مع ألمانيا في وقت من الأوقات، سواء، إبّان الحرب أو بعدها، فإن ذلك من العسير مع هؤلاء المناكيد. لكن.. لما كان مما ييسّر لنا الانتصار في الحرب أن نُرهق كلا العدوين، فمن الواجب أن نغتنم هذه الفرصة فلا نسمح بالصلح بينهما. وانطلاقاً من هذا، لن نعرض مساعدة فعّالة على موسكو، لكننا سنشجعها على استئناف القتال».

على أساس هذا التقرير ردّ الحلفاء على تروتسكي قائلين: «الآن تصرّفتم كما ينبغي، وستساعدكم اليابان من الشرق إذا قبلتم».

ضغط لينين

أدرك لينين أن بريطانيا وفرنسا تتخذان المساعدة الظاهرية سبيلاً لإضعاف نظامه الجديد، تمهيداً لدفنه بعد نهاية الحرب. ولذلك رفض تلك المساعدة، ودفع مفاوضيه إلى برست ليتوفسك للمرة الأخيرة. وهناك أمرهم بتوقيع شروط الصلح في ٣ آذار (مارس) مهما كانت، ودون قراءتها. وقد قال بعد ذاك: «الآن انتهينا من حرب خارجية، لنلتفت إلى حرب داخلية نعلنها على الحياة الطبقية وأوضاع القرون الوسطى.. الآن يبدأ التصنيع».

فما هي شروط الصلح؟

طبيعي أن تكون مجحفة، فقد سَلخت عن روسيا جميع ما استحوذ عليه القياصرة من الأراضي غير الروسية، مثل بولندا، وجمهوريات البلطيق. وحتى أوكرانيا، وهي أرض روسية محضة، غدت مستقلة اسمياً، لكنها خاضعة للنفوذ الألماني بالفعل.

ثم عقب ذلك صلح ألماني مع رومانيا لم يكن أقل إجحافاً.

الموقف في الغرب

حين نتساءل عن الموقف في الجبهة الغربية، يتوجب علينا أن نستطلع رأي لندورف عن ذلك. فما هو رأيه؟

منذ ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ كان لندورف قد قرر «ضرورة إحراز نصر حاسم سريع، في الغرب في السنة القادمة». وقد انطلق في ذلك من تقديره ما يلي:

«إن الحصار الذي تفرضه بريطانيا على ألمانيا آخذ في الاشتداد. والجيش الفرنسي يقوم الآن باستعادة قواه، ولربما توافر عدد القوات الأمريكية التي ستعمل في فرنسا في السنة القادمة، وهي قوات جديدة لم تشترك في الحرب بعدُ، كما أن المجهود الحربي الأمريكي سيسندها على كل حال.

وها هي حليفات ألمانيا تتفلت من قبضتها، أما الساسة الألمان ومعظم الشعب، فإنه يرضى بإنهاء الحرب عن طريق صلح غير حاسم. لهذا فإن عام ١٩١٨ هو الفرصة الأخيرة لإقصاء فرنسا من الحرب بعد دحرها. فإذا تم ذلك، أمكن التفاوض مع بريطانيا من موقف المنتصر، أو سحقها هي أيضاً إن ركبت رأسها».

ما هي خطة لندورف؟

كانت قوات الألمان والحلفاء متعادلة تقريباً حتى بعد أن جلب الألمان ٥٢ فرقة سحبوها من جبهة روسيا. وكانت أسلحة الطرفين من طراز واحد تقريباً. إذن فعامل التكتيك هو الذي يمكن الاستفادة منه. وهو فعلاً ما استخدمه لندورف. لقد أراد أن يعود بالحرب إلى «حرب حركة». ويتم له ذلك بالطريقة الآتية:

عليه أن يبقي خط الجبهة المخندِقة غير كثيف الرجال، وأن يجمّع غزارة قواته في نقطة الهجوم وحدها، ثم يباغت، دون تمهيد بالقصف المدفعي، ويتحرك على شكل حركة التفاف. إن الكماشة السريعة وذات القوة الضاربة الصاعقة هي التكتيك الموفّق. وأين يتركّز الهجوم؟

في ايبر. هذه نقطة تتصل فيها القوات البريطانية بحليفتها الفرنسية. وبعد اكتساحها، قدّر لندورف أن تنشطر القوات الألمانية إلى شطرين، واحد يتجه إلى الشمال مستهدفاً موانىء بحر المانش والثاني يتوغل في قلب فرنسا نحو باريس.

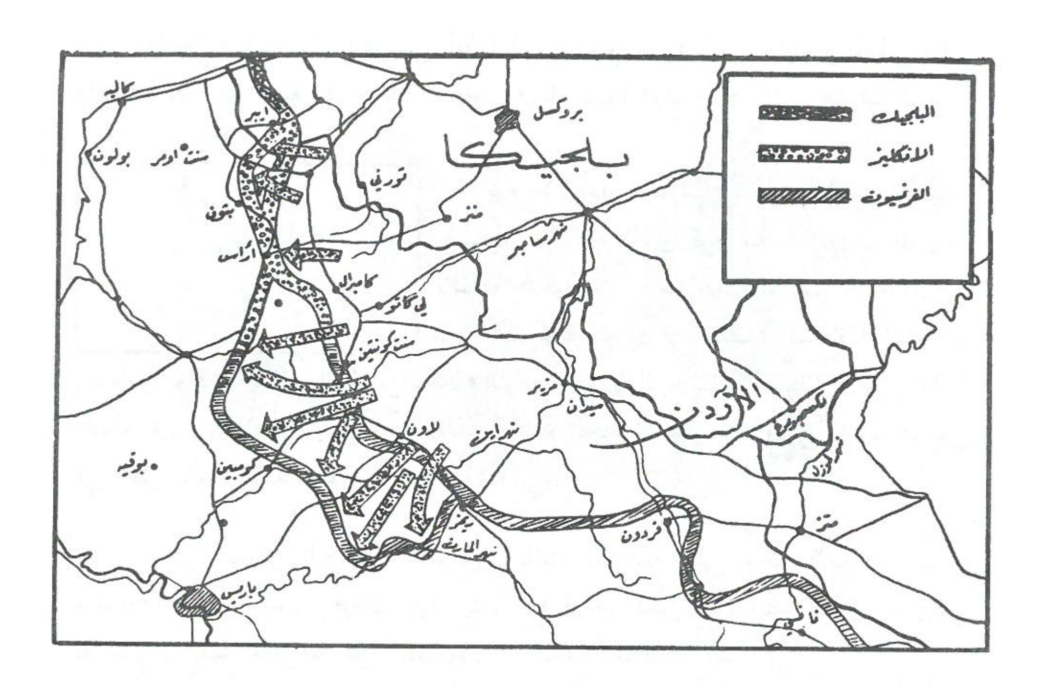
ومن شأن الاستيلاء على موانىء المانش، أن:

١ ـ يقطع اتصال الجيوش الانكليزية بمصادر تموينها.
٢ ـ يطوّق جناحها الأيسر كاملاً من الشمال.
٣ ـ يضطرها إلى عدم التعاون مع الجيوش الفرنسية في الوسط.

وكذلك من شأن التوغل صوب باريس أن يحطم معنوية الفرنسيين فتستسلم جيوشهم.



لدندورف يرى ضرورة القيام بضربة حاسمة في سنة ١٩١٨، ويرسم خطة لها



تنفيذ خطة لدندورف الهجومية سنة ١٩١٨

ما رأي قيادات الحلفاء؟

كان الجنرالات يقدّرون أن هجوماً ألمانياً سيتم سنة ١٩١٨، وقد توصّلت استخباراتهم إلى تحديد ميعاده تقريباً.

وكان هذا يقتضي تعاوناً أكيداً بين هايغ وبيتان. لكن حين اقترح بيتان ضرورة قيام الانكليز بأخذ مسافة أطول من خط الجبهة، عارض هايغ ذلك، زاعماً أنه في حاجة إلى كل رجل من قواته. وعند ذاك دبّ الخلاف بين القيادتين فطُلب عقد جلسة لـ«مجلس الحرب الأعلى»، الذي قرر أن يتولى الجنرال فوش تنسيق العمليات بين الجيشين، كما جعَل تحت تصرفه المطلق ٣٠ فرقة.

لكن هايغ استنكر القرار. وكذلك روبرتسون. وحينذاك ساندهما الملك جورج، غير أن لويد جورج هدّد الملك بتقديم استقالته، فرضخ الملك وانسحب متخاذلاً عن تأييده للجنرالات. أما روبرتسون فقد ترك منصبه، وأما هايغ فعاد إلى فرنسا مغلوباً على أمره. وهكذا انتصر لويد جورج ووزارة حربه.

والحق، أن بيتان الفرنسي أيضاً لم يستسغ وجود فوش كرئيس أعلى منه. ولذلك اتفق مع هايغ أن يتبادلا التعاون فيما بينهما دون حاجة إلى اشراف فوش.

الهجوم

كان يوم ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩١٨ الكثيف الضباب هو اليوم الذي قرر فيه لدندورف أن يبدأ الألمان هجومهم، فاستفادت قواتهم الزاحفة من عامل الضباب كثيراً. إذ استطاع المشاة الألمان أن يتخطوا مواقع فصائل «الماشين ـ غان» البريطانية دون انتباه تلك الفصائل. حتى إذا ما أعملوا فيها السلاح الأبيض من الخلف تزعزع الخط الانكليزي، وولّى جنوده هاربين في غير نظام. لقد انتصر التقدّم الألماني.

وحين تهاوى الخط الانكليزي، بانت الهزيمة على وجه هايغ.. فصاح مستنجداً بزميله بيتان. فبعث إليه بيتان ١٣ فرقة، لكن هذه أيضاً محقها الجيش الألماني. إنها عجزت عن الصمود.. وهكذا أسقطت إيبر.

وفي ٢٦ آذار (مارس) عقد «مجلس الحرب الأعلى» للحلفاء اجتماعاً، وكان فيه بيتان وهايغ وكليمنصو ولويد جورج. ووقتذاك أشار بيتان إلى هايغ وقال لـ كليمنصو: «ها هو جنرال سيستسلم في الميدان بعد قليل، ثم أتبعه أنا».

ومعنى ذلك أنه ما بين ٢١ إلى ٢٨ آذار (مارس)، كانت كفة الحرب بكاملها إلى جانب الألمان. كانت بريطانيا توشك أن ينهدّ مجدها إلى الأبد، وتتحرر مستعمراتها. ومثلها كانت فرنسا..

خطأ قد وقع..

في ٢٨ آذار (مارس) سكر لدندورف بالنصر، فعدل عن تبنّي تكتيك «حرب الحركة»، ولهذا نجده يصدر أمره باحتلال آراس، ثم أميان. وكانت حامية آراس بريطانية كثيفة القوة، فصمدت وأعاقت تقدم المهاجمين. ثم جاءتها إمدادات غزيرة من هايغ المتقهقر إلى موانىء الشمال، فتحقق الألمان من وفرة الامدادات أن البريطانيين لا يزالون قادرين على الاستمرار في الحرب.

وهكذا توقف الهجوم في ٥ نيسان (أبريل). لكن إعادة كرّة الألمان كانت محتملة



من فصيلة ماشين غان، جنود بريطانيون حملوا رفيقهم الجريح أولاً، لكنهم تركوه يموت! حين دهمهم المشاة الألمان

الوقوع. غير أن الألمان غيّروا وجهتهم الآن. ففي ٩ نيسان (أبريل) هاجموا هيزبروك Hazebrouck في الفلاندرز. وبدلاً من قذف ٣٥ فرقة إلى الجبهة قذفوا ٩ فرق فقط.

ومن سوء حظ الحلفاء أن فرقة برتغالية واحدة كانت في ذلك الموقع. فحطمها الألمان، واستطاعوا فتح ثغرة عرضها ٣٠ ميلاً وعمقها ٥ أميال في تلك الجبهة.

وقد قذف لدندورف معظم احتياطيّه في هذه الجبهة، فغدا موقف هايغ خطيراً. لهذا نراه مرغماً الآن حين أخلى «باشنديلي» أي موقع «معركة الوحل» التي كلفته غالياً في عام ١٩١٧. إنه يخشى التطويق، ولذلك يسارع لحماية موانىء الشمال. وفي ١٢ نيسان (أبريل) أصدر أمره المشهور:

«بظهورنا إلى الحائط، وإيماناً منا بعدالة قضيتنا سنقاتل حتى النهاية». وكان لهذا الأمر وقعٌ مذهل في بريطانيا. إن معناه أن الجزيرة البريطانية سريعاً ما تغدو في دوامة الخطر!!

حركات دراماتيكية

الآن كان على لويد جورج أن يتحرك.. وفي عنف دراماتيكي اندفع إلى القيادة العامة فأصدر أمره: «يُنقل كل رجل عسكري في بريطانيا إلى الجبهة»، ثم هرع إلى وزارة الخارجية، ومنها اتصل بالرئيس

ولسون مستنجداً، راجياً أن تكون القوات الأمريكية خاضعة لقيادة فوش. وكان الجنرال بيرشنغ، قائد تلك القوات يصرّ على ابقائها مستقلّة في العمليات الحربية، من قبل، فجاءه أمر الرئيس ولسون بأن يكون احتياطياً للبريطانيين والفرنسيين عند الحاجة.

ولم يكتف لويد جورج بذلك، بل انطلق إلّى مبنى الادميرالية فأصدر أمره هناك أيضاً: «تزاد النقليات عبر قنال المانش إلى ثلاثة أضعافها».

وحقّ ما قاله بعض النقاد الفرنسيين «لقد وصلت السكين الألمانية إلى عنق البريطانيين، وها هو رئيس وزرائهم يعتريه الجنون.. ليتها تقطعها».

وفي ٢٩ نيسان (أبريل) توقف الهجوم الألماني، لا بفضل صمود البريطانيين، وإنما لأن لدندورف قرر أن يجرب تطبيق خطته ضد الفرنسيين.



الجنرال بيرشنغ
«التسليم بدون شرط» هذا مذهبه

التحضير ضد الفرنسيين

أثناء ما كان هايغ وجنوده يصْلون جحيم النار الألمانية طوال شهر كامل، ظل فوش يقول: «هذه عملية فرعية، أما الحملة الكبرى، فلم يكشف عنها النقاب بعدُ». وبعد شهر تقريباً من الاستعدادات المركّزة قام الألمان بهجومهم.. كانت القوات المتقدمة قد بدأت حملتها الأولى بروح عالية، أما بعد اصطدامها بالانكليز، وإصابتها بخسائر كبيرة - وإن كانت قد ألحقت بعدوها خسائر أكبر بكثير - فقد غدت منهوكةً تفضل الراحة قليلاً. لكن لدندورف عنيد مصرّ على اكتساح الفرنسيين.

وهنا يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء قليلاً، فنقول:

لقد خسر جوفر الحرب لأنه كان يؤمن بالهجوم، حتى رغم الفشل. وهكذا فعل هايغ. وكسب فولكنهاين حربه لأنه كان يهاجم ويدافع. والآن جاء دور لدندورف. إنه يهاجم، لكنه يربح. غير أن هذا الربح المؤقت لن ينفعه. لقد أفلست نظرية الهجوم.. وهي هي التي ستحطمْ لدندورف الآن.

حرب الدعاية

في هذه الأثناء استعرت حرب الدعاية على أشدّها وانصبّت منشورات التحريض مغريةً الجنود الألمان بالفرار، مصوّرةً لهم لذة الحياة في غير الخنادق. لكن هذا لم يُجدِ فتيلاً. وحينذاك وجدت دعاية الحلفاء من الأفضل لها أن تجعل امبراطورية النمسا هي الهدف. فالقوميات المتنافرة هناك أقرب إلى احتمال القيام بالثورة من فرار الجنود الألمان.

وهنا قدم التشيك الطُّعم فقد طلب هؤلاء من الحلفاء أن يعترفوا بهم كدولة مستقلة وشريكةٍ في الحرب إلى جانب الحلفاء. وكان الكثير من هؤلاء ممن سبق أن سقطوا أسرى في أيدي الجيوش الروسية، قد تم جمعُهم كي يصار إلى بعثهم إلى بلادهم، بواسطة سكة حديد سيبيريا، إلى فلادفستك، من حيث يُشحنون إلى أمريكا، ليعودوا بعد ذلك إلى النمسا. وكان الهنغاريون الأسرى رفاقاً لهم في هذه العملية.

أما البلاشفة، فقد اعتبروا الأسرى التشيكيين عملاء مخربين لصالح الحلفاء وضد روسيا. ولذلك أمروهم بأن ينحلّوا.

وفي ١٤ أيار (مايو) اختصم التشيكيون والهنغاريون الأسرى، وجميعهم في محطات سكة الحديد. واستطاع التشيكيون أن يتغلبوا على خصومهم، بل إنهم سيطروا على الخط الحديدي نفسه من «سماره» إلى «ايـركوتسك». وكان هذا مما يهدد البلاشفة الروس، كما أنه لصالح الحلفاء في إثارة «حرب تدخّل» ضد البلاشفة. لهذا نجد بريطانيا وفرنسا تقنعان الولايات المتحدة بأن حرب التدخل ضد روسيا ليست حرباً صليبية ضد المبادىء الاشتراكية، وإنما هي لإنقاذ «الأبطال التشيكيين».

إذن، لقد باشر الحلفاء حرباً ثانية قبل أن يفرغوا من حربهم الأولى.

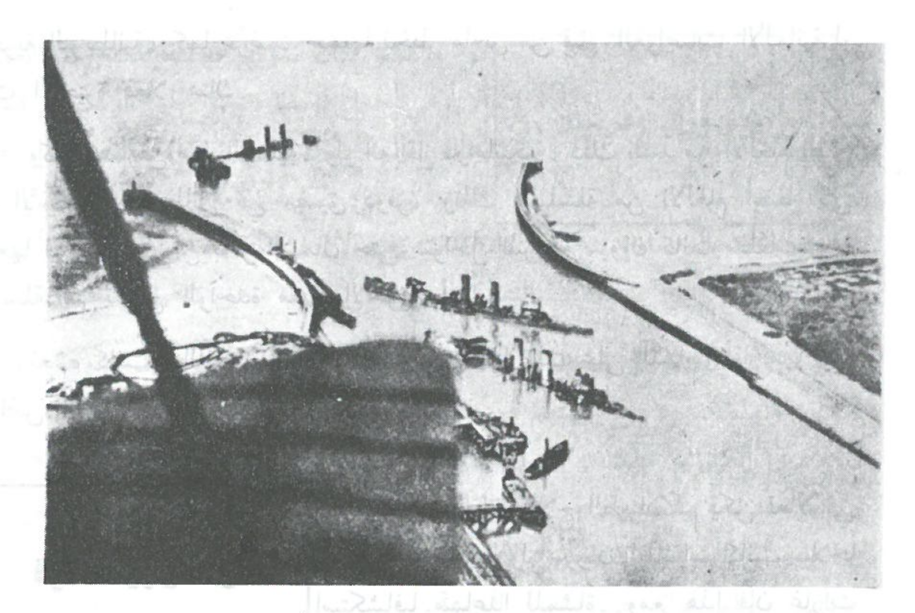


بريد حمام الزاجل في الحرب وقد استعمله التشيكيون

حال الامبراطورية

وفي أحداث التشيكيين هؤلاء كانت علامة نهاية امبراطورية آل هابسبورغ في النمسا. فقد اعترف الحلفاء باستقلال «تشيكوسلوفاكيا»، وعجز الامبراطور شارلز عن تحدّيهم في ذلك.

وكانت الأمبراطورية الآن غارقة في لجّة من الفوضى. فالجنود العائدون من الأسر في روسيا يجوبون البلاد ويقومون بمختلف الفظائع ولا يجدون من يوقفهم عند حدهم. وكانت القطارات تُنهَب وتُشعَل فيها النار أحياناً، والمحاكم المدنية لا تنفّذ أحكامها. وحتى الجيش كان لا يطيع ضباطه وقادته حين يطلبون إليه أن يرفع معنوياته في الحرب.



الحصار البريطاني الذي فشل في سد منافذ مرفأ زيبروج

ونحن نذكر أن الامبراطور شارلز قد حاول الاتصال بالحلفاء لعقد صلح منفرد معهم، ولكن المساعي فشلت في حينها.. وهو الآن ينتظر نصراً تحرزه ألمانيا فينقذ هو امبراطوريته من الدمار.

إذن فهو يريد نصراً ألمانياً ليتسلّح به أمام الحلفاء ويغدر حليفته المنتصرة!!

ضرب زيبروج

أثناء ما كانت خطة لدندورف في ضرب البريطانيين والتحضير لضرب الفرنسيين يجري تطبيقها على قدم وساق، وأملاً في تخفيف الضغط على الجيش البريطاني الذي «يقاتل وظهره إلى الحائط» - أصدرت الأميرالية البريطانية أمرها إلى الأدميرال كيز Keyes بالقيام بعملية بحرية كانت أجرأ ما تم في الحرب العالمية الأولى. لقد طلبت إليه مهاجمة زيبروج وأوستند. وكان هذان الميناءان ملجأ قد تستعمله الغواصات الألمانية، فتضرب السفن المعادية لها في القنال. لكن هذا التقدير كان خاطئاً تماماً. إذ لم يسبق للغواصات الألمانية أن استعملت أياً من المرفأين.

وعلى شكل قافلة، تقدم كيز بسفنه، وحاصر زيبروج فأغرق فيه ٣ سفن. إلا أن ذلك لم يمنع من استعمال المرفأ استعمالاً عادياً للسفن فيما بعد. وبهذا فشل هدف

البحرية البريطانية، كما عرّضت سفنها لخطر ماحق من قِبل الغواصات الألمانية لو كانت الأخيرة فعلاً هناك.

وكان أهم من هذه العملية، ولو أنه أقل دراماتيكيةً، ذلك السدّ من الألغام الذي نثره الأسطول البريطاني في مضيق دوفر، وتلك السلسلة من الألغام أيضاً التي وضعها الأمريكيون من بحر الشمال حتى سواحل النرويج. وإن كانت حلقات هذه السلسلة لم تتصل الواحدة منها بالأخرى أبداً.

نعم، كانت هنالك سفن ألمانية تُغرق، ولكنها ظلت على الدوام، أقل مما تبنيه أحواض ألمانيا عوضاً عنها.

قوة الطيران الان

قلنا في السابق ان سلاح الطيران لم يكن فعّالاً في الحرب العالمية الأولى، وان الطائرات كانت سلاحاً استكشافياً مساعداً للمشاة. ومع هذا فإن غارات جوية كثيرة كانت تقوم بها «الزبلينات» ثم المناطيد وأخيراً الطائرات الألمانية، على بريطانيا. ولم يتوقف هذا النشاط إلا في شهر أيار (مايو) سنة ١٩١٨. وكانت قبل ذلك قد أثارت الفزع والرعب في قلوب أفراد الشعب البريطاني، حتى أن نائباً في مجلس العموم قدم اقتراحاً يطلب فيه «إعدام جميع الملاحين الجويين الذين يُلقى عليهم القبض على الأراضي البريطانية بعد تحطّم مركباتهم الجوية».

ولما خُذل الاقتراح زعم صاحبه أن لدى الألمان لوائح تفصيلية تورد حججاً دامغة، وتضم أسماء ٤٧٠٠٠ شخصية إنكليزية يتعاطون اللواط.

قصف باريس

وإذا كانت فرنسا قد ظلت بعيدة عن القصف الجوي، فقد جاء دورها الآن لتواجه قصفاً من نوع آخر. إنه قصف مدافع بيرتا الضخمة. ففي يوم «الجمعة الحزينة» تهاوت شظايا القنابل على باريس. وكان القصف يتم من مسافة ٧١ ميلاً. وبعد هذا التاريخ ظلت باريس معرضة للقصف، وإن كانت آثاره لم تكن مدمّرة إلى حد بعيد. أما من حيث خسائر الأرواح فقد كانت بالغة. وأهم من هذا، ان الحرب الآن قد دخلها رأي جديد. فقد غدا بعض القادة الألمان يفكرون أن مدينةً ما قد تسقط بعد تخريبها.

لدندورف وفرنسا

كل ما سبق كان تمويهاً لخطة لدندورف الكبرى، ألا وهي جعل فرنسا «تجثو على الركَب»، كما قال بيتان. ولهذا نجد الجيوش الألمانية تتسلل صوب الجنوب في سرية تامة، وبعد تضليل دوائر استخبارات الحلفاء، بنجاح. كان لدندورف الآن يود أن يضرب ضربته، فأين يفعل ذلك؟ في «آين Aisne»، النقطة التي فشل فيها هجوم نيفيل سنة ١٩١٧.

وهنا أيضاً سار الحظ في ركابه. لم يكن الحلفاء يقدّرون أن عدوهم سيضرب هنا. ولهذا فقد تركوا جبهتهم في ذلك الموقع رقيقة لا تستطيع الصمود. كان هنالك ٥ فرق إنكليزية مضناة. قد أنهكها هجوم الألمان في فلاندرز، فأبعدها هايغ إلى «آين» للراحة والاستجمام. وزاد الطين بلة، أن الجنرال الفرنسي الذي يمارس القيادة العامة في الموقع كان محدود الخبرة العسكرية بنظرية الحرب، الجديدة. ولهذا نراه يُبقي معظم قواته في مقدمة الجبهة.

على هذه الحال، جاء الألمان يهاجمون. وفي ٢٧ أيار (مايو) تقدمت ١٤ فرقة ألمانية شديدة فسحقت كل مقاومة، وفتحت ثغرة في الخط، ثم توغلت قُدماً مسافة ١٠ أميال في يوم واحد. وكان هذا أبعد غورٍ تحرك فيه الألمان منذ اكتساحاتهم للعدو في سنة ١٩١٤.

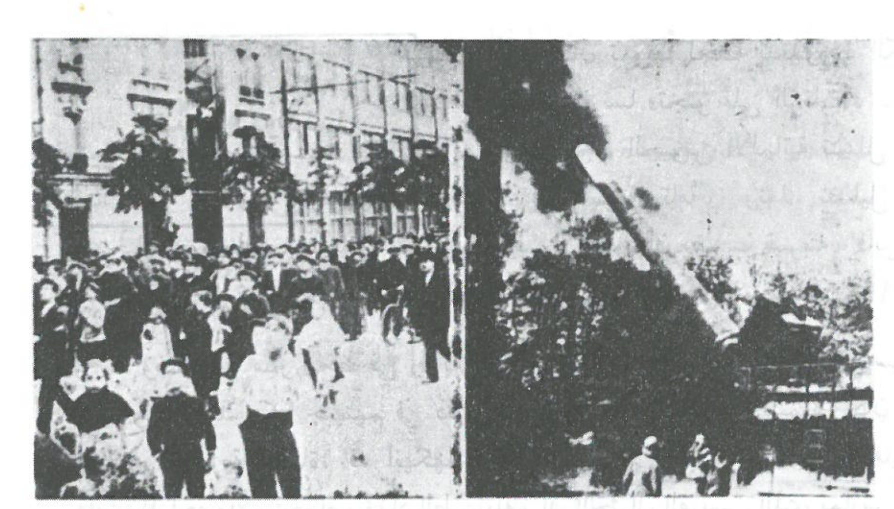
وجُنّ الجنرالات الحلفاء. وأكلت أرض الميدان ألوفاً من أبناء بريطانيا وفرنسا، وعمّ الرعبُ شعبي البلدين. إن الغول يتقدم! ها هو فولكنهاين الساحق يبرز من جديد، لكنه في معطف لدندورف.

وفي ٣ حزيران (يونيو) كان الألمان قد غدوا على ٥٦ ميلاً من باريس.

والآن.. لعب الغرور برأس لدندورف. ألا يرى قواته الظافرة تسحق كل مقاومة! ألا يود اختصار الوقت للاطاحة بفرنسا! إذن، إن عليه أن يقذف المزيد من قواته في الجبهة.. وهذا ما كان ينتظره فوش.

فوش

كان فوش هو القائد الوحيد الذي أحسن تقدير الموقف. إنه لم ينتحب خائراً مثل هايغ، ولم يكن أحمق أهوج مثل نيفيل.. وهذا ما تنم عنه الخطة التي غامر بوجوده كاملاً في سبيل تنفيذها. لقد



باريس تحت نار القصف الألماني
مدفع بيرتا النمساوي يقصف المدينة

رفض مساعدة الجيش الفرنسي المهزوم بينما كان ذلك الجيش يتلقى الضربات الموجعات.. واصطبر. ومع توغل الألمان في الثغرة التي فتحوها، كان فوش يركز قواته على جانبي خط تقدمهم.

في الصحف ظهرت مانشيتات «إننا على أبواب (مارن) جديدة»، وفي لندن قرأ الناس: «تذكروا السير جون فرنش». وحتى في مجلس الأمة الفرنسي استولى على الممثلين الذعر.. أما فوش فقد ظل ثابتاً.

ها هو كليمنصو يدافع عنه بكل ما أوتي من قوة، على الرغم من علمه أن منصب رئاسة الوزراء سيطير من تحته، إذا فشل فوش.

وكان مما زاد في سوء الحال، أن انتشر بين جيوش الحلفاء وباء «الانفلونزا الأسبانية»، فقضى ذلك على عدد لا بأس به من الشعب والجيش على السواء. وقد فسر بعضهم ذلك بأنه لعنة تصبها السماء على الحلفاء. وأشار بعض رجال الدين أن الرب قد سلّط «أتيلا» من جديد. وقالوا: «لقد طغى الناس، وخالفوا وصايا الرب، فحق عليهم العذاب».

ومجمل القول: كانت فرنسا انذاك كفتاة قاصرة، تحط قدميها على عتبة الحياة الواقعية، فهي قليلة الخبرة والدراية، أولاً، ومعدومة النصير، غير الطامع فيها ثانياً. ومع هذا، فقد أوقف فوش الزحف الألماني.

* * *

في هذه اللحظة يمكن القول: «لقد بلغت الحرب ذروتها»، فالموت بوباء الأنفلونزا وبالحِراب يضحك ساخراً من تفاهة البشر. والخوف من الموت، وهو أشد إيلاماً من الموت، يعلّق سيفه فوق كل رأس.

وفي تلك الأيام تذكّر عسكريو الألمان والحلفاء لينين، وأدركوا كيف أنقذ بلاده من الجحيم.

وكانت هذه الذكرى أشد ما تكون بروزاً في نفس لدندورف شخصياً. لقد قرر أن يجعل الحرب شبه مناورات سياسية ويود أن يعرض شروطاً للمفاوضة، فالصلح.. إنه منتصر الآن وفي مُكنة الفزع المسيطر على الحلفاء، أن يقنع ساستهم بالرضوخ جزئياً لمطالب ألمانيا.

بهذا التفكير تحرك كولمان، وزير الخارجية الألماني. وفي ٢٤ حزيران (يونيو) أعلنه. لكن لدندورف، عاودته طبيعة الذئب من جديد..

لهذا نجده يتحرك.. فسرعان ما أقصي كولمان من منصبه. وهكذا ضاعت آخر فرصة لإمكانية إنهاء الحرب عن طريق المفاوضة.

هنا يمكن القول: «إن غزو بلجيكا في مطلع الحرب، كان السراب الذي لاح وكأنه النصر لألمانيا، ثم ما لبث أن ضيّعها في صحراء الهزيمة».

* * *



هذه الجثث حجزت التقدم الألماني عن طريق باريس



اللاجئون الفرنسيون من فظاعة الحرب

في هذا الموقف صار من خطة لدندورف أن:

١ ـ يكسب نصراً حاسماً في فلاندرز.

٢ ـ يضطر الحلفاء إلى سحب جيوشهم نحو الجنوب للدفاع عن باريس.

٣ ـ يسارع إلى إنهاء الحرب، لأن حد اصطبار الشعب الألماني بلغ درجة التهديد بالانفجار. فما هو ردّ الحلفاء؟

كان فوش قد قوّى جناحيه في الجنوب، بأن سحب بعض احتياطيّه من الشمال. وكان هايغ قد استعاد أنفاسه بعد خذلانه السابق، وركّز قواته في الشمال قبالة فلاندرز. إذن، لم يكن الحلفاء ليؤخذوا على غرّة فيما لو هاجمهم الألمان في فلاندرز. فهم يمتلكون عدداً وافراً من الدبابات، وأرضُ فلاندرز صالحة لاستخدام هذا السلاح.

وكان دور وزارة الحرب الامبراطورية في بريطانيا أن تقلق الآن. لقد حرضوا هايغ أن يتجاوز أوامر فوش، وأن يدافع، مع أنهم هم الذين فرضوا فوش، على هايغ. لكنه الآن رفض. لقد استنكر «عدم الانضباط» على الرغم من أنه كان لا يثق في حكمة فوش إلا بمقدار ثقته في سداد رأي الساسة المدنيين!

وحلّ موعد الهجوم الألماني في ١٥ تموز (يوليو) من ذلك العام. وكان هو الحملة الكبرى الأخيرة.



وزارة الحرب الامبراطورية في بريطانيا وقد بدا إلى جانب لويد جورج كلبه

الهجوم الأخير

في ريمز Rheims كان الهجوم الأخير. وفيه أبدى الفرنسيون بعض الحنكة فقد سمحوا للمهاجمين الألمان أن يتقدموا، حتى إذا أصبحوا بين نيران «الماشين ـ غان» الفرنسية من على الجانبين، انصبّت نيرانها الفتاكة على المشاة. وعند ذلك عجز الألمان عن التقدم وغدوا محصورين بين فكّي كماشة، أخذت تضيق عليهم تدريجياً.

كيف حدثت تلك الكماشة؟

كان الجيش الفرنسي قسمين، واحداً إلى الشرق من ريمز، والآخر غربها. وكان الجناح الشرقي ضعيفاً، فانسحب واتخذ مركزه مع الجناح الغربي. وفي نفس الوقت جلب فوش قسماً من احتياطيّه وقذفه في مواقع الجناح الشرقي المنسحب. وتوغل الألمان، فتم حصرُهم.

وفي المواقع الراهنة كان الألمان في أقرب نقطة إلى باريس، وكان كليمنصو يقول: «الآن، والآن فقط، أسمعُ لهاث فوش. إننا على وشك مواجهة كارثة». فحتى صاحب «إنني سأحارب» فقد ثقته الآن بقائده، وجيوشه. أما فوش، فكان يقول:

«الآن بدأت حربي». والواقع فعلاً، ان «حربه» قد بدأت في تلك الأثناء. فها هي خطته يطبّقها الألمان أنفسهم، ولصالحه، وفي الوقت الذي حدده.

الهجوم المعاكس

في ١٨ تموز (يوليو) ١٩١٨ أصدر فوش أمره بالهجوم على الجناح المكشوف للجيش الألماني المتقدم. وتحرّك الفرنسيون بحذرٍ وحيطة أول الأمر، ثم ما لبثوا أن تبنّوا خطة «الهجوم الكثيف والضربة الصاعقة»، فتقدمت أرتال كثيرة من الدبابات بنفس الكيفية التي تمت في موقعة كمبري. ولم يصمد الخط الألماني، لقد انهار وانفتحت فيه ثغرة.

وهنا برزت نقيصة الهجوم بالدبابات، إذ ان المشاة لم يسيروا إلا ٤ أميال ثم واجهوا دفاعاً جديداً من المشاة الألمان. ذلك أن الخط الألماني كان قد أعاد تشكيله

ومهما كان الحال، فبفضل هذا الحدث تعلّم الفرنسيون كيف يفتحون لهم منفذاً في خط العدو، وسرعان ما تعلّم منهم الانكليز ذلك.

* * *

والان، كان الجناح الألماني في ريمز يتقهقر، في نفس الحين الذي كانت فيه فِرقهم لا تزال تتقدم نحو باريس. وكان لدندورف، ثقة منه في النصر، قد حرّك قواته إلى منز في الشمال، وهو ينتظر إصدار أوامره بتطبيق خطة «هاجن» في ٢٠ تموز (يوليو). لكنه بلغتْه نكبة جناحه على المارن، فأصدر أمراً بالتقهقر هناك، ونجا الألمان من فخ فوش.



الجنود الفرنسيون يتحركون بحذر وحيطة في هجومهم العام سنة ١٩١٨

لقد أُلغيت خطة «هاجن»، واستعيض عنها بخطة جديدة مفادها ما يلي:

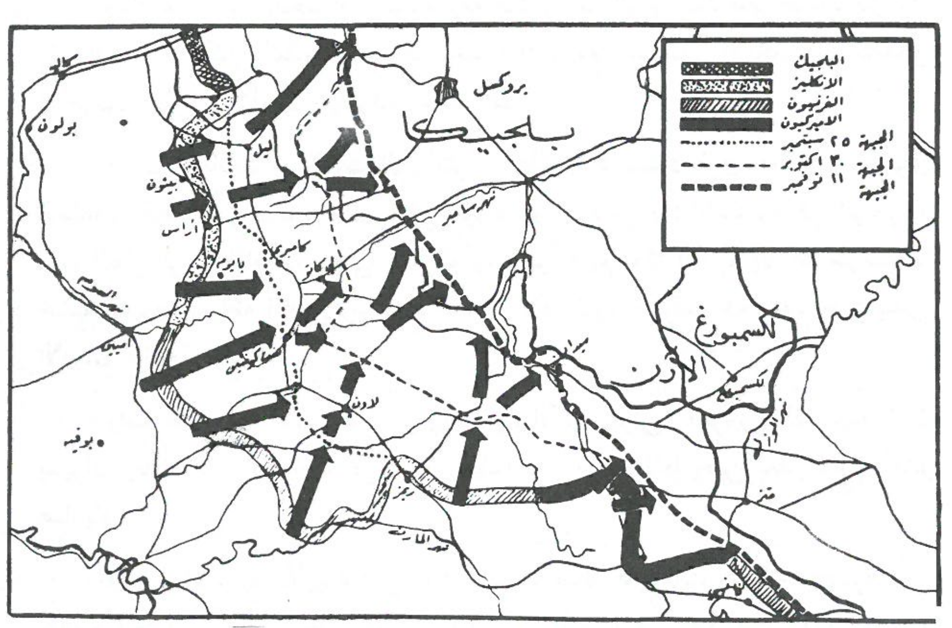
«يظل الألمان يتقهقرون، مع حماية انسحابهم، إلى أن يتمّ انهاك قوات الحلفاء المتقدّمة. وحينذاك يصمُد الألمان، ثم يفاجئون العدو بهجوم معاكس، مركّزٍ وخاطف. بهذا يغدو بوسع الألمان أن يستعيدوا المناطق التي انسحبوا منها، ومن بعد ذلك يستمرون قدُماً في هجومهم».

هذه هي الخطة التي قدّرها لدندورف. لكن.. هل تنجح!

هجوم الحلفاء الموحد

في ٢٤ تموز (يوليو) تقاطر إلى مقر رئاسة فوش، كلٌ من هايغ، وبيتان، وبيرشنغ. وفي الاجتماع سيطرت شخصية كبيرهم فوش. وكان رأيه الآن مغايراً لما عهدوه فيه. لقد أبلغهم خطته في عبارة واحدة، إذ قال: «دقت ساعة الهجوم العام» ثم شرح لهم خطته في ذلك:

١ ـ على البريطانيين أن يقوموا بهجوم مركز في أقصى شمال الجبهة بادئين من إيبر.



الجبهة أيام هجوم الحلفاء الموحد سنة ١٩١٨ وحتى إعلان وقف القتال

٢ ـ وعلى الأمريكيين أن يقوموا بهجوم مركز في أقصى جنوب الجبهة، أي قريباً من فردان.

٣ ـ ويقوم الفرنسيون بجميع جيوشهم بهجوم شامل في الوسط، أي قبالة الثِّقل الألماني.

وكان محدَّداً لخطة فوش أن توضع موضع التنفيذ في منتصف شهر أيلول (سبتمبر). غير أن هايغ وجيوشه لم تكن، أيامَ الاجتماع المذكور، في وضع يسمح لها بمباشرة الهجوم العام حين يأزف موعده. لهذا نجد هايغ يقوم ببعض العمليات الحربية الثانوية محاولاً تحسين موقفه موقّتاً. وأهم عامل في ذلك التحسين، هو تحرير خطوط السكك الحديدية إلى الشرق من أميان Amiens.

لهذا الغرض جرى نقل القوات الكندية بسرّية تامة، أي بنفس الأسلوب الذي يستعمله الألمان في مثل هذه الحال. وكان الاستراليون يساعدون هذه القوات، وتحت إمرة الجنرال السير جون موناش، الذي يمكن القول، انه الجنرال الوحيد ذو العقلية العسكرية الحقة في جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى.

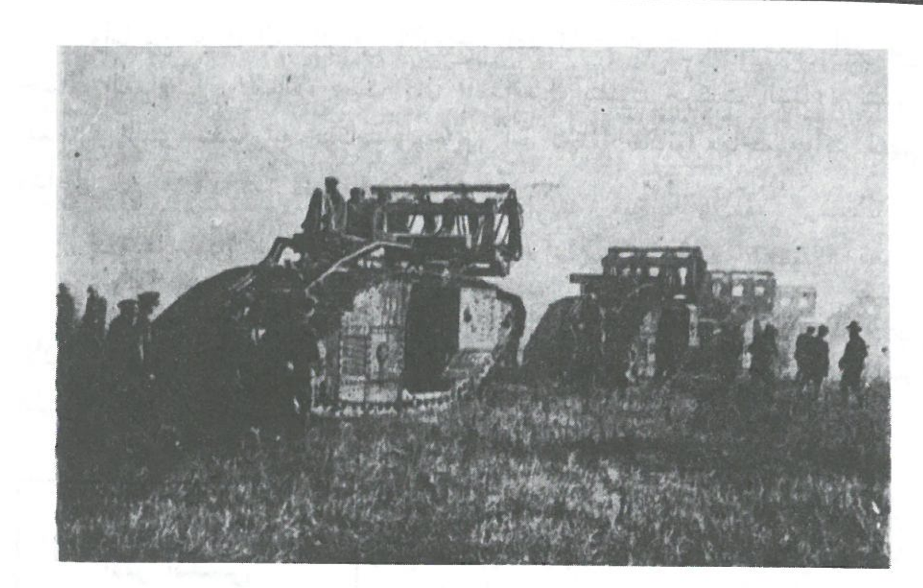
وفي ٨ آب (أغسطس) هاجمت القواتُ البريطانية. وكانت قد استفادت كثيراً من درس موقعة كمبري: فاستعملت ٤٥٦ دبابة الآن.

وكان من حسن الحظ أن واتت طبيعة صباح ذلك اليوم، فقد ظهر ضباب كثيف. وتم النفوذ.. لكن المقاومة اشتدت بعد ذلك. وقد استطاع الانكليز أن يتقدموا ٦ أميال.. لكن الألمان أوقفوهم عند ذاك.

كانت الدبابات قد نفِذت إلى أكثر من ذلك. إذ سبقت فرقَ الخيّالة، أما فرق المشاة، فكانت تعرج متأخرة كثيراً إلى الوراء. وكان فوش يود الاستمرار في الهجوم، دون النظر إلى المقاومة، وعلى هذا الرأي وافق هايغ أول الأمر، إلا أنه سرعان ما خضع لضغط ضباطه الأدنى رتبة، إذ أقنعه هؤلاء بضرورة توقّف هجومهم حين يُبدي الألمان مقاومة عنيدة.

واتبع هايغ هذا الأسلوب.. واتبعه قائده الأعلى فوش، ضرورة. لقد غدوا الآن يسيران وفاقاً لمبدأ: «هاجمْ في مراكز الضعف، ودافع فقط حين يغدو دفاع العدو ضارياً».

وطوال الأسابيع الأربعة التي تلت، كانت هناك هجومات متعاقبة وقصيرة، من جانب الحلفاء. فقد هاجم الجيش الفرنسي الثالث في ١٠ آب (أغسطس)،



الدبابات البريطانية تستعد لاجتياز خط هندنبرغ

والجيش العاشر في ١٧ منه، ثم الجيش الإنكليزي الثالث في ٢١ أيضاً، والجيش الأول في ٢٦ من نفس الشهر كذلك.

وفي آخر هذه السلسلة من الهجومات، شارك الأمريكيون يوم ١٢ أيلول (سبتمبر). وقد تحركوا مستقلين، واستطاعوا اكتساح هضبة سنت مييل St. Mihiel الواقعة إلى الجنوب من فردان، في ٢٤ ساعة فقط.

تقييم يوم ٨ آب

كان لدندورف محقاً حين سئل عن يوم ٨ آب (يوم الهجوم الأول) فقال مقطِّباً جبينه حنقاً: «إنه اليوم الأسود في تاريخ الجيش الألماني».

وهو لم يُصدر هذا الحكم، على أساس أن الجيش الألماني فَقَدَ في ذلك اليوم، منطقةً استراتيجية، أو لحقت به خسائر جسيمة، فالواقع أن شيئاً من ذلك لم يحدث، وإنما على أساس أن الحلفاء قد اهتدوا إلى أسلوب يكشف نقط الضعف في عمليات الألمان.

أما من حيث فقدان المنطقة أو اندحار الألمان، فالواقع أن جميع تلك الهجومات لم تعُد على الحلفاء إلا باسترداد بعض المواقع التي كانوا قد خسروها من قبل. كما أن الألمان انسحبوا الآن إلى مواقع أكثر مناعة وأشد تحصيناً.

وأما من حيث الخسائر في الأرواح، فقد كانت خسائر المهاجمين أكبر من خسائر المدافعين الألمان، حيث كان المدافعون يتقنون حركات الدفاع، بنفس المستوى الذي يتقنون به حركات الهجوم. أما الحلفاء فكانوا مهاجمين أكثر منهم مدافعين.

إذن ما الذي جعل لدندورف يمنح (٨ آب)، كل تلك الأهمية؟

لم يكن ذلك الأسلوبَ الجديدَ وحده. وإنما هو، كما سماه المؤرخ الرسمي الألماني، «الأثر النفسي»، الذي خلقه ذلك اليوم. فقد كان الألمان يرفعون راية النصر على الدوام.. لكنهم الآن يُضطرون إلى التراجع أمام القوة القاهرة.

الأثر النفسي

إن هذا «الأثر» هو الذي «بخّر» إمكانية النصر من رأس لدندورف وكبار ضباطه. لقد تحققوا الآن أن الحرب حسمت نفسَها.. ولم يعودوا ينشدُون النصر وإنما أصبحوا يطلبون «مجرد إنهاء الحرب»، وعن طريق «المفاوضات لا الاستمرار في التحارب». وهذا ما صرح به لدندورف في ١٥ آب (أغسطس).

لكن توقيت البدء في تلك المفاوضات هو الذي سيّر عجلة الحرب بعد الآن.



الألمان يتراجعون عبر «الشيمن دي ريمز» أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨

فقد كان لدندورف يرى أن بمقدور ألمانيا الانتظار حتى عام ١٩١٩. بينما كان فوش في الجانب الآخر يرى أن الشروع في الهجوم الكبير سيكون متأخراً جداً، إذا قيم به في أواسط أيلول (سبتمبر). ولهذا، فمن الخير ألا يتم.. لكن الأحداث سارت غير آبهة بالقائدين. فقد بدأ الهجوم، على كل حال، في ٢٦ أيلول (سبتمبر)، وإن لم يعطِ النتيجة المتوخاة منه.

الأمريكيون يقاتلون

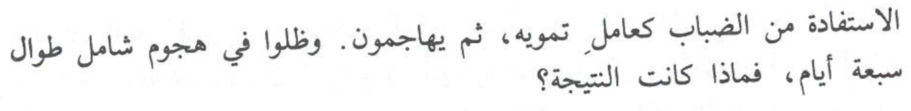
كان من خطة فوش أن يقوم الأمريكيون بالضربة الحاسمة في موقع آرغون Argonne. وكان من المأمول أن يشلّ تقدمهم خطوطَ المواصلات الألمانية. لكن الأمريكيين كانوا حديثي عهد بدموية المحارب الألماني، وتعوزهم الخبرةُ في هذا الباب. ولما كان لكل خبرةٍ ثمن، فقد جاء دور الأمريكيين كي يدفعوا ذلك الثمن.

ها هو الجنرال بيرشنغ يهاجم مراكز الدفاع الألمانية في أقوى نقاطها، وها هي المراكز تثبت له ان «الأمريكيين ليسوا محاربين» كما قال قائد الموقع الألماني.

كان الأمريكيون ينتظرون أيام الضباب حتى تنقضي وتنكشف السماء، بدلاً من



الأمريكيون يأخذون قطاعاً لهم في آرغون
ويشاركون في الهجوم الرئيسي



الاستفادة من الضباب كعاملِ تمويه، ثم يهاجمون. وظلوا في هجوم شامل طوال سبعة أيام، فماذا كانت النتيجة؟

إن ١٠٠ ألف إصابة، معظمها قتلى، هي التي تمخّض عنها جنون بيرشنغ. أما جائزته لقاء ذلك فلم تتعدّ ٨ أميال، كان الألمان مستعدين لإخلائها بطبيعتهم. وقد عمّت الفوضى وانعدم الانضباط العسكري أكثر من مرة في صفوف الأمريكيين، أثناء هجوماتهم.. وبذلك صدق رأي القائد الألماني في مهاجميه.

وإلى الشمال من منطقة هجوم الأمريكيين، كان مخطّطاً أن يقوم الانكليز بحملتهم. وكان حظ هؤلاء أوفر من زملائهم السابقين. لقد تمكنوا من اجتياز «خط هندنبرغ». وهنا في فلاندرز، برزت عقبة الوحل الكثيف مرة ثانية. وكانت الآن أيضاً تعمل لصالح الألمان، إذ أنها جعلت من المتعذر على أعدائهم أن يكشفوا الجناح الألماني.

وبهذا يمكن القول: ان الألمان لم ينكسروا أمام الحملة الحليفة الموحدة، وإنما قصّروا خطوط جبهتهم، وظل جناحا جيوشهم صامدين كل الصمود. أما «قلبُ» تلك الجيوش فقد دحره الفرنسيون فعلاً، غير أن اندحاره كان أبعد ما يكون عن الهزيمة الحاسمة.

* * *

هكذا كان جميع قادة الحلفاء منهمكين في عملياتهم الحربية.. وكانت اللحظة غير المتوقعة تقترب. ففي ٢٩ أيلول (سبتمبر) أصر لدندورف على وجوب إعلان هدنة على الفور. أما السبب الذي يمكن تعليل ذلك به، فهو، ما قدّره لدندورف، خطأً منه، في إمكانية استطاعة الحلفاء أن يفتحوا ثغرة واسعة في جبهته. هذا سبب جزئي. وهناك مثيل آخر له، وهو أن أنباءً قد وصلته من ميدان قصيّ هو سلانيك. لقد تحركت جبهة اليونان الآن.

تطور جديد في سلانيك

في أواخر سنة ١٩١٧ استدعى كليمنصو الجنرالَ سيرايْ ذا النزعة الجمهورية، من مركز قيادته في سلانيك، وبعث مكانه الجنرال جيلومات Guilaumat. إلا أن هذا الأخير كان محظوراً عليه أن يتحرك بقواته إلى الشمال آنذاك. أما في أيار (مايو) سنة ١٩١٨، وحين كان الألمان يتقدمون صوب باريس مهدّدين بإسقاطها، فقد صدرت الأوامر إلى جيلومات أن يحضر



المارشال فرانشيت دي إسبري . أخيراً تقدم من سلانيك

إلى باريس، ليتولى منصب بيتان إذا دعت الحاجة، لكن زحف الألمان على باريس كان قد توقف حين وصلها جيلومات، فوجد الأخير نفسه دون عمل ما. غير أنه تمكن من اقناع كليمنصو ثم لويد جورج بخطته: «علينا أن نحرّك جبهة سلانيك».

وهكذا، صدرت الأوامر إلى المارشال فرانشيت دي إسبري، ـ الذي احتل مركز جيلومات في غيابه ـ بأن يهاجم. فهاجم في ١٥ أيلول.

بلغاريا تنسحب من الحرب

كان الجيش البلغاري هو الذي تلقى ضربة دي ـ إسبري. ولما كان فقيراً من حيث أسلحته وتجهيزاته وتدريبه، فقد عجز عن تحمل قوة اندفاع عدوّه. وما هي إلا بضعة أيام من هجوم شامل، كانت مقاومته ضعيفة جداً، حتى استسلم الجيش البلغاري، وعند ذاك طلبت حكومته إعلان الهدنة، ثم أعقبته بإعلان الانسحاب من الحرب في ٢٩ أيلول (سبتمبر). بهذا غدا جنوب أوروبا بكامله منطقةً مفتوحة أمام دي إسبري. ان بوسعه الآن أن يزحف حتى نهر الدانوب. وبالفعل لقد وصل دي إسبري الدانوبَ، وتخطاه شمالاً في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر).

هذه هي الأخبار التي بلغت لدندورف في ٢٩ أيلول (سبتمبر)، فجعلته يقرر ضرورة وقف الحرب.

ويقول المعلقون العسكريون على خطط الحرب العالمية الأولى ما يلي: «عجزت الجبهة الموحدة للحلفاء في الغرب عن إجبار لدندورف على الركوع لأنها كانت ناشطة وحدها. وكانت الجبهة في الشرق ستكون عاجزة أيضاً، لو نشِطت وحدها. أما وقد نشطت الجبهتان معاً في نفس الوقت، فإن توحيد العمل في الشرق وفي الغرب هو الذي حسم الحرب، لا قوة الحلفاء».

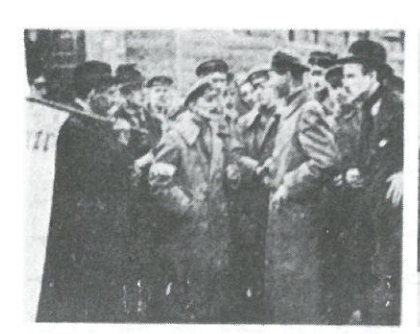
لدندورف والهدنة

حين قرر لدندورف ضرورة الهدنة في ٢٩ أيلول (سبتمبر) لم يكن يتصورها «استسلاماً غير مشروط على الإطلاق، وإنما كان يفهمها على النحو التالي: «تُعلَن الهدنة، وتتمّ المفاوضة، فيتنازل المفاوضون الألمان عن جميع الأراضي التي احتلتها جيوشهم خارج حدود ألمانيا. ومن ثم يتم انسحاب الجيوش الألمانية إلى حدودها الدولية. وبهذا تكون ألمانيا لم تفقد من شرفها أو أرضها شيئاً. وإذا كانت القوة العسكرية قد فشلت هذه المرة في فرض توسّع ألمانيا فقد يكون من حظ الدبلوماسية، فيما بعد، ألا تفشل».

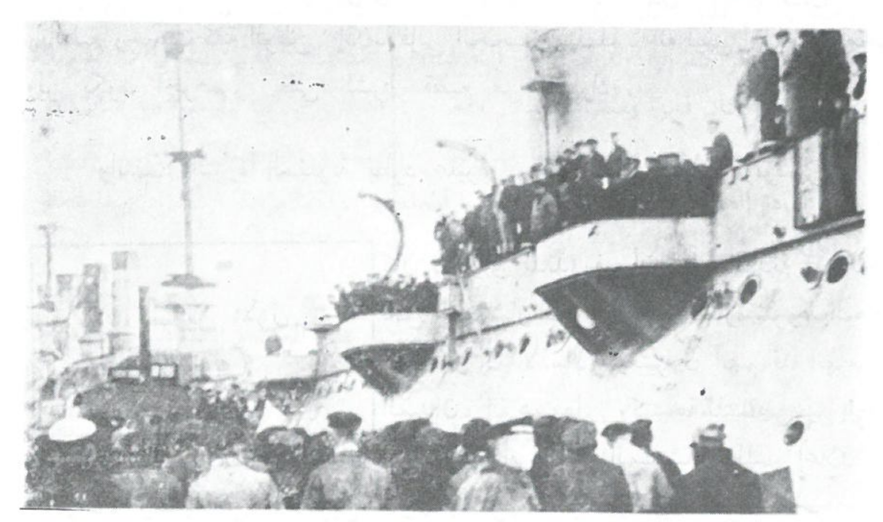
هذا ملخص ما عرضه لدندورف على ساسة بلاده المدنيين. لكن هؤلاء نبّهوا إلى أن الحلفاء سيفرضون شروطاً قاسية في الصلح، وعند ذاك كان جواب لدندورف: «إن لهذا حلاً.. علينا أن نصنع الثورة، وتكون هذه الثورة من الأعلى».



البلغار يستسلمون للفرنسيين، الجنديان المستسلمان في الوسط







كان أولها ثورة مقلوبة، لكنها غدت ثورة حقيقية يوم استولى «الديمقراطيون الاشتراكيون» على الحكم في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨

الثورة المقلوبة

كان من المضحك فعلاً ـ وهذه عقلية العسكريين حين يعالجون القضايا المدنية ـ أن يفيق الشعب الألماني ذات يوم فيعلم أن ثورة قد حدثت في بلاده، دون أن يشترك فيها أكثر من «قلم رصاص». ذلك أن الثورة العجيبة كانت مجرد أمر أصدرته القيادة العامة. فقد شاءت هذه القيادة بإيحاءٍ ورسمٍ من لدندورف أن «تُفبرك الديمقراطية في ألمانيا». أما صنف البضاعة الجديدة من الديمقراطية فهي: تعيين البرنس ماكس، وهو من «بادن»، مستشاراً لألمانيا. وكان هذا الأمير معروفاً بميوله الليبرالية!

أما هدف الثورة، فكان مجرد التمويه على الحلفاء، والقول: إن ألمانيا غدت دولة ديمقراطية، فيمكنكم التفاوض مع رئيس حكومتها. لكن من هو الضحية؟ إنه

غليوم، ذلك القيصر الذي زعم المصفقون لمجده، ان نبوغ ألمانيا العسكري والإداري، قد تجسّدا في شخصه!

ولنقرأ ما نشرته جريدة ألمانية عن ذلك بعد حدوثه بقليل:

«لقد رأت القيادة العامة أن ألمانيا الأم في خطر، وأنه ينبغي الإقدام على أية خطوة قد تدرأ ذلك الخطر. ولما كان الحلفاء قد يقنعون بتبديل نظام الحكم في البلاد، فقد غدا ذلك أمراً مرغوباً فيه. وقارنت القيادة بين القيصر وبين ألمانيا: وبالطبع رجحت كفة الوطن. إذن، فإلى الجحيم بويلهلم. إنه ليس أول ملك مخلوع ولن يكون آخرهم.. ففي الشرق قطيع من الملوك».

وانتهت الثورة المقلوبة بطرد غليوم يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر).

٤ تشرين الأول (اكتوبر)

كان من رأي لدندورف أن تعلَن الهدنة في الحال، لكن المستشار الجديد خشيَ قساوة شروط الحلفاء، كما قدّر أن الألمان سيعتبرون أنهم قد انهزموا في الميدان، إن هو فعل. وكنتيجة للتناقض بين الرأيين، ظهر «مَن السيّد؟». فقد أصدر لدندورف أمره إلى المستشار بطلب إعلان وقف الحرب، رسمياً في ٤ تشرين الأول (أكتوبر). وانصياع «ماكس» للأمر.

وكانت هذه آخر مرة يخضع فيها للضغط.

لم يتصل ماكس بالقائد العام لجيوش الحلفاء، الجنرال فوش، وإنما اتصل مباشرة بالرئيس ولسون. وكانت هذه ضربة بارعة. فالرئيس ولسون لم يكن يطمع أصلاً في «انتصار حاسم غير مشروط»، ومن شأن مبادئه المثالية أن تجعله «عوناً» لألمانيا ضد «شطط الحلفاء».

وفي ٨ تشرين الأول (اكتوبر) أجاب الرئيس ولسون على رسالة ماكس، مستفسراً عما إذا كانت حكومة المستشار تقبل الاعتراف بـ«النقاط الأربع عشرة»، وبسحب جيوشها من أراضي الغير، وتتعهد باتباع نظام ديمقراطي في الحكم.

وقد أجاب ماكس مؤكداً كل ذلك، في ١٢ تشرين الأول (اكتوبر)، لكنه غمز من الانكليز والفرنسيين حين قال: «غير أنه ينبغي التأكد مما إذا كان حلفاء أمريكا يقبلون بدورهم الاعتراف بالنقاط الـ ١٤».

غواصة متمردة

كانت خطة ماكس سائرة إلى النجاح فيما يبدو. فقد استطاع أن يشق صفّ الحلفاء، فيجعل أمريكا تقف إلى جانبه أكثر من وقوفها مع بريطانيا وفرنسا. لكن حدثاً معيناً في نفس اليوم الذي أجاب فيه على استفسارات ولسون، عكر صفاء الصورة، إذ أغرقت غواصة ألمانية سفينة كان فيها ٤٥٠ راكباً، بعضهم من الأمريكيين.

وضخّم الانكليز والفرنسيون الجريمة، وضربوا للأمريكيين على وتر: «هذه هي البربرية التي اضطرتكم إلى الدخول في الحرب». وعند ذاك أجاب ولسون على رسالة ماكس الأخيرة، فكان فاتراً ومتشككاً معاً. لقد ردّ: «يجب إيقاف نشاط الغواصات في الحال. أما الهدنة، وهي متميزة عن مفاوضات الصلح، فإنه ينبغي أن يتمّ تقريرها على يدي القادة العسكريين. كما يلزم ألمانيا أن تجلو موقفها بوضوح أكثر، فيما يتعلق بالديمقراطية فيها».

لدندورف ثانية

احتدم النقاش بين رجال الجناح العسكري والجناح المدني في حكومة ألمانيا الجديدة. فكان لدندورف والقيادة العامة الآن يرون غير «إيقاف الحرب» حلاً للمشكلة.

كان هجوم الحلفاء المركز في الجبهة الفرنسية قد خفّت حدّته.. لقد صمد الألمان. وكأن الجيش الألماني لم يطوَّق ولم تُفتَح في خطوطه الثغرة التي خشي منها لدندورف. وكان ولسون قد ترك «للقادة العسكريين أن «يُملوا» شروط «الهدنة».

إذن، لماذا لا يسحب لدندورف يده من مشروع الهدنة بكاملها؟ هذا ما عرضته القيادة العامة على ماكس وأفهمته:

«بكل يسرٍ يمكن الجيوش الألمانية أن تستمر في القتال.. وفي سنة ١٩١٩ قد يحدث أحد أمرين: انهيار فرنسا، أو نشوب خلاف بين بريطانيا وأمريكا. وفي كلتا الحالتين تكون ألمانيا هي الكاسبة». لكن ماكس رفض هذه الأفكار. وفي ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) أُبلغ ولسون أن ألمانيا تقبل بشروطه للاتفاق على «هدنة حربية». وكان نشاط الغواصات قد أوقف قبل ذلك. وفي ٢٣ منه أعلن ولسون أنه غدا مقتنعاً بالجواب الألماني. وهو الآن يطلب إلى القادة العسكريين أن يرسموا مخطط الهدنة، كما يطلب إلى حكومتي بريطانيا وفرنسا القبول بنقاطه الـ ١٤.



ولسون (في أقصى اليسار) ووزارته تحلم في حكم العالم بالنقاط الـ «١٤» المثالية!!

وهنا ظهر وقوع الحكومتين في ورطة.

كانت فرنسا تخفي مطامعها في منطقة اللورين. وكانت بريطانيا بدورها تخفي مطامعها في الاستيلاء على المستعمرات الألمانية.. فهل تنجح أمريكا في إبقاء هذه المطامع مجرد نوايا مضمرة!؟

حين أُحيل أمر الهدنة وشروطها إلى القادة العسكريين، استطاع فوش أن يهرّب مسألة احتلال فرنسا لمنطقة اللورين من الجدل. كما ألحّ الأدميرالات البريطانيون على تسلّم الأسطول الألماني أو تدميره.

أما الزعماء السياسيون فقد تشاحنوا أيضاً. كان كليمنصو ولويد جورج يريان أن على ألمانيا دفع تعويضات كاملة عن الأضرار التي لحقت بممتلكات المدنيين في الأراضي التي احتلتها جيوشها. وكان ولسون لا يعبأ بذلك، بل يود الفراغ من الحرب وآثارها. وكان لويد جورج يرفض استمرار مبدأ حرية البحار، بينما يحمي ولسون ذلك المبدأ ويدافع عنه. وحتى أورلاندو، رئيس وزراء إيطاليا أخذ يطالب بضم أراضٍ من ممتلكات النمسا. وعند ذاك أُفهم أن الهدنة تتعلق بألمانيا وحدها، فاطبق فمه بغير احترام.

الهدنة والجيش الألماني

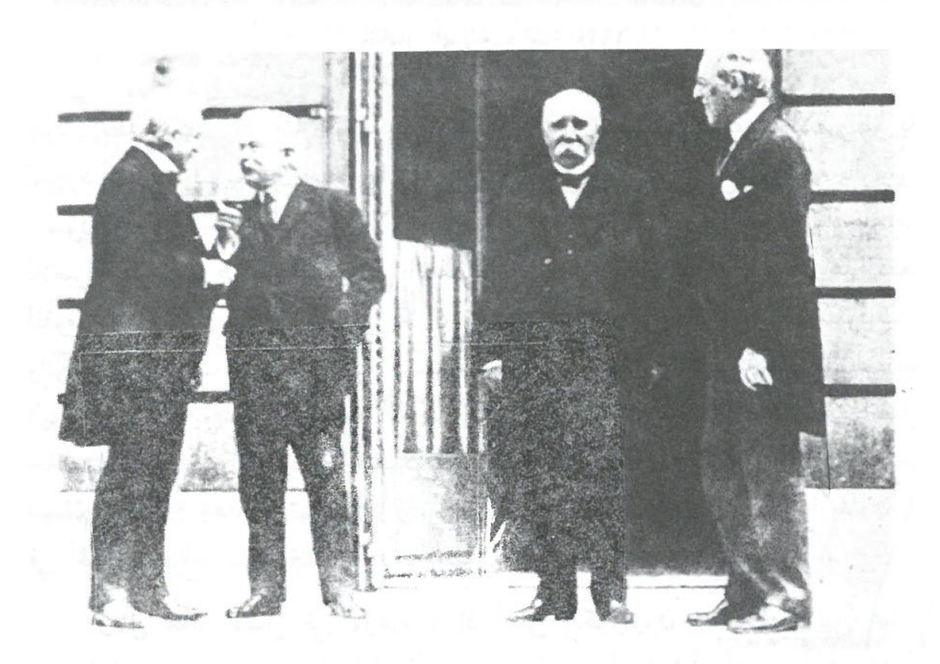
لا العسكريون الإنكليز ولا الفرنسيون كانوا يطمحون إلى إملاء شرطٍ بحلّ الجيش الألماني، ضمن شروط وقف النار. فلماذا؟ كان كليمنصو ولويد جورج، كما أسلفنا في فصل سابق، يخشون لينين

وبلاشفته أكثر من خشيتهم الروح العسكرية الألمانية. ومن سياستهم الآن، استخدام هذه الروح ضد روسيا. ولهذا كان ما طالب به جنرالات الحلفاء من الألمان أن يتخلوا عن قدر كبير من أعتدتهم العسكرية. أما تسريح الجيش، فكانوا يخبئونه لهدف آخر.

حلفاء ألمانيا

كانت الدولة العثمانية قد أعلنت استسلامها ووقعت وثيقة بذلك مع أدميرال بريطاني في ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) فاستاء من ذلك كليمنصو، الذي ودّ لو أن جنرالاً فرنسياً شارك في حضور التوقيع. ومن بعد ذلك مخر الأسطول البريطاني في الدردنيل حتى القسطنطينية. وتمّ وضع المدينة تحت إدارة الحلفاء. وبهذا غدا يمكن للحلفاء أن يسيروا في نهر الدانوب فيتقدموا إلى جنوب ألمانيا. كما غدا في مقدورهم أن يباشروا حرب التدخّل ضد البلاشفة ونظامهم في روسيا.

وفي نفس الوقت تقريباً انهار آل هابسبورغ من فيينا، وفي ظروف خاصة لا بأس من إيرادها. ففي أوائل سنة ١٩١٨، انتصر الجيش النمساوي الخائر القُوى على



ولسون، و[illegible] ولويد جورج، وأورلاندو
في ابتسا[illegible] يحاولون خداع بعضهم بعضاً!!



انتصار الهزيمة.. سنة ١٩١٨
مازاريك يعود إلى براغ رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا

جيش إيطالي كان أكثر منه خوراً. ثم انحلّت معنوية الجيشين. وبقيت الامبراطورية لمجرد أن أحداً لم يحاول إسقاطها. وفي هذه الأثناء اتصلت لجنة امبراطورية بالرئيس ولسون عارضة عقد الهدنة، إلا أن جواب هذا كان: «إن الشعوب الخاضعة للامبراطورية هي صاحبة الحق في المفاوضة بشأن شروط الصلح». وكان هذا دفعاً للقوميات الداخلة في الامبراطورية أن تثور. وكان أولها بولندا وتشيكوسلوفاكيا. والواقع أن ثورات هذه الشعوب كانت سلمية. ففي براغ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا اليوم، مثلاً لم يحتج قلب نظام الحكم إلا إلى ١٠ دقائق من الحديث. لقد اتصل حاكم المدينة تليفونياً بـ «لجنة تشيكوسلوفاكيا الحرة» وطلب إلى من كلّمه الحضور لتسلّم السلطة. وهذا ما تم فعلاً. ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى كان مازاريك يسير في شوارع براغ مستعرضاً جنود «جمهورية تشيكوسلوفاكيا».

ومثل هذا حصل في «زغرب» إذ أعلن الكرواتيون استقلالهم بين عشية وضحاها. ومن هذا القبيل أن أفاق الصرب من نومهم ليجدوا أن لهم مملكة منفصلة عن آل هابسبورغ، وعلى رأسها الملك بطرس.

وهذا ما جرى في هنغاريا، إذ أعلنت نفسها جمهورية منفصلة عن الامبراطورية في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر)، وطردت ملكها السابق.

وحتى في فيينا نفسها، أعلن النمساويون خلع الامبراطور شارلز يوم ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، وانضموا إلى جمهورية ألمانيا التي غدت قبل ذلك خاضعة لحكم «الديمقراطيين الاشتراكيين».

وأكثر من هذا أن أكثر هذه الدويلات الجديدة، أعلنت جميعها الحرب على ألمانيا قبل نهاية الحرب بيوم واحد، أو بضعة أيام، فاعتبرت من جملة الدول المتحالفة، وشاركت في مؤتمرات ما بعد الحرب. وقد شذ عن ذلك هنغاريا والنمسا نفسها.

نهاية الحرب مع النمسا

في ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) استجمع الإيطاليون حماستهم ولملموها، ثم هاجموا جيش آل هابسبورغ الواهي. وبعد ذلك بـ ٤ أيام استدعت الجمهورية الهنغارية الجديدة جميع الأفراد العاملين في جيش النمسا من مواطنيها، فولى هؤلاء نحو وطنهم الجديد. لقد انهارت الامبراطورية فهل يبقى جيش لامبراطورية منهارة؟!

وفي ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وقعت القيادة العامة النمساوية ـ الهنغارية شروط وقف القتال. وكان مفعول الاتفاقية يغدو نافذاً بعد ٢٤ ساعة من توقيعها. وخلال هذه الـ ٢٤ ساعة لم يعد هنالك شيء اسمه جيش الامبراطورية.. لقد تبخر.

وعند ذلك تقدم الايطاليون بشجاعة، واسروا ٣٠٠,٠٠٠ رجل من أعزل من السلاح، ويرفض أن يقاوم. وهذا هو المجد الظافر الذي يعقد الجنرالات الإيطاليون اكليله فوق رؤوسهم حين يذكرون في كتبهم الحربية اسم موقعة «فتوريو فنيتو»!!

أما الأسطول النمساوي، وكان في قاعدته «بولا» فقد احتقر الإيطاليين. ولهذا سلّم الأدميرالات قطعهم إلى «مجلس اليوغسلاف الوطني»، مدفوعين بوطنيتهم، وخشية أن «يدنّسه الإيطاليون»، كما قال قائد الغواصات في ذلك الأسطول.

نهاية الحرب

قلنا ان لدندورف كان قد أضمر انقاذ وجه القيادة العامة بأن يضحي بغليوم. لكن غليوم كان أسبق إلى العمل. ففي ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر) تناسى القيصر أنه غدا الآن ملكاً دستورياً لا يحق له التصرف، وتولى القيادة. وعلى مسؤوليته الخاصة أصدر أمراً بإقالة لدندورف من منصبه، كما أوعز بضرورة الاستعداد لمتابعة الحرب. لكن الأمر كان قد تغير الآن. فالحلفاء مستعدون للزحف على ألمانيا نفسها من الشرق والجنوب والغرب.

ولربما أن أدميرالات الأسطول الألماني الذين ساءهم وقفُ نشاط غواصاتهم، هم الذين حرّضوا القيصر، لكن هؤلاء كانوا مخدوعين عن حقيقة الموقف. فحين أصدروا أوامرهم إلى البحارة، الذين ظلوا على غير اتصال بالبحر طوال العامين الأخيرين، ثار هؤلاء البحارة، ورفضوا الانصياع. بل إنهم احتلوا مدينة كييل في شمال ألمانيا يوم ٣ تشرين الثاني (نوفمبر)، وهددوا بالزحف إلى المدن الأخرى.

والثورة كالنار، فسرعان ما اندلعت في مختلف أرجاء ألمانيا. فلما رأى ذلك المستشار ماكس، آثر إنقاذ ألمانيا من الثورة، مهما كان الثمن، حتى ولو كان القبول



ضحايا الحرب
أطفال ألمان جائعون

بأية شروط يفرضها الحلفاء لإنهاء الحرب وقد عارض القيصر في ذلك، فأفهمته القيادة العامة أن الجنود الألمان مستعدون للقتال في سبيل ألمانيا، لا في سبيل «شخص القيصر».

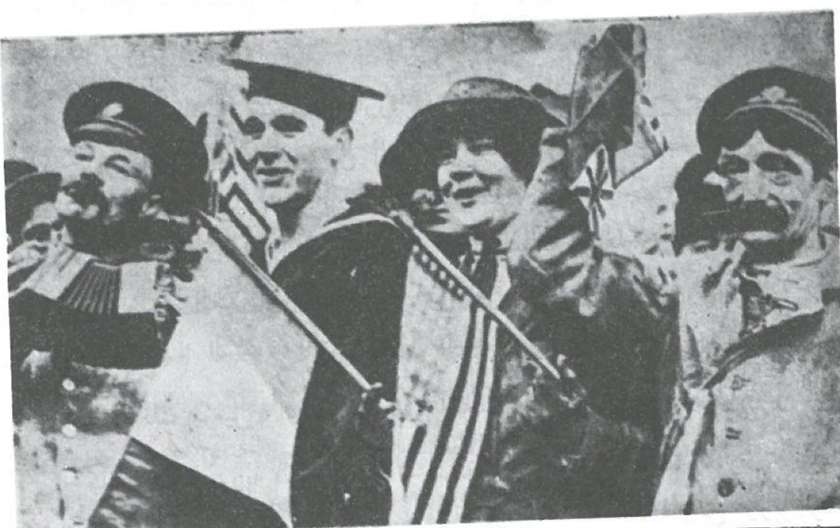
ثم اختار ماكس شخصية بارزة تمثل «الوسطَ» في الأحزاب الألمانية، وهو «ارزبرجر» وطلب إليه الشخوص إلى مقر قيادةّ فوش، وطلب الهدنة رسمياً من الحلفاء. فتم ذلك في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) حيث واجه المفاوضون الألمان، وكلهم من المدنيين - بغية ابعاد المسؤولية عن القيادة العامة، وخوفاً من بروز عقبات كثيرة إذا ما اشترك العسكريون - واجهوا فوش في عربة سكة حديد في غابة (كومبين). وهناك قرأ عليهم الشروط التي اتفق عليها ساسة الحلفاء.

وبعد ذلك بيومين، أي في ٩ منه، أعلنت الجمهورية في ألمانيا وطرد القيصر.

وكانت الجمهورية الجديدة الآن منشغلة في تخفيف حدة الثورة، فأبرقت إلى ارزبرجر بالتوقيع على الشروط دون مناقشة. ومع هذا، فقد فاوض أرزبرجر، حتى



المارشال فوش
إنه يوقع وثيقة الهدنة بجانب النافذة





يوم نهاية الحرب في باريس

كسب من فوش حق إبقاء أسلحة «الماشين - غان» الألمانية مع أصحابها، «لمقاومة العدو الداخلي - البلشفية»، كما قال.

وفي الخامسة صباحاً من يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ أُعلن انتهاء الحرب العالمية الأولى رسمياً بعد توقيع استسلام ألمانيا. وكانت آخر كلمة قالها أرزبرجر للجنرال فوش: «ان أمة تعدادها ٧٠ مليوناً قد تعاني الألم، لكنها لا تموت». وعلى هذا التحدي أجاب فوش Très bien.

وكان يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) هو يوم الفرحة العظمى في لندن وباريس، ولكنه يوم شعور الجيش الألماني بأنه لم ينهزم وإنما طُعِنَ في ظهره، في برلين.

بعض شروط الهدنة

في يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر)، كان الجيش الألماني بكامله لا يزال يحتل أراضي أجنبية. ففي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) نفسه تمكن الكنديون من دخول منز، وقبل أن تكون الهدنة نافذة المفعول بساعة واحدة. ومع هذا فقد تضمنت وثيقة الهدنة شرطاً يقضي بتسليم جميع معدات



نهاية الحرب - العلم البريطاني يلف الغانية
لا جندي في بعد.. فيّ أن أتمتع

الجيش الألماني وتجهيزاته إلى الحلفاء. وأن يحتل الحلفاء ضفة نهر الرين وينفَذوا إلى ٥٠ ميلاً داخل الأرض الألمانية نفسها. وأن تلغى اتفاقية برست ليتوفسك مع روسيا. وكان هذا الشرط الأخير أكثر ما يطمح إليه الحلفاء.



الجيش الألماني عائداً إلى برلين
إنه لم ينهزم.. ولكنه طعن من الخلف



الأومباشي هتلر (أقصى اليسار)



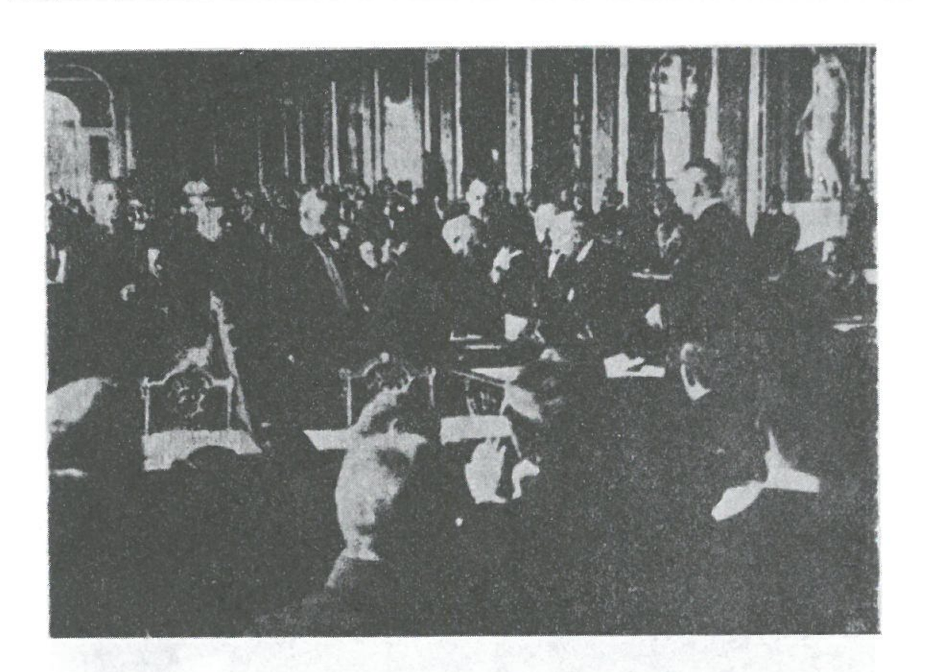
هتلر الزعيم السياسي إلى يسار هندنبرغ



غبريللي دي أنونزيو.. لقد قلده موسوليني فيما بعد



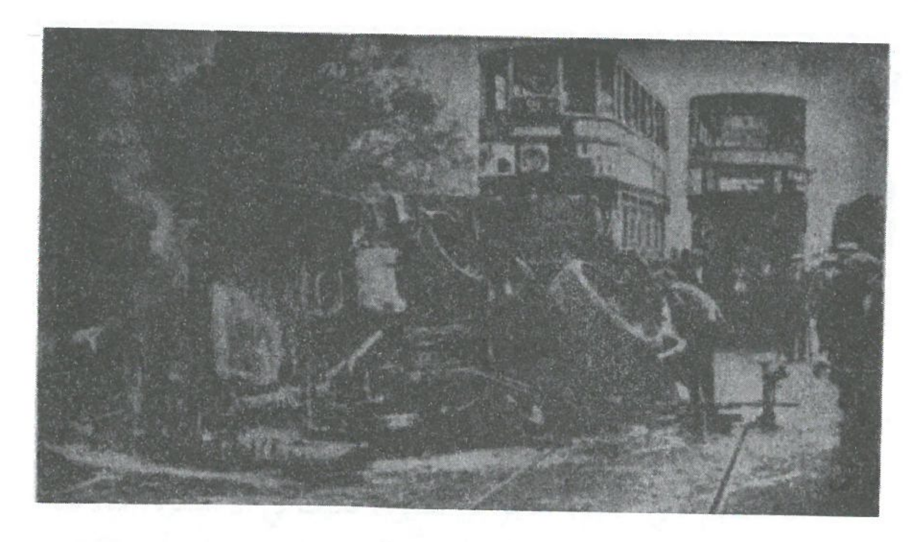
كمال أتاتورك.. يستعرض «أبناءه»
إنه يصعد سلم المجد لينقذ بلاده



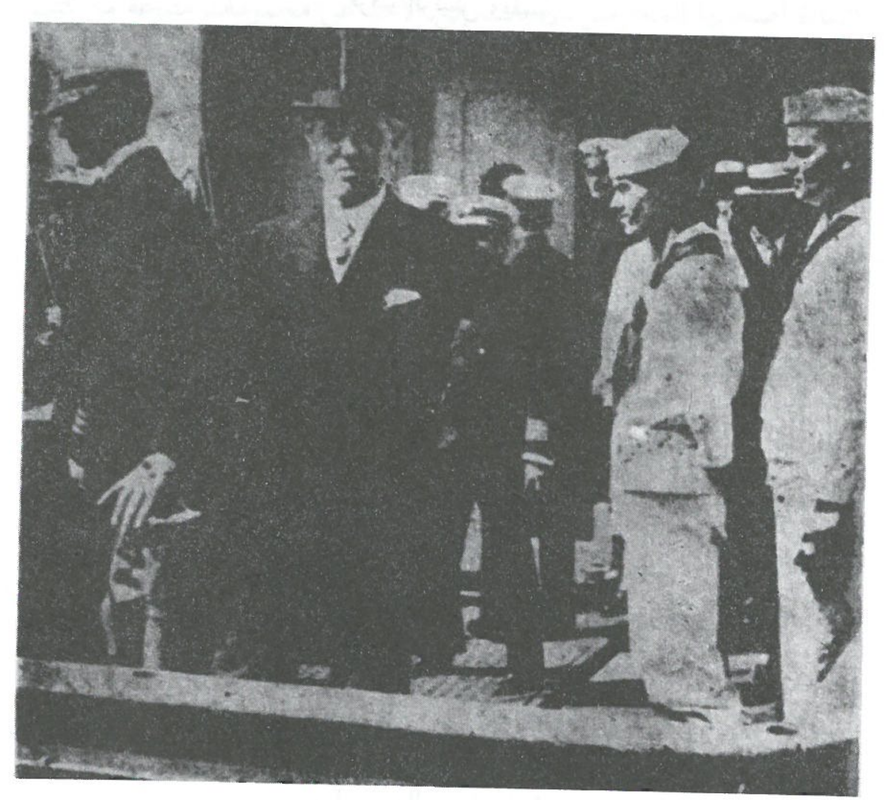
الألمان يوقعون معاهدة فرساي



التململ الاجتماعي طلباً للاشتراكية في باريس. ثم الاضطرابات العامة ١٩٢١ ـ ١٩٢٦



مخلفات اضراب في لندن سنة ١٩٢٦



الرئيس ويلسن. كان مثالياً لا يعرف ساسة أوروبا
له ١٤ نقطة، ويبدو أنه يفكر في النقطة الخامسة عشرة!!



قرف الرئيس ويلسن
«لن أزور «ريمز» مرة ثانية»



ويلسن عالج «السياسة»
بنظرة طوباوية، ففشل

شكر وعرفان

إيماناً بأن الثقافة الإنسانية نهر يسيل رقراقاً بعد أن تتجمع روافده من الشعاب والمسايل العديدة المتنوعة، أراني قد أصيب حين أقول: إن مساهمتي في إعداد هذا التحقيق ليست تفضُل أياً من مساهمات الكثيرين الذين أرّخوا للفترة الحرجة ذاتها من قبلُ. ذلك أن فضلهم عليّ عظيم، اعجز عن تقديره، فكيف لي أن أشكره. فبالاضافة إلى أسماء المصادر التي استقيت منها ما أشرتُ إليه في حينه، بين دفّتي الكتاب، وإلى السادة أصحابها المحترمين ـ عمدت إلى الأخذ عن مجموعات متنوعة من كتب التاريخ، والتعليق عليها، والمجلات العربية والإنكليزية التي أصدرت مجموعات خاصة بالحرب العالمية، سواء كانت تلك المجموعات مصوّرة أو غير مصوّرة. ولما كانت هذه كثيرة جداً، ولما كانت قد قدّمت لي عدداً ضخماً من الصور، انتقيت من كل منها القليل، فإني أودّ أن أشملها جميعاً، ومحرريها، ومصدريها بالشكر والعرفان.. ولهذا ألخص الأمر فأقول:

«إنني مدين لكل من كتب عن الحرب
العالمية الأولى بالعربية أو الإنكليزية..»
راجياً أن يتقبل جميع هؤلاء السادة
امتناني لهم واعترافي بفضلهم..

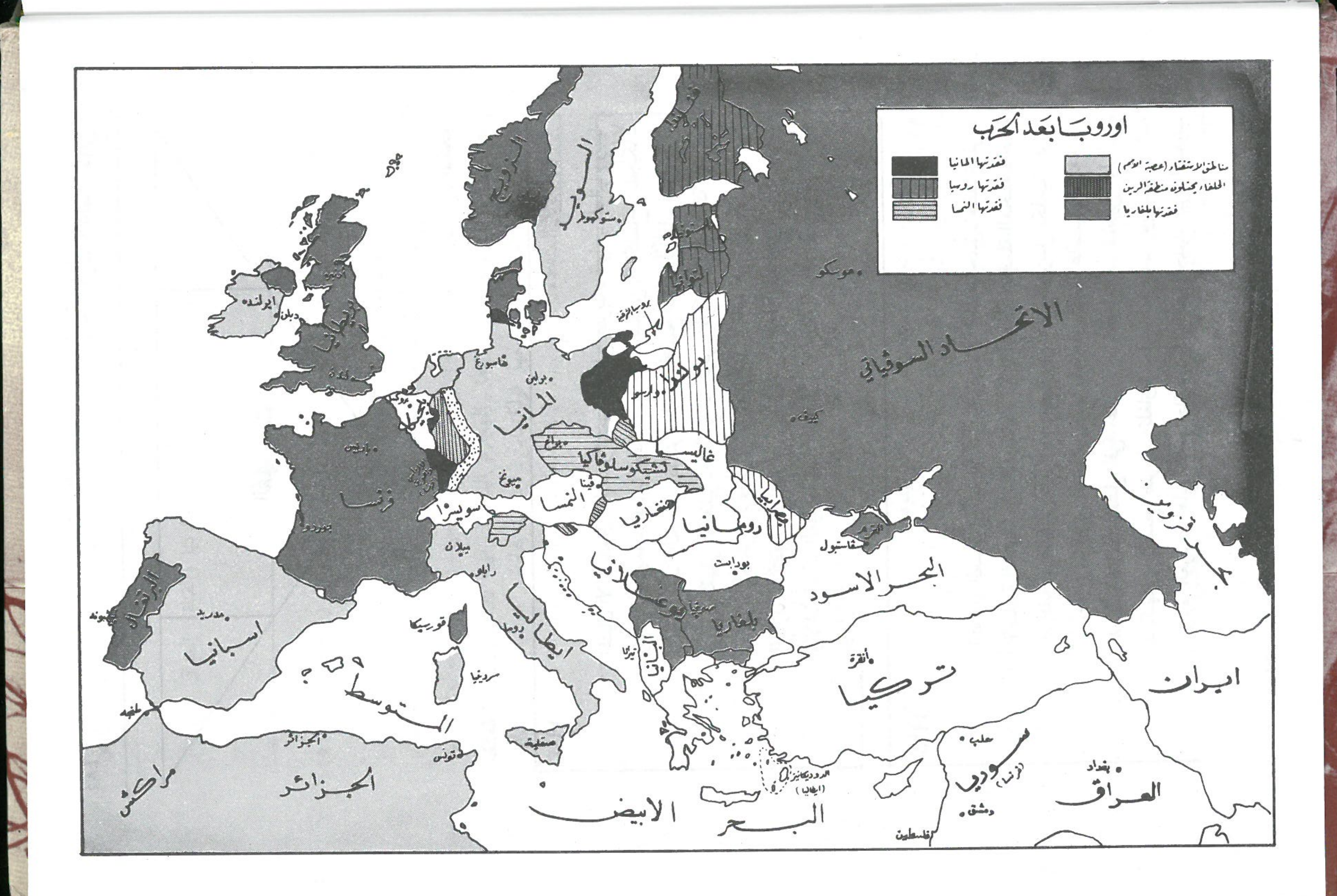
عمر الديراوي
(أبو حجلة)

أوروبا في ١٩١٤

الدول المتحالفة
المانيا وحليفاتها
الدول الحيادية

روسيا
المانيا
الامبراطورية
العثمانية
الدولة
بلاد فارس
البحر الاسود
البحر الابيض المتوسط
اسبانيا
بريطانيا العظمى

أوروبا عشية إعلان الحرب الكبرى لاحظ انقسامها إلى معسكرين



الفهرست